تراثنا

المجلد الأول

من

لطائف الإشارات

تفسير صوفي كامل للقرآن الكريم

للإمام القشيري

قدم له وحققه وعلق عليه

الدكتور ابراهيم بسيوني

صدّر له

الأستاذ حسن عباس زكي

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

بالقاهرة

al-Qushayrī

"Laṭāʾif"



بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف بالكتاب وصاحبه ومحققه

بقلم : الأستاذ حسن عباس زكى

وزير الاقتصاد والتجارة الخارجية

نحمدك اللهم فاتح كنوز الغيب للصفوة من عبادك ، مانح فيض علمك للخلاصة من خلقك ، فاستودعت قلوبهم خفى سرك ، وأشهدت أرواحهم حقيقة أمرك ، فكانوا أعرفَ عبادك بمضمرات إشاراتك ، وأفهمهم لمعانى كلامك ، فإن نطقوا فهم تراجمة لوحيك ، وأن عبروا فهم ألسنتك تخبر بمرادك ، وإن فاهوا فإنما يفصحون عن بديع حكمك . أعززتهم بما توجتهم من العلم والعرفان فعزوا على الناس بما خصوا به من أسرار معجم القرآن وحلهم لطلاسم ورموز الفرقان .

ولما لم يسعف العقل بعض الناس بفهم تلك الإشارات ، ولم يحظوا بإدراك تلك المذاقات أنكروا مقالهم ، وجحدوا حالهم ، وغاب عنهم اختصاصهم ، وفاتهم أن الحق هو المتكلم فيهم ، وأنهم مشيرون به ، أو هو المشير بهم : « فاذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بها ، وإن سألنى أعطيته ولئن استعاذنى لأعيذنه » ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب .

ونصلى ونسلم عليك يا عين الحقائق ، ويا قرآن جمع العلم والمعلوم ويا فرقان الشرائع والعلوم ، أنزل عليك ربك كتابا فى عالم الظهور أنت سره وحقيقته فكنت تعاجل جبريل به قبل النزول ، كتابا منه آيات محكمات هن أم الكتاب يفهمها الخصوص والعموم وأخر متشابهات يختص بفهمها أولو العلم الراسخون . صلى الله عليك وعلى آلك وأحبابك مشارق شموس العرفان ، ومطالع كواكب الحقائق المتبرئون من الأوهام والظنون المقول فيهم : « أصحابى كالنجوم » ما كرّت الأيام ومرت الدهور والسنون .

(أما بعد) فان القرآن كلام الله ، وكلام الله صفته النفسية والصفة تدل دلالة واضحة على الموصوف ، وكما أن الموصوف وهو الحق سبحانه لا تدرك حقيقته فكذلك صفته . . لهذا وقفنا

أمام كلام الله حائرين لا نجزم بتحديد مراميه ، ولا نقطع بأن ذلك التفسير عين مراد الحق منه ، لأن كلام الله القديم إنما يفسره المفسرون بلغتنا العربية المحدثة بناء على مدركات عقولهم البشرية .

واللغة العربية من صنع المخلوق ، وكلام المخلوق محدود لأنه يعبر عن محدود ، ومحال أن يحيط بالتعبير صنع المخلوق المحدود عن كلام الله وصفته التى لا تحدها الحدود .

وإذا كان أساطين اللغة والأدب يرون أن اللغة العربية على كثرة مترادفاتها ، وضخامة معاجمها ، وغزارة ماتحتويه من ألفاظ ، واحتشاد تراثها بالمجازات والكتابات عاجزة عن التعبير عن مشاعر الإنسان وأحاسيس البشر فانها — والقياس غير جائز — لعن تحديد المراد من كلام الله وقرآنه أعيي وأعجز .

ومن هنا كان القرآن حمالا لوجوه عدة من المعانى ، وكان أمرا طبيعيا ما يتجدد فيه كل يوم من فهوم ، وستظل تلك المعانى تتجدد إلى ما شاء الله ، وسيبقى القرآن معها كما هو لا تبلى جدته ولا يكشف عن حقيقة مراده .

وليس غريبا بعد ذلك أن يذهب المسلمون مذاهب شتى فى تأويله ، فالمفسرون من علماء الشريعة يقفون عند ظاهر اللفظ وما دل عليه الكلام من الأمر والنهى والقصص والأخبار والتوحيد وغير ذلك .

وأهل التحقيق أو الصوفية يقرون تفسيرهم هذا ويرونه الأصل الذى نزل فيه القرآن . ولكن لهم فى كلام الله مع الأخذ بهذا التفسير الظاهرى مذاقات لا يمكنهم إغفالها لأنها بمثابة واردات أو هواتف من الحق لهم .

فلا ينبغى أن نقف القرآن على تفسير معين على أنه المراد ، فلا نقول كما يقول البعض إن التفسير الظاهرى وحده هو المقصود كما لا يرى أهل التحقيق أن تفسيرهم وحده هو المراد ، لأن القول بالتفسير الظاهرى وحسب تحديد (لكلام الله) غير المحدود ، وإخضاع القرآن للغة التى مقياسها العقل المحدود ، والوقوف فى تفسير كلام الله عند العقل المحدود عقال عن الانطلاق فيما وراء الغيوب ، وإغلاق الباب لمذاقات ليس العقل مجالها لأنها لا تخضع لمقاييسه وإنما تخضع لشيء آخر فوقه وتدرك بلطيفة أخرى سواه .

إذن فهناك ما فوق العقل ألا وهو القلب .

وليس المقصود بالقلب قطعة اللحم الصنوبرية ، وإنما المراد به تلك اللطيفة النورانية الربانية .

إنه القلب الذى لا تحده الحدود لأنه عرش استواء تجليات الرب على مملكة الجسم . قال رب العزة فى حديثه القدسى (ما وسعنى سمائى ولا أرضى ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن) وهو القلب الذى اختصه الله بالأسرار والذى يجب أن يستفتيه الإنسان إذا حار ، سأل وابصة

ابن معبد رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البر والإثم فقال « يا وابصة استفت قلبك . البر ما اطمأنت إليه النفس ، واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك فى القلب وتردد فى الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك » .

ذلك هو القلب المراد وله لغته كما أن للعقل لغته .

وإذا كانت لغة العقل تدرك بالألفاظ ، ويعبر عنها بالكلمات فلغة القلب تدرك بالذوق لأنه لا يحيط بالتعبير عنها اللفظ .

ولنقرب إلى الفهم ؛ فلغة القلب مثل التفاحة . . فلن يستطيع من أكلها واحس حلاوتها أن يترجم باللفظ أو يعبر بالوصف لمن لم يأكلها قبل — عن طعمها ومذاقها .

وهكذا لا تدرك لغة القلب بوصف أو بلفظ ، وإنما يدركها ذو قلب متذوق .

ولذلك لا تحيط بالتعبير عن لغة القلب العبارة ، وإنما يعبر عنها بالإشارة .

فالإشارة ترجمان لما يقع فى القلوب من تجليات ومشاهدات ، وتلويح لما يفيض به الله على صفوته وأحبابه من أسرار فى كلام الله وكلام رسوله .

ومن هنا كانت مذاقات الصوفية وأهل التحقيق فى قرآن الله الكريم وكلامه القديم . . . وهم لا يرون أن تلك المذاقات وحدها هى المرادة ، وإنما يأخذونها إشارات من الله لهم بعد إقرار ماقاله أهل الظاهر من تفسير باعتباره أصل التشريع .

وجلى بعد ذلك أنه لا مجال لمعترض ممن ينكر عليهم مذاقاتهم ، ويراها ميلا بكلام الله عن مجراه ما داموا لا يأخذون بمذاقاتهم وحدها وإنما يأخذون بها مع إقرارهم لتفسير أهل الشرع .

فلا يعنينا من ذى جدل أن يقول عن هذه الإشارات إنها إحالة لكلام الله عز وجل وتغيير لسياقه ومجراه ، لأن ذلك يصدق لو قالوا : إنه لا معنى للآية إلا هذا ، وهم لا يقولون ذلك بل يقرون الظواهر على ظواهرها ويفهمون عن الله ما أفهمهم .

وذلك مصداق الحديث الشريف (لكل آية ظاهر وباطن وحد ومطلع) فالباطن لا يعارض الظاهر ، والظاهر لا يعارض الباطن . وذلك النهج بعيد كل البعد عما نادى به (الباطنية) من الأخذ بباطن القرآن لا ظاهره ، وقصرهم معانى القرآن على ما ادعوه من تفسيراتهم دون غيره ، لأنهم بذلك لا يقرون الشريعة ويبطلون العمل بها . وهم لا يخضعون دعواهم للنص القرآنى بل يخضعون النص القرآنى لدعواهم .

وهنا يزول ما التبس على البعض من أن مذاقات الصوفية فى القرآن الكريم نزعة باطنية فبينهم وبينها آماد وأبعاد ، بل إنهم لبريئون منها ، ولينكرونها كل الإنكار ، وواضح ذلك من

انهم يأخذون بالباطن بعد الأخذ بالظاهر ، ويقرون الحقيقة بعد الأخذ بالشريعة . ويرون أن الحقيقة نفسها أساسها الشريعة ، فالفرق ثمة كبير ، والبون شاسع وعظيم .

ولا مجال بعد هذا الإيضاح لإنكار من ينكر على الصوفية مذهبهم فى الإشارات وما يختصهم الله به فى كلامه وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم من الأسرار والفيوضات .

على أن تلك الإشارات أمر مشروع أقره الحديث المذكور آنفاً (لكل آية ظاهر وباطن وحد ومطلع) . فأربابها متبعون لا مبتدعون اختصهم الله بأسراره فى آياته ليكونوا مصابيح الهدى فى غسق الدجى كما أقره عمد الدين ، وذوو العلم من المؤلفين :

قال سعد الدين فى شرح العقائد النسفية « وأما مايذهب إليه بعض المحققين من أن — النصوص على ظواهرها ومع ذلك فهى إشارات خفية إلى حقائق تنكشف لأرباب السلوك يمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة فهو من كمال الإيمان ومحض العرفان » وقال الشيخ زروق رضى الله تعالى عنه « نَظَرُ الصوفى أخص من نظر المفسر وصاحب فقه الحديث ، لأن كلا منهما يعتبر الحكم والمعنى ليس إلا وهو يزيد بطلب الإشارة بعد إثبات ما أثبتناه .

فاذا دار المفسرون فى حدود اللفظ القرآنى ، واستنبط منه الفقهاء ما استنبطوا من أحكام فلأولى الألباب وذوى البصائر فيه بعد ذلك من الأسرار والحقائق مالا ينكشف لسواهم ولا يدركه غيرهم . وذلك لتجدد واردات الحق عليهم ، ودوام تنزل الفيوضات على قلوبهم لأنهم أهله ومحبوه .

ثم إن فيض الله المتجدد فى كلامه لهم لمما يزيد فى كمال إعجاز القرآن ويؤكد أن إعجازه أسمى من أن يكون فى فصاحة لفظه وقوة أسره وبلاغة أسلوبه وإنما إعجازه فوق ذلك فى أسراره ومعانيه ومراده ومراميه. وأهل الله أولى الناس بتفهم مراده ومعرفة مرامى كلامه ومن ثم كان ماينكشف لهم فى كلام الله من أسرار بمثابة إشارات لهم — وحدهم ، لأن الإشارة لغة المحب مع المحبوب ، والإشارة بعد ذلك تلويح للمراد لا إفصاح عنه لعدم قدرة الألفاظ على تحمل المراد ؟ لأن العبارة تحدد مايشيرون إليه ، وما يشيرون إليه إنما يكون عن مشاهدة . وما يشاهدونه ليس بمحدود إذ هو من عالم الغيوب ، فلا اللفظ قادر على تحديد المراد ، ولا قابليات العقول تطيق ذلك . ومن ثمَّ سميت مذاقاتهم فى القرآن إشارات ولم تسم تفسيرا .

وقد تحلى القرآن الكريم بمثل تلك الإشارات من رموز الحواميم وألم وطسم الخ ، وهى إشارات بين الحق ورسوله أو «شفرات» — بالتعبير الحديث — بين المحبوب وحبيبه ولا يعرف حلها إلا من لديه مفتاحها . ومفتاح تلك «الشفرات» وفهم تلك الإشارات فى حوزة من لديه الفهم لمراد المشير ، وهم بعد الرسول عليه السلام ورثته من العلماء بالله وأوليائه. نقل عن الصالحين أن الله تعالى لما أنزل على سيد العالمين صلى الله عليه وسلم قوله تعالى (كهيعص) قال جبريل عليه السلام :

(ك) قال النبي — اللهم صلى عليه — : عرفت . قال جبريل عليه السلام : (هـ) قال : — اللهم صلى عليه وآله — عرفت ، قال جبريل (ى) قال : عرفت ، قال جبريل : (ع) قال عرفت ، قال جبريل (ص) قال النبي : عرفت ، قال جبريل : عرفت وأنا لم أعرفَ سبحان من أعطاك .
ومن هنا فهم أبو بكر الصديق رضى الله عنه وحده مقالة الرسول عليه الصلاة والسلام حين نظر إليه وقال (أتذكر يوم لا يوم) ؟ فقال نعم ، ولم يفهمها غيره من الصحابة الحاضرين .

ولما سئل الصديق رضى الله عنه عن ذلك قال (إنه يوم الميثاق) .

ولا عجب فيما ينكشف لأرباب الإشارات من فيوض فى قرآن الله أو حديث رسوله صلى الله عليه وسلم ، فما زال المفسرون يتجدد لهم فى كلام الله كل يوم معان لم تسبق ، لاينكرها الناس بل إليها يستريحون ، ففيم الإنكار على أرباب الإشارات وهم عن الله مشاهدون ، ولهم منازلات ومقامات فيتكلمون بما يشاهدون فى منازلاتهم وينطقون عما يرون فى مقاماتهم ؟

أجل معذور من ينكر عليهم لأنه لم يذق ماذاقوا ، فلو ذاق لعرف وينبغى ألا يغيب عنه أن تلك الإشارات بمثابة اصطلاح يفهمه أهل التحقيق ولا يجدر أن يعارضهم فى اصطلاحهم اصطلاح جماعة اخرى ما دام لكل اصطلاحه .

فالحق أن كلام الله نور يرسل إلى القلوب وهى أوعية يتلون ذلك النور بلونها . . . وكل يرسل بتفسيره شعاعا حسب استعداده وقابليته وما استودع فيه .

على أن أهل التحقيق لايدعون أنه محال على غيرهم مايفاض به عليهم ، ولكنهم يعتقدون أن كل إنسان لديه الاستعداد لما عندهم غير أنهم فتحوا عيون قلوبهم ، فاطلعوا على ما اطلعوا من أسرار ، وغيرهم فتحوا نوافذ تفكيرهم فوقعوا فى الحيرة والوهم ، وقاسوا بعقولهم مذاقات تلك القلوب فأنكروها ، ولو أنهم فتحوا عيون قلوبهم كأهل الله لكان أمراً عادياً مااستغربوه بل لاعتقدوا اعتقادا جازما ما أنكروه .

فليع كل ذى لب قدر هؤلاء الصفوة من أهل التحقيق ، وليدرك أنهم ملهمون إن نطقوا ؛ فلا ينطقون بأنفسهم وإن أشاروا فمحرك الإشارة فيهم مولاهم . وارجع إلى الصدر الأول من عصر المسلمين الزاهر تجد أن من أئمة هؤلاء الملهمين سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه والذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن من أمتى مكلمين ومحدثين وإن عمر منهم » .

ومنهم الإمام على ابن أبى طالب رضى الله عنه الذى أشار إلى صدره بعد أن تأوه مرتين ثم قال « إن هاهنا علوما جمة .. لو وجدت لها حملة !!! » .

ويروى عنه أنه قال (لو شئت لأوفرت من تفسير الفاتحة سبعين بعيرا).أولئك هم علماء الله بحق ، الذين عناهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله « إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله تعالى فإذا نطقوا به لا ينكره إلا أهل الغرة بالله عز وجل » .

ذلك نذر يسير مما عليه أهل الإشارات من مكانة ، وقدر ضئيل مما شرفهم الله به من منزلة . ونستطيع بعد ذلك أن نعرض من مميزات وخصائص علم الإشارات ما يأتى :

١ — علم الإشارات لا ينظر إلى قصص الأنبياء فى القرآن الكريم على أنها قصص انتهت بانتهاء أممهم وأن تلاوتها الآن للعظة والاعتبار فحسب ، وإنما يرون مع ذلك أن الخطاب بها مازال قائماً يوجه إلى الإنسان فى كل عصر وأوان باعتباره مملكة الله الصغرى التى انطوى فيها العالم كله فمثلا يرمزون لموسى بالقلب أو الروح وإلى فرعون بالنفس .

وبذلك يكون القرآن فى حالة تجدد نزول لم ينته الخطاب بانتهاء زمانه باعتباره كلام الله وصفته القائمة بذاته ، وتظل بذلك صفة الكلام قائمة غير معطلة لم تنته بنزول الكتب السماوية فما زال الحق سبحانه متكلما أبدا .

٢ — علم الإشارات يكشف عن صدق أهله مع ربهم وأمانتهم عند الحديث عن كلامه فكل ما قاله القرآن وما تناولته ألفاظه من أداء هو فى مذهبهم حقيقة لا يعرفون مجازا ولا يلجئون إلى كناية لأنهم بما شاهدوا وذاقوا يدركون هذه الحقائق . ولما كانت تلك مواجيد وأذواق لا يمكن نقلها إلى الخير بعبارة رمزوا لها وأشاروا ، ومن هنا أنكر عليهم من أنكر ، أمَّا من شاهد مثلهم فقد عرف ما عرفوا ، بل ربما تجدد له من ذلك مشهد أو حقيقة أو مذاق .

وهكذا نرى أن أهل الله أمناء على كلامه، دفعتهم غيرتهم على محبوبهم، وعظيم احترامهم لجنابه، وإكبارهم لكلامه ألا يميلوا عن منطوق ألفاظه إلى مجاز أو كناية خشية البعد عن مراده . ولِمَ اللجوء إلى المجاز مادام للحقيقة عندهم مخلص ؟ فهم لا يرون فى قوله سبحانه (واسأل القرية) أن السؤال لأهلها فحسب بتقدير مضاف كما قيل أى واسأل أهل القرية ، وإنما السؤال للقرية بكل ما فيها ومن فيها ما داموا يشاهدون تسبيح الجماد ونطق الحيوان . واقرأ إن شئت قوله تعالى (وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم) وقوله (يا جبال أوبى معه والطير) وقوله فى حق السماء والأرض (قالتا أتينا طائعين) فما بكت عليهم السماء والأرض إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث . وعلى ذلك فلا يكون سؤال القرية قاصرا على أهلها لأنه سؤال لما فيها ومن فيها .

والمخاطب بذلك لو كانت لديه الخصوصية لخاطب القرية بكل ما تحتويه من كائنات .

وثمة مثال ثان: فهم لا يعترفون بأن كلمة فى القرآن وضعت مكان كلمة أخرى أو بمعناها ،ففى قوله

جل شأنه (وهو الذى يقبل التوبة عن عباده) لا يرون أن (عن) بمعنى من تمشيا مع إنابة حروف الجر بعضها عن بعض وإنما ينظرون إلى منطوق اللفظ نفسه وهو (عن) فى اللغة تفيد معنى المجاوزة ويكون المراد — والله أعلم — أن الحق يقبل التوبة متجاوزا عن عباده فى توبتهم لعدم خلوصها رحمة منه بهم ، وذلك المعنى لا شك أبلغ وأفصح .

على أن فى مذهب أهل الإشارات حلا لكل العقد وحسما للخلافات وزوالا للشبه والريب من مسائل الكسب والاكتساب والجبر والاختيار والنعيم والعذاب للجسم أو للروح الخ . . .

كل هذا وغيره من خلافات أهل علم الكلام والعقائد لا ظل له عندهم لأنهم أطلعوا على سر الله فى أقضيته ومقدراته وتحققوا بذلك فاستراحوا وملأت قلوبهم السكينة وأفئدتهم الطمأنينة فاستشعروا فى حياتهم من السعادة مالم يذقه غيرهم . ذلك لأنهم فتحوا عيون قلوبهم ولم يقيسوا بعقولهم ، لأن العقل مجاله محدود لا يكشف مهما كانت قدرته عما وراء الغيوب وإلا فيم يعلل العقل رؤية نبينا لموسى عليهما الصلاة والسلام مرتين فى قصة الإسراء والمعراج مرة ببيت المقدس وهو يصلى وراءه وأخرى فى السماء وهو يراجعه فى أمر الصلاة مع أن موسى لم يترك قبره ولم يفارق مثواه . والعقل يحار أيضا أمام حديث سجود الشمس تحت العرش كل يوم وأنها لا تطلع حتى يؤذن لها بالطلوع مع أنها لا تغيب عن الكون لحظة . وشبه ذلك كثير من الأمثلة .

هذا وفى سوق الواقعة الآتية مايجعلك تلمس أن أهل التحقيق هم الذين يفهمون عن الله ورسوله مالا يفهمه غيرهم وأن من رحمة الله بعباده أن يكونوا بينهم ، وإليك الواقعة .

اشتكى رجل مرضاً حار فيه نطس الأطباء فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يرشده إلى أن يأخذ من ثمرة شجرة (لاولا) ويستعملها ففيها شفاؤه .

وحار الرجل فى تفسير رؤياه ، وحار معه فى حل رمزها علماء العصر حتى شاء الله له الخير فالتقى برجل من أهل التحقيق فأجابه على الفور أمرك يسير . علاجك فى شجرة الزيتون فهى التى يقول الله فيها (لا شرقية ولا غربية) .

تلك أيها القارئ ومضة خاطفة من قبس أنوار أهل التحقيق ومكانتهم عند ربهم وجولة سريعة فى علم الإشارات ومذهب أهله عرضناها عليك . ألممنا بها إليك كتمهيد للسفر الجليل والكنز الثمين الذى نحن بصدد الحديث عنه والذى ظل طىّ الكتمان ودفين النسيان حتى قيض الله له باحثا أمينا أخرجه إلى النور وهيأه للنشر والظهور .

والآن وقد شرفنى الدكتور (إبراهيم بسيونى) بكلمة الاستفتاح لذلك الكتاب العظيم يسعدنى أن أقدم للمسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها عامة ولذوى الألباب والبصائر خاصة ولكل باحث منصف (لطائف الإشارات فى القرآن الكريم للإمام القشيرى رضى الله عنه)

نموذجا من نماذج فيوضات أهل التحقيق ، ومذاقات من مذاقات أولى الإشارات وأرباب السلوك وأصحاب الطريق . ولى فى هذا التقديم وقفتان .

الأولى مع الكتاب ومؤلفه .

والثانية مع باحثه ومحققه .

اما الأولى فالكتاب فريد فى بابه إذ أنه أول تفسير صوفى كامل للقرآن الكريم كله يُعَدُّ للظهور .

وهو فريد فى بابه من حيث أنه أقرب إلى التناول فى الفهم من كثير من التفاسير الصوفية الأخرى المفترى عليها لسمو مذاقاتها .

وبهذا يعد تفسير القشيرى لسهولة مأخذه عن غيره خير مناضل عن التفسير الصوفى بعامة لأنه يفتح نوافذ الفهوم على مذاقات القوم .

وفى ذلك تذكير بأن ما عزب عن الأفهام دركه من أسرار التفاسير الصوفية الأخرى الدسمة لا يمسها بالعيب والطعن لقصور العقل عن النهوض باستشراف ما اطلع عليه أهلها من أسرار .

وأولى بالإنصاف أن ترتد إلى العقل سهام العيب والطعن لقصور ؛ فكم من مذاقات تناولها بالعقل متناولوها فسخوها ، ووصلوا بأهلها إلى الحلول والإلحاد وهم بعقائدهم النقية أبعد الناس عن ذلك ، ومن الجور الفادح أن نلبسهم بذلك ثياب الملحدين ونرميهم فى يسر بالكفر أو الانحراف عن سواء السبيل .

ومن مميزات ذلك التفسير أنه يكشف عن مشارب القوم ونهج الصوفية فى استمدادهم من الحق تعالى فى كل ما يأتون من مواجيد فهو يدلل خلال قراءته - فى وعى - على أن كل صغيرة وكبيرة من مفاهيم الصوفية لها أصل من القرآن أو سند من السنة لأن قلوبهم مرايا صافية يسطع عليها نور الحق ، ومحال أن تعكس مالا يرضى الحق فليس الصوفية فى الواقع إلا روافد تستقى من ينبوع الشريعة ومعينها الطيب ؛ غاية الأمر أنهم مُلْهَمُون بتجلى الله عليهم فى كلامه بالجديد من أسرار وتجليات الله لا تتناهى . ووَقَفَ غيرُهم عند المسطور المتوارث فداروا فى نطاقه ولم يتجاوزوا حدوده .

ومن مميزات ذلك التفسير أيضا أنه تطبيق لمذهب أهل الإشارات فى أنهم أمناء على نص كلام الله ، كل لفظة لها أداؤها ، وكل كلمة فى موقع لها مدلول يختلف عن مدلولها فى موقف آخر . فهم لا يعترفون بالتكرار دون حكمة جلية . فالبسملة عند القشيرى آية من كل سورة ، ومع تكرارها فى القرآن أربع عشرة ومائة مرة فلها مع كل سورة إشارة تتفق مع السياق العام

لمضمون ما تحتويه السورة كلها . وهى لاشك تفيد معنى جديدا فى كل سورة يختلف عما عداها فى بقية السور . وحتى فواتح السور وطلاسم القرآن . فمثلا آلم البقرة تشير إلى غير ماتشير إليه آلم آل عمران وهكذا .

هذه نبذة عاجلة عن الكتاب و بعض مميزاته . أما مؤلفه الإمام القشيرى فهو علم من أعلام الصوفية تغنى شهرته عن الإطالة فى التعريف به .

على أن مقدمة محقق التفسير تناولت من التأريخ له مافيه الغنية عن البيان . فقد أبرز من استعداده الفطرى وحافظته الواعية وذكائه النادر ما كان سبيلا إلى أن يحصل من دراسة الأدب والعلوم العقلية والنقلية دينية وغير دينية ما جعله كنزا للعلوم والآداب عدا موهبة سخية فى نظم الشعر وتذوق الأسلوب العربى وعقيدة نقية فى تمسكه بمذهب أهل السنة لم يشبها ماخاض فيه من علم الكلام وخلافات أهله .

كل ذلك عند محقق التفسير كان مؤهلا له أن يدرس الأسلوب القرآنى ويستخرج منه ما يستخرج من إشاراته .

والحق أن تلك الإشارات ليست وليدة دراسة العقول وإنما هى وليدة الإلهامات بعد فتح عيون القلوب . وفيما سبق من توضيح ذلك مايغنى عن تكرار التبيان . وإلا فلم كان الفرق كبيرا بين كتابين فى التفسير مؤلفهما واحد هو الإمام القشيرى ؟

أولهما : تفسيره الكبير المعروف (بالتيسير فى التفسير) الذى ألفه قبل عام ٤١٠ ﻫ .

وثانيهما : (لطائف الإشارات) الذى أفيض به عليه وتم إعداده عام ٤٣٤ ﻫ .

ماذاك إلا لأن أولهما كان نتاج الدراسة العقلية واللغوية والاعتماد على المتوارث المنقول — وثانيهما ثمرة الفيوضات الربانية والإلهامات الإلهية .

لذلك كان تأليف أولها قبل صلته بشيخه الدقاق حين كان مشغولا بالدراسه العقلية ، وثانيهما بعد صلته به واستمداده من فيضه حتى صار من أهل التحقيق .

فإن كان لإمامنا القشيرى ماسبق من شهرة علمية ودينية وأدبية ولغوية وعقيدية فذلك سمة من السمات الدالة على أن رجال الله يعدهم قبل أن يختارهم لحضرته ، ليعزهم بعزته ، ويكونوا خلفاءه بحق فى أرضه يخاطبون كلا حسب استعداده فتملأ هيبتهم كل فراغ ويكونون فرسان الحلبة فى كل ميدان ومجال .

على أن تلك الكنوز العلمية المكتسبة التى اشتهر بها إمامنا القشيرى ليست شرطا فيمن يختارهم الله من رجاله فمن شاءه وليا وأراده له حبيبا علمه من علمه اللدنى حتى ولو كان أميا . وسيدى عبد العزيز الدباغ صاحب الابريز المشهور ، وسيدى على الخواص شيخ الإمام الشعرانى

وغيرهما من فحول الصوفية خير مثال لذلك ، وبذلك تصدق القولة المشهورة (مااتخذ الله من ولى جاهل ولو اتخذه لعلمه) تلك هى وقفتنا الأولى مع الكتاب ومؤلفه .

أما الوقفة الثانية مع محققه فهى تتناول الثناء عليه لميزات منها .

(أ) مابذله من صادق الجهد عشر سنوات كوامل مع لطائف الإشارات وتحقيقه ومع مؤلفه وعميق دراسته له .

والكتاب ومؤلفه وإن كانا موضوع بحثه لنيل إجازتى الماجستير والدكتوراه إلا أن حسن اختياره لهما قصدا إلى إحياء التراث الإسلامى جدير بتقديره ، نمّى الله هذه الروح فى شبابنا الباحثين ليخرج إلى العالم الإسلامى من دفين كنوزه ماهو فى أمس الحاجة إلى ظهوره .

(ب) اتسامه بالوعى فى بحثه فتجده حين حقق التفسير قد قرأ وقرأ بل ووعى ماقرأ . وكان من ثمرة ذلك ماتجده فى مقدمته المسهبة من إبراز لخصائص هامة للتفسير ومؤلفه فى حسن عرض ودقة مأخذ وتوضيح لذلك بالأمثلة .

(ح) أمانته العلمية فهو لايمس لفظة من مخطوطات التفسير بتعديل أو تغيير إلا بعد مقابلتها فى أكثر من نسخة والإشارة إلى الأصل فى الهامش .

(ى) اعتداله فى حكمه وإنصافه للتصوف ولأهله . فهو حين يتمدح بأن اللطائف تشعر قارئها بأن كل صغيرة وكبيرة فى علوم الصوفية لها أصل من القرآن يخلص من ذلك إلى الحكم العادل الآتى قائلا : فأنت لاتملك إلا أن تحكم بأن الصوفية قد استمدوا أصولهم وفروعهم من كتاب الله الكريم وأن علومهم ليست غريبة ولا مستوردة كما يحلو لبعض الباحثين حين يتهمون التصوف الإسلامى بالتأثر بالتيارات الأجنبية (اليونانية — الفارسية — الهندية — المسيحية ونحوها) .

وذلك حكم نزيه قلما أنصف به الصوفية باحث ممن يحكمون فى بحوثهم العقل .

ثم يسوق فى هذا الصدد واقعة القشيرى مع شيخه الدقاق عندما عرفه فى أول أمره وأحس بالحيرة فى التوفيق بين الدرس الصوفى على شيخه ، ومدارسة العلوم العقلية الأخرى فيأمره شيخه أن يكمل حظه من العلوم العقلية أولا قبل البدء بالمسير فى دروب الإرادة . وينتهى بعد هذا إلى قوله . وفى ذلك أبلغ رد على من يتخرصون الاتهامات عن الصوفية فيقولون إنهم قوم يجانبون العقل ويحتقرون العلم ويأمرون تلامذتهم بكسر محابرهم كما يدعى ابن الجوزى غفر الله له .

ومن إنصاف المحقق أنه أبرز قيمة التفسير من الناحية الأدبية فيبدى إعجابه بأسلوبه ويراه

لونا من الأدب يشير إلى وجوب الاتجاه إلى دراسة ما للصوفية من درر المنظوم والمنثور فى معاهد الأدب ودور اللغة العربية لا أن تقتصر دراسة التصوف على أقسام الفلسفة فحسب .

تلكما وقفتان أولاهما مع الكتاب ومؤلفه وأخراهما مع باحثه ومحققه .

والآن أعدك أيها القارئ الكريم لذلك الكتاب العظيم لتدرك بنفسك نفائسه وأختم حديثى — تيامنا — بترديد الكلمة المباركة التى كانت أول خطاب من الله لرسوله عليه السلام أول بعثته فأقول لك اقرأ . . .

حسن عباس زكى

مدخـــل

ترجع أهمية نشر هذا الكتاب إلى ثلاثة عوامل رئيسية :

أولا : أنه من الناحية الموضوعية يعالج قضية هامة وهى تفسير القرآن الكريم على طريقة أرباب المجاهدات والأحوال ، وهذا منهج فى التفسير نادر فى المكتبة العربية ، فأنت تستطيع أن تجد عدداً غير قليل من التفاسير التى تتناول النص القرآنى فى ضوء اللغة العربية أو الإعراب أو البلاغة أو الفقه أو أسباب النزول أو التشريع أو القصص والأخبار أو نحو ذلك مما هو مألوف ومعروف منذ نزل القرآن ومنذ ظهرت الاتجاهات المختلفة فى دراسته ، ويمكن أن تجد عدة مصنفات لعدة شخصيات فى كل لون من هذه الألوان بحيث يغنيك واحد أو اثنان منها عمّا سواها .

فإذا بحثت عن التفسير الصوفى ألفيته — على العكس من ذلك — نادراً ، وألفيت الإنتاج فيه غير شافٍ ، فإمّا أن يكون مقتضباً « كتفسير القرآن العظيم » لسهل بن عبد الله التُّسْتَرِى (المتوفى سنة ٢٨٣ هـ) وقد طبعته السعادة فى عام ١٩٠٨ م فيما لا يزيد على مائتى صفحة ، ويستطيع القارىء أن يتصور كيف يمكن لمائتى صفحة أن تعنى بدراسة القرآن على نحو مُرْضٍ .

وإمّا أن يكون مطعوناً فيه كما هو الشأن فى « حقائق التفسير » لأبى عبد الرحمن السُّلمى (المتوفى سنة ٤١٢ هـ) الذى يقول فى وصفه — ونحن نقتطف منه هذه الفقرة لنوضّح ما قلناه آنفا عن ندرة التفسير الصوفى : « لمّا رأيت المتوسمين بعلوم الظاهر قد سبقوا فى أنواع فرائد القرآن من قراءات وتفاسير ومشكلات وأحكام وإعراب ولغة ومجمل ومفصَّل ، وناسخ ، ومنسوخ ، ولم يشتغل أحدٌ منهم بفهم الخطاب على لسان الحقيقة إلا آيات متفرقة أحْبَبْتُ أن أجمع حروفا أستحسنها من ذلك وأضمُّ أقوال مشايخ أهل الحقيقة إلى ذلك وأرتبه على السور حسب وسعى وطاقتى »[حقائق التفسير للسلمى مخطوطة ١٥٠ تفسير دار الكتب ص ٢٢١] .

وعندما ظهر حقائق التفسير ، أحدث ضجة كبرى ، فقد لقى معارضات شديدة من معاصريه وممن أتوا بعده ، فاتهمّ بالابتداع والتحريف والقرمطة والتشيع ووضع الأحاديث على الصوفية يقول ابن الصلاح : (وجدت عن الإمام الواحدى أنه قد صنّف أبو عبد الرحمن السلمى حقائق التفسير ، فإن كان قد اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر) .

وقال الذهبي فى « تذكرته » : أتى السُّلمى فى « حقائقه » بمصائب وتأويلات للباطنية نسأل الله العافية تذكرة الحفاظ ج ٣ ص ٢٤٩ .

ووصفه ابن تيمية بالكذب : (منهاج السنة ج ٤ ص ١٥٥) .

وعدّ السيوطى تفسيره ضمن التفاسير المبتدعة معللا لذلك بقوله : « . . . . وإنما أوردته فى هذا القسم لأنه غير محمود (طبقات المفسرين للسيوطى ط ليدن سنة ١٨٣٩ ص ٣١) .

أما إخوان الصفا الذين يحشرهم جولد تسيهر ضمن مفسرى الصوفية فى كتابه (مذاهب التفسير الإسلامى) ، فهم أولاً غير صوفية وإنما هم جماعة من المشتغلين بالفلسفة ذوى أغراض بعيدة خبيثة ، ضمت صفوفهم لفيفاً من الناس مختلفى النزعات والثقافات حتى كان من بينهم ملاحدة ، فإحالتهم على الصوفية تجن على الحقيقة وعلى التاريخ وعلى التصوف ، ولسنا نبرىء جولد تسيهر من ذلك — مع تقديرنا لكتابه القيّم .

وحتى القرن الخامس الهجرى لا نجد كما يقول صاحب (تاريخ أدبيات درايران) : « أهمّ من حقائق السلمى ولطائف الإشارات للقشيرى وتفسير سورة الإخلاص للغزالى » [تاريخ أدبيات در ايران للدكتور ذبيح الله صفا (مكتوب بالفارسية) فصل التفسير صفحة ٢٥٦ ، ٢٥٧] .

وبعد ذلك بنحو قرن نلتقى بتفسير ابن عربى الذى هو قبل كل شىء مطعون فى نسبته إليه ، وفى ذلك يقول الشيخ محمد عبده (اشتبه على الناس فيه كلام الباطنية بكلام الصوفية ، وينسبونه للشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى ، وإنما هو للقاشانى الباطنى الشهير) ويضيف الأستاذ الإمام (وفيه من النزعات ما يتبرأ منه دين الله وكتابه العزيز) تفسير المنار ج ١ ص ١٨) .

نعم صدق الأستاذ الإمام ، فالكتاب مملوء بدعاوى وحدة الوجود ، وما جرّه هذا المذهب من ويلات ، ولسنا هنا بصدد دراسة تفصيلية له ، ولكننا نشعر بالحاجة إلى أن نسوق شواهد قليلة تثبت مجانبة هذا التفسير للحق ، وكيف أنه لا يصح أن يكون نموذجاً للاتجاه الصوفى السديد — كما حلا لجولد تسيهر أن يظهره ويتحمس له ، ليخرج من ذلك بأحكام عامة يصدرها عن التصوف الإسلامى — كأنما يروى غليله .

ففى سورة المزمل عند قوله تعالى (واذكر اسم ربك وتبتّل إليه تبتيلاً ، يقول : (واذكر اسم ربك الذى هو أنت . .) !! ج ٢ ص ٣٥٢ .

وفى سورة الواقعة عند قوله تعالى (نحن خلقناكم فلولا تصدقون) ، يقول : نحن خلقناكم بإظهاركم بوجودنا ، وظهورنا فى صوركم) ج ٢ ص ٢٩١ وليس هذا التصوّر بمستغرب على من يقول إن عِجْلَ بنى إسرائيل أحد المظاهر التى اتخذّها الله وحلّ فيها !!

وليس من الإنصاف أن يقال للناس هذا هو رأى الصوفية المسلمين ولا رأى بعده ، بل يجب أن نضع فى اعتبارنا أن مذهب وحدة الوجود مذهبٌ فلسفى يبتعد عن المنهج القلبى العرفانى الذى اختطه أرباب المجاهدات والأحوال للوصول إلى وحدة الشهود ، وفى وحدة الشهود — ومهما قيل عنها من كلام ظاهره مستشنع وباطنه سليم على حدّ تعريف أبى نصر السراج الطوسى للشطح — يبقى دائماً شىء هام قوى ناصع أن العبد عبد والرب رب ولا تداخل ولا امتزاج ولا حلول ولا اتحاد ، بل بمقدار ما يصل العبد إلى تحقيق عبوديته يصل إلى التحقق من ربوبيته الرب وتنزيهه عن كل إفك وباطل . . . تعالى الله علوّاً كبيراً .

ولا ينبغى لنا أن نغض الطرف عن قيمة التفاسير المبعثرة فى المراجع الصوفية الكبرى لآيات بعينها من القرآن الكريم ، فإن تبعثر هذه التفاسير لا يحول دون تقديرها حق قدرها ، ذلك لأنها غالباً ما سيقت لتدعيم موقفٍ أو لتَشهد على استمداد فكرة أو لفظة ، فهى من هذه الناحية لا تخرج عن كونها تفسيراً صوفياً غير مجموع .

وفيما عدا ذلك يمكن القول إن أبرز التفاسير الصوفية التى نعرفها كتابان أولهما « عرائس البيان فى حقائق القرآن » لأبى محمد روزَبهان بن أبى النصر البقلى الشيرازى المتوفى سنة ٦٠٦ﻫ [كشف الظنون ج ٢ ص ٢١]

وثانيهما التأويلات النجمية » لنجم الدين داية المتوفى سنة ٦٥٤ ﻫ وقد مات قبل أن يكمله فأكمله علاء الدولة السمناني المتوفى ٧٣٦ ﻫ (كشف الظنون ﺟ ١ ص ٢٣٨) .

* * *

لأجل هذا كله نحتفل « بلطائف الإشارات » فأغلب ما سقناه من تفاسير صوفية لا يسلم من النقد ، ولا يصحُّ أن يكون نموذجاً صالحاً لتمثيل الصوفية والتصوف بأمانة وصدق .

« لطائف الإشارات » سفر نفيس كتبه صاحبه محاولاً أن يوفِّق بين علوم الحقيقة وعلوم الشريعة ، وقاصداً إلى هدف بعيد أنه لا تعارض بين هذه وتلك ، وأن أى كلام يناقض ذلك خروج على أىٍّ منهما وعلى كليهما (فكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبول ، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير محصول ، الشريعة أن تعبده والحقيقة أن تشهده) الرسالة القشيرية ص ٤٦ .

وهذا ما حدث فعلاً . . فأنت خلال قراءة « اللطائف » تشعر أن كل صغيرة وكبيرة فى علوم الصوفية لها أصل من القرآن ، ويتجلَّى ذلك بصفة خاصة حينما ورد المصطلح الصوفى صريحاً فى النص القرآنى كالذكر والتوكل والرضا ، والولى والولاية والحق والظاهر والباطن ، والقبض والبسط . . . الخ فلا تملك إلا أن تحكم أن الصوفية قد استمدوا أصولهم وفروعهم من كتاب الله الكريم ، وأن علومهم ليست غريبة ولا مستوردة كما يحلو لبعض الباحثين حين يتهمون التصوف الإسلامى بالتأثر بالتيارات الأجنبية : اليونانية والفارسية والهندية والمسيحية ونحوها .

كذلك تلحظ عبقرية القشيرى إزاء اللفظة أو الآية حينما لا يكون فيها اصطلاح صوفى ، فإنه يستخرج لك من آيات الطلاق إشارات فى الصحبة والصاحب ، ومن علاقة النبي بأصحابه إشارات عن الشيخ ومريديه ، ومن مظاهر الطبيعة كالشمس والقمر والمطر والجبال إشارات رائعة تتصل اتصالا وثيقا بالرياضيات والمجاهدات أو بالمواصلات والكشوفات .

وربما قيل إن صنيع القشيرى مسبوق وملحوق ، ولكن ها نحن منذ قليل أوضحنا مقدار ما أصاب التفاسير الصوفية من سهام النقد ، وبقى أن نتعرف الأسباب التى جعلتنا نحكم بأن لطائف الإشارات ، خير مناضل عن التفسير الصوفى بعامة ، بل بأنه من أفضل الأعمال

التى أنتجتها قرائح الصوفية فى شتى العصور ، وربما يبدو فى ذلك بعض التعميم مع أن الأحكام العلمية ينبغى ألا تخضع للتعميم لأننا لا نستطيع أن ندّعى المعرفة الشاملة بكل التراث الصوفى ، ونعترف أن عِشرتنا مع الكتاب وصاحبه عشر سنوات كاملة أثناء إعداد بحثى الماجستير والدكتوراه فى الموضوعات الصوفية ، ونعترف أن حماسنا لما نلحظه من الاعتدال عند القشيرى دون سائر الباحثين ، ونعترف أنّ ما كنا نشعر به من وجوه النقص فى سائر المصنّفات التى نهض بها غيره فى هذا الخصوص — كلُّ ذلك ربما كان الدافع إلى لجوئنا إلى هذا الحكم الذى سقناه .

ومن أعجب الأمور أن القشيرى يشتهر « بالرسالة » التى لا تخرج عن كونها مجموعة من الأسانيد المنسوبة إلى الشيوخ فى موضوعات بعينها ، ومجموعة من التراجم لأبرز الشيوخ الذين ظهروا منذ نهاية القرن الثانى الهجرى حتى بداية القرن الخامس فى صفحات قليلة ربمَّا أغنت عنها الكتب المطوّلة التى وضعت خصيصاً لهذا الغرض مثل تذكرة العطار أو طبقات السلمى أو طبقات الشعرانى ونحوها . ومع تقديرنا « للرسالة » إلا أننا لا نعتبرها بحالٍ من الأحوال أفضل أعمال القشيرى ، وأنها ظلمته حين شهرته ، وحين أوقفت اسمه عليها ، وأصبح حتّماً منذ الآن أن يقول الناس « القشيرى صاحب اللطائف » لا صاحب « الرسالة » . فاللطائف هى أبلغ أعماله التى تزيد على العشرين — فى نقل صورة واضحة لشخصيته ، ولست أدرى لماذا لم يجد هذا الكتاب ما هو جدير به من الاهتمام فى العصور الماضية ؟ لماذا حكم عليه دائماً أن يبقى فى منطقة الظل ؟ حتى صار ما نعرفه عن نسخه كما نفهم من « تذكرة النوادر » وكما يقول بروكلمان — محدوداً ومبعثراً بين روما وبرلين واسطنبول وتونس والهند والقاهرة ، ومعظمها كما سنذكر بعد قليل غير كامل .

ولكى ندرك أهمية هذا الكتاب فى تصحيح كثير من المقاييس العلمية عن التصوف والتفسير الصوفى لا بُدَّ لنا أن نلم بشىء من سيرة صاحبه ، ونكتفى من معالم هذه السيرة بما يمكن أن يتبرر به وصول هذا العمل الجليل بتلك الأوصاف وإلى تلك النتائج . وذلكم هو العامل الثانى لأهمية نشر هذا الكتاب :

ثانياً : صاحب هذا الكتاب هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد القشيرى ، ولقبه زين الإسلام ، وشهرته القشيرى .

ولد فى ربيع الأول عام ٣٧٦ هـ الموافق يوليو ٩٨٦ م .

وتوفى فى يوم الأحد السادس عشر من ربيع الآخر عام ٤٦٥ هـ وهو عربى النسب من جهة أبيه فهو من قبيلة قشير العدنانية المتصلة بهوازن ، ويذكر ابن حزم أن سلالات من قشير اتجهت إلى المغرب نحو الأندلس إبّان الفتح الإسلامى زمن الأمويين ، واتجه بعضها إلى المشرق وكان منها ولاة وقواد على خراسان ونيسابور . (جمهرة الأنساب ٢٧٣ و ٤٥٩) كذلك فإن القشيرى عربى النسب من جهة أمه فهى سلمية وأخوها أبو عقيل السلمى من وجوه دهاقين أستوا ، واستوا هى الناحية التى ولد فيها القشيرى وتلقى بها تعليمه الأولىّ .

وحَدَثَ أن اجتاحت المنطقة ضائقة اقتصادية ، ففكر الأهالى فى إرسال لفيف من أبنائهم إلى نيسابور لكى يتلقوا من دروس الحساب ما يمكّنهم — بعد عودتهم — من المشاركة فى تنظيم الأمور الاقتصادية ، وكان القشيرى أحدَ هؤلاء الأبناء .

وبدأ القشيرى فى نيسابور يتهيأ لهذا اللون من الدراسة ، ولكنه ما لبث أن انصرف عنها عندما اجتذبته مجالس الفقه والكلام والحديث والتفسير والأدب ، ولم تبخل نيسابور عليه بزاد ، فلقد كانت فى ذلك الوقت تعج بالنشاط الفكرى ، وتحفل بكبار الشيوخ أمثال ابن فورك ، ومحمد بن أبى بكر الطوسى ، وأبى إسحق الاسفرايينى ، وقد ظفر القشيرى فى كنف هؤلاء الأئمة برعاية خاصة حينما أتيح له الاتصال بهم ، وأتيح لهم معرفته عن قرب ، ووضح لهم فيه حسن الاستعداد ، والدأب ، واستقامة الخُلُق .

ولم يكن القشيرى يضيع فترة مابعد الدرس هباء ، بل كان ينكب على القراءة والاستذكار وكان شديد الوَلَع بالعلوم العقلية ، وبخاصة تلك التى تتناول المسائل التى طالما اشتجر الخلاف حولها بين الأشاعرة وأهل الاعتزال ، واستوعب فى هذه الفترة معظم ما صنّف الباقلانى .

وجاء يوم سأل فيه الإمام الاسفرايينى تلميذه القشيرى — حين وجده لا يكتب كما يكتب سائر الطلاب : أمَا عَلِمت يا بنى أن هذا العلم لا يحصل بالسماع ؟

(ولكن القشيرى أعاد عليه كل ما سمعه ، وقرره أحسن تقرير ، من غير إخلال بشىء فتعجّب منه وأكرمه ، وقال له ما كنت أدرى يا بنى أنك بلغت هذا المحل ، فلست تحتاج إلى درس يكفيك أن تطالع مصنفاتى ، وتنظر فى طريقتى ، وإن أشكل عليك شىء طالعتنى به

ففعل ذلك ، وجمع بين طريقة الاسفراييني وطريقة ابن فورك) طبقات الشافعية للسبكي ج ٣ ص ٢٤٣ وما بعدها .

وبينما كان القشيري منصرفاً بكل همته إلى هذا اللون من الدراسة ، دائب الاتصال بهذا الطراز من الشيوخ ساقه القَدَرُ ذات يوم إلى مجلسٍ من لون آخر يتصدره شيخ من طراز آخر . استمع القشيري إلى أبي علي الدقاق وهو يعظ على طريقة الصوفية ؛ ويتحدث في الرياضات والمجاهدات ، والأحوال والمكشوفات ، والأذواق والمواجيد ، والمعارف العليا التي تنثال من الحق على عباده الذين اصطفاهم، وإذا بالرجل والحديث يستوليان عليه ، ويملكان فيه كل ذرة ، وإذا القشيري يحادث نفسه صامتاً : إني لهذا خُلِقْت !

وعندما كان يتهيأ ليغشى ما اعتاد من مجالس كانت أقدامه تسوقه نحو الدقاق ومجلسه ، فكان أول من يجلس وآخر من ينهض .

ولمحه الشيخ ، ورأى فيه إصغاء ملفتا للنظر ، فقرَّبه منه ، وحباه بعطفه .

وذات يوم تقدم الطالب — في استحياء — من شيخه ، فشكا إليه أمراً حَزَبَهَ ؛ إنه لا يستطيع أن يجمع بين المواظبة على ما اعتاد من مجالس وبين مجلس الدقاق ، وهو يؤثر أن ينصرف بكل همته وعزيمته إلى علم القلوب ، وابتسم الشيخ للشاب ، وتطلع إلى وجهه ، وربت على كتفه قائلا :

— إنما ينبغي لك أولا أن تتقن دراستك بقدر طاقتك !

ومضى الشاب الطموح يجمع بين الدراستين ، وساعده ذلك على أن يتكون تكوينا عقلياً ووجدانياً في مرحلة من أدق مراحل العمر ، كما ساعده على أن يتجنب كثيراً من المشاكل النفسية التي تلم بأمثاله نتيجة الاغتراب عن بلده ، ونتيجة الملل .

وأعجب الدقاق بمثابرته وطموحه واستقامته وتواضعه (فاختاره لكريمته فاطمة مؤثراً إياه على سائر أقربائها الذين تقدموا لخطبتها) ، وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٧٥ .

وهكذا توثقت الصلة بين الشيخ والشاب ، وصار الدقاق رائده وملهمه الذي أعانه على مواجهة مشكلات الحياة ، وبصَّره بآفات النفس وأدوائها ، وكشف له عن الكثير من الخفايا والدقائق .

فكان هذا الاتصال عاملاً جديداً من عوامل الاستقرار النفسى ، وبداية لمرحلة جديدة من النضج الفكرى ، لأنه أتاح له أن يجد فى صهره شيخاً ورائداً وصديقاً ، وسهّل عليه أن يهرع إليه يستنصحه إزاء كل مسألة تعرض له أو أمر ينبهم عليه ، فلم يقع تحت تأثير بلبلة ، ولم يخضع لأزمة ، ولم تتجاذبه ضغوط أو صراعات .

كل ذلك ترك أثره فى شخصيته ، فلسنا نجد فى مؤلفاته اضطراباً أو جموحاً أو غموضاً ، ولسنا نشعر فيما وراء السطور بعقدة من العقد ، ولسنا نحس بميلٍ إلى ابتداع ، إنما نجد أنفسنا أمام شخصية سويّة ، يتميز الخط الفكرى لها بالاستقامة والاعتدال ، والوضوح والصدق ، والإخلاص والبذل .

ولعلّ أبسط دليل على وفاء القشيرى لشيخه أنك لو تصفحت « رسالته » لما غاب اسم الدقاق عن عينك ، وهو يذكر اسمه دائماً مقروناً بالتكريم والترحم ، ويكفيك أن تقرأ هذه الفقرة لتوضح لك أولا شيئاً عن مسلك القشيرى خلال حياته العلمية وتوضح لك ثانياً مدى ما ينبغى أن تكون عليه علاقة المريد بشيخه ، فهذه وتلك تصوِّر ما نرمى إليه من بعيد عن كشف جوانب فى سيرة الرجل الذى نقدّم لك كتابه .

يقول القشيرى : « لم أدخل على الأستاذ أبى على — رحمه الله — فى وقت بدايتى إلا صائماً ، وكنتُ أغتسل قبله ، وكنت أحضر باب مدرسته غير مرة فأرجع من الباب احتشاماً من أن أدخل عليه ، فإذا تجاسرت مرة ودخلت ، كنت إذا بلغت وسط المدرسة يصحبنى شبه خدر حتى لو غُرِز فىَّ إبرة مثلاً لَعَلِّى كنت لا أحسُ بها . ثم إذا قعدت لواقعة وقعت لى لم أحْتَجْ أن أسأله بلسانى عن المسألة ؛ فكلما كنت أجلس كان يبتدىء بشرح واقعتى ، وغير مرة رأيت منه هذا عيانا ، وكنت أفكر فى نفسى كثيراً إنه لو بعث الله عزّوجلّ فى وقتى رسولاً إلى الخلق هل يمكننى أن أزيد فى حشمته على قلبى فوق ما كان منه رحمه الله تعالى ؟ فكان لا يتصور لى أن ذلك ممكن ، ولا أذكر أنىّ فى طول اختلافى إلى مجلسه ثم كونى معه بعد حصول الوصلة أن جرى فى قلبى أو خطر ببالى عليه قط اعتراض إلى أن خرج — رحمه الله تعالى — من الدنيا) الرسالة ص١٤٧ .

وليس استطراداً أن نذكر لك كلمة موجزة عن رأى عبد الرءوف المناوى فى الدقاق ،

لأن هذه الكلمة على إيجازها لا تكشف لك عن سمات الدقاق وحسب إنما هى سمات القشيرى ذاته فى أدق التفاصيل .

يقول المناوى « هو أبو على الحسن الدقاق النيسابورى الشافعى ، كان لسان وقته وإمام عصره ، فارها فى العلم ، محمود السيرة ، مجهود السريرة ، جنيدى الطريقة ، سَرِّىَّ الحقيقة ، أخذ مذهب الشافعى عن القفال والحصرى وغيرهما ، وبرع فى الأصول وفى الفقه وفى العربية حتى شُدَّت إليه الرِّحال فى ذلك ، ثم أخذ فى العمل ، وسلك طريق التصوف ، وأخذ عن النصراباذى ، قال ابن شهبه : وزاد عليه حالاً ومقاماً . . . وقد أخذ عنه القشيرى صاحب « الرسالة » وله كرامات ظاهرة ومكاشفات باهرة ٤٠١ هـ كلام المناوى بعد أن أخذ يضرب أمثلته لأقواله المنثورة والمنظومة [الكواكب الدرية فى تراجم الصوفية ترجمة الدقاق] .

أمَّا فى مجال الصداقة فلعلَّ أوثق من نعرف اتصالا به صديقه أبو عبد الرحمن السلمى وصديقه أبو المعالى الجوينى إمام الحرمين .

وترجع أهمية السُّلمى فى حياة القشيرى إلى أنه غزير الإنتاج فى العلوم الصوفية ، وأن القشيرى استفاد من علمه ، وآية ذلك أنك تجد السلمى فى « الرسالة » حلقة اتصال بارزة فى العديد من الأسانيد والأخبار التى عليها يعتمد القشيرى موصولة بالدارقطنى والسَّراج والنصراباذى وغيرهم ، ولكن الأهم من ذلك — فى تقديرنا — أن القشيرى استفاد من السُّلَمى فائدة أبعد أثراً ، ذلك أنه تجنَّب التورط فى المزالق التى أدَّت بصديقه إلى أن يُتَّهم وأن يكون موضع نقد معاصريه ومن جاء بعده ، وقد نوَّهنا بشىء من ذلك عند كلامنا عن « حقائقه » .

أمَّا الجوينى فقد كان — كالقشيرى — شافعياً من حيث المذهب الفقهى ، أشعرياً من حيث العقيدة الكلامية ، وقد تعرَّض — كالقشيرى — لآلام المحنة التى اكتوى بنارها الأشاعرة ، والتى سنتحدث عنها بعد قليل ، وهاجر البلاد وجاور الحرمين ، ولم يعد إلى وطنه إلا بعد انجلاء الغُمَّة .

وإذا كان السُّلمى صديقاً أقرب إلى الاستاذ فإن الجوينى كان صديقاً أقرب إلى التلميذ ، فقد استفاد من علم القشيرى ، فإذا تذكرنا أن الجوينى أستاذ الغزالى أمكن أن نقول إن

القشيرى موصول بالغزالى لا بطريق المصنفات التى خلّفها وحسب بل بطريق السَّنَدِ الذى يمثله الجوينى .

وفى مجال الحياة العملية نجد القشيرى يضطلع بأعمال تتفق واستعداده وثقافته ، فقد اشتغل بالتدريس فى مسجد المطرز وهو فى الثلاثين من عمره ويتضح ذلك من هذا النص : « كنتُ فى ابتداء وصلتى بالاستاذ أبى علىٍّ — رضى الله عنه — عقد لى المجلس فى مسجد المطرز ، فاستأذنته وقتاً للخروج إلى « نسا » ، فكنت أمشى معه يوماً فى طريق مجلسه ، فخطر ببالى : ليته ينوب عنِّى فى مجالسى أيام غيبتى . . . . الخ » الرسالة ص ١١٦ .

وإلى جوار ذلك كان القشيرى يعكف على التأليف دون انقطاع فانتهى من التفسير الكبير المعروف (بالتيسير فى التفسير) قبل عام ٤١٠ هـ ، ومن اللطائف عام ٤٣٤ ، ومن الرسالة عام ٤٣٧ واستمر يمارس هذا النشاط فى دأبٍ لا يعرف الكلال حتى وصلت كتبه إلى خمسة وعشرين كتاباً أو نحوها ، ومن أهمها إلى جوار ما سبق : ترتيب السلوك ، والتحبير فى التذكير ، والأربعون حديثاً ، وشكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة ، واستفادات المرادات ، والقصيدة الصوفية ، والتوحيد النبوى ، واللُّمع ، والفصول ، والفتوَّة ، ونحو القلوب الصغير ، والكبير ، والمقامات الثلاثة ، وفتوى ، والمعراج .

ولم يطبع من هذه الكتب إلا النذر اليسير ، وفى النية أن نقوم — بعون من الله — بإخراج ما وقع لنا منها خلال رحلات طويلة عديدة ، حتى يزداد الناس علماً به وتقديراً له .

ولم يسلم القشيرى خلال حياته من المحن والآلام ، وربَّما كانت أشدها جميعاً ما حدث له إبَّان حكم السلطان طغرل ووزيره اللعين الكندرى .

كان السلطان طغرل سنياً حنفياً ، ووزيره أبو نصر الكندرى معتزلياً رافضياً ، خبيث العقيدة ، ذا آراء مسرفة فى التشبيه وخلق الأفعال ، والقَدَر ، وكان متعصباً فى ذلك أشد التعصب .

وفى هذا الوقت كان بنيسابور شخصية فذّة لها فى أوساط العامة والخاصة نفوذ كبير ، ومحبة فائقة ، ذلكم هو الاستاذ أبو سهل بن الموفق أحد رجال الطبقة الرابعة الشافعية ،

وكان كثير المال جواداً ، وكان مرموقاً بالوزارة ، وداره مجتمع العلماء ، وملتقى الأئمة ، ونظراً لما عرف عنه من تعلّق بالمذهب الأشعرى ، وذود عنه ، وسعى حثيث لنشره فقد ألهب ذلك حقد الكندرى ، خاصةً وقد كان يخشى أن يقع اختيار السلطان عليه للوزارة من دونه ، فمضى يلفق — لدى السلطان — عنه التهم . ولم يكتف بذلك بل لجأ إلى حيلة دنيئة حين حصل من السلطان على تفويض بسبّ المبتدعة على المنابر ، فلم يجد السلطان فى ذلك بأساً ، فوافق عليه ، ولكن الكندرى استغل هذه الموافقة فأقحم اسم أبى الحسن الأشعرى ضمن المبتدعة الواجب سَبُّهم ، وكل من كان يرفض الانصياع لذلك من الوعاظ والخطباء يفصل من عمله ، ويطرد من البلاد ، فنجم عن ذلك شر خطير ، وفتنة كبرى امتد شررها إلى سائر المشرق ، وبات الأشاعرة فى حزن مقيم .

وفى وسط هذه المحنة ، وذات يوم كئيب أسود جاء الأمر من قبل السلطان بالقبض على القشيرى وإمام الحرمين والرئيس الفراتى وأبى سهل الموفق ، ونفيهم ، ومنعهم من المحافل ، وحين قرئ الكتاب هجم جماعة من الأوباش على الاستاذ الفراتى وعلى القشيرى وأخذوا يجرونهما فى الطرقات ، ويكيلون لهما أقذع أنواع التهكم والاستخفاف حتى وصل الشرطة بهما إلى محبس القهندر .

أمّا إمام الحرمين فقد هرب من البلاد على طريق كرمان ، واتّجه إلى الحجاز ، وهناك جاور ، وأمّا أبو سهل . فقد كان لحسن الحظ غائباً فى بعض النواحى .

وبقى السجينان الجليلان فى المحبس ، وقامت جماعات كبيرة من الناس لإنقاذها ، وحدثت حرب دامية بينهم وبين رجال السلطان انتهت بهزيمة رجال السلطان ، وأخرج السجينان الجليلان من سجنهما ، ولكن كبار الأشاعرة اجتمعوا وقرروا أن جهاز الحكم لن يهدأ له قرار ، وأن الخير فى رحيل أئمة المذهب إلى أماكن نائية عن المشرق .

فترك القشيرى وطنه وبيته وأهله وعشيرته ، ومضى يضرب فى الأرض الواسعة عشر سنوات كاملة ، كان خلالها موضع التكريم والتبجيل ، وأقبل الناس عليه وعلى دروسه إقبالاً عظيماً ، حتى لقد خصص الخليفة العباسى — القائم بأمر الله — له مجلساً خاصاً فى مسجد قصره ، وكان يواظب على شهود وعظه ومجلس حديثه ، ويكرمه ، ويحظى ببركته .

وقد وصف الخطيب البغدادى (صاحب تاريخ بغداد) مقدار إعجاب الناس بالقشيرى ، وكان هو نفسه أحد تلاميذه حيث يقول (حدَّثنا وكتبنا عنه وكان ثقة) .

(تاريخ بغداد ج ١٠ ص ٨٣) .

وذهب القشيرى للحج ، وهناك التقى بصديقه الجوينى وبعدد كبير من الأئمة الذين شردتهم المحنة طوال سنوات عديدة ، فاجتمعوا وتدارسوا أحوالهم ومستقبلهم ، واستقر رأيهم على أن يطيعوا كلمة واحدٍ منهم مهما كانت هذه الكلمة حتى يتم الاتفاق على مبدأ ثابت يسرى عليهم جميعاً ، ولم يكن ذلك الذى وقع عليه اختيار الجمع غير عبد الكريم القشيرى .

فصعد المنبر ، وظل يتكلم ، وهم يجدون لكلامه وقعاً مؤثراً على قلوبهم وعقولهم ، ثم مرَّت لحظات صمت ، بعدها شَخَصَ القشيرى ببصره إلى السماء ضارعاً ثم أطرق ، والناس من حوله يتابعون أمره ، ويتفرَّسون ملامحه . . . ثم قبض على لحيته وصاح بصوت عالٍ :

« يا أهل خراسان . . بلادَكم بلادَكم ، إن الكندرى غريمكم يُقطَّعُ الآن إرباً إرباً ، وإنى أشاهده الساعةَ وقد تمزَّقت أعضاؤه ثم أنشد :

عميد الملك ساعدك الليالى على ماشئت من درك المعالى

فلم يكُ منك شىء غير أمرٍ بلعن المسلمين على التوالى

فقابلك البلاء بما تلاقى فذُق ما تستحق من الوبالِ

(تبيين كذب المفترى لابن عساكر ليدن ص ٩٣)

ويقول السبكى فى طبقاته : (وضبط التاريخ فكان ذلك اليوم بعينه وتلك الساعة بعينها قد أمر السلطان بأن يقطع الكندرى إربا إربا . وأن يرسل عضو منه إلى كل مكان) السبكى فى « طبقات الشافعية » ج ٢ ص ٢٧٢ .

وهكذا عاد القشيرى بعد هذه السنوات العشر الثِّقال (من ٤٤٥ إلى ٤٥٥) إلى بلاده ، وهى وإن كانت أقسى فترات عمره ، وأشدها آلاماً إلا أنها كانت حافلة بالتجارب ، وأعانته على زيادة خبرته بالحياة والأحياء ، وساعدت على توثيق الصلة بينه وبين الأوساط العلمية والأدبية خارج المشرق ، ودفعته إلى أن يصنِّف العديد من المصنفات المتصلة بالمذهب الأشعرى

وبخاصة كتابه الجليل القدر « شكاية أهل السنة بحكاية ما نالهم من المحنة » ، وهى قبل كل شيء وبعد كل شيء آية ثباته على مبدئه ، وأنه خليق أن يتصدَّر المفكرين الأحرار فى جيله .

وجاء السلطان ألب أرسلان خَلَفاً لعمه طغرل ، وبمجيء أرسلان ووزيره الهمام الفذ نظام الملك استقبل العالم الإسلامى كله والأشاعرة بوجه خاص والقشيرى بوجه أخص عهداً زاهراً آمنا ، وعاد القشيرى إلى مدينته الحبيبة نيسابور حيث قضى بها بقية عمره ، وقضى بها عشر سنوات (كان فيها مرفهاً محترماً ، ومطاعاً معظماً ، وأكثر صفوه فى آخر أيامه التى شاهدناه فيها آخراً ، وازداد من يقرأ عليه كتبه وتصانيفه والأحاديث المسموعة له ، وما يؤول إليه من نصرة المذهب حتى بلغ المنتمون إليه آلافاً ، فأملوا تذكيره وتصانيفه أطراف) « تاريخ نيسابور لعبد الغافر الفارسى حفيد القشيرى » .

وكان نظام الملك أحد تلاميذه والمقربين إليه ، وأعاد الوزير ـ بفضل توجيه القشيرى ـ للأشاعرة وللزهاد وللعلماء كل ما فقدوه إبَّان المحنة الأليمة من كرامة وحظوة .

أمَّا أبناء القشيرى فلا نعرف له إلا بنتاً واحدة هى أمة الرحيم أم عبد الغافر الفارسى (قاموس الأعلام باللغة الأوزبكية ط اسطانبول سنة ١٣١٤ ص ٣٠٨٠) .

ونعرف له ستة أبناء كلهم عبادلة وكلهم أئمة ، سلكوا مسلك أبيهم وقد ترجم لهم السبكى فى طبقاته كما تحدَّث عنهم ابن عساكر وابن خلكان .

ولهذا ينبغى أن نتحفظ فى نسبة الأقوال المنسوبة إلى القشيرى فى بعض المراجع فقد تكون هذه الأقوال صادرة عن أحد أبنائه فهم جميعاً أشاعرة وهم جميعاً شافعية وهم جميعاً سلكوا طريق الإرادة .

لبث القشيرى فى نيسابور فى أخريات حياته لم يكد يبرحها إلا لزيارة أقاربه فى البلاد المجاورة مثل نسا وأبيورد ، ولكنه كان يعود مسرعاً إلى نيسابور بعد كل زيارة .

وقبل أن تبزغ شمس السادس عشر من ربيع الآخر من عام ٤٦٥ هـ ، كانت روحه الطاهرة قد عادت إلى بارئها . فوورى جثمانه إلى جوار صهره وشيخه وملهمه وصديقه أبى على الدقاق فى مقبرة خاصة بالأسرة ما زالت قائمة حتى وقتنا الحاضر يزورها الناس للتبرك .

* * *

من خلال هذه السيرة التى حاولنا إيجازها نستطيع أن ندرك أهمية الكتاب الذى نقدمه له .

فصاحب الكتاب رجل أوتى حظًا وفيراً من العلوم العقلية والنقلية قبل أن يلج باب الصوفية ، وهذه فى حدّ ذاتها ظاهرة لها أهميتها ، وقد رأينا كيف نصح الشيخ الدقاق له بالتعمق فى هذه الدراسات قبل البدء بالسير فى دروب الإرادة ، وفى ذلك أبلغ رد على من يتخرّصون الاتهامات عن الصوفية فيقولون إنهم قوم يجانبون العقل ، ويحتقرون العلم ويأمرون تلامذتهم بكسر محابرهم — كما يدعى ابن الجوزى غفر الله له .

والقشيرى بعد ذلك كله أديب ينظم الشعر ويتذوق الأسلوب العربى تذوقاً يعتمد على أسس قوية ، وقد أوضحنا ذلك بتفصيل كبير فى الأطروحة التى أعددناها عنه ونلنا بها درجة الدكتوراه .

فإذا جاء بعد ذلك ليدرس الأسلوب القرآنى ، وليستخرج منه إشارات لطيفة فهو مُعَدٌّ لذلك أحسن إعداد ، وهو قمين بالوصول إلى نتائج باهرة ، بقدر ما لديه من تهيؤ صالح مكتمل .

ثم هو شافعى أشعرى ، وهو سنى متحفظ ، وهو بهذه الأوصاف باحث متعمق منصف ، لا يأخذ — وهو يستخرج إشارة من العبارة — إلا جانب الحذر والحيطة والاعتدال ، وهو من أجل ذلك لم يخرج قيد أنملة عن هذا الخط ، فلم ينصر الحقيقة على حساب الشريعة ، ولم ينصر الشريعة على حساب الحقيقة ، ولذلك لا نعجب إذا لم نجد عنده جموحاً أو ميلاً إلى جموح ، ولا نعجب إذا ألفيناه لا يُسْخِط أوساطَ أهل السُّنَّة حتى من تعصَّب منهم ضِدَّ التصوف وأهله ، فقد كان رائده دائماً نصرة الحق ، فليس غريباً أن يجىء «لطائف الإشارات» تعبيراً صادقاً عن التصوف فى أفضل درجات الاعتدال ، وأنقى صور التناول . فليس عند القشيرى ما عند غيره من مساس بالألوهية ، بل هو طالما يعلنها حرباً لا هوادة فيها على المبتدعين والمضالين الذين أساءوا إلى التصوف وأهله تارة تحت ستار الثوب ، وتارة بدعوى الفناء المُغرق ، ونحو ذلك من الأباطيل .

والتصوف عند القشيرى ليس ثوباً مرقعاً ، أو خرقة بالية تَفَرِّد صاحبها عمن سواه ، وتكون عَلَمَاً على تقواه ، إنما هو صفاء النفس من كروراتها . وإنَّ من كان صادقاً فى طويته ونِيتِّه سيكون محفوظا فى حالة انمحائه ، سوف يُرَدُّ فى حالة الجمْع إلى حالة الفَرْق الثانى

ليؤديَ الفرائض الواجبة عليه ثم يعود إلى حالة الجمع مرة أخرى ، ويكون فى كل أحواله مُصَرَّفاً بإرادة مولاه . كذلك فإن من كان صادقاً فى بدايته ووسيلته وغايته كان محفوظاً — من قِبَل الحق — فى كل كلمة ينطق بها أو كل حركة تصدر عنه ، فإذا نطق نطق بالله ، وإذا تحرَّك تحرَّك بالله . ومثل هذا العبد لا يُنتظر منه — وهو فى يد الله على هذا النحو — أن يكون غريبَ الأقوال أو غريبَ الأفعال . فالصدق هو عمدة الأمر فى هذا السبيل — كما يرى هذا الإمام الجليل .

ثالثاً : ننتقل بعد ذلك إلى العامل الثالث فى أهمية إخراج هذا الكتاب ، وهو فى هذه المرة يعود إلى النسخة أو النسختين اللتين نعتمد عليهما فى التحقيق .

النسخ الكاملة من « اللطائف » نادرة فهى حسبما تقول تذكرة النوادر لا تزيد على خمس إحداها فى خزانة بانكى پور مكتوبة فى القرن التاسع ، والثانية فى المكتبة الحبيبية تاريخ كتابتها عام ٨٤٤ وهى ناقصة من أولها ، والثالثة فى الخزانة الآصفية بخط قديم جداً ، والرابعة فى مكتبة الجامعة العثمانية بحيدر آباد مكتوبة بخطوط مختلفة سنة ٧٢٦ والخامسة فى مكتبة محمد باشا باسطنبول .

غير أننا نعتقد أن هناك عدداً أكبر من النسخ يزيد عما ذكرت التذكرة وأنها منبثة فى أنحاء متفرقة من العالم ، ونرجح أن النسخ الكاملة نادرة جداً كما يشير بروكلمان . وإنه لمن دواعى التوفيق أن يتاح لنا أن نحصل — لأول مرة — على الكتاب كاملا ، فقد وجدنا فى مدينة طشقند عاصمة جمهوريات أوزبكستان السوفيتية فى المركز الدينى لمسلمى آسيا الوسطى وقازاخستان نسخة شبه كاملة تحت رقم ١٣٠٢ تفسير تبدأ بمقدمة بقلم القشيرى — وهى على جانب كبير من الأهمية — لأنها تكشف عن منهجه فى الدراسة ، ثم بعدها الفاتحة والبقرة و . . . . حتى سورة قريش ، ومعنى ذلك أنها تنقص فقط سور الماعون والكوثر والكافرون والنصر والمسد والإخلاص والفلق والناس . وهذه السور القصيرة موجودة فى النسخة الأخرى التى عندنا فى مصر ورقمها ٢٦٦ تفسير (أنظر فهرس الخزانة التيمورية ط تفسير ص ٢٣٠) والتى تبدأ بالآية (إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل . . .) فى سورة الأنبياء وقد قمنا بنسخ هذه المخطوطة ، كما قمنا بالتقاط صورة بالميكروفيلم للنسخة الطشقندية ثم أجرينا تصويرها

وتكبيرها بحيث تسهل قراءتها وكانت النسختان المادة الأساسية التى اعتمدنا عليها أثناء إعداد الدكتوراه عند كلامنا عن القشيرى المفسِّر .

النسختان إذاً تتكاملان ، ويصبح هذا السفر النفيس كاملا ، ويقع فى نحو ألف ومائتين صفحة ، اخترنا أن نقسمها إلى أربعة أجزاء تصدر متلاحقة فى مدى عام أو عامين حسبما تساعدنا الظروف ويرزقنا الله العافية .

وصف عام للنسخة السوفيتية

تبلغ أوراقها ٥٩٧ ورقة ، والأرقام التى كتبها الناسخ مطموسة فى كثير من الأحيان ولذا حرصنا عند تكبير الميكروفيلم والتصوير والطبع أن نرقمها نحن من خلف حتىّ لا تضطرب الأمور عند القراءة والدراسة .

وعلى الورقة الأولى توجد تعليقة مكتبة الإدارة الدينية هكذا :

تفسير

أبو القاسم القشيرى

صو ا = 200

II = 1302

٣٥

أما الورقة الثانية فيبدو أنها كانت خالية فملأها أحد القراء بأحاديث وشواهد شعرية وكتابة باللغة الفارسية .

ثم تبدأ مقدمة الكتاب بقلم القشيرى منذ الورقة الثالثة .

وقد وقع خطأ فى ترقيم الصفحات ، فبينما نجد الحديث متصلاً غير منقطع بعد الورقة ٢١٤ نجد رقم الورقة التالية هو ٢٢٥ بدلا من ٢١٥ ، وهناك خطأ آخر ربما حدث قبل تغليف الكتاب : فالأوراق من ٣٩٤ إلى ٤٠١ كلها موجودة عقب الورقة ٤٣١ دون أن يحدث خلل أو سقوط ، ومعنى هذا أن الكتاب رغم هذا — كاملٌ لم يضعْ منه شىء .

كذلك يقع تفسير أواخر طه وأوائل الأنبياء ــ خطأً ــ ضمن تفسير الفرقان . وقد صححنا هذا الوضع .

ونظراً لعدم اكتمال النسخة من آخرها — كما قلنا من قبل — فلقد كنا نخشى أن يغيب عنّا التذييل الذى يذكر فيه الناسخ اسم وتاريخ انتهائه من عمله كما جرت العادة ، ولكن لحسن الحظ وجدناه قد قسّم الكتاب قسمين كبيرين ينتهى القسم الأول بنهاية تفسير سورة الكهف ورقة ٣٧٨ ، وعندها كتب هذه العبارة باللغة الفارسية المختلفة بالعربية :

(تمّ بعون الله وحسن توفيقه نصف أول إز تفسير محقق إمام أبو قاسم القشيرى رحمة الله عليه بتاريخ شهر شوال سنة ١٢٢٤) .

ومن هذه العبارة يتضح أن الناسخ غير عربى ، وأنه ربما كان فارسياً أو أفغانياً أو أوزبكياً أو أذربيجانياً ، فكثرة من سكان أفغانستان وأزبكستان وأذربيجان يعتبرون الفارسية لغة اتصالهم بالعلوم الإسلامية حتى اليوم .

وقد نجم عن كون الناسخ فارسياً جنساً أو لغةً أن كتابته ومراعاته للإملاء لم تكونا جيدتين ، وكان علينا أن نقرأ الكتاب قراءة متفحصة لنحاول أن نحدد الطريقة التى اتبعها ، لأنها — بما فيها من خطأ أحياناً أو خروج على المألوف فى الرسم أحياناً أخرى — هى التى جرى عليها عند نقله من النسخة الأخرى التى يحتمل أنها تجرى على هذا النحو ، وربما كان الناسخ ينقل على نحو يكون مفهوماً لديه ، وميسور القراءة له وحده .

وهو لايهتم بضبط الكلمات ، ولا بترقيم العبارات فليس هناك ضبط أو فاصلة أو علامات استفهام أو أقواس أو علامات تعجب أو نحو ذلك . وقد وقع الناسخ فى أخطاء عديدة أثناء النسخ ، وربّما كان مسئولاً عن ذلك أو يحتمل أن النسخة التى نقل عنها بهذا الوصف .

وهامش النسخة وبخاصة فى القسم الأول من الكتاب حافلة بالتعليقات ، بعضها مكتوب بالفارسية قصد منها شرح المفردات وترجمتها .

وهناك عناوين جزئية مكتوبة باللغة العربية بخط حسن تشير إلى موضوعات متنوعة ربما قصد بعض القراء إلى أن يجمعها ليستفيد منها ، وليحدد موقف المصنِّف إزاءها مثل (الروح — حقوق الوالدين — الدعاء — النَّفْس . . . إلخ) .

وعندما كانت تسقط بعض الكلمات أو العبارات من الناسخ أثناء النقل كان يستدرك

فيضع علامة مميزة على آخر كلمة فى المتن بدأ بعدها السقوط ويضع العلامة نفسها فى الهامش فوق الكلمة أو العبارة الساقطة ، فإذا تكرر السقوط فى الصفحة الواحدة ميّز كل موضع وكل مستدرك بعلامة مباينة . كذلك فإنه كان يضع علامة خاصة عندما يعيد كتابة كلمة أو عبارة أو سطر بدون داعٍ حتى يلفت نظر القارىء إلى ما وقع فيه من سهو .

ولم يحدث أن وضع الناسخ ترجمة فارسية لكلمة داخل المتن بل كان يكتب الترجمة أسفل نظيرها ، اللهم إلا فى حالة واحدة داخل شاهد شعرى :

أنكه شاد شود در عطا دادن

ومعناها : أصبح حينئذ مسروراً بالعطاء .

ونستبعد أن القشيرى يفعل ذلك ، فعلى الرغم من إتقانه للغة الفارسية إلا أنه حرص فيما نعرف له من مصنفات أن يكتب بالعربية خالصة .

ويبدو أن النسخة أتيح لها أن تراجَع ذات مرة ، فهناك تصحيحات مختلفة فى رسم الكتابة موجودة فى الهامش فى أماكن مقابلة لموضع التصحيح فى المتن . ومن أمثلة ذلك ما جاء فى الورقة ٣٥٠ أول سورة الإسراء (وتوحّد بعلو قعونه) تصحح فى المراجعة (وتوحّد بعلو نعوته) .

وفى الورقة ٣٦١ (لِبلَاءٍ أو شدة يقالبها) تصحح فى الهامش (لبلاء أوشدة يقاسيها) .

وفى الورقة ٣٧٢ جاء فى سياق وصف الدنيا (نعمها مشوقة بنقمتها تصحح فى المراجعة (نعمها مشوبة بنقمها) .

وقد كنا نحكِّم الدقة عند الاستفادة من هذه المراجعة لأننا نفترض أنها قد تكون نوعاً من الاجتهاد الشخصى وليست تصويباً على نسخه أفضل .

بقى شىء هام جداً ، وهو توضيح موقفنا من أخطاء الناسخ ، ويمكن أن نقول إننا اتخذنا منها ثلاثة مواقف .

(ا) موقفاً نجد فيه الخطأ مؤكَّداً ويتجلى ذلك عند كتابة بعض الآيات الكريمة حيث تسقط كلمة أو حرف أو تزيد كلمة أو حرف ، فنصلح هذا الخطأ .

(ب) موقفاً فيه الخطأ شبه مؤكد وعند ذلك نكتب فى المتن ما نراه صواباً دون أن نترك الأمر على عواهنه بل نثبت فى الهامش ما جاء فى النسخة ، موضحين أسباب رفضنا لما كتبه الناسخ حتى نضع أمام القارىء صورة أمينة لما نقوم به من عمل ، وكان المفروض أن نكتب كل ما كتب الناسخ فى المتن وأن نصوِّب ما نراه فى الهامش ولكن هذه الأخطاء كثيرة جداً بحيث تعوِّق القراءة ، وتشق على الدارس .

(حـ) موقفاً فيه خطأ الناسخ محتمل ، وعند ذلك ننقل عن الناسخ ما كتب فى المتن ، و نشير إلى موقفنا إزاءه فى الهامش قائلين (ونرجح كذا ... أو لا نستبعد أنها فى الأصل كذا) تاركين الرأى للقارئ والدارس فى أن يختارا ما يريانه أقرب إلى الصواب .

أمَّا المشتبهات فنضع مكانها نقطاً بين أقواس و نشير إليها فى الهامش ، وليس لنا فيها حيلة إلا إذا ظهرت لنا نسخة من الكتاب أكثر وضوحاً .

وإذا تطلب السياق كلمة أو حرفاً ليتماسك ويتضح وضعناها من عندنا بين قوسين مشيرين إليها فى الهامش .

وتجب ملاحظة أننا لا نقحم أنفسنا فى تكملة أو ترجيح إلا بناء على معرفة بأسلوب القشيرى الذى ترجع معاشرتنا له إلى سنوات تزيد على العشر ، كذلك كثيراً ما نرجع إلى مصنفاته الأخرى لنتبيَّن رأيه فى موضع مناظر ومع كل ذلك فإننا دائماً نضع الأمر بين يدى القارئ لنترك له أن يشاركنا ، وله أن يقتنع بما نقول أو يتقبل ما نقلناه عن الناسخ بحذافيره حسبما يحلو له ، وله أن يرفض .

ومع أن الهوامش لا تخلو من تعليقات وشروح وتخريجات للحديث الشريف إلا أننا نشعر أنها مقتضبة وغير كافية ، فحرصنا على تزويد الناس بالمتن كان رائدنا الأول فى هذه المرحلة ، على أننا نَعِد — إن أعاننا الله — أن نتمم هذا العمل بشروح أكثر بسطة ، فليس «اللطائف» بأقل حاجة إلى الشروح من «الرسالة» التى حظيت باهتمام الدارسين والباحثين طوال أجيال متعاقبة .

النسخة المصرية

تبدأ هذه النسخة كما قلنا من قبل بالآية (إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل . . .) حتى نهاية الكتاب ، وترجع أهمية هذه النسخة إلى أنها أولا أكملت ما ينقص النسخة السوفيتية من قصار السور ، كما أنها ساعدت — نظراً لوضوح كتابتها أكثر من زميلتها — على التقليل من المشتبهات ، وتنجلى أهمية ذلك فى المجلدين الثالث والرابع .

ولسنا ندرى شيئاً عن الناسخ الذى اضطلع بها ولا عن تاريخ نسخها نظراً لأنها ناقصة من بدايتها كما أن الناسخ لم يترك شيئاً عنه فى نهايتها ، ونرجح أنها أحدث عهداً من النسخة السابقة اعتماداً على رسم الكتابة وقواعد الإملاء .

منهج القشيرى فى تأليف الكتاب وأهميته

صدّر القشيرى كتابه بمقدمة مفيدة أوضحت خطته فى تناول الأسلوب القرآنى ، وهذه المقدمة لا تلقى ضوءاً على الكتاب وحده إنما تقف بنا على المقصود بالتفسير الإشارى للقرآن ، وسائله وغاياته .

أطلق القشيرى على كتابه اسم « لطائف الإشارات » وإذاً فالتسمية التى زعمها صاحب كتاب (تاريخ أدبيات درايران) ج ٢ ص ٢٥٧ ط ثالثة سنة ١٣٣٩ غير صحيحة حيث يقول : « لطائف الإشارات فى حقائق العبارات » .

ومن المقدمة نفهم أن هذا اللون من التفسير يعتمد على استبطان خفايا الألفاظ — مفردة أو مركبة — دون التوقف عند حدود ظواهرها المألوفة ومعانيها القاموسية ، وإنما يُنظَر إلى اللفظة القرآنية على أنها ذات جوهر يدق على الفهم العادى ، وأهل التجريد وحدهم هم الذين يتاح لهم — بفضل من الله — العلم الذى يكشفون به عن هذا الجوهر .

وهناك رباط وثيق بين هذا العلم وبين العمل ؛ إذ لا يحظى به إلا من جرَّد قلبه من كل سانحة ، وصفَّى نفسه من كل كدورة ، وتهيأ بكل الهمة لهذه المهمة الجليلة : دراسة كلام الحق جلَّ ذكره ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

وفى ذلك يقول القشيرى فى مقدمته : « أكرم الأصفياء من عباده بفهم ما أودعه من لطائف أسراره وأنواره لاستبصار ما ضمنه من دقيق إشاراته وخفىِّ رموزه ، بما لوَّح لأسرارهم من مكنونات ، فوقفوا بما خصوا به من أنوار الغيب على ما استتر عن أغيارهم ، ثم نطقوا على مراتبهم وأقدارهم ، والحق — سبحانه وتعالى — يلهمهم بما به يكرمهم ، فهم به عنه ناطقون ، وعن لطائفه مخبرون ، وإليه يشيرون ، وعنه يفصحون ، والحكم إليه فى جميع ما يأتون به ويذرون » .

ويتضح — بادئ ذى بدء — أنَّ هذا اللون من الدراسة يفترق عن سائر ألوان الفكر الإسلامى فى أمور كثيرة ، لعلَّ أهمها عنصر الاصطفاء من قِبل الله ، فليس يُمكِن لغير من اختصهم الله بفضله أن يخوضوا فيه . فأنت تستطيع أن تكون متكلماً أو فيلسوفاً أو نحوياً أو أديباً إذا تَوَفَّرت لذلك ، وكان لديك استعداد ملائم ، وخصصته بعنايتك ، أمَّا أن تكون مستنبطاً للإشارة من العبارة فهذه خصوصية فريدة لابدَّ أن يسبقها اجتباء إلهى . كذلك يمكنك أن تكون عالماً فى أى فرع من فروع المعرفة دون أن يصحب ذلك عمل ، أمَّا أن تقبل على القرآن الكريم لتستشف الجواهر من وراء الظواهر فهذه مسألة ينبغى أن تقترن بجهود مضنية فى تصفية النفس والقلب من كل العلائق ، وتخليتهما عن كل الشواغل الدنية ، وتحليتهما بكل الأوصاف السنيَّة .

وربما كانت هذه الشروط المتصلة بالاجتباء المسبوق ، والعمل المقترن بالعلم من أسباب ندرة ما وصَلَنَا من هذا اللون من التفسير ، كما أنها قد تكون أسباب خروج بعض ما يحشر فى نطاقه — زوراً أو خطأ — عن التفسير الإشارى السديد .

فرق آخر يفرِق هذا اللون من التفسير عن غيره أنه لا يعتمد اعتماداً كلياً أو مسرِفا على العقل ، إنما هو يعنى بالأمور العقلية بالقَدْر الذى يُعْنَي به الصوفية بالعقل ، ونعْنِي به أن الذهن آلة لتصحيح الإيمان فى مراحل البداية ، أمَّا فيما فوق ذلك وفيما هو حثيث الخطو نحو المعارف العليا فهناك ملكات أخرى يناط بها حَمْل هذا العبء ، وهى فى مذهب القشيرى تندرج صعوداً من القلب إلى الروح إلى السر ثم إلى سر السر أو عين السر . معنى هذا أن استنباط الإشارات اللطيفة من النص القرآنى ليس عملية عقلية صرفة إلا فى الحدود التى تضمن عدم

افتيات الإشارة على العبارة ، فلا تخرج بها عن مألوف ما ينسجم مع الأسلوب العربى سواء من حيث اللغة أو النحو أو الاشتقاق أو الفنون الأدبية ، ولا تخرج بها عن الدلالات التى توافق أسباب النزول والأخبار الموثوقة وعلوم الحديث والأصول والفقه ، فكأن الإشارة ليست انبعاثاً تلقائياً محضاً ولكنها مقيدة — منذ البداية — بالكثير من العلوم العقلية والنقلية . فما أشبه موقف اللفظة القرآنية فى هذا المجال بموقف من يتهيأ لارتياد الطريق الصوفى ! فكلاهما يتعرّى عن ظاهره ، وكلاهما يخضع لما تتطلبه المعارف العقلية والنقلية من شرائط البداية ، وكلاهما يصبح صافياً رائقاً يشف درجة بعد درجة كلما زاد الصعود وارتقى القصود . . فاللفظة القرآنية فيها حياة وفيها نمو ، وفيها عوالم مضيئة متألقة تشبه تلك العوالم التى يتدرج فيها العابد الزاهد المريد العارف المحب .

قد يقال وأى فرق إذاً بين التفسير الإشارى وغيره من التفاسير مادام يعنى بالأمور العقلية والنقلية ؟ والجواب على ذلك أنه لا يعنى بهذه الأمور لذاتها ، ولا يوقف نفسه داخل أسوارها ، ولا يقطع العمر فى حزازاتها وخلافاتها ، إنما هى وسيلة فى الابتداء يلجأ إليها المفسر بمقدار ما يسعفه حظه منها لكى يفض الأغلفة الظاهرية . وهذه العناية إنْ التزمت بذلك صارت وسيلة من وسائل إقناعنا بأن التفسير الإشارى ليس عشوائياً يخب فيه كل من هبّ ودبّ ولكنه خاضع لنواميس وقواعد .

ونستطيع بعد ذلك أن نميِّز بين تفسير القشيرى فى « لطائفه » وبين أولئك الذين ننسب تفاسيرهم إلى التصوف وأهله ، أولئك الذين أسرفوا حين حمّلوا النص القرآنى فوق مايحتمل ، وبدلاً من أن يَخْضَعُوا للنص القرآنى أخضعوا النصّ القرآنىّ لنصرة مذاهبهم ، وساروا فى الدروب العقلية حتى جمحوا ، وابتعدوا عن الخط الأصيل حتى صارت تفاسيرهم جديرة بالدرس فى مجالس الفلسفة والكلام لا في مجالس الرياضات والمجاهدات والأحوال . أمَّا عند القشيرى فليس هناك مذهب عقلى خبيء ، ولا عقيدة باطنية مستورة ، كلُّ ما عنده من قصد أن يتمّ لقاء كاملٌ بين الشريعة والحقيقة فى ظلال كلمات الله — جل ذكره ، لأنه إذا لم يتم هذا اللقاء فى كنف كلام الله فأين يمكن أن يتم ؟ !

وهنا تلتقى هذه المحاولة التى بذلها فى « اللطائف » مع المحاولة التى بذلها فى « الرسالة »

فهو منذ الصفحة الأولى فى « رسالته » يحاول أن يُعرِّف بأن عقيدة الشيوخ « الذين بهم اقتداء » عقيدة سليمة لا تخرج في قليل أو كثير عن عقيدة التوحيد الرائقة الصافية ، ثم يسير فى تراجم الشيوخ ليختار لك من أقوالهم وأخبارهم وأفعالهم ما يؤيد ذلك ، ثم يبوِّب رسالته إلى التوبة والزهد والتوكل والرضا والمحبة . . . الخ . ولا ينثنى عند استفتاح كل باب عن ذكر آيات من كتاب الله الكريم بعدها أحاديث وأخبار عن الرسول صلوات الله عليه . . لماذا كل ذلك ؟ لكى يثبت أن هناك لقاء بين الشريعة والحقيقة ، وأنهما وجهان لشىء واحد .. تلك هى الغاية القصوى التى يطمح إليها هذا الإمام الجليل ، والتى من أجلها نذر عمره ، وخصص جهده ، ولم يضن عليها بشىء في استطاعته ، ولم يفارقه الطموح إليها فى مصنَّف من مصنفاته . . . وما أعظمها وما أشرفها من غاية !

فإذا كنَّا أخرجنا من نطاق التفسير الإشارى هذه التفاسير المنسوبة لبعض المنتسبين للتصوف فأولى أن نخرج من هذه التأويلات الاعتزالية والشيعية والبدعية والإلحادية وغيرها مما تعتمد فى مباحثها على أن للقرآن ظاهراً وباطناً ، ذلك لأن قضية الظاهر والباطن استغلت استغلالاً سيئاً لخدمة الكثير من العقائد الهدّامة ، وارتكبت فى حق الظاهر القرآنى جرائم خطيرة حين أريد له أن يؤول لنصرة الأغراض المريضة والدعوات الجامحة ، وفى ذلك يقول التفتازانى فى شرح العقائد النسفية : « سميت الملاحدة باطنية لادعائهم أن النصوص ليست على ظواهرها بل لها معانٍ باطنة لا يعرفها إلا المعلم ، وقصدهم بذلك نفى الشريعة بالكلية » ، ويستدرك التفتازانى قائلاً : « وأمَّا ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص على ظواهرها ومع ذلك فيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك يمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة فهو من كمال العرفان ومحض الإيمان » (شرح العقائد النسفية ط الحلبى سنة ١٣٢ هـ) .

والذى نحمده للقشيرى وينبغى أن نشيد به فى هذا التقديم أنه حرص أشد الحرص على النص القرآنى ، وأنه التزم بالنظر إليه نظرة اعتبار وتقديس ، وكان عمله أشبه بمن يقبس قطفات من الضوء من مشكاة كبيرة ينير بها الطريق أمام الزهاد والعارفين ، دون أن يتورط فى تعسّف أو ينزلق فى درب من دروب الشطط ، والسبب الهام الذى يعود إليه هذا المنهج

أنه سنيٌّ حريص على سنيته بقدر ما هو صوفى حريص على صوفيته ، فكان عليه أن يرضى أوساط أهل السنة فى الوقت الذى كان عليه أن ينفع الصوفية ، وأن يوضح لكلا الطرفين أن الأصول والفروع فى الحالين مستمدة من كتاب الله الكريم .

ولقد أعان القشيرى فى عمله أنه صنَّف قبل « اللطائف » كتاباً كاملاً فى تفسير القرآن على نحو تقليدى هو « التيسير فى التفسير » — الذى حصلنا على مصورة للجزء الخامس منه من أكاديمية العلوم السوفيتية — ونجده فى « التيسير » يعنى أشد العناية باللغة والاشتقاق والنحو وأسباب النزول والأخبار والقصص . وقد صنَّفه قبل أن يلتقى بشيخه الدقاق أى قبل أن يسلك المسلك الصوفى ، فأعانه ذلك على أن يفقه العبارة من معظم زواياها المتصلة بالظاهر ، حتى إذا بدأ يكتب « اللطائف » كان طريقه إلى الإشارة وإلى فقه الباطن ممهداً ، ومناله ميسوراً ، وآفاقه مُفَتَّحة .

* * *

سار القشيرى فى « اللطائف » على خطة واضحة محددة التزم بها من أول الكتاب إلى آخره ، فهو يبدأ بتفسير البسملة كلمة كلمة ، وأحياناً حرفاً حرفاً ، والبسملة تتكرر بلفظها فى مفتتح كل سورة ، ومع ذلك فإننا نجده يلجأ إلى تفسير كل بسملة على نحو ملفت للنظر ؛ إذ هى تختلف وتتنوع ولا تكاد تتشابه ، ويزداد إعجابنا بالقشيرى كلَّما وجدنا تفسير البسملة يتمشى مع السياق العام للسورة كلِّها ، فالله والرحمن والرحيم لها دلالات خاصة فى سورة القارعة ، ولها دلالات أخرى فى سورة النساء ولها دلالات خاصة فى الأنفال وهكذا . . .

ونستنتج من ذلك عدَّة نتائج :

أولا : أنه يعتبر البسملة قرآنا ، وليست كما يقول البعض — شيئاً يُستفتَح به للتبرك ، شأن ما نصنع فى بداية أقوالنا وأفعالنا (انظر « المغنى » للقاضى عبدالجبار المتوفى سنة ٤١٥ هـ جـ ١١ ط وزارة الثقافة (تراثنا) ص ١٦١) .

ثانياً : أنه ما دام يعتبر البسملة قرآنا ، وما دام يجد لها مقاصد متجددة ، فكأنه لا يؤمن بفكرة التكرار فى القرآن ، وفى ذلك يقول فى الورقة الثالثة من

اللطائف : « فلمَّا أعاد الله ـ سبحانه وتعالى ـ هذه الآية ـ أعنى بسم الله الرحمن الرحيم ـ فى كل سورة ، وثبت أنها منها أردنا أن نذكر فى كل سورة من إشارات هذه الآية كلمات غير مكررة وإشارات غير معادة » .

ثالثاً : أن لدى القشيرى قدرة غير عادية ونَفَساً طويلاً عند استبطان الظاهر ، لأننا نجده أمام أربع كلمات تتكرر بلفظها ومعناها من بداية القرآن إلى نهايته ، فإذا أضفنا إلى ذلك أنه سار على هذه السُّنَّة فى « التيسير » ازداد إعجابنا به وعجبنا له .

ومن الخير أن نضرب هنا مثلين لما صنع فى بسملة « اللطائف » لنستوضح مقاصده من هذا الاتجاه .

يقول فى بسملة سورة « الحجر » : « سقطت ألف الوصل من كتابة بسم الله وليس لإسقاطها علة ، وزِيدَ فى شكل الباء من بسم الله وليس لزيادتها علة ، لِيُعْلَمَ أنَّ الإثبات والإسقاط بلا علة ؛ فلا يَقْبَلُ من قَبِلَ لاستحقاق علة ، ولا ردَّ مَنْ ردَّ لاستيجاب (=لاستحقاق) علة . فإنْ قيل العلة فى إسقاط الألف من بسم الله كثرة الاستعمال فى كتابتها أُشْكِلَ بأن الباء فى بسم الله زيد فى كتابتها وكثرة الاستعمال موجودة . فإن قيل العلة فى زيادة شكل الباء بركة أفضالها بسم الله أشكل بحذف ألف الوصل لأن الاتصال فيها موجود . فلم يبقَ إلا أن الإثبات والنفى ليس لهما علة ؛ يرفع من يشاء ويمنع من يشاء » .

ويتضح من هذا أن استنباط الإشارة ليس — كما قلنا من قبل — مسألة عشوائية إنما هو خاضع لقواعد وأصول ، وإلى تفنيد لمختلف الآراء ، ومحاوله للإقناع .

وليس هذا فقط . . بل إنك لو تعمقت داخل السورة لأدهشك — كما أدهشنى — أن هناك صلة وثيقة محكمة بين هذا الذى فسرت به البسملة وبين كلام فى داخل السورة عن رفع الخلْق بلا علة ، وخفضهم بلا علة ، وذلك كما ورد فى قصة خلق آدم ، وكيف أن الملائكة (كانوا فى حال سترهم لأنهم نظروا إلى القوالب مع أن الاعتبار بالمعانى التى يودعها ، فالملائكة استصغروا قدْر آدم وحاله وتعجبوا من الأمر لهم بالسجود فكشف لهم شظيَّة مما اختصه فسجدوا للأمر وكذا حال من ادَّعى الخيرية) أما إبليس فلم يفطن للمشيئة الإلهية

العليا ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون (بعدما لاحت لهم المعرفة) وبقى هو على عناده متأبياً أن يسجد لبشر مخلوق من صلصال من حمأ مسنون (لأنه لا يعرف أن مشيئة الله تجرى على غير علة) .

وفى سورة براءة — التى نعرف أنها السورة الفريدة فى القرآن الكريم التى تبدأ بدون بسملة نجد الأمر يستوقف نظر القشيرى فلا يتركه كى يمر دون استنباط إشارة ، استمع إليه يقول : « الحقُّ — سبحانه — جرَّد هذه السورة عن ذكر البسملة لِيُعْلَمَ أنه يخصُّ من يشاء وما يشاء بما يشاء ، ويفرد من يشاء بما يشاء ، لا لِصُنْعِه سبب ، ولا فى أفعاله غرض ولا أَرَب . ومَنْ قال إنه لم يذكرها لأن السورة مفتتحة بالبراءة عن الكفار فهو — وإن كان وجهاً فى الإشارة — إلا أنه ضعيف ، وفى التحقيق كالبعيد ، لأنه افتتح سوراً من القرآن بذكر الكفار مثل قوله : « الذين كفروا . . » ومثل قوله « ويل لكل همزة لمزة » وقوله : « تبت يدا أبى لهب وتب » وقوله : « قل يأيها الكافرون . . . » فهذه كلها مفاتح السور ، والبسملة مثبتة فى أوائلها ، وهى متضمنة ذكر الكفار .

وقد يقال إنها تضمنت ذكر الكفار دون ذكر صريح للبراءة ، وإن تضمنته تلويحاً وهذه البراءة هنا فى ذكر البراءة من الكفار قطعاً فلم تصدر بذلك الرحمة ، وإذا كان تجرد السورة عن هذه الآية يشير إلى أنها لذكر الفراق فبالحرى أن يخشى أن تجرد الصلاة عنها يمنع كمال الوصلة والاستحقاق » .

... ... وبعد أن ينتهى القشيرى من بسط مذهبه فى كل بسملة على هذا النحو الطريف الممتع يبدأ فى تفسير السورة آية آية ، ولم يتخلَّ عن آية إلا فى مواضع نادرة ، بل ربما تكون الآية طويلة نسبياً ومع ذلك لا يتركها دون إشارة حتى ولو كانت سريعة مقتضبة « على سبيل الإقلال خشية الملال » كما يقول فى مقدمته .

ولا بد أن القارئ يتوقع أن نسوق إليه موقف القشيرى من الحروف المقطعة التى تلى البسملة فى عديد من السور نظراً لما دار حول هذه الحروف من جدل كثير ، ونظراً لأنها لبعدها عن مألوف الكلام العادى أقرب ما تكون إلى الرموز وبمعنى آخر أقرب ما تكون إلى الإشارات أى أدْخَلَ فى عمل القشيرى فى « لطائف الإشارات » . وربما كان أفضل

ما نورده هنا قول القشيرى فى (الم) التى افتتحت بها سورة البقرة لأنها كانت أول حروف مقطعة يقابلها أثناء عمله . يقول : « هذه الحروف المقطعة فى أوائل السور من المتشابه الذى لا يعلم تأويله إلا الله عند قوم . ولكل كتاب سر ، وسرُّ الله فى القرآن هذه الحروف المقطعة . وعند قوم أنها مفاتيح أسمائه ، فالألف من اسم « الله » واللام يدل على اسم « اللطيف » ، والميم يدل على اسم « المجيد » و « الملك » .

وقيل أقسم الله بهذه الحروف لشرفها لأنها بسائط أسمائه وخطابه ، وقيل إنها أسماء السور ، وقيل الألف تدل على اسم « الله » واللام على اسم « جبريل » والميم تدل على اسم « محمد » صلى الله عليه وسلّم ، فهذا الكتاب نزل من الله على لسان جبريل إلى محمد (ص) .

والألف من بين سائر الحروف انفردت عن أشكالها بأنها لا تتصل بحرف فى الخط ، وسائر الحروف يتصل بها إلا أحرف يسيرة ، فلينتبه العبد عند تأمل هذه الصفة لاحتياج الخلْق بجملتهم إليه واستغنائه عن الجميع .

ويقال[1] يتذكر العبد المخلص من حالة الألف تَقَدُّسَ الحق — سبحانه وتعالى — عن التخصص ، ذلك أن سائر الحروف لها محل من الحَلْق والشفة واللسان إلى غيرها من المخارج ، غيرِ الألف فإنها هويته لا تضاف إلى محل .

ويقال الإشارة منها إلى انفراد العبد لله سبحانه ، فيكون كالألف لا يتصل بحرف ، ولا يزول عن حالة الاستقامة والانتصاب بين يديه .

ويقال يطالب العبد فى سره عند مخاطبته بالألف بانفراد القلب إلى الله تعالى ، وعند مخاطبته باللام بلين الجانب ، وعند سماع الميم بموافقة أمره فيما يكلفه . وقد اختص كل حرف بصفة مخصوصة ، وانفردت الألف باستواء القامة والتميز عن الاتصال بشىء من أضرابها من الحروف فجعل لها صدر الكتاب إشارة إلى أن من تجرَّد عن الاتصال بالأمثال والأشغال حظى بالمرتبة العليا ، وفاز بالدرجة القصوى ، وصَلُحَ للتخاطب بالحروف المنفردة التى هى غير

---

(١) عندما يقول القشيرى « ويقال ... » فليس معنى ذلك دائماً أن يورد بعدئذ رأياً لغيره فربما — وهذا هو الغالب — أنه يقصد إلى توضيح وجهة نظره من زوايا مختلفة .

مركبة على سُنَّةِ الأحباب فى ستر الحال ، وإخفاء الأمر على الأجنبي من هذه القصة ، قال شاعرهم :

قلت لها قفى قالت قاف

ولم يقل وقفتُ ستراً عن الرقيب ، ومراعاةً لقلب الحبيب ، وهكذا تكثر العبارات للعموم ، والرموز والإشارات للخصوص ، أَسْمَعَ موسى كلامه فى ألف موطن ، وقال نبيَّنا صلى الله عليه وسلم : « أوتيت جوامع الكلم فاختُصِرَ لى الكلام اختصاراً » وقال بعضهم :

قال لى مولاى ما هذا الدنف قلتُ تهوانى قال : لام ألف

... ... ويمضى القشيري بعد ذلك فيستخرج للصوفية إشارات ثمينة مما يصادفه فى الآية من حكم تشريعى يتصل بالقتال والغنيمة والأسر والكيل والميزان والدين والشهادة ونحو ذلك أو كلام فى العبادات كالصوم والصلاة والحج والزكاة أو ما يعود بالآية إلى أسباب نزولها والأخبار والقصص التى رويت من حولها ، أو ما تحتوى من مظاهر قدرة المولى ــ جل وعلا ــ فى خلق الإنسان والكون .

وينبغى ألا ننتظر من القشيرى إسهاباً فى الأحكام الفقهية والقواعد التعبدية والأسانيد ونحو ذلك فما لهذا ألَّف كتابه ، ولا يصح للقارئ أن يتوقع منه ذلك فهناك تفاسير مخصوصة وضعت للوفاء بهذه الأمور ، إنما قصد القشيرى إلى استمداد شيء نافع للصوفية يتدعم به رأى من آرائهم أو عمل من أعمالهم ، فهذا هو مقصوده ، وتلك مراميه ، ونحن من أجل ذلك نقول بلا تحفظ إن « لطائف الإشارات » يمثل تمثيلاً صادقا مذهب القشيرى فى التصوف أكثر مما تمثله « الرسالة » فهو يغنى عنها وهى لا تغنى عنه .

وعلينا الآن أن نسوق أمثلة قليلة توضح موقف القشيرى فى تلك الأمور حتى يعرف القارئ منذ البداية أى نوع من التفسير ذلك الذى نضعه بين يديه . ففيما يختص بالأحكام التشريعية نراه مثلاً عند الآية الكريمة « واعلموا أن ما غنمتم من شىء فأنَّ لله خمسه » يقول : الغنيمة ما يحصل عليه المؤمنون من أموال الكفار إذا ظفروا عند الجهاد والقتال . ولمَّا كان الجهاد قسمين : جهاد الظاهر مع الكفّار وجهاد الباطن مع النفس والشيطان ، وكما أن للجهاد

الأصغر غنيمة عند الظفر كذلك للجهاد الأكبر غنيمة وهو أن يملك نفسه التي كانت في يد عدوِّه : الهوى والشيطان ، وبعد أن كانت ظواهره مقراً للأعمال الذميمة وباطنه مُسْتَقَرّاً للأحوال الدنيئة يصير محلُّ الهوى مسكنَ الرضا ، ومقرُّ الشهواتِ والمنى محلاً لما يرد عليه من مطالبات المولى ، وتصير النَّفْسُ مستلبة من إصرار الشهوات ، والقلبُ مختطفاً من وصف الغفلات ، والروح منزوعة من أيدي العلاقات ، والسرُّ مصوناً من الملاحظات . وكما أنَّ من جملة الغنيمة سهماً لله وللرسول وهو الخُمْس فما هو غنيمة — على لسان الإشارة — سهم خالص لله وهو مالا يكون للعبد فيه نصيب لا من كرائم العقبى ولا من ثمرات التقريب ولا من خصائص الإقبال ، فيكون العبد عند ذلك محرراً عن رقِّ كل نصيب ، خالصاً لله بالله ، يمحو ما سوى الله » .

ونلفت نظر القارئ إلى ما ورد في هذا النص من ترتيب الملكات الباطنة للإنسان من أسفل إلى أعلى ، وهي : النفس ثم القلب ثم الروح ثم السر ، ولكل منها وظيفة ولكل وظيفة غاية ، كما أن لكلٍّ منها آفات ولكن لكل علاج . . . والكلام في ذلك كله موزع في الكتاب حسب السياق الذي توحي به آيات الكتاب الكريم . والقشيري مشكور أعظم الشكر حين التزم بهذا الترتيب ، ولم يتخلَّ عنه لا في اللطائف وحده بل في كل ما بين أيدينا من مصنفاته ، حتى صار له مذهب واضح السمات بارز القسمات في المعراج الروحي ، وتفصيل ذلك موضح في كتابنا عن « مذهبه في التصوف » الذي هو القسم الأول من بحثنا للدكتوراه .

ويطابق القشيري بين ما يحدث من نسخ لبعض الأحكام وبين ما يحدث من نسخ في السلوك الصوفي حيث يقول عند قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل . . . » « حكم هذه الآية كان ثابتاً في الشرع ، ولكنه نسخ بعده . والنسخ هو الإزالة ، ومعنى النسخ في سلوك المريدين أنهم في الابتداء فرضهم القيام بالظاهر من حيث المجاهدات ، فإذا لاح لهم من أحوال القلوب شيء آلت أحوالهم إلى مراعاة القلوب فتسقط عنهم أوراد الظاهر » .

أما فيما يختص بالعبادات فإننا نلحظ أن القشيري يغتنم كل فرصة كي يوضح ضرورة التزام العبد بأدائها مهما أوغل في الفناء عن نفسه ، فليس ثمة عذر لسقوطها عنه أو إعفائه

منها ، كذلك نراه يهتم اهتماماً ملحوظاً بالحث على التغلغل في بواطنها ، ومعرفة جواهرها ، فهي ليست رسوماً ظاهرية يؤديها البدن وحسب ولكنها ذات مقاصد بعيدة .

فاستقبال القبلة عند الصلاة له عند القشيري إشارة : (لتكن القبلة مقصود نفسك ، وسبحانه مقصود مشهود قلبك ، لا تعلق قلبك بأحجار وآثار ، وأفرد قلبك لي) وعند قوله تعالى « وأتموا الحج والعمرة لله » يقول : « إتمام الحج على لسان العلم القيام بأركانه وسننه وهيئته ، وإراقة الدماء التي تجب فيه ، وعلى لسان أهل الإشارة الحج هو القصد ، فقصدٌ إلى بيت الحق وقصدٌ إلى الحق ، فالأول حج العوام والثاني حج الخواص ، وكما أن الذي يحج بنفسه يحرم ويقف ثم يطوف بالبيت ويسعى ثم يحلق ، فكذلك من يحج بقلبه فإحرامه بعقد صحيح على قصد صحيح ، ثم يتجرد عن لباس مخالفاته وشهواته ثم باشتماله بثوبي صبره وفقره ، وإمساكه عن متابعة حظوظه من اتباع الهوى وإطلاق خواطر المنى ، وما في هذا المعنى ، ثم الحاج أشعث أغبر تظهر عليه آثار الخشوع والخضوع والتلبية ، وأفضل الحج الشجّ والعجّ ، فالشج صب الدم والعج رفع الصوت بالتلبية فكذلك سفك دم النفس بسكاكين مخالفتها ، ورفع أصوات السر بدوام الاستغاثة وحسن الالتجاء والوقوف بساحات القربة باستكمال أوصاف الهيبة . وموقف النفوس عرفات وموقف القلوب الأسامي والصفات (= أسماء الله الحسنى وصفاته) ، وطواف القلوب حول مشاهد العز ، والسعي بالأسرار بين صفي كشف الجلال ولطف الجمال ، ثم التحلل بقطع أسباب الرغائب والاختيار والمنى والمعارضات بكل وجه » .

ونسمع القشيري عند : « كتب عليكم الصيام . . . » يقول : « الصوم على ضربين : صوم ظاهر وهو الإمساك عن المفطرات مصحوباً بالنية ، وصوم باطن وهو صون القلب عن الآفات ، ثم صون الروح عن المساكنات ، ثم صون السر عن الملاحظات . . . .

ونهاية الصوم إذا هجم الليل ، ولكن من أمسك عن الأغيار فصومه نهايته أن يشهد الحقّ . والصوم لرؤية الهلال والإفطار لرؤيته كما يقول عليه السلام فالرؤية عائدة على الهلال ، وعند أهل التحقيق فالرؤية عائدة إلى الحق ؛ فصومهم لله حتى شهودهم ، وفطرهم لله ، وإقبالهم على الله ، والغالب عليهم الله » .

هذا عن العبادات أما عن أسباب النزول فينظر إليها القشيرى كما ينظر إلى مورد المثَلِ ومضربه ، فالآية « ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله » يقول عندها القشيرى : « نزلت حين أمر اللهُ رسولَه بقطع بعضها فقالت اليهود : أى فائدة فى هذا ؟ أَمِنَ الصلاحِ قطع النخل وعقر الشجر ؟

فوجد المسلمون فى أنفسهم من قولهم ، فأنزل الله تعالى الآية ، وأن ذلك بإذن الله ، وانقطع الكلام ، وفى هذا دليل على أنَّ الشريعة غير مُعَلَّلة ، وأنه إذا جاء الأمرُ الشرعىُّ بطل طلب التعليل ، وسكتت الألسنة عن المطالبة : بِلِمَ ؟ وهكذا من قال لأستاذه وشيخه : لِمَ ؟ لم يفلح ، وكلُّ مريد يكون لأمثال هذه الخواطر فى قلبه جَوَلان لا يجىء منه شىء ، ومَنْ لم يتجرد قلبه عن طلب الاعلال ولم يباشر حسن الرضا لكل ما يجرى ، واستحسان ما يبدو من الغيب من الله — بسرِّه وقلبه — فليس من الله فى شىء » .

وفى قوله تعالى : « إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة » يقول : « نزلت هذه الآية فى أهل رجل من اليمن ترك لهم جنة مثمرة ، وكان يتصدَّق منها للمساكين ، فلما ورثه أهله قالوا : لن نفعل فعله ، وأقسموا ألا يعطوا شيئاً ، فأهلكَ الله جنتهم . وندموا وتابوا » وهذه حال من له بداية حسنة ، ويجد التوفيق على التوالى ، ويجتنب المعاصى ، فيعوضه الله فى الوقت نشاطاً ، وتلوح فى باطنه أحوال فإذا بَدَرَ منه سوء دعوى ، وترك أدَباً من آداب الخدمة تنسدُّ عليه تلك الأحوال ، ويقع فى فترة ، فإذا حصل منه بالعبادات والفرائض إخلال انقلب حاله ، ورُدَّ عن الوصال إلى البعاد ، ومن الاقتراب إلى الاغتراب عن الباب ، وصارت صفوته قسوة ، فإن كان له بعد ذلك توبة على ماسلف ، وندامة على ما فات من أمره ، فقلَّما يصل إلى حاله ، ولكن لا يبعد أن ينظر إليه الحق بأفضاله ، فيقبله بعد ذلك ، رعايةً لما سلف منه فى البداية من أحواله ، فإن الله تعالى رءوف بعباده » .

ومن مظاهر القدرة الإلهية فى الكون والحياة والإنسان لا يغيب عن القشيرى أن يستمد إشارات مناسبة يوجهها نحو الموضوعات الصوفية فيقول مثلاً عند « ألم نخلقكم من ماء مهين » : « مهين أى حقير ذكَّرهم أصل خلقتهم لئلا يعجبوا بأحوالهم ، فإنه لا جنس من المخلوقات والمخلوقين أشد دعوى من بنى آدم ، ومن الواجب أن يتفكر الإنسان فى أصله ،

كان نطفة وفى انتهائه إلى جيفة ، وفى وسائط حاله كنيف فى قميص ، فبالحرىّ ألا يدل ولا يفخر . . . ثم صوَّره فأحسن صورته ؛ فهو قادر على أن يرقيك من الأحوال الخسيسة إلى المنازل الشريفة النفيسة .

والإنسان أفضل من الجان لأن الجان من نار ، والنار بالماء تنطفىء وتصبح رماداً ولا يجىء منها شىء . أمَّا الطين (الإنسان) فإذا انكسر عاد به الماء إلى ما كان عليه ، ولذلك العدو (إبليس) انطفأ ما كان يلوح عليه من سراج الطاعة ، ولكن آدم عليه السلام لما اغترَّ جَبَرَهُ ماء العناية فقال تعالى : ثم اجتباه ربه » .

« خلق الإنسان من طين ولكنه تعالى « يحبهم ويحبونه » خلق الإنسان من طين ولكنه تعالى « رضى الله عنهم ورضوا عنه » خلق الإنسان من طين ولكنه يقول « اذكرونى أذكركم » خلق الإنسان من طين ولكن :

فكم أبصرت من حُسْنٍ ولكن عليك من الورى وقع اختيارى

* * *

وبعد . . . فهذه أمثلة سريعة أردنا أن نقدمها للتدليل على المواقف التى يتخذها القشيرى فى ظلال القرآن من زوايا مختلفة وفى ظروف متنوعة ، ومن مجموع هذه المواقف يتحصل مذهبه فى التصوف فضلاً عن مذهبه فى الكلام ، وهنا تجدر الإشارة إلى أنه حاول أن يحل بطريق العلم الصوفى ما عجز المتكلمون عن حلِّه ، فحين حلَّ القلبُ محلَّ العقل ليصعد ويقصد نحو الملأ الأعلى ، وأصبح الحقُّ مناط الأمل لم يعد هناك معنى لأى حديث فى الجبر والاختيار والحسن والقبيح والثواب والعقاب — على النحو الذى اشتجر من حوله الخلاف بين المتكلمين . الله — فى عرف هذا الصوفى وفى عرف الصوفية الخُلَّص — مشهود ومحبوب لا معبود فقط ، وكلُّ كلام عن جبر الحب وعذاب الحب يسمُج ويسخف ، وهل هناك أجمل من أن يتعذب الإنسان فى حبه حتى يهلك ؟ ألا ما أروعها من غاية ! وما أجدر من أن يضيع العمر بين فقد ووجد !

وما أعظم أن يكون الحقُّ خلَفاً لك عن كل حطام الدنيا وأن تكون مشاهدته بديلاً لك عن كل نعيم الجنان !

* * *

بقيت مسألة هامة لا أحب أن أنهي هذا التقديم دون أن أوضحها ، وهي قيمة هذا الكتاب من الناحية الأدبية .

والواقع أن المسألة أكثر شمولا وأوسع أبعاداً من أن تنصرف إلى « لطائف الإشارات » وحده أو حتى إلى أعمال القشيري كلها ، إنها تتصل بقضية أعظم هي الطريقة التي يؤخذ بها الإنتاج الصوفي عموماً ، فما زلنا حتى الآن نكتفي بدراسة الأعمال الصوفية ضمن الدراسات الفلسفية والعقلية ، فالتصوف في جامعاتنا يدرس في أقسام الفلسفة بينما لا يدرس في أقسام اللغة العربية وآدابها ، وإذا حدث شيء من ذلك فهو ينتقل إليها بطريق أساتذة الفلسفة .

وإني لأتساءل : إلى متى يظل الحال هكذا ؟ إن الوضع مقلوب ، فالمشتغلون بالأدب أولى باحتضان التصوف ، لأن الإنتاج الصوفي — في كثير من الأحوال — درر من المنظوم والمنثور ، والصوفية أنفسهم قوم يصرحون أن مذهبهم لا يعنى بالعقل إلا في مراحل البداية من أجل تصحيح الإيمان ، أمَّا طريقهم بعد ذلك فوثيق الصلة بالقلب والوجدان ، فهم بذلك يقتربون من أهل الفن وينأون عن أهل العقل ، هم في حاجة إلى من يتذوق أقوالهم أكثر مما هم في حاجة إلى من يتفكر فيها ، وتجربتهم في الفناء تدنو من تجربة الإلهام في الفن ، ومصطلحاتهم التي وضعوها لأنفسهم تنم عن بصر نافذ في الأسلوب العربي والاشتقاق ، وهكذا يفرض الإنتاج الصوفي نفسه على الدراسات الأدبية ، بينما المشتغلون بهذه الدراسات لا يكادون يحركون ساكناً .

وليس بمعقول أن أقنع القارىء بجدوى دراسة « اللطائف » من الناحية الأدبية بواسطة هذه السطور القليلة ، فهذا له مكان آخر ، إنما قصدت لأثير قضية عامة قد يؤدي الأخذ بها إلى تصحيح كثير من المقاييس التي تتصل بالتصوف وبالأدب على حد سواء .

وفي تقديرنا أن منهج القشيري في استخراج الإشارة من العبارة منهج أدبي ، لأنه يعتمد على تذوق اللفظة — مفردة ومركبة — تذوقاً ينبني على أصول من اللغة والاشتقاق والإعراب والبلاغة ، ثم إن التعبير الذي يفصح به القشيري تعبير أدبي له خصائص الأسلوب الأدبي والصياغة الفنية ، ومعنى هذا أنه نظر للقرآن بمنظار أدبي وعبّر عن نظرته بطريقة أدبية ، وليس أدخل في التفسير الأدبي من منهج كهذا ، حيث استكمل ناحيتين : أدب المفسِّر وأدب المفسَّر .

حقاً إن القرآن كتاب دين وهداية وتشريع وعلم وغير ذلك مما يمكن أن تحج إليه المقاصد الإنسانية تلتمس فيه زاداً ينمى المعارف، ويثرى العلوم، ويفتح مغاليق الأمور. ولكنه قبل كل ذلك معجزة فنية بهرت سامعيها أول ما بهرتهم بالبيان، والنظم، والقول، فوجدوا لذلك حلاوة، وعليه طلاوة، وهم أهل لَسَنٍ وفصاحة، فنحن نعلم أن المعجزة تكون من جنس معجزات المخاطبين ولكنها من حيث الدرجة أعلى قَدْراً وأصعب دَرَكا وأعزُّ منالاً.

نخرج من هذا إلى أن دراسة إعجاز القرآن إن أغفلت تفسيراً كاللطائف — راعى فيه صاحبه أدبَ المفسَّر وأدب المفسِّر — إنما تغفل عن رافدٍ غنى من روافد الدراسات القرآنية.

ويمكنُ أن نضرب أمثلة سريعة توضح طريقة القشيرى عندما يتصدّى لبعض الجوانب فى الأسلوب القرآنى.

فمن اللفظة المفردة تنبعث إيحاءات جميلة مؤثرة تزيد المعنى قوة وتأكيداً؛ كأن يقول عند قوله تعالى: « بل هم فى شك يلعبون »: اللعب فعل يجرى على غير ترتيب، تشبيهاً باللُّعاب الذى يسيل لا على نظام مخصوص، فوصف المنافق باللعاب تصويراً لتردده وتحيره وشكه فى عقيدته ».

والتسبيح عنده مرتبط « بالسباحة فى بحار التوحيد بلا شاطئ، فبعدما حصلوا فيها فلا خروج ولا براح لحازت أيديهم جواهر التفريد، نظموها فى عقود الإيمان ورصعوها فى أطواق الوصلة ».

والفجر « انفجار الصبح كما يَتفجَّر الماء من الصخر ».

ومن القصة تنبعث إيحاءات ممتعة، فمريم حين خوطبت « وهزِّى إليك بجذع النخلة »: كان ذلك الجذع يابساً أخرج الله سبحانه فى الوقت الرُّطَبُ الجنىَّ، وكان ذلك آية ودلالة على أن الذى قدر على فعل هذا قادر على خلق عيسى عليه السلام من غير أب، وقد أمرت بهز النخلة اليابسة حينما جاءتها علاقة الولد بعد أن كانت لا تتكاف السعى إذ كان زكريا يدخل عليها المحراب فيجد عندها رزقا، أمرت بهز النخلة وهى فى أضعف حالها زمان قرب عهدها بوضع الولد ليعلم أن العلاقة توجب المشقة والعناء، أمرت بهز النخلة اليابسة وأمكنها ذلك وهى فى حال ضعفها وفى ذلك أوضح دلالة على صدقها ... ».

وإذا ضرب القرآن مثلاً بالكلب أو الذبابة أو البعوضة أو التى نقضت غزلها من بعد قوة ، فإن هذا التصوير القرآنى الأخاذ له على وجدان القشيرى الأديب وقع مؤثر ، يقول مثلا (. . . . وضرب المثل بالبعوضة لأنها إذا جاعت فوّت وطارت ، وإذا شبعت تشققت وتلفت ، كذلك الإنسان ليطغى أن رآه استغنى . « وما فوقها » أى الذباب ، وجهة الإشارة فى أن للذباب وقاحة حيث يعود عند البلاغ فى الذبِّ ، والله سبحانه خلق القوة فى الأسد ولكنه خلق فيه النفور من الناس ، وخلق الضعف فى الذباب ، ولكنه خلق فيه الوقاحة ، وتلك حكمة الله) .

والمظاهر الكونية فى القرآن مصادر إشارات لا تنتهى وهى من أقوى الوسائل التى استغلها القشيرى لتوضيح حقائق العلم الصوفى فالشمس والقمر ، والليل والنهار ، والجبال والبحار ، والسحب والأمطار . . . . كلها توحى بمعانٍ كثيرة لتوضيح الفروق الدقيقة بين الطوالع واللوامع واللوائح ، وعلم اليقين وحق اليقين ، وعلوم الإنسان العقلية والمعارف اللدنية . . . . إلى آخره .

يقول عند « كلا والقمر » : أقمار العلوم إذا أخذ هلالها فى الزيادة بزيادة البراهين فإنها تزداد حتى إذا صارت إلى حد التمام وبلغت الغاية تبدو أعلام المعرفة ، ثم تأخذ علوم البراهين فى النقصان حين تطلع شموس المعرفة ، وكما أن القمر كلما قرب من الشمس يزداد نقصانه حتى يصير محاقا كذلك إذا ظهر سلطان العرفان تأخذ أقمار العلوم فى النقصان بزيادة المعارف كالسراج فى ضوء الشمس) .

وتوقف القشيرى طويلاً عند المواقف النفسية وعند الاستدلالات الوجدانية فى الأسلوب القرآنى فكشف الكثير من أسرار الإعجاز القرآنى كما أبان عن عبقريته فى التذوق الفنى ، وليس ذلك غريباً بالنسبة لصوفى ذى بصيرة كاشفة ، وشاعرٍ له حس دقيق مرهف ، وباحثٍ متعمق فى أغوار النفس البشرية ، وأديبٍ يحسن التعبير عما يذوق ويجد .

نفعنا الله بعلمه وبركته ؟

دكتور ابراهيم بسيونى

نرمز للنسخة السوفيتية المصوَّرة بالحرف (ص)

ونرمز للنسخة المصرية بالحرف (م)

ونرمز للرسالة القشيرية ط الحلبي سنة ١٩٥٩ (بالرسالة)

صورة لورقة من النسخة السوفيتية

رَبِّ يَسِّرْ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى شرح قلوب أوليائه بعرفانه ، وأوضح نهج الحق بلائح برهانه ، لمن أراد طريقه ، وأتاح البصيرة لمن ابتغى تحقيقه ، وأنزل الفرقان هدىً وتبيانا ، على صفيِّه محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله — معجزة وبيانا ، وأودع صدور العلماء معرفته وتأويله ، وأكرمهم بعلم قصصه ونزوله ، ورزقهم الإيمان بمُحْكَمِهِ ومتشابهه وناسخه ، ووعده ووعيده ، وأكرم الأصفياء من عباده بفهم ما أودعه من لطائف أسراره وأنـ(واره) لاستبصار ما ضمنَّه من دقيق إشاراته ، وخفيِّ رموزه ، بما لوَّح لأسرارهم من مكنونات ، فوقفوا بما خُصُّوا به من أنوار الغيب على ما استتر عن أغيارهم ، ثم نطقوا على مراتبهم وأقدارهم ، والحق سبحانه وتعالى يلهمهم بما به يكرمهم ، فهم به عنه ناطقون وعن لطائفه مخبرون[1] وإليه يشيرون ، وعنه يفصحون ، والحُكْمُ إليه فى جميع ما يأتون به ويذرون .

قال الإمام جمال الإسلام أبو القاسم القشيرى رحمه الله : وكتابنا هذا يأتى على ذكر طرف من إشارات القرآن[2] على لسان أهل المعرفة ، إما من معانى مقولهم ، أوقضايا أصولهم ، سلكنا فيه طريق الإقلا (ل) خشية الملال ، مستمدين من الله تعالى عوائد المِنَّة ، متبرئين من الحول والمُنَّة[3] مستعصمين من الخطأ والخلل ، مستوفقين لأصوب القول والعمل ، ملتمسين أن يصلى على سيدنا محمد صلى الله عليه و (سلَّم) ، ليختم لنا بالحسنى بمنِّه وأفضاله . وتيسَّر الأخذ

---

(١) وردت فى ص (مخبرون) والسياق لا يتطلبها .

(٢) ما تحته خط هو تكملة اعتمدنا فى إثباتها هنا على ما جاء فى (تذكرة النوادر) التى اقتبست بضع فقرات رجوعاً إلى نسخة أخرى .

(٣) المُنَّة بضم الميم القوة .

فى ابتداء هذا الكتاب فى شهور سنة أربع وثلاثين وأربعمائة[1] ، وعلى الله إتمامه إن شاء الله تعالى عز وجلّ .

سورة فاتحة الكتاب

هذه السورة بدا (ية) الكتاب ، ومفاتحة الأحباب بالخطاب والكتاب منه أجلّ النُّعمى ، وأكْرَمُ الحسنى إذ هى (. . .)[2] وابتداء وفى معناه قيل .

أفديك بل أيام دهرى كلها   تفدين أياماً (. . . . .)

سُقْياً لمعهدك الذى لو لم يكن   ما كان قلبي للصبابة معهداً[3]

ولقد كان صلى الله عليه وسلم غير مُرتقِبٍ لهذا الشأن ، وما كان هذا الحديث منه على بال ، وحينما نزل عليه جبريل صلوات الله عليه وسلامه أخذ فى الفرار ، وآثر التباعد لهذا الأمر آوى (. . .) قائلاً : دثرونى دثرونى ، زمِّلونى زمِّلونى ، وكان يتحنَّث فى حِراء ، ويخلو هنالك (. . . .) فجأة ، وصادفته القصة بغتةً كما قيل :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى   فصادف قلبي فارغاً فتمكّنا[4]

وكان صلوات الله عليه وسلم رَضِىَ بأن يقال له أجير خديجة ولكن (الحق سبحانه وتعالى أراده لأن)[5] يكون سيد الأولين والآخرين حيث قال . يَس والقرآن الحكيم ، (رفعه إلى) أشرف المنازل وإن لم يسم إليه بطرف التأميل سُنَّة منه تعالى وتقدّس (. . .) إلا عند من تقاصرت الأوهام عن استحقاقه ، ولذلك ما قصُّوا العَجَب من شأنه (. . .) يتيم أبى طالب

---

(١) اعتمدنا في استكمال رقمى الآحاد والعشرات من السنة على (تذكرة النوادر) حيث سقطا فى ص . وبهذا يبطل قول صاحب كشف الظنون (المجلد الثانى ص ١٥٥١) بأن القشيرى ألف اللطائف قبل عام ٤١٠ ، ويبدو أن الأمر قد التبس على حاجى خليفة فظن تاريخ تأليف « التيسير فى التفسير » هو تاريخ تأليف « اللطائف » .

(٢) مابين الأقواس المفرغة ساقط فى ص ومن حسن الحظ أن السقوط الكثير على هذا النحو لا يتكرر بعد الورقتين الأولى والثانية من (ص) .

(٣) اعتمدنا فى تكملة البيت على هذا النحو على وروده فى (م) كاملا عند تفسير سورة الحديد .

(٤) الشطر الثانى من البيت ناقص فى (ص) ومكمل فى (م) عند تفسير آية : علم القرآن من سورة الرحمن

(٥) زيادة أضفناها ليستقيم المعنى .

من بين البرِيّة ، ولقد كان صلوات الله عليه وسلم فى سابق (علمه) سبحانه وتعالى مُقدَّماً على الكافة من أشكاله وأضرابه ، وفى معناه قيل :

هـذا (. . .) أطار وكان فى فقر من السيار
آثرُ عندى (بالإكبار) من أخى (ومن) جارى
وصاحب الدرهم (والدينار) فإن صاحب الأمر مع الإكثار[1]

ولقد كان صلى الله عليه وسلم قبل النبوة حميد الشأن ، (محمود) الذكر ، ممدوح الإسم ، أميناً لكل واحد . وكانوا يسمونه محمداً الأمين ، ولكن (الكافرين) (. . .) حالته ، بدّلوا اسمه ، وحرّفوا وصفه ، وهجنّوا ذكره ، فواحد كان يقول ساحر وآخر يقول (. . .) وثالث يقول كاذب ، ورابع يقول شاعر :

أشاعوا لنا فى الحى أشنع قصة وكانوا لنا سلماً فصاروا لنا حربا

وهكذا صفة المُحِبّ ، لا ينفك عن الملام ولكن كما قيل

أجد الملامة فى هواك لذيذة حباً لذكرك فليلمنى اللُّوَّمُ[2]

وماذا عليه من قبيح قالة (من) يقول ، (والحق سبحانه يقول) : « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبِّح بحمد ربك» أى استمع إلى ما يقال فيك بحسن الثناء علينا .

[فصل] وتسمى هذه السورة أيضاً أمّ الكتاب ، وأم الشىء أصله ، وإمام كل شىء مقدّمه . وهذه السورة لما تشتمل عليه من الأمر بالعبودية ، والثناء على الله بجمال الربوبية ، ثم[3] كالها من الفضائل — لا تصح الفرائض إلا بها . وقوله صلى الله عليه وسلم مخبراً عنه سبحانه وتعالى : « قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين » يعنى قراءة هذه السورة ، فصارت أمّ الكتاب ، وأصلاً لما تنبنى عليه من لطائف الكرامات وبدائع التقريب والإيجاب .

---

(١) أضاع البياض الذى فى المصورة كثيراً من ألفاظ هذه الأبيات فحاولنا إضافة بعض الألفاظ . وإن كان وزن الشعر ما زال غير سليم .
(٢) وردت خطأ فى (ص) : فليسلمنى اللؤم .
(٣) لا نستبعد أن تكون فى الأصل (تمّ) كالها ...

قوله جل ذكره : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

الباء فى بسم الله حرف التضمين ؛ أى بالله ظهرت الحادثات ، وبه وجدت المخلوقات ، فما من حادث مخلوق ، وحاصل منسوق ، من عين وأثر وغبر ، وغيرٍ من حجر ومدر ، ونجم وشجر ، ورسم وطلل ، وحكم وعلل — إلا بالحق وجوده ، والحق مَلِكُه ، ومن الحق بدؤه ، وإلى الحق عوده ، فبه وَجَدَ من وَحَّد ، وبه جحد من ألحد[1] ، وبه عرف من اعترف ، وبه تخلَّف من اقترف .

وقال « بسم الله » ولم يقل بالله على وجه التبرك بذكر اسمه عند قوم ، وللفَرْق بين هذا وبين القَسَم عند الآخرين ، ولأن الاسم هو المسمى عند العلماء ، ولاستصفاء القلوب من العلائق ولاستخلاص الأسرار عن العوائق عند أهل العرفان ، ليكون ورود قوله « الله » على قلبٍ مُنَقًّى وسرٍ مُصَفًّى . وقوم عند ذكر هذه الآية يتذكرون من الباء (بره)[2] بأوليائه ومن السين سره مع أصفيائه ومن الميم منته على أهل ولايته ، فيعلمون أنهم ببره عرفوا سرّه ، وبمنته عليهم حفظوا أمره ، وبه سبحانه وتعالى عرفوا قدره . وقوم عند سماع بسم الله تذكروا بالباء براءة الله سبحانه وتعالى من كل سوء ، وبالسين[3] سلامته سبحانه عن كل عيب ، وبالميم مجده سبحانه بعز وصفه ، وآخرون يذكرون عند الباء بهاءه ، وعند السين سناءه ، وعند الميم ملكه ، فلما أعاد الله سبحانه وتعالى هذه الآية أعنى بسم الله الرحمن الرحيم فى كل سورة وثبت أنها منها أردنا أن نذكر فى كل سورة من إشارات هذه الآية[4] كلمات غير مكررة[5] ، وإشارات غير معادة ، فلذلك نستقصى القول ها هنا وبه الثقة .

---

(١) وردت فى ص (اللحد) .

(٢) سقطت فى ص وأثبتناها لأن ما بعدها يدل عليها .

(٣) وردت فى ص (بالسنين) .

(٤) من هنا ندرك أن القشيرى يعتبر البسملة قرآنا خلافاً لمن يعدونها من قبيل الاستفتاح والتبرك ، فتبدأ بها القراءة كما يُفعل فى سائر الأفعال (أنظر المغنى للقاضى عبد الجبار ج ١١ ط وزارة الثقافة سلسلة تراثنا ص ١٦١) .

(٥) من هنا ومما نعلم من مذهب القشيرى نراه لا يعتقد فى فكرة التكرار فى القرآن لأن التكرار أليق بالمخلوقين ولأسباب أخرى لا محل لها هنا .

قوله جل ذكره : ﴿ الحمد لله ﴾

حقيقة الحمد الثناء على المحمود ، بذكر نعوته الجليلة وأفعاله الجميلة ، واللام ها هنا للجنس ، ومقتضاها الاستغراق ؛ فجميع المحامد لله سبحانه إمَّا وصفاً وإمَّا خلقاً ، فله الحمد لظهور سلطانه ، وله الشكر لوفور إحسانه . والحمد لله لاستحقاقه لجلاله وجماله ، والشكر لله لجزيل نواله وعزيز أفضاله ، فحمده سبحانه له هو من صفات كماله وحَوْله ، وحمد الخَلْق له على إنعامه وطوْله ، وجلاله وجماله استحقاقه لصفات العلو ، واستيجابه لنعوت العز والسمو ، فله الوجود (قدرة)[1] القديم ، وله الجود الكريم ، وله الثبوت الأحدى ، والكون الصمدى ، والبقاء الأزلى ، والبهاء الأبدى ، والثناء الديمومى ، وله السمع والبصر ، والقضاء والقدر ، والكلام والقول ، والعزة والطوْل ، والرحمة والجود ، والعين والوجه والجمال ، والقدرة والجلال ، وهو الواحد المتعال ، كبرياؤه رداؤه ، وعلاؤه سناؤه ، ومجده عزه ، وكونه ذاته ، وأزله أبده ، وقدمه سرمده ، وحقه يقينه ، وثبوته عينه ، ودوامه بقاؤه ، وقدره قضاؤه ، وجلاله جماله ، ونهيه أمره ، وغضبه رحمته ، وإرادته مشيئته ، وهو الملك بجبروته ، والأحد فى ملكوته . تبارك الله سبحانه ! ! فسبحانه ما أعظم شأنه !

[فصل] عَلِمَ الحق سبحانه وتعالى شدة إرادة أوليائه بحمده وثنائه ، وعجزَهم عن القيام بحق مدحه على مقتضى عزه وسنائه فأخبرهم أنه حَمِد نفسه بما افتتح به خطابه بقوله : « الحمد لله » فانتعشوا بعد الذلة ، وعاشوا بعد الخمود ، واستقلت أسرارهم بكمال التعزز حيث سمعوا ثناء الحق عن الحق بخطاب الحق ، فنطقوا ببيان الرمز على قضية الأشكال . وقالوا :

ولوجهها من وجهها قمر ولعينها من عينها كحل

هذا خطيب الأولين والآخرين ، سيد الفصحاء ، وإمام البلغاء ، لمَّا سمع حمده لنفسه ، ومدحه سبحانه لحقِّه ، علم النبي أن تقاصر اللسان أليق به فى هذه الحالة فقال : « لا أحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

داوود لو سمعت أذناه قالتها لما ترنم بالألحان داوود
غنت سعاد بصوتها فتخاذلت ألحان داوود من الخجل

(١) هذه كلمة زائدة يمكن الاستغناء عنها ، ويرجح ذلك نظم الأسلوب وسياق المعنى ، أو ربما كانت (قِدَمه) .

[فصل] وتتفاوت طبقات الحامدين لتباينهم فى أحوالهم ؛ فطائفة حمدوه على ما نالوا من إنعامه وإكرامه من نوعى صفة نفعه ودفعه ، وإزاحته وإتاحته ، وما عقلوا عنه من إحسانه بهم أكثره ما عرفوا من أفضاله معهم قال جل ذكره : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » ، وطائفة حمدوه على مالاح لقلوبهم من عجائب لطائفه ، وأودع سرائرهم من مكنونات بره ، وكاشف أسرارهم به من خفى غيبه ، وأفرد أرواحهم به من بواده مواجده . وقوم حمدوه عند شهود ما كاشفهم به من صفات القدم ، ولم يردوا من ملاحظة العز والكرم إلى تصفح أقسام النعم ، وتأمل خصائص القِسَم ، و (فرق بين)[1] من يمدحه بعز جلاله وبين من يشكره على وجود أفضاله ، كما قال قائلهم :

وما الفقر عن أرض العشيرة ساقنا ولكننا جئنا بلقياك نسعد

وقوم حمدوه مُسْتَهْلَكين عنهم فيما استنطقوا من عبارات تحميده ، بما اصطلم أسرارهم من حقائق توحيده ، فهم به منه يعبِّرون ، ومنه إليه يشيرون ، يُجرى عليهم أحكام التصريف ، وظواهرهم[2] بنعت التفرقة مرعية ، وأسرارهم مأخوذة بحكم جمع[3] الجمع ، كما قالوا :

بيان بيان الحق أنت بيانه وكل معانى الغيب أنت لسانه

قوله جل ذكره : ﴿ ربِّ العالمين ﴾

الرب هو السيد ، والعالمون جميع المخلوقات ، واختصاص هذا الجمع بلفظ العالمين لاشتماله على العقلاء والجمادات فهو مالك الأعيان ومُنشيها ، ومُوجِد الرسوم والديار بما فيها .

ويدل اسم الرب أيضاً على تربية الخلق ، فهو مُربٍ نفوس العابدين بالتأييد ومربٍ قلوب الطالبين بالتسديد ، ومربٍ أرواح العارفين بالتوحيد ، وهو مربٍ الأشباح بوجود النِّعم ، ومربٍ الأرواح بشهود الكرم .

ويدل اسم الرب أيضاً على إصلاحه لأمور عباده من ربيت الأديم أربه ؛ فهو مصلح أمور الزاهدين بجميل رعايته ، ومصلح أمور العابدين بحسن كفايته ، ومصلح أمور الواجدين

(١) وردت (وفر ...) ثم بعدها بياض فأكملناها على هذا النحو ليتم المعنى .

(٢) وردت (وظاهرم) ولكن السياق يقتضى ما أثبتناه .

(٣) وردت (جميع الجمع) ولكن الاصطلاح الصوفى هو جمع الجمع وهو درجة فوق الجمع وجمع الجمع هو الاستهلاك بالكلية وفناء الإحساس بما سوى الله (رسالة القشيرى ط سنة ١٩٥٩ ص ٣٩) .

بقديم عنايته ، أصلح أمور قوم فاستغنوا بعطائه ، وأصلح أمور آخرين فاشتاقوا للقائه ، وثالث أصلح أمورهم فاستقاموا للقائه ، قال قائلهم :

ما دام عزُّك مسعوداً طوالعه فلا أبالى أعاش الناس أم فقدوا

قوله جلَّ ذكره : ﴿ الرحمن الرحيم ﴾

اسمان مشتقان من الرحمة ، والرحمة صفة أزلية وهى إرادة النعمة وهما اسمان موضوعان للمبالغة ولا فضل بينهما عند أهل التحقيق .

وقيل الرحمن أشد مبالغة وأتم فى الإفادة ، وغير الحق سبحانه لايسمى بالرحمن على الإطلاق، والرحيم ينعت به غيره ، وبرحمته عرف العبد أنه الرحمن، ولولا رحمته لما عرف أحد أنه الرحمن ، وإذا كانت الرحمة إرادة النعمة ، أو نفس النعمة كما هى (عند قوم فالنعم فى أنفسها مختلفة ، ومراتبها متفاوتة فنعمة هى)[1] نعمة الأشباح والظواهر ، ونعمة هى نعمة الأرواح والسرائر .

وعلى طريقة من فرَّق بينهما فالرحمن خاص الاسم عام المعنى ، والرحيم عام الاسم خاص المعنى ؛ فلأنه الرحمن رزق الجميع ما فيه راحة ظواهرهم ، ولأنه الرحيم وفق المؤمنين لما به حياة سرائرهم ، فالرحمن بما روَّح ، والرحيم بما لوَّح ؛ فالترويح بالمَبارِّ ، والتلويح بالأنوار : والرحمن بكشف تجَلِّيه والرحيم بلطف تولِّيه ، والرحمن بما أولى من الإيمان والرحيم بما أسدى[2] من العرفان ، والرحمن بما أعطى من العرفان والرحيم بما تولَّى من الغفران ، بل الرحمن بما ينعم به من الغفران والرحيم بما يَمُنُّ به من الرضوان ، بل الرحمن بما يكتم به والرحيم بما ينعم به من الرؤية والعيان ، بل الرحمن بما يوفق ، والرحيم بما يحقق ، والتوفيق للمعاملات ، والتحقيق للمواصلات ، فالمعاملات للقاصدين ، والمواصلات للواجدين ، والرحمن بما يصنع لهم والرحيم بما يدفع عنهم ؛ فالصنع بجميل الرعاية والدفع بحسن العناية .

قوله جل ذكره : ﴿ مالك يوم الدين ﴾

المالك من له المِلْك ، ومُلك الحق سبحانه وتعالى قدرته على الإبداع ، فالملك مبالغة من المالك وهو سبحانه الملك المالك ، وله المُلك . وكما لا إله إلا هو فلا قادر على الإبداع إلا هو ، فهو بإلهيته متوحد ، وبملكه متفرد ، ملك نفوس العابدين فصرفها فى خدمته ، وملك قلوب العارفين فشرّفها بمعرفته ، وملك نفوس القاصدين

---

(١) تكملة فى الهامش استدرك بها الناسخ فأثبتناها فى موضعها .
(٢) وردت (أسرى) والأصح (أسدى) .

فتيمَّها ، وملك قلوب الواجدين فهيَّمها . ملك أشباح مَنْ عَبَدَه فلاطفها بنواله وأفضاله ، وملك أرواح مَنْ أحبهم (. . . .)[1] فكاشفها بنعت جلاله ، ووصف جماله . ملك زمام أرباب التوحيد فصرفهم حيث شاء على ما شاء ووفقّهم حيث شاء على ما شاء كما شاء ، ولم يَكِلْهم إليهم لحظة ، ولا مَلَّكهم من أمرهم سِنَةً ولا خطرة ، وكان لهم عنهم ، وأفناؤهم له منهم[2] .

[فصل] مَلَكَ قلوبَ العابدين إحسانُه فطمعوا فى عطائه ، وملك قلوب الموحدين سلطانُه فقنعوا ببقائه . عرَّف أربابَ التوحيد أنه مالكهم فسقط عنهم اختيارهم ، علموا أن العبد لا ملك له ، ومن لا ملك له لا حكم له ، ومن لا حكم له لا اختيار له ، فلا لهم عن طاعته إعراض ولا على حكمه اعتراض ، ولا فى اختياره معارضة ، ولا لمخالفته تعرّض ، « ويوم الدين » يومُ الجزاء والنشر ، ويوم الحساب والحشر — الحق سبحانه وتعالى يجزى كلاً بما يريد ، فمِنْ بين مقبولٍ يوم الحشر بفضله سبحانه وتعالى لا بفعلهم ، ومن بين مردودٍ بحكمه سبحانه وتعالى لا بجُرْمِهم . فأمَّا الأعداء فيحاسبهم ثم يعذبهم وأمَّا الأولياء فيعاتبهم ثم يقربهم :

قومٌ إذا ظفروا بنا جادوا بعتق رقابنا

قوله جل ذكره : ﴿ إياك نعبد وإياك نستعين ﴾

معناه نعبدك و نستعين بك . والابتداء بذكر المعبود أتمّ من الابتداء بذكر صفته — التى هى عبادته واستعانته ، وهذه الصيغة أجزل فى اللفظ ، وأعذب فى السمع . والعبادة الإتيان بغاية ما فى (بابها)[3] من الخضوع ، ويكون ذلك بموافقة الأمر ، والوقوف حيثما وقف الشرع .

والاستعانة طلب الإعانة من الحق .

والعبادة تشير إلى بذل الجهد والمُنَّة ، والاستعانة تخبر عن استجلاب الطول والمِنَّة ، فبالعبادة يظهر شرف العبد ، وبالاستعانة يحصل اللطف للعبد . فى العبادة وجود شرفه ، وبالاستعانة أمان تلفه . والعبادة ظاهرها تذلل ، وحقيقتها تعزُّز وتجمُّل :

وإذا تذللت الرقاب تقرباً مِنَّا إليك ، فعزُّها فى ذُلِّها

---

(١) مشتبهة فى ص ، وربما كانت (وأحبوه) .

(٢) (له) هنا معناها لأجله اى أنه أفنام من أنفسهم لأجله ليبقوا به ، وكان الأسلم أن تكون العبارة : وأفناؤهم منهم له ولكن حَرَص المصنِّف على مراعاة الانسجام بين عنهم ومنهم .

(٣) وردت (بابه)

وفى معناه :

حين أسلمْتَني لذالٍ ولام ألقيتني فى عينٍ وزاى[1]

[فصل] العبادة نزهة القاصدين[2] ، ومستروح المريدين ، ومربع الأنس للمحبين ، ومرتع البهجة للعارفين . بها قُرَّةُ أعينهم ، وفيها مسرة قلوبهم ، ومنها راحة أرواحهم . وإليه[3] أشار صلى الله عليه وسلم بقوله : أرِحنا بها يا بلال » . ولقد قال مخلوق فى مخلوق :

يا قوم ثارى عند أسمائى يعرفه السامع والرائى

لا تدعنى إلا بيا عبدها فإنه أصدق أسمائى

والاستعانة إجلالك لنعوت كرمه ، ونزلك بساحة جوده ، وتسليمك إلى يد حكمه ، فتقصده بأمل فسيح ، وتخطو إليه بخطو وسيع ، وتأمل فيه برجاء قوى[4] ، وتثق بكرم أزلى ، وتتكل على اختيار سابق ، وتعتصم بسبب جوده (غير ضعف)[5] .

قوله جل ذكره : ﴿ إهدنا الصراط المستقيم ﴾

الهداية الإرشاد ، وأصلها الإمالة ، والمهدىُّ من عرف الحق سبحانه ، وآثر رضاه ، وآمن به . والأمر فى هذه الآية مضمر ، فمعناه اهدنا بنا[6] — والمؤمنون على الهداية فى الحال — فمعنى السؤال الاستدامة والاستزادة . والصراط المستقيم الطريق الحق وهو ما عليه أهل التوحيد . ومعنى إهدنا أى مِلْ بنا إليك ، وخُذْنا لك ، وكن علينا دليلنا ، ويَسِّرْ إليك سبيلنا ، وأقم لنا هممنا ، واجمع بك هومنا .

[فصل] إقطعْ أسرارنا عن شهود الأغيار ، ولوِّح فى قلوبنا طوالع الأنوار ، وأفرِدْ

---

(١) وردت و (زار) (٢) وردت (القاصرين) (٣) أى وإلى ذلك أشار

(٤) وردت (قومى) وهى غير مناسبة للمعنى .

(٥) إما أن تكون زائدة أو ينقصها حرف الجر في فتكون (فى غير ضعف) أو تكون (غير ضَعِف) (أساس البلاغة ص ٥٦٣) أى غير متكثر بالأسباب لجلب المال .

(٦) ويكون المعنى على هذا أقم فينا ما يجعلنا نهتدى به إليك ، ولكن نرجح أن يكون قد وقع خطأ من الناسخ وأن الأصل (إهدنا بك) لأن ذلك يتفق مع مذهب القشيرى وغيره من الصوفية حيث يعتبرون كل شىء يقع من العبد مرده إلى الحق سبحانه ، فلا قدرة للعبد — وحده — على معرفة الله ، ولا على الاهتداء إليه ، وتدل الدلائل فيما بعد على ذلك مثل قوله (فنجدك بك) . وأما أن يكون الأصل (إهدِ بنا) أى — كما جاء فيما بعد — مِلْ بنا .

قصودنا إليك عن دَنَس الآثار ، ورقِّنا عن منازل الطلب والاستدلال إلى جَمْع ساحات القُرب والوصال .

[فصل] حُلْ بيننا وبين مساكنة[1] الأمثال والأشكال ، بما تلاطفنا به من وجود الوصال ، وتكاشفنا به من شهود الجلال والجمال .

[فصل] أرْشِدْنا إلى الحق لئلا نتكل على وسائط المعاملات ، ويقع على وجه التوحيد غبار الظنون وحسبان الإعلال .

إهدنا الصراط المستقيم أى أَزِلْ عنَّا ظلماتِ أحوالنا لنستضىء[2] بأنوار قُدْسِك عن التفيؤ بظلال طلبنا ، وارفع عنا ظل جهدنا لنستبصر بنجوم جودك ، فنجدك بك .

[فصل] اهدنا الصراط المستقيم حتى لا يصحبنا قرين من نزغات الشيطان ووساوسه ، ورفيق من خطرات النفوس وهواجسها ، أو يصدنا عن الوصول تعريج فى أوطان التقليد ، أو يحول بيننا وبين الاستبصار ركون إلى معتاد من التلقين ، وتستهوينا آفة من نشو أوهوادة ، وظن أو عادة ، وكلل أو ضعف إرادة ، وطمع مالٍ أو استزادة .

[فصل] الصراط المستقيم ما عليه من الكتاب والسنة دليل ، وليس للبدعة عليه سلطان ولا إليه سبيل . الصراط المستقيم ماشهدت بصحته دلائل التوحيد ، ونبهت عليه شواهد التحقيق . الصراط المستقيم ما دَرَجَ عليه سَلَفُ الأمة ، ونطقت بصوابه دلائل العبرة . الصراط المستقيم ما باين الحظوظَ سالكُه ، وفارق[3] الحقوقَ قاصدُه . الصراط المستقيم ما يُفْضِى بسالكه إلى ساحة التوحيد ، ويُشْهِدُ صاحبَه أثرَ العناية والجود ، لئلا يظنّه موجَبٌ (ببذل)[4] المجهود .

---

(١) وردت (ساكنة) والأصح بالميم فقد جاءت كذلك فى مواضع كثيرة أخرى .

(٢) وردت خطأ (لنصتضىء) .

(٣) وردت (وفارن) فى ص ، والأصح أن تكون بالقاف ؛ فالحظوط للعبد والحقوق للحق .

(٤) وردت (بذل) بدون باء والأقوى فى رأينا أن تكون بالباء وأن نقرأ موجب بفتح الجيم أى مستحق ، وبذلك يتضح موقف القشيرى من قضية هامة وهى ؛ هل يجب على الله أن يثيب المطيع ؟ ولا يرى القشيرى هذا الوجوب لأنه يربط كل عمل للعبد بالعناية الإلهية لا بالمجهود الإنسانى . وقد صدق الرسول (ص) حين قال : « ما منكم من أحد ينجيه عمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمته » .

قوله جل ذكره : ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾

يعنى طريق من أنعمتَ عليهم بالهداية إلى الصراط المستقيم ، وهم الأولياء والأصفياء . ويقال طريق من (أفنيتهم)[1] عنهم ، وأقمتهم بك لك ، حتى لم يقفوا فى الطريق ، ولم تصدهم عنك خفايا المكر . ويقال صراط من أنعمت عليهم بالقيام بحقوقك دون التعريج على استجلاب حظوظهم .

ويقال صراط من (طهرتهم)[2] عن آثارهم حتى وصلوا إليك بك .

ويقال صراط من أنعمت عليهم حتى تحرروا من مكائد الشيطان ، ومغاليط[3] النفوس ومخاييل الظنون ، وحسبانات الوصول قبل خمود آثار البشر(ية) .

ويقال صراط من أنعمت عليهم بالنظر والاستعانة بك ، والتبرى من الحول والقوة ، وشهود ماسبق لهم من السعادة فى سابق الاختيار ، والعلم بتوحيدك فيما تُمضيه من المَسَار والمضار .

ويقال صراط الذين أنعمت عليهم بحفظ الأدب فى أوقات الخدمة ، واستشعار نعت الهيبة .

ويقال صراط الذين أنعمت عليهم بأن حفظت عليهم آداب الشريعة وأحكامها عند غلبات (بواده)[4] الحقائق حتى لم يخرجوا عن حد العلم ، ولم يُخِلُّوا بشىء من أحكام الشريعة . ويقال صراط الذين أنعمت عليهم حتى لم تطفئْ شموسُ معارفهم أنوارَ ورعهم ولم يُضيِّعُوا شيئاً من أحكام الشرع[5] .

ويقال صراط الذين أنعمتَ عليهم بالعبودية عند ظهور سلطان الحقيقة .

قوله جلّ ذكره : ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾

---

(1) وردت (أقمتهم) فى ص

(2) وردت (ظهرتهم) فى ص

(3) وردت (مغاليظ) فى ص

(4) وردت (بواد)

(5) نلاحظ أن القشيرى يلح كثيراً على التزام آداب الشريعة مهما غلبت على العبد سطوة الامحاء ، واستلبه سلطان الفناء ، ويحسن هنا أن نشير إلى اصطلاح فى مذهب القشيرى وهو الفرق الثانى وهى حالة عزيزة يرد عندها العبد إلى الصحو لكى يؤدى ما يجب عليه من الفرائض فى أوقاتها ، ويكون رجوعه لله بالله (انظر الرسالة القشيرية ص ٣٩) .

المغضوب عليهم الذين صدمتهم هواجم الخذلان[1] ، وأدركتهم مصائب الحرمان ، وركبتهم سطوة الرد ، وغلبتهم بوّاده الصد والطرد .

ويقال هم الذين لحقهم ذل الهوان ، وأصابهم[2] سوء الخسران ، فشغلوا فى الحال باجتلاب الحظوظ — وهو فى التحقيق (شقاء) ؛ إذ يحسبون أنهم على شيء ، وللحق فى شقائهم سر .

ويقال هم الذين أُنِسُوا بنفحات التقريب زماناً ثم أظهر الحق سبحانه فى بابهم شانا ؛ بُدِّلوا بالوصول بعادا ، وطمعوا فى القرب فلم يجدوا مرادا ، أولئك الذين ضلّ سعيُهم ، وخاب ظنهم .

ويقال غير المغضوب عليهم بنسيان التوفيق ، والتعامى عن رؤية التأييد . ولا الضالين عن شهود سابق الاختيار ، وجريان التصاريف والأقدار .

ويقال غير المغضوب عليهم بتضييعهم آداب الخدمة ، وتقصيرهم فى أداء شروط الطاعة .

ويقال غير المغضوب عليهم هم الذين تقطعوا فى مفاوز الغيبة ، وتفرّقت بهم الهموم في أودية وجوه الحسبان .

[فصل] ويقول العبد عند قراءة هذه السورة آمين ، والتأمين سُنَّة ، ومعناه يارب افعل واستجب ، وكأنه يستدعى بهذه القالة التوفيق للأعمال ، والتحقيق للآمال ، ويحط رِجْله بساحات الافتقار ، ويناجى حضرة الكرم بلسان الابتهال ، ويتوسل (بتبريه)[3] عن الحول والطاقة والمُنَّة والاستطاعة إلى حضرة الجود . وإن أقوى وسيلة للفقير تعلقه بدوام الاستعانة لتحققه بصدق الاستغاثة .

السورة التى تذكر فيها البقرة . . قوله تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

الإسم مشتق من السمو والسِّمَة ، فسبيل من يذكر هذا الاسم أن يتسم بظاهره بأنواع المجاهدات ، ويسمو بهمته إلى محَالّ المشاهدات . فمن عَدِم سمة المعاملات على ظاهرة ، وفَقَدَ

(١) يقول القشيرى في الرسالة (ومنهم من تغيرم البواده وتصرفه الهواجم ، ومنهم من يكون فوق ما يفجؤه حالا ووقتاً .. أولئك م سادات الوقت) ص ٤٤ .

(٢) وردت (أحبابهم) .

(٣) وردت (ببريته) والصواب (بتبريه) .

سُمُوَّ الهِمَّةِ للمواصلات بسرائره لم يَجِدْ لطائف الذكر عند قالته ، ولا كرائم القرب في صفاء حالته .

[فصل] معنى الله : الذى له الإلهية ، والإلهية استحقاق نعوت الجلال . فمعنى بسم الله : باسم من تفرَّد بالقوة والقدرة . الرحمن الرحيم من توَحَّد فى ابتداء الفضل والنصرة . فسماع الإلهية يُوجِبُ الهيبةَ والاصطلام ، وسماع الرحمة يوجِبُ القربة والإكرام . وكُلٌّ مَنْ لاطفه الحق سبحانه عند سماع هذه الآية ردَّه بين صحو ومحو ، وبقاء وفناء ، فإذا كاشفَه بنعت الإلهية أشهده جلاله ، فحاله محو . وإذا كاشفه بنعت الرحمة أشهده جماله فحاله صحو :

أغيب إذا شَهِدْتُكَ ثم أحيا ... فكم أحيا لديك وكم أبيدُ

قوله جل ذكره : ﴿ الم ﴾

هذه الحروف المقطعة فى أوائل السورة من المتشابه الذى لا يعلم تأويله إلا الله — عند قوم ، ويقولون لكل كتاب سر ، وسر الله فى القرآن هذه الحروف المقطعة . وعند قوم إنها مفاتح أسمائه ، فالألف من اسم « الله » ، واللام يدل على اسمه « اللطيف » ، والميم يدل على اسمه « المجيد » و « الملك » .

وقيل أقسم الله بهذه الحروف لشرفها لأنها بسائط أسمائه وخطابه .

وقيل إنها أسماء السور .

وقيل الألف تدل على اسم « الله » واللام تدل على اسم « جبريل » والميم تدل على اسم « محمد » صلى عليه وسلم ، فهذا الكتاب نزل من الله على لسان جبريل إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

والألِف من بين سائر الحروف انفردت عن أشكالها بأنها لا تتصل بحرف فى الخط وسائر الحروف يتصل بها إلا حروف يسيرة ، فينتبه العبد عند تأمل هذه الصفة إلى احتياج الخلق بجملتهم إليه ، واستغنائه عن الجميع .

ويقال يتذكر العبد المخاص[1] مِنْ حالة الألف تَقَدُّسَ الحق سبحانه وتعالى عن التخصص

---

(١) وردت في ص (المخلص) وهى خطأ من الناسخ .

بالمكان ، فإن سائر الحروف لها محل من الحَلقْ أو الشفة[1] أو اللسان إلى غيره من المدارج[2] غير الألف فإنها هويته ، لا تضاف إلى محل .

ويقال الإشارة منها إلى انفراد العبد لله سبحانه وتعالى فيكون كالألف لا يتصل بحرف ، ولا يزول عن حالة الاستقامة والانتصاب بين يديه .

ويقال يطالب العبد فى سره عند مخاطبته بالألف بانفراد القلب إلى الله تعالى ، وعند مخاطبته باللام بلين جانبه فى (مراعاة) حقه ، وعند سماع الميم بموافقة أمره فيما يكلفه .

ويقال اختص كل حرف بصيغة مخصوصة وانفردت الألف باستواء القامة ، والتميز عن الاتصال بشىء من أضرابها من الحروف ، فجعل لها صدر الكتاب إشارة إلى أن من تجرَّد عن الاتصال بالأمثال والأشغال حَظِى بالرتبة العليا ، وفاز بالدرجة القصوى ، وصلح للتخاطب بالحروف المنفردة التى هى غير مركبة ، على سنة الأحباب فى ستر الحال ، وإخفاء الأمر على الأجنبى من القصة — قال شاعرهم :

قلت لها قفى قالت قاف
لا تحسبي أنَّا نسينا لا يخاف

ولم يقل وقفت ستراً على الرقيب ولم يقل لا أقف مراعاة لقلب الحبيب بل: «قالت قاف» .

ويقال تكثر العبارات[3] للعموم والرموز والإشارات للخصوص ، أَسْمَعَ موسى كلامَه فى ألف موطن ، وقال لنبينّا محمد صلى الله عليه وسلم : أَلِفْ . . . وقال عليه السلام : أوتيتُ جوامعْ الكَلِم[4] فاختُصِرَ لى الكلامُ اختصاراً » وقال بعضهم : قال لى مولاى : ماهذا الدنَف ؟

قلت : تهوانى ؟ قال : لام الف

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك الكتاب لا ريب فيه ﴾

---

(١) وردت فى ص (الشفق) وهى خطأ من الناسخ .
(٢) معناها المخارج — كما جاء فى الهامش .
(٣) وردت فى ص (العبادات) والأصح بالراء لأن القشيرى فى مواضع كثيرة يقابل بين العبارة والإشارة
(٤) وردت فى ص (القلم) وهى خطأ من الناسخ . وسيأتى تخريج الحديث فى هامش قريب .

قيل ذلك الكتاب أى هذا الكتاب ، وقيل إشارة إلى ما تقدم إنزاله من الخطاب ، وقيل ذلك الكتاب الذى وعدتُك إنزاله عليك يوم الميثاق .

لا ريب فيه ، فهذا وقت إنزاله . وقيل ذلك الكتاب الذى كتبتُ فيه الرحمةَ على نفسى لامتك — لا شك فيه ، فتحقق بقولى .

وقيل الكتاب الذى هو سابق حكمى ، وقديم قضائى لمن حكمت له بالسعادة ، أو ختمت عليه بالشقاوة لا شك فيه .

وقيل (حكمى الذى أخبرت أن رحمتى سبقت على غضبى لا شك فيه[1]) .

وقيل إشارة إلى ما كتب فى قلوب أوليائه من الإيمان والعرفان ، والمحبة والإحسان ، وإن كتاب الأحباب عزيز على الأحباب ، لا سيما عند فقد اللقاء ، وبكتاب الأحباب سلوتهم وأنسهم ، وفيه شفاؤهم ورَوْحهم ، وفى معناه أنشدوا :

وكُتْبُكَ حولى لا تفارق مضجعى وفيها شفاء للذى أنا كاتم

وأنشدوا :

ورد الكتاب بما أَقَرَّ عيوننا وشفى القلوب فَنِلْن غايات المنى
وتقاسم الناسُ المسرةَ بينهم قِسَماً وكان أجلهم حَظًّا أنا[2]

قوله جل ذكره : ﴿ هُدىً للمتقين ﴾

أى بياناً وحجة ، وضياء ومحجة ، لمن وقاه الحق سبحانه وتعالى من ظلمات الجهل ، وبصَّره بأنوار العقل ، واستخلصه بحقائق الوصل . وهذا الكتاب للأولياء شفاء ، وعلى الأعداء عمًى وبلاء . المُتَّقى من اتقى رؤية تقاه ، ولم يستند إلى تقواه ، ولم يَرَ نجاته إلا بفضل مولاه .

قوله جل ذكره : ﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة﴾

---

(١) ما بين القوسين تكملة استدرك بها الناسخ فأثبتها فى هامش الصفحة .

(٢) لم يكن الناسخ يظهر اهتماماً بأبيات الشعر فوصلتنا رديئة الخط كثيرة الأخطاء فقمنا بتصحيحها بقدر الإمكان حتى تبدو ذات معنى ، وذلك استناداً إلى حالة لها أكثر ضبطاً إما في مواضع أخرى من هذا الكتاب أو من كتب القشيرى الأخرى .

حقيقة الإيمان التصديق ثم التحقيق ، وموجب الأمرين التوفيق . والتصديق بالعقل والتحقيق ببذل الجهد ، فى حفظ العهد ، ومراعاة الحد . فالمؤمنون هم الذين صدّقوا باعتقادهم ثم الذين صَدَقُوا فى اجتهادهم .

وأمَّا الغيب فما يعلمه[1] العبد مما خرج عن حد الاضطرار ؛ فكل أمر دينى أدركه العبد بضرب استدلال ، ونوع فكر واستشهاد فالإيمان به غَيْبِيٌّ . فالرب سبحانه وتعالى غيب . وما أخبر الحق عنه من الحشر والنشر ، والثواب والمآب ، والحساب والعذاب — غيب .

وقيل إنما يؤمن بالغيب من كان معه سراج الغيب ، وأن من أيّدوا ببرهان العقول آمنوا بدلالة العلم وإشارة اليقين ، فأوْرَدَهم صدقُ الاستدلال ساحاتِ الاستبصار ، وأوصلهم صائبُ الاستشهاد إلى مراتب السكون ؛ فإيمانهم بالغيب بمزاحمة علومهم دواعى الريب . ومن كوشف بأنواع التعريف أسبل عليهم سجوف الأنوار ، فأغناهم بلوائح البيان عن كل فكر وروية ، وطلب بخواطر ذكية ، وردٍّ وردع لدواعٍ ردية ، فطلعت شموس أسرارهم فاستغنوا عن مصابيح استدلالهم ، وفى معناه أنشدوا :

لَيْلِى من وجهك شمس الضحا وظلامه فى الناس سارى
والناس فى سدف الظلا م ونحن فى ضوء النهار

وأنشدوا :

طلعت شمس من أحبّك ليلاً فاستضاءت ومالها من غروب
إن شمس النهار تغرب بالليل وشمس القلوب ليست تغيب[2]

ومن آمن بالغيب بشهود الغيب غاب فى شهود الغيب فصار غيباً بغيب .

وأمَّا إقامة الصلاة فالقيام بأركانها وسننها ثم الغيبة[3] عن شهودها برؤية مَنْ يُصَلَّى له[4]

(١) وردت (يعمله) والأرجح أن تكون (يعلمه) حتى تتلاءم مع طبيعة الغيب .

(٢) وردت (مما لها) ، (وتغيب بالليل) ، (ليت تغيب) وقد صححنا ذلك بما يتلاءم مع الوزن والمعنى

(٣) وردت (ثم الغيث) وهى خطأ من الناسخ والأصح (الغيبة) كما سنجد فى الهامش التالى .

(٤) القشيرى هنا متأثر بفكرة الواسطى حينما دخل نيسابور وسأل أصحاب أبى عثمان : بماذا كان يأمركم شيخكم ؟ فقالوا : كان يأمرنا بالتزام الطاعات ورؤية التقصير فيها . فقال « ... هلا امركم بالغيبة عنها برؤية منشئها ومجريها » الرسالة ص ٣٤ .

فيحفظ عليه أحكام الأمر بما يجرى عليه منه ، وهو عن ملاحظتها محو ، فنفوسهم مستقبلة القِبْلة ، وقلوبهم مستغرقة فى حقائق الوصلة :

أرانى إذا صلَّيْت يمَّمْت نحوها بوجهى وإنْ كان المُصَلَّى ورائيا
أصلى فلا أدرى إذا ما قضيتها أثنتين صليت الضحا أم ثمانيا ؟

وإن أصحاب العموم يجتهدون عند افتتاح الصلاة ليردوا قلوبهم إلى معرفة ما يؤدون من الفرض ، ولكن عن أودية الغفلة مايرجعون . أما أهل الخصوص فيردون قلوبهم إلى معرفة ما يؤدون ولكن عن حقائق الوصلة ما يرجعون ؛ فشتَّان بين غائبٍ يحضر أحكام الشرع ولكن عند أوطان الغفلة ، وبين غائبٍ يرجع إلى أحكام الشرع ولكن عند حقائق الوصلة .

قوله جل ذكره : ﴿ وممـا رزقناهم ينفقون ﴾

الرزق ما تمكَّن الإنسان من الانتفاع به ، وعلى لسان التفسير أنهم ينفقون أموالهم إمَّا نَفْلاً وإما فرضاً على موجب تفصيل[1] العلم . وبيان الإشارة أنهم لايدخرون عن الله سبحانه وتعالى شيئاً من ميسورهم ؛ فينفقون نفوسهم فى آداب العبودية ، وينفقون قلوبهم على دوام مشاهدة الربوبية . فإنفاق أصحاب الشريعة من حيث الأموال ، وإنفاق أرباب الحقيقة من حيثُ الأحوال ، فهؤلاء يكتفى منهم عِشْرِين بنصفٍ ومن المائتين بخَمس[2] ، وعلى هذا السَّنَن جميع الأموال يعتبر فيه النِّصاب . وأمَّا أهل الحقائق فلو جعلوا من جميع أحوالهم — لأنفسهم ولحظوظهم — لحظةً قامت عليهم القيامة .

[فصل] الزاهدون أنفقوا فى طريقة متابعة هواهم ، فآثروا رضاء الله على مناهم ، والعابدون أنفقوا فى سبيل الله وسعهم وقواهم ، فلازموا سراً وعلنا نفوسهم . والمريدون أنفقوا فى سبيله مايشغلهم عن ذكر مولاهم فلم يلتفتوا إلى شىء من دنياهم وعقباهم . والعارفون أنفقوا فى سبيل الله ما هو سوى مولاهم فقرَّبهم الحق سبحانه وأجزاهم ، وبحكم الإفراد به لقَّاهم .

---

(١) وردت (تفضيل) ولا يرجحها السياق فالمقصود ما يفصله العلم من مقادير زكاة المال .
(٢) إشارة إلى ان زكاة الأموال مقدارها ربع العُشْر .

[فصل] الأغنياء أنفقوا من نعمهم على عاقبتهم. والفقراء أنفقوا من هممهم على مَنَأبَتِهِمْ[1].
ويقال العبد بقلبه وببدنه وبماله ، فبإيمانهم بالغيب قاموا بقلوبهم ، وبصلاتهم قاموا بنفوسهم ، وبإنفاقهم قاموا بأموالهم ، فاستحقوا خصائص القربة من معبودهم ، وحين قاموا لِحَقِّهِ بالكلية استوجبوا كمال الخصوصية .

قوله جلّ ذكره : ﴿والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون﴾

إيمانهم بالغيب اقتضى إيمانهم بالقرآن ، وبما أنزل الله من الكتب قبل القرآن ، ولكنه أعاد ذكر الإيمان ها هنا على جهة التخصيص والتأكيد ، وتصديق الواسطة صلى الله عليه وسلم في بعض ما أخبر يوجب تصديقه في جميع ما أخبر ، فإن دلالة صِدْقه تشهد على الإطلاق دون التخصيص ، وإنما أيقنوا بالآخرة لأنهم شهدوا على الغيب فإن حارثة لما قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت مؤمناً بالله حقا ، وكأني بأهل الجنة يتزاورون وكأني بأهل النار يتعاوون[2] وكأني بعرش ربي بارزاً فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أصبْتَ فالزَمْ .

وهذا عامر بن عبد القيس يقول : « لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا » . وحقيقة اليقين التخلص عن تردد التخمين ، والتقصي عن مجوزات الظنون .

قوله جلّ ذكره : ﴿أولئك على هُدىً من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ يعني على بيان

---

(١) من (اناب) وعند القشيري : التوبة بداية والأوبة نهاية والإنابة واسطتهما ، فكل من تاب لخوف عقوبة فهو صاحب توبة ، ومن تاب طمعاً في الثواب فهو صاحب إنابة ، ومن تاب مراعاة للأمر لا لرغبة في الثواب ، او رهبة من العقاب فهو صاحب اوبة (الرسالة ص٥٠) .

(٢) وردت (وكأني بأهل النار تعاويون) ووردت في موضع آخر من الكتاب عند تفسير الآية ٤٩ من سورة البقرة (يتعادون) . وبالرجوع إلى مصادر الحديث وجدناه على النحو التالي : « سأل النبي (ص) حارثة فقال : لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ فقال : عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت ليلي ، واظمأت نهاري ، وكأني انظر إلى عرش ربي بارزاً ، وكأني انظر إلى اهل الجنة يتزاورون ، وإلى اهل النار في النار كيف يتعاوون . فقال له النبي (ص) : عرفت فالزم . » .
البزاز بسند ضعيف عن انس ، والطبراني في الكبير من حديث الحارث بن مالك ، وسنده ضعيف ايضاً .

من ربهم ويقين وكشف وتحقيق ، وذلك أنه تجلَّى لقلوبهم أولاً بآياته ثم تجلَّى لها بصفاته ثم تجلى لها بحقه وذاته .

وقوم « على هدىً من ربهم » بدلائل العقول ، وضعوها فى موضعها فوصلوا إلى حقائق العلوم ، وقوم على بصيرة ملاطفات التقريب فبمشاهدة الرحمة والكرم وصلوا إلى بيان اليقين ، وآخرون ظهرت الحقيقة لأسرارهم فشهدوا بالغيب حقيقة الصمدية ، فوصلوا بحكم العرفان إلى عين الاستبصار .

« وأولئك هم المفلحون » الفلاح الظفر بالبُغية[1] ، والفوز بالطِلبة ، ولقد نال القوم البقاء فى مشهد اللقاء فظفروا بقهر الأعداء ، وهى غانمة[2] النفوس من هواجسها ، ثم زلات القلوب من خواطرها[3] ، فوقفوا بالحق للحق بلا واسطة من عقل ، أو رجوع إلى ذكر وفكر .

قوله جلّ ذكره : ﴿ إنالذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ﴾

من كان فى غطاء وصفه محجوبا عن شهود حقه فالإشارة لنعته أنه سيان عنده قول من دلَّه على الحق ، وقول من أعانه على استجلاب الحظ ، بل هو إلى دواعى الغفلة أميل ، وفى الإصغاء إليها أرغب . كيف لا ؟ وهو بِكَىٍّ الفرقة موسوم ، وفى سجن الغيبة محبوس ، وعن محل القربة ممنوع ، لا يحصل منهم إيمان ، لأنه ليس لهم من الحق أمان ، فلمَّا لم يؤمَنوا لم يؤمِنوا . حكم سبق من الله حتم ، وقول له فصل ، وإن القدرة لا تُعارَض ، ومن زاحم الحق فى القضية[4] كبسته سطوات العزة ، وقصَمَتْه بواده[5] الحكم .

ويقال إن الكافر لا يرعوى عن ضلالته لِماَ سبَق من شقاوته ، وكذلك المربوط بأغلال نفسه محجوب عن شهود غيبه وحقه ، فهو لا يبصر رشده ، ولا يسلك قصده . ويقال إن

---

(١) وردت فى ص (بالبغتة) وهى خطأ من الناسخ .

(٢) الغاغة مرعى البهائم .

(٣) يقول القشيرى فى رسالته : إن الهاجس خاص بالنفس والخاطر خاص بالقلب ص ٤٦ ، ٤٧ .

(٤) القضية هنا معناها القضاء .

(٥) البواده ما يفجأ القلب من الغيب على سبيل الوهلة (الرسالة ص ٤٤) .

الذى بقى فى ظلمات رعونته سواء عنده نصح المرشدين وتسويلات المُبْطِلين ، لأن الله سبحانه وتعالى نزع عن أحواله بركاتِ الإنصاف ، فلا يدرك بسمع القبول ، ولا يُصغى إلى داعى الرشاد ، كما قيل :

وعلى النصوح نصيحتى وعلىَّ عصيان النصوح

ويقال من ضلَّ عن شهود المِنَّةِ عليه فى سابق القسمه تَوَهَّمَ أن الأمر من حركاته وسَكَناَته فاتَّكَلَ على أعماله ، وتعامى عن شهود أفضاله .

قوله جلّ ذكره : ﴿ خَتَمَ اللهُ على قلوبِهِم وعلى سَمْعِهِم وعلى أبصـارِهِم غشاوةٌ ولهم عذاب عظيم ﴾

الختم على الشىء يمنع ما ليس فيه أن يدخله وما فيه أن يخرج منه ، وكذلك حَكَمَ الحقُّ سبحانه بألا يُفارقَ قلوبَ أعدائه ما فيها من الجهالة والضلالة ، ولا يدخلها شىء من البصيرة والهداية . على أسماع قلوبهم غطاء الخذلان ، سُدَّت تلك المسامع عن أدراك خطاب الحق من حيث الإيمان ، فوساوس الشيطان وهواجس النفوس شغلتها عن استماع خواطر الحق . وأمَّا الخواص فخواطر العلوم وجولان تحقيقات المسائل فى قلوبهم شغلت قلوبهم عن ورود أسرار الحق عليهم بلا واسطة ، وإنما ذلك لخاص الخاص ، لذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد كان فى الأمم مُحَدَّثُون فإن يكن فى أمتى فعمر »[1] فهذا المحدَّث مخصوص من الخواص كما أن صاحب العلوم مخصوص من بين العوام . وعلى بصائر الأجانب غشاوة فلا يشهدون لا ببصر العلوم ولا ببصيرة الحقائق ، ولهم عذاب عظيم لحسبانهم أنهم على شىء ، وغفلتهم عما مُنُوا من المحنـة (و . . .)[2] فى الحال والمـال[3] ، فى العاجل فُرقَته ، وفى الآجل حُرقته .

قوله جلّ ذكره : ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين ﴾

---

(١) للحديث صورة أخرى « إن من أمتى مكلَّمين ومحدَّثين وإن عمر منهم » .

(٢) مشتبهة فى ص .

(٣) والأرجح أنها (فى الحال والمـآل) حتى تنسجم مع العاجل والآجل .

ثبتوا على نفاقهم ، ودأبوا على أن يلبِّسوا على المسلمين ، فهتكَ الله أستارهم بقوله : وما هم بمؤمنين كذا قيل :

من تحلى بغير ما هو فيه فضح الامتحان ما يدَّعيه

ولما تجردت أقوالهم عن المعانى كان وبال ما حصلوه منها أكثر من النفع الذى توهموه فيها ، لأنه تعالى قال : « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار » ولولا نفاقهم لم يزدد عذابهم .

ويقال لما عَدِموا صدق الأحوال لم ينفعهم صدق الأقوال ، فإن الله تعالى قال : « والله يشهد إن المنافقين لـكاذبون » فـكانوا يقولون نشهد إنك لرسول الله ، وكذلك من أظهر من نفسه ما لم يتحقق به افتضح عند أرباب التحقيق فى الحال ، وقيل :

أيها المدعى سليمى هواها لستَ منها ولا قلامة ظفر
إنما أنت فى هواها كواوٍ أُلصِقت فى الهجاء ظلما بعمرو

قوله جلّ ذكره : ﴿ يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ﴾

عاد وبال خداعهم والعقوبة عليه[1] إلى أنفسهم فصاروا فى التحقيق كأنهم خادعوا أنفسهم ، فما استهانوا إلا بأقدارهم ، وما استَخَفُّوا إلا بأنفسهم ، وما ذاق وبالَ فعلهم سواهم ، وما قطعوا إلا وتينَهم . ومن كان عالماً بحقائق المعلومات فمن رام خداعه إنما يخدع نفسه .

والإشارة فى هذه الآية أن من تناسى لطفه السابق وقال لى وبى ومنى وأنا يقع فى وهمه وظنه لك وبك ومنك وأنت ، وهذا التوهم أصعب العقوبات[2] لأنه يرى سراباً فيظنه شراباً حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفَّاه حسابه .

قوله جلّ ذكره : ﴿ فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً ، ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ﴾

فى قلوب المنافقين مرض الشك ، ويزيدهم الله مرضاً بتوهمهم أنهم نجوا بما لبَّسوا

---

(١) وردت فى ص (عليها) والأصح أن تكون عليه لأن الضمير يعود على الخداع وربما قصد القشيرى عودة الضمير على مفهوم ، وهو جريمة الخداع .

(٢) جاء فى رسالة القشيرى « التوحيد إسقاط الياءات فلا تقول لى وبى ومنى وإلى » ص ١٤٩ .

على المسلمين ، ثم لهم عذاب أليم مؤلم ، يَخلُص وجه إليهم في المآل . (وفى) الإشارة يحصل لمن خلط قصده بحظٍّ ، وشاب إرادته بهواه (أن) يتقدم فى الإرادة بِقَدَمٍ ، ويتأخر بالحظوظ ومتابعة النَّفْس بأخرى ، فهو لا مريدٌ صادقٌ ولا عاقلٌ متثبت . ولو أن المنافقين أخلصوا فى عقائدهم لأَمِنوا [1] فى الآخرة من العقوبة كما أَمِنوا فى الدنيا من نحو بذل الجزية وغير ذلك مما هو صفة أهل الشرك والذمة [2] ، كذلك لو صدق المريد فى إرادته لوصل بقلبه إلى حقائق الوصلة ، ولأدركته بركات الصدق فيما رامه من الظفر بالبُغية ، ولكن حاله كما قيل :

فما ثبتنا فيثبت لنا عدل بلا حنف ... ولو خلصنا تخلصنا من المحن [3]

وإن من سقمت عبادته حيل بينه وبين درجات الجنات ، ومن سقمت إرادته حيل بينه وبين مواصلات القُرْبِ والمناجاة . وأمَّا من ركن إلى الدنيا واتَّبع الهوى فسكونُهم [4] إلى دار الغرور سقم لقلوبهم ، والزيادة فى علتهم تكون بزيادة حرصهم ؛ كلما وجدوا منها شيئاً — عَجَّلَ لهم العقوبة عليه — يتضاعف حرصهم على ما لم يجدوه .

ثم من العقوبات العاجلة لهم تشتتُ هومهم ثم تَنَغُّص عيشهم فيبغون بها عن مولاهم ، ولم يكن لهم استمتاع ولا راحة فيما آثروه من متابعة هواهم ، وهذا جزاء من أعرض عن صحبة مَولاه ، وفى معناه قيل :

تبدلت فتبدلنا واحسرتا ... لمن ابتغى عوضاً ليسلو فلم يجد [5]

والإشارة فى العذاب الأليم بما كانوا يكذبون إنما هى الحسرة يوم الكشف إذا رأوا أشكالهم الذين صدقوا كيف وصلوا ، ورأَوْا أنفسهم كيف خسروا .

---

(١) وردت (لآمنوا) وهى خطأ من الناسخ .

(٢) وردت (والزمته) وهى خطأ فى الكتابة .

(٣) أصلحنا قليلا فى البيت لكى يؤدى معنى ، لأن مافى البيت من اخطاء كتابية تفقده كل قيمة ، ونرجح أنها (حيف) لا (حنف) وإن كان الحنف معناه الميل إلا أن الحيف وهو الظلم أقرب .

(٤) ويحتمل ايضاً انها فى الأصل (فركونهم) حتى تتلاءم مع (ومن ركن ...) ، وكلاهما مقبول .

(٥) وزن البيت غير سليم وقد ورد فيه (واخسرانا) و (ليلى) ويبدو ان الناسخ قد وقع فى اخطاء أخرى عند النقل .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض
قالوا إنما نحن مصلحون . ألا أنهم هم
المفسدون ولـكن لا يشعرون ﴾

الإشارة منها : أنه إذا دعاهم واعظ فى قلوبهم من خفى خواطرهم إلى ما فيه رشدهم تتبعوا رخص التأويل ، ولبّسوا على أنفسهم ما يشهد بقساوة قلوبهم ، وحين جحدوا برهان الحق من خواطر قلوبهم نزع الله البركة من أحوالهم ، وأبدلهم تصامُماً عن الحق ، وابتلاهم بالاعتراض على الطريقة[1] وسلبهم الإيمان بها .

وكما أن المرتد أشد على المسلمين عداوة كذلك من رجع عن الإرادة إلى الدنيـا والعادة فهو أشد الناس إنـكاراً لهذه الطريقة ، وأبعد من أهلها ، وفى المَثَل : من اخترق كُدْسه[2] تمنى أن يقع بجميع الناس ما أصابه .

وإرفاق المرتدين عن طريق الإرادة — عند الصادقين منهم —غير مقبول كما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقبل زكاة ثعلبة .

ويقال كفى لصاحب الـكذب فضيحة بأن يقال له فى وجهه كذبتَ ، فهم لـمَّا قالوا إنما نحن مصلحون ، أكذبهم الحق سـبحانه فقال : « ألا إنهم هم المفسدون ولـكن لا يشعرون » : إنَّا نَعْلَمُهم فَنَفْضَحُهم .

قوله عز ذكره : ﴿ وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس
قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم
هم السفهاء ولـكن لا يعلمون ﴾

الإشارة منها أن المنافقين لـمـا دُعُوا إلى الحق وصفوا المسلمين بالسَّفَه ، وكذلك أصحاب الغنى إذا أُمِروا بتَرْكِ الدنيا وصفوا أهل الرشْد بالـكسل والعجز ، ويقولون إن الفقراء ليسوا على شىء ، لأنه لا مال لهم ولا جاه ولا راحة ولا عيش ، وفى الحقيقة هم الفقراء وهم أصحاب المحنة ، وقعوا فى الذل مخافة الذل ، ومارسوا الهوان خشية الهوان ، شيَّدوا القصور ولـكن

---

(١) يقصد القشيرى طريقة الصوفية .

(٢) الـكُدْس بضم الـكاف وتسكين الدال : المجتمع من كل شىء كالحب المحصود والتمر والدراهم والرمل والجمع اكداس (الوسيط واللسان) .

سكنوا القبور ، زينّوا المهد ولـكن أُدرجوا اللحد ، وركضوا فى ميدان الغفلة ولـكن عثروا فى أودية الحسرة ، وعن قريب سيعلمون ، ولـكن حين لا ينفعهم علمهم ، ولا يغنى عنهم شىء .

سوف ترى إذا انجلى الغبارُ أفرَسٌ تحْتَكَ أم حمارُ

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا لَقُوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خَلَوْا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنمـا نحن مستهزئون . الله يستهزئُ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون ﴾

أراد المنافقون أن يجمعوا بين عِشْرة الـكفار وصحبة المسلمين ، فإذا برزوا للمسلمين قالوا نحن معكم ، وإذا خَلَوْا بأضرابهم من الـكفار أظهروا الإخلاص لهم ، فأرادوا الجمع بين الأمْرَيْن فَنَفُوا عنهما . قال الله تعالى : « مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » ، وكذلك من رام أن يجمعَ بين طريق الإرادة وما عليه أهل العـادة لا يلتئم ذلك ، فالضدان لا يجتمعان ، و « المـُـكَاتَبُ عَبدٌ ما بَقِيَ عليه درهم » ، وإذا ادلهم الليل من هاهنا أدبر النهار من هاهنا ، ومن كان له فى كل ناحية خليط ، وفى زاوية من قلبه ربيط كان نهباً للطوارق ، ينتابه كل قوم ، وينزل فى قلبه كل (. . . .)[1] ، فقلبه أبداً خراب ، لا يهنأ بعيش ، ولا له فى التحقيق رزق من قلبه ، قال قائلهم :

أراك بقية من قوم موسى فهم لا يصبرون على طعـام

ولما قال المنافقون إنما نحن مستهزئون قال الله تعالى : « الله يستهزئُ بهم » أى يجازيهم على استهزائهم ، كذلك لما ألقى القوم أزِمّتهم فى أيدى الشهوات استهوتهم فى أودية التفرقة ، فلم يستقر لهم قدم على مقام فتطوحوا فى متاهات الغيبة ، وكما يمد المنافقين فى طغيانهم يعمهون يطيل مدة[2] هؤلاء فى مخايل الأمل فيكونون عند اقتراب آجالهم أطول ما كانوا أملا ، وأسوأ ما كانوا عملا ، ذلك جزاء ما عملوا ، ووبال ما صنعوا . وتحسين أعمالهم القبيحة فى أعينهم من

(١) مشتبهة فى ص .

(٢) وربما كانت يطيل (مد) والسياق يقبل كليهما .

أشد العقوبات لهم ، ورضاؤهم بما فيه من الفترة[1] أَجَلُّ مصيبة لهم .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى
فما ربحت تجارتهم ، وما كانوا مهتدين ﴾

الإشارة منها أن من بقى عن الحقوق بالبقاء فى أوطان الحظوظ خسرت صفقتهم ، وما ربحت تجارتهم . والذى رضى بالدنيا عن العقبى لفى خسران ظاهر .

ومن آثر الدنيا أو العقبى على الحق تعالى لأشد خسرانا .

وإذا كان المصاب[2] بفوات النعيم مغبونا فالذى مُنِيَ بالبعاد عن المناجاة وانحاز[3] بقلبه عن مولاه ، وبقى فى أَسْرِ الشهوات ، لا إلى قلبه رسول ، ولا لروحه وصول ، ولا معه مناجاة ، ولا عليه إقبال ، ولا فى سرّه شهود — فهذا هو الْمُصَابُ والْمُمْتَحَن .

وإن من فاته وقت فقد فاته ربه ، فالأوقات لا خَلَفَ عنها ولا بَدَلَ منها ، ولقد قال بعضهم :

كنتَ السوادَ لمقلتى فبكى عليك الناظر
من شاء بعدك فليمت فعليك كنت أحاذر

قوله جل ذكره : ﴿ مَثَلُهم كمثل الذى استوقد ناراً فلما
أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم
فى ظلمات لا يبصرون ﴾

هذا مثل ضربه الله سبحانه للمنافقين بمن استوقد ناراً[4] فى ابتداء ليلته ثم أطفئت النيران فبقى صاحبها فى الظلمة ، كذلك المنافق ظهر عليه شىء من العوافى فى الدنيا بظاهره ثم امتُحِنُوا فى الآخرة بأليم العقوبة ، أو لاح شىء من إقرارهم ثم بقوا فى ظلمة إنكارهم .

والإشارة من هذه الآية لمن له بداية جميلة ، يسلك طريق الإرادة ، ويتمنَّى مدة ، ويقاسى بعد الشدة شدة ، ثم يرجع إلى الدنيا قبل الوصول إلى الحقيقة ، ويعود إلى ما كان فيه من ظلمات البشرية . أورق عُودُه ثم لم يثمر ، وأزهر غصنه ثم لم يدركه ، وعجَّل كسوف الفترة على

---

(١) الفترة رجوع عن الإرادة وخروج منها ، والوقفة سكون عن السير باستحلاء حالات الكسل ، ووقفة المريد شر من فترته (الرسالة ص ١٩٩) .

(٢) وردت (المصايب) فى ص وهى غير ملائمة .

(٣) وردت (وأنجاز) والأرجح ما اخترنا .

(٤) وردت (نارى) والأرجح ما اخترنا .

أقمار حضوره ، وردّته يد القهر بعد ما أحضره لسان اللطف ، فوطن عن القرب قلبه ، وغلّ من الطالبين نفسه ، فكان كما قيل .

حين قرّ الهوى وقلنا سُررْنا   وحَسِبْناَ من الفراق أمِنَّا
بعث البَيْن رُسْله فى خفاءٍ   فأبادوا من شملنا ما جمعنا

وكذلك تحصل الإشارة فى هذه الآية لمن له أدنى شيء من المعانى فيظهر الدعاوى فوق ماهو به ، فإذا انقطع عنه (. . .)[1] ماله من أحواله بقى فى ظلمة دعاواه .

وكذلك الذى يركن إلى حطام الدنيا وزخرفها ، فإذا استتبت الأحوال وساعد الأمل وارتفع المراد — برز عليه الموت من مكامن المكر فيترك الكل ويحمل الكَلّ .

قوله جل ذكره : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فهم لا يرجعون ﴾

صم عن سماع دواعى الحق بآذان قلوبهم ، بكم عن مناجاة الحق بألسنة أسرارهم ، عمى عن شهود جريان المقادير بعيون بصائرهم ، فهم لا يرجعون عن تماديهم فى تهتكهم ، ولا يرتدعون عن انهماكهم فى ضلالتهم .

ويقال صم عن السماع بالحق ، بكم عن النطق بالحق ، وعمى عن مطالعة الخلق بالحق . لم يسبق لهم الحكم بالاقلاع ، ولم تساعدهم القسمة بالارتداع .

قوله جل ذكره : ﴿ أو كَصَيِّبٍ من السماء فيه ظُلُمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حَذَرَ الموتِ والله مُحيطٌ بالكافرين ﴾

معنى قوله أو لإباحته ضرب مثلهم إمّا بهذا وإما بذلك شبَّه القرآن بمطرٍ ينزل من السماء ، وشبَّه مافى القرآن من الوعد والوعيد بما فى المطر من الرعد والبرق ، وشبه التجاءهم إلى الفرار عند سماع أصوات الرعد . كذلك الإشارة لأصحاب الغفلات إذا طرق أسماعهم وعظُ الواعظين ، أو لاحت لقلوبهم أنوار السعادة ؛ ولو أقلعوا عمَّاهم فيه من الغفلة لَسَعِدُوا ، لكنهم ركنوا إلى التشاغل بآمالهم الكاذبة ، وأصروا على طريقتهم الفاسدة ، وتعللوا بأعذار واهية ،

---

(١) هنا كلمات زائدة وضع الناسخ عليها علامات مميزة توضح ضرورة الاستغناء عنها .

ويحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ، يهلكون أنفسهم ، ويسعون فى الخطر بأيمانهم[1] :

إن الكريم إذا حباك بوُدّه ستَرَ القبيحَ وأظهر الإحسانا
وكذا الملولُ[2] إذا أراد قطيعةً ملّ[3] الوصال وقال كان وكانا

قوله جل ذكره : ﴿ يكاد البرقُ يَخْطَفُ أبصارَهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير ﴾

من تمام مثل المنافقين — كذلك أصحاب الغفلات — إذا حضروا مشاهد الوعظ ، أو جنحت[4] قلوبهم إلى الرقة ، أو داخلهم شىء من الوهلة تَقْرُبُ أحوالهم من التوبة ، وتقوى رغبتهم فى الإنابة حتى إذا رجعوا إلى تدبرهم ، وشاوروا إلى قرنائهم ، أشار الأهل والولد عليهم بالعَوْدِ إلى دنياهم ، وبسطوا فيهم لسان النصح ، وهَدَّدُوهم بالضعف والعجز ، فيضعف قصودُهم ، وتسقط إرادتهم ، وصاروا كما قيل :

إذا ارعوى ، عاد إلى جهله كذى الضنى عاد إلى نكسة

وقال : « ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم » يعني سمع المنافقين الظاهر وأبصارهم الظاهرة ، كما أصمهم وأعماهم بالسر ، فكذلك أرباب الغفلة ، والقانعون من الإسلام بالظواهر — فالله تعالى قادر على سلبهم التوفيق فيما يستعملونه من ظاهر الطاعات ، كما سلبهم التحقيق فيما يستبطنونه من صفاء الحالات .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الناسُ اعبدوا ربَّكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾

العبادة موافقة الأمر ، وهى استفراغ الطاقة فى مطالبات تحقيق الغيب ، ويدخل فيه التوحيد بالقلب ، والتجريد بالسر ، والتفريد بالقصد ، والخضوع بالنفس ، والاستسلام للحكم .

ويقال اعبدوه بالتجرد عن المحظورات ، والتجلد فى أداء الطاعات ، ومقابلة الواجبات

---

(١) جمع يمين ومعناها هنا اليد .
(٢) وردت (الملوك) وهى خطأ فى النسخ .
(٣) وردت (ملا) وهى خطأ فى النسخ .
(٤) وردت في ص (جنهت) وهى خطأ فى النسخ .

بالخشوع والاستكانة ، والتجافى عن التعريج فى منازل الكسل والاستهانة .

قوله : « لعلكم تتقون » : تقريب الأمر عليهم وتسهيله ، ولقد وقفهم بهذه الكلمة — أعنى لعلّ — على حد الخوف والرجاء .

وحقيقة التقوى التحرز والوفاء (بالطاعة)[1] عن متوعدات العقاب .

قوله جل ذكره : ﴿ الذى جعل لكم الأرض فراشاً ،
والسماء بناء ، وأنزل من السماء
ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم
فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ﴾

تعرّف إليهم بذكر ما مَنَّ به عليهم من خَلْقِ السماء لهم سقفا[2] مرفوعاً ، وإنشاء الأرض لهم فرشا موضوعاً ، وإخراج النبات لهم بالمطر رزقاً مجموعاً . ويقال أعتقهم عن مِنَّة الأمثال بما أزاح لهم من العلة فيما لا بُدَّ منه ، فكافيهم السماء لهم غطاء ، والأرض وطاء ، والمباحات رزقاً ، والطاعة حرفةً ، والعبادة شغلاً ، والذكر مؤنساً ، والرب وكيلاً — فلا تجعلوا لله أنداداً ، ولا تُعلِّقوا قلوبكم بالأغيار فى طلب ما تحتاجون إليه ؛ فإن الحق سبحانه وتعالى مُتَوَحِّد بالإبداع ، لا مُحْدِثَ سواه ، فإذا توهمتم أن شيئاً من الحادثات من نفع أو ضرر ، أو خيرٍ أو شر يحدث من مخلوق كان ذلك — فى التحقيق شِرْكاً .

وقوله عز وجل: « وأنتم تعلمون » أن من له حاجة فى نفسه لا يَصْلُحُ أن تَرفَع حاجتك إليه . وتعلُّقُ المحتاج بالمحتاج ، واعتماد الضعيف على الضعيف يزيد فى الفقر ، ولا يزيل هواجم الضُر .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نَزَّلنا على عبدِنا
فأتوا بسورةٍ من مثله وادعوا
شهداءكم من دون الله إن كنتم
صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا
فاتقوا النارَ التى وقودُها الناسُ
والحِجارة أُعِدَّتْ للكافرين ﴾

---

(١) هذه كلمة احتاجها السياق فأضفناها مستفيدين من اقوال القشيرى فى موقف مماثل فى الرسالة ص٥٦ (وحقيقة الاتقاء التحرز ... ...) .

(٢) وردت (شقفا) وهى خطأ فى النسخ .

لبَّس على بصائر الأجانب حتى لم يشهدوا حبيبه صلوات الله عليه ، فتاهوا فى أودية الظنون لما فقدوا نور العناية ، فلم يزدد الرسول عليهم إتيانا بالآيات ، وإظهاراً من المعجزات إلا ازدادوا ريباً على ريب وشكاً على شك ، وهكذا سبيل من أعرض عن الحق سبحانه ، لا يزيده ضياء الحجج إلا عمًى عن الحقيقة ؛ قال الله تعالى : « وما تُغْنِى الآيات والنُّذُر عن قوم لا يؤمنون » ، وليبلغ عليهم فى إلزام الحجة عرّفهم عجزهم عن معارضة ما آتاهم من معجزة القرآن الذى قهر الأنام من أولهم إلى آخرهم ، وقدَّر عليهم أنهم لو تظاهروا فيما بينهم ، واعتضدوا بأشكالهم ، واستفرغوا كُنْهَ طاقتهم واحتيالهم لم يقدروا على الإتيان بسورة مثل سورة القرآن . ثم قال فإن لم تفعلوا — وأخبر أنهم قطعاً لا يقدرون على ذلك ولا يفعلون فقال : « ولن تفعلوا » ، فكان كما قال — فانظروا لأنفسكم ، واحذروا الشِّرْكَ الذى يوجب لكم عقوبة النار التى من (سطوتها)[1] بحيث وقودها الناس والحجارة ، فإذا كانت تلك النار التى لا تثبت لها الحجارة مع صلابتها (   )[2] فكيف يطيقها الناس مع ضعفهم ، وحين أشرفت[3] قلوب المؤمنين على غاية الإشفاق من سماع ذكر النار تداركها بحكم التثبيت فقال : « أُعِدَّت للكافرين » ، ففى ذلك بشارة للمؤمنين . وهذه سُنَّةٌ من الحق سبحانه : إذا خوَّف أعداءه[4] بَشَّر مع ذلك أولياءه .

وكما أنَّ كيد الكافرين يضمحل فى مقابلة معجزات الرسل عليهم السلام فكذلك دعاوى المُلْبِسين تتلاشى عند ظهور أنوار الصديقين ، وأمارةُ المُبْطِلِ فى دعواه رجوعُ الزجر منه إلى القلوب ، وعلامة الصادق فى معناه وقوع القَهر[5] منه على القلوب . وعزيزٌ من فصَّل وميَّز بين رجوع الزجر وبين وقوع القهر .

قوله جل ذكره : ﴿ وبشِّر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جناتٍ تجرى من تحتها الأنهار ﴾ .

---

(١) وردت بالصاد وعند ذلك يكون الخطأ من الناسخ ، وربما كانت فى الأصل (صفتها) ، وقد تخيرنا (سطوتها) لأنها أقرب إلى الشكل الوارد ولتلاؤمها مع المعنى والسياق .

(٢) هنا كلمة زائدة وضع الناسخ عليها علامة مميزة .

(٣) وردت بالقاف وهى خطأ فى النسخ .

(٤) وردت هكذا (اعداويه) وهى خطأ فى النسخ .

(٥) وردت (التهم) ولكن ما جاء بعدها يثبت خطأ الناسخ ، فضلا عن أنها غير ذات معنى هنا .

هذه البشارة بالجنان تتضمن تعريفاً بنعيمٍ مؤجلة لعموم المؤمنين على الوصف الذى يُشْرَح بلسان التفسير . ويشير إلى البشارة للخواص بنعمٍ مُعَجَّلة مضافة إلى تلك النعم يتيح(ها) الله لهم على التخصيص ، فتلك المؤجلة[1] جنان المثوبة وهذه جنان القُربَة ، وتلك رياض النزهة وهذه رياض الزُّلفَة ، بل تلك حدائق الأفضال وهذه حقائق الوصال ، وتلك رفع الدرجات وهذه رَوْح المناجاة ، وتلك قضية جوده ، هذه الاشتمال بوجوده ، وتلك راحة الأبشار وهذه نُزهة الأسرار ، وتلك لطف العَطاء للظواهر وهذه كشف الغِطاء عن السرائر ، وتلك لطف نواله وأفضاله وهذه كشف جماله وجلاله .

قوله جل ذكره : ﴿كلما رُزِقوا منها من ثمرةٍ رزقا قالوا هذا الذى رُزِقْنا من قبل وأُتُوا به متشابها ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون﴾ .

كما أن أهل الجنة تتجدد[2] عليهم النعم فى كل وقت ، فالثانى عندهم — على ما يظنون — كالأول ، فإذا ذاقوه وجدوه فوق ما تقدّم — فكذلك أهل الحقائق : أحوالهم فى السرائر أبداً فى الترقى ، فإذا رُقِّىَ أحدهم عن محلِّه توهَّم أن الذى سيلقاه فى هذا النَّفَس مثل ما تقدم فإذا ذاقه وجده فوق ذلك بأضعاف ، كما قال قائلهم :

ما زلت أنزل من ودادك منزلاً تتحيَّرُ الألبـاب دون نزوله

قوله جل ذكره : « إن الله لا يستحى أن يضرب مَثَلا ما بعوضة فمـا فوقها » .

الاستحياء من الله تعالى بمعنى التَرْك ، فإذا وصف نفسه بأنه يستحى من شىء فمعناه أنه لا يفعل ذلك وإذا قيل لا يستحى فمعناه لا يبالى بفعل ذلك .

والخَلْقُ فى التحقيق — بالإضافة إلى وجود الحق — أقلُّ من ذرةٍ من الهباء فى الهواء ،

---

(١) وقع الناسخ فى خطأ فكتبها (المعجلة) والسياق يرفضها لأن الإشارة للبعيد بتلك وللقريب بهذه .
(٢) وردت (يجدد) والسياق يرفضها ويقبل (تتجدد) وربما كانت (يجدد) أى الحق سبحانه وتعالى يجدد .

لأن هذا استهلاك محدود فى محدود . فسِيَّان — فى قدرته[٣] — العرش والبعوضة ، فلا خَلْقُ العرش أشق وأعسر ، ولا خَلْق البعوضة أخف عليه وأيسر ، فإنه سبحانه مُتَقَدَّسٌ عن لحوق العُسْر واليُسْر .

فإذا كان الأمر بذلك الوصف ، فلا يستحى أن يضرب بالبعوضة مثلاً كما لا يستحى أن يضرب بالعرش — فما دونه — مثلا .

وقيل إن جهة ضرب المثل بالبعوضة أنها إذا جاعت فَرَّتْ[١] وطارت ، وإذا شبعت تشققت فتَلِفَتْ كذلك (إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى) .

وقيل ما فوقها يعنى الذباب ، وجهة الإشارة فيه إلى وقاحته ، حتى إنه ليعود عند البلاغ فى الذب ، ولو كان ذلك فى الأسد لم ينجُ منه أحد من الخَلْق ، ولكنه لمَّا خَلَق القوة فى الأسد خلق فيه تنافراً من الناس ، ولمَّا خَلَق الوقاحة فى الذباب خلق فيه الضعف ، تنبيهاً منه سبحانه على كمال حكمته ، ونفاذ قدرته .

قوله جل ذكره : ﴿ فأمّا الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأمّا الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا ﴾ .

فأمّا من فتحت أبصار سرائره فلا ينظر إلى الأغيار والآثار إلا بنظر الاعتبار ، ولا يزداد إلا نفاذ الاستبصار . وأمَّا الذين سكرت أبصارهم بحكم الغفلة فلا يزيدهم ضربُ الأمثال إلا زيادة الجهل والإشكال والأنكال .

قوله جل ذكره : ﴿ يُضِلُّ به كثيراً ويَهْدِى به كثيراً وما يُضِلُّ به إلا الفاسقين ﴾ .

هذا الكتاب لقومٍ شفاء ورحمة ، ولآخرين شقاء وفتنة . فمن تعرَّف إليه يوم الميثاق بأنوار العناية حين سمعوا قوله : « ألست بربكم » تذكَّروا عند ورود الواسطة — صلوات الله عليه وعلى آله — قديمَ عهده ، وسابقَ وُدِّه فازدادوا بصيرة على بصيرة ، ومَنْ رَسَمَهُ بِذُلِّ القطيعة ، وأنطقه ذلك اليوم عن الحسبان والرهبة ما ازدادوا عند حصول الدعوة

(١) وردت (فريت) وهى خطأ فى النسخ .   (٣) وردت (قدرة) .

النبوية إلا جُحداً على جُحد ، وما خفى عليهم اليوم صادق الدلالة ، إلا لِمَا تقدم لهم سابقُ الضلالة . لذلك قال الله تعالى : « وما يضل به إلا الفاسقين » .

قوله جل ذكره : ﴿الذين ينقضون عهدالله من بعدميثاقه
ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل
ويفسدون فى الأرض أولئك هم
الخاسرون﴾ .

الإشارة فيه إلى حال من سلك طريق الإرادة ، ثم رجع إلى ما هو عليه أهل العادة ، قال بِتَرْكِ نفسه ثم لم يَصْدُق حين عزم الأمر ، ونزل من إشارة الحقيقة إلى رخص الشريعة[1] ، وكما أنَّ من سلك الطريق بنفسه — ما دام يبقى درهم فى كيسه — فغيرُ محمودٍ رجوعُه فكذلك من قصد بقلبه — ما دام يبقى نَفَسٌ من روحه — فغير مَرْضِىٍّ رجوعُهُ :

إن الأُلى ماتوا على دين الهدى وجدوا المنية منهلاً معلولا[2]

ويقطعون ما أمر الله به أن يُوصَل : وصل أسباب الحق بقطع أسباب الخَلْق ، ولا يتم وصل مَالَهُ إلا بقطع ما لكَ ، فإذا كان الأمر بالعكس كان الحال بالضد .

ومما أُمِرَ العبد بوصله : حفظه ذِمام أهل هذه الطريقة ، والإنفاق على تحصيل ذلك بصدق الهمم لا ببذل النِّعَم ، فهممهم على اتصال أسباب هذه الطريقة وانتظام أحوالها موقوفة ، وقلوبهم إلى توقع الحراسة من الله تعالى لأهلها مصروفة . وفساد هذه الطريقة فى الأرض : أما مَنْ لهم خواشى أحوالهم ، وإطراق أمورهم فيتشاغلون عن إرشادِ مريدٍ بكلامهم ، وإشحاذِ قاصدٍ بهممهم ؛ وذلك مما لا يرضى به الحق سبحانه منهم .

ومِنْ نَقْضِ العهد أيضاً أن يحيد سِرُّك لحظةً عن شهوده ، ومِنْ قَطْعِ ما أُمِرْتَ بوَصْله

---

(١) من عناصر المذهب الصوفى عند القشيرى إلحاحه الدائم على ألا يلجأ الصوفى إلى الاسترخاص ، ذلك لأن الرخصة — وإن كانت متاحة بأمر الشريعة — إلا أنها — أى الشريعة — للعموم ، وفيها يؤخذ فى الاعتبار أمر المستضعفين وأصحاب الأشغال والحوائج أما « هؤلاء الطائفة فليس لهم شغل سوى القيام بحقه سبحانه ، فإذا انحط الفقير عن درجة الحقيقة إلى رخصة الشريعة فقد فسخ عهده مع الله تعالى » . الرسالة ص ١٩٩ .

(٢) وردت (الهوى) وفى موضع آخر من اللطائف (و ١٦٥) وردت : (منهلا معسولا) .

أن يتخلل أوقاتك نَفَسٌ لحظِّك دون القيام بحقه ، ومِنْ فسادِكَ فى الأرض ساعة تجرى عليك ولم تَرَهُ فيها . ألاَ إن ذلك هو الخسران المبين ، والمحنة العظمة ، والرزية الكبرى .

قوله جل ذكره : ﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه تُرجَعون ﴾ .

هذه كلمة تعجيب وتعظيم لما فيه العبد ، أى لا ينبغى مع ظهور الآيات أن يجنح إلى الكفر قلبُه .

ويقال تعرَّف إلى الخلْق بلوائح دلالاته ، ولوامع آياته . فقال : « وكنتم أمواتاً » يعنى نطفة ، أجزاؤها متساوية ، « فأحياكم » : بَشَراً اختصَّ بعض أجزاء النطفة بكونه عظماً ، وبعضها بكونه لحما ، وبعضها بكونه شَعْراً ، وبعضها بكونه جِلْداً . . إلى غير ذلك .

« ثم يميتكم » بأن يجعلكم عظاماً ورفاتا ، « ثم يحييكم » بأن يحشركم بعدما صرتم أمواتا ، « ثم إليه تُرجعون » أى إلى ما سبق به حكم من السعادة والشقاوة .

ويقال « كنتم أمواتاً» بجهلكم عنّا ، ثم « أحياكم » بمعرفتكم بنا ، « ثم يميتكم » عن شواهدكم ، « ثم يحييكم » به بأن يأخذكم عنكم ، « ثم إليه ترجعون » أى بحفظ أحكام الشرع بإجراء الحق[1] .

ويقال « كنتم أمواتاً » لبقاء نفوسكم فأحياكم بفناء نفوسكم ثم يميتكم عنكم عن شهود ذلك. لئلا تلاحظوه فيفسد عليكم ، ثم يحييكم بأن يأخذكم عنكم ثم إليه ترجعون بتقلبكم فى قبضته سبحانه وتعالى .

ويقال يحبس عليهم الأحوال ، فلا حياة بالدوام ولا فناء بالكلية ، كلّما قالوا هذه حياة — وبينا هم كذلك — إذ أدال عليهم فأفناهم ، فإذا صاروا إلى الفناء أثبتهم وأبقاهم ، فهم أبداً بين نفى وإثبات ، وبين بقاء وفناء ، وبين صحو ومحو . . كذلك جرت سنته سبحانه معهم .

---

(١) وردت (بأجزاء) وهى خطأ قطعاً .

والمقصود بإجراء الحق هنا هو ما سبق ان نوَّهنا به فى هامش سابق عن حالة الفرق الثانى حيث « يرد العبد إلى الصحو عند اوقات أداء الفرائض ليجرى عليه الفرائض فى أوقاتها فيكون رجوعاً لله بالله ، فالحق مجرى أفعاله وأحواله عليه » الرسالة ص ٣٩ .

قوله جل ذكره : ﴿هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً﴾ .

سخَّر لهم جميع المخلوقات على معنى حصول انتفاعهم بكل شىء منها ، فعلى الأرض يستقرون وتحت السماء يسكنون ، وبالنجم يهتدون ، وبكل مخلوق بوجه آخر ينتفعون . لا بل ما من عين وأثر فكروا فيه إلا وكمال قدرته وظهور ربوبيته به يعرفون .

ويقال مَهَّدَ لهم سبيل العرفان ، ونبَّهَهُم إلى ما خصَّهم به من الإحسان ، ثم علمهم علوَّ الهمة حيث استخلص لنفسه أعمالهم وأحوالهم فقال « لا تسجدوا للشمس ولا للقمر » .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سماوات ، وهو بكل شىء عليم ﴾

فالأكوان بقدرته استوت ، لا أن الحق سبحانه بذاته — على مخلوق — استوى ، وأنَّى بذلك ! والأحدية والصمدية حقه وما توهموه من جواز التخصيص بمكان فمحال ما توهموه ، إذ المكان به استوى ، لا الحق سبحانه على مكانٍ بذاته استوى .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال أنى أعلم ما لا تعلمون ﴾ .

هذا ابتداء إظهار سِرِّه فى آدم وذريته . أمَرَ حتى سلَّ من كل بقعة طينة ثم أمر بأن يخمر طينه أربعين صباحاً ، وكل واحد من الملائكة يفضى [1] العَجَبَ : ما حكم هذه الطينة ؟ فلمَّا ركب صورته لم يكونوا رأوا مثلها فى بديع الصنعة وعجيب الحكمة ، فحين قال « إنى جاعل فى الأرض . . . » تَرَجَّمَتْ الظنون ، وتقسَّمت القلوب ، وتجنَّت الأقاويل ، وكان كما قيل :

وكم أبصرتُ من حسن ولكن عليك من الورى وقع اختيارى

ويقال إن الله سبحانه وتعالى خلق ما خلق من الأشياء ولم يَقُلْ فى شأن شىء منه ما قال فى حديث آدم حيث قال : « إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة » ، فظاهر هذا الخطاب يشبه المشاورة

---

(١) وردت فى ص (يقضى) بالقاف والصواب أن تكون (يفضى) بالفاء .

لو كان من المخلوقين . والحق سبحانه وتعالى خلق الجنان بما فيها ، والعرش بما هو عليه من انتظام الأجزاء وكمال الصورة ، ولم يقل إنى خالق عرشاً أو جنة أو ملكاً ، وإنما قال تشريفاً وتخصيصا لآدم إنى جاعل فى الأرض خليفة .

[فصل] ولم يكن قول الملائكة : « أتجعل فيها من يفسد فيها » على وجه الاعتراض على التقدير ولكن على جهة الاستفهام ، فإن حَمْلَ الخطاب على ما يُوجِب تنزيه الملائكة أولى لأنهم معصومون . . قال تعالى « لا يعصون الله ما أمرهم » .

ويقال استخرج الحق سبحانه منهم ما استكنَّ فى قلوبهم من استعظام طاعاتهم والملاحظة إلى أفعالهم بهذا الخطاب ، فأفصحوا عن خفايا أسرارهم بقولهم : « ونحن نسبح بحمدك » . ثم إن الحق سبحانه عرَّفهم أن الفضيلة بالعلم أتمُّ من الفضيلة بالفعل ، فهم كانوا أكثر فعلاً وأقدمه ، وآدم كان أكثر علمًا وأوفره ، فظهرت فضيلته ومرتبته .

ويقال لم يقل الحق سبحانه أنتم لا تفسدون فيها ولا تسفكون الدماء بل قال : « إنى أعلم مالا تعلمون » ، مِنْ غفرانى لهم .

ويقال : فى تسبيحهم إظهارُ فعلهم واشتهار خصائصهم وفضلهم[1] ، ومن غفرانه لمعاصى بنى آدم إظهار كرمه سبحانه ورحمته ، والحق سبحانه غنى عن طاعات كل مطيع ، فلئن ظهر بتسبيحهم استحقاق تمدحهم ثبت بالغفران استحقاق تمدح الخالق سبحانه .

ويقال إنى أعلم ما لا تعلمون من صفاء عقائد المؤمنين منهم فى محبتنا ، وذكاء سرائرهم فى حفظ عهودنا وإن تدنَّس بالعصيان ظاهرهم ، كما قيل :

وإذا الحبيب أتى بذنب واحدٍ جاءت محاسنُه بألفِ[2] شفيع

ويقال إنى أعلم مالا تعلمون من محبتى لهم ، وأنتم تظهرون أحوالكم ، وأنا أخفى عليهم أسرارى فيهم ، وفى معناه أنشدوا :

ما حطَّك الواشون عن رتبة عندى ولا ضرك مغتاب
كأنهم أثْنَوْا — ولم يعلموا — عليك عندى بالذى عابوا[3]

(١) نلاحظ هنا تأثر القشيرى بفكرة الملامة النيسابورية التى ظهرت فى موطنه ، والتى من أصولها عدم إظهار الفعل ، لأن فى ذلك ملاحظة واستجلاب ، ملاحظة لفعل الإنسان وهو مهما بلغ تافه حقير ، واستجلاب لرضاء الناس والاشتهار بينهم ، وكلا الأمرين — فى نظر الملامتية — شِرْك خفى .

(٢) وردت (بألى) وبها ينكسر الوزن .

(٣) وردت أخطاء كثيرة فى البيتين مثل (ضربك) ولم (يعلموا علمك) .

ويقال إنى أعلم مالا تعلمون من انكسار قلوبهم وإن ارتكبوا قبيح أفعالهم ، وصولةَ قلوبكم عند إظهار تسبيحكم وتقديسكم ، فأنتم فى رتبة وفاقكم وفى عصمة أفعالكم ، وفى تجميل تسبيحكم ، وهم مُنْكَرون عن شواهدهم ، متذللون بقلوبهم ، وإن لانكسار قلوب العباد عندنا لذماما قويا .

ويقال أى خطر لتسبيحكم لولا فضلى ، وأى ضرر من ذنوبهم إذا كان عفوى ؟ ويقال لبَّسْتُكم طاعتكم ولبستهم رحمتى ، فأنتم فى صدار[1] طاعتكم وفى حُلَّةِ تقديسكم وتسبيحكم ، وهم فى تغمد عفوى وفى ستر رحمتى ألبستهم ثوب كَرَمى ، وجللتهم رداء عفوى .

ويقال إن أسعدتكم عصمتى فلقد أدركتهم رحمتى .

وإيصال عصمتى بكم عنده وجودكم وتعلُّق رحمتى بهم فى أزلى .

ويقال : لئن كان مُحسنُكم عتيقَ العصمة فإن مجرَمُهم غريق الرحمة

ويقال : اتكالهم علىَّ زكَّى أحوالهم فألجأهم إلى الاعتراف بالجهالة حتى يتبرأوا عن المعارف إلا بمقدار ما منّ به الحق عليهم فقالوا : « سبحانك لا علم لنا إلا ما علَّمْتَنَا » .

قوله جل ذكره : ﴿ وعلَّم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ﴾ .

عموم قوله الأسماء يقتضى الاستغراق ، واقتران قوله سبحانه بِكُلها يوجب الشمول والتحقيق ، وكما علَّمه أسماء المخلوقات كلها — على ما نطق به تفسير ابن عباس وغيره — علَّمه أسماء الحق سبحانه ، ولكن إنما أظهر لهم[2] محل تخصصه فى علمه أسماء المخلوقات وبذلك المقدار بان رجحانه عليهم ، فأما انفراده بمعرفة أسمائه — سبحانه — فذلك سِرٌّ لم يَطَّلع عليه مَلَكٌ مُقَرَّب . ومن ليس له رتبة مساواة آدم فى معرفة أسماء المخلوقات فأى طمعٍ فى مداناته فى أسماء الحق ، ووقوفه على أسرار الغيب ؟

وإذا كان التخصيص بمعرفة أسماء المخلوقات يقتضى أن يصحّ (به سجود)[3] الملائكة

---

(١) الصدار قميص صغير يلى الجسد ، ولاحظ مقابلة القشيرى بين الصدار للملائكة وبين الثوب والرداء للإنسان لتدرك مقاصده البعيدة .

(٢) أى للملائكة .

(٣) وردت فى ص (بسجود) ونرجح أنها كما أثبتنا .

فما الظن بالتخصيص بمعرفة أسماء الحق سبحانه ؟ ما الذى يُوجَبُ لِمَنْ أُكْرِمَ به ؟

ويقال خصوصية الملائكة بالتسبيح والتقديس وهذه طاعات تليق بالمخلوقين ، فإنَّ الطاعةَ سِمَةُ العبيد ولا تتعداهم ، والعلم فى الجملة صفة مدحٍ يجب فى نعت الحق سبحانه واجباً لا يصحُّ لغيره ، فالذى يُكْرِمُهُ بما يتصف هو سبحانه (بيانه وإن كان للمساواة أتم من الكرام بما يكون مخلوقاً على جنس المخلوقات)[1] .

ويقال أكرمه فى السر بما علَّمه ثم بيَّن تخصيصه يوم الجهر وقدَّمه . ويقال قوله : « ثم عرضهم » ثم : حرف تراخٍ ومهلة . . إمّا على آدم ؛ فإنه أمهله من الوقت ما تقرر ذلك فى قلبه ، وتحقق المعلوم له بحقه ثم حينئذٍ استخبره عما تحقَّق به واستيقنه . وإمّا على الملائكة ؛ فقال لهم على وجه الوهلة : « أنبئونى » فلمّا لم يتقدم لهم تعريف تحيَّروا ، ولمَّا تقدم لآدم التعليم أجاب وأخبر ، ونطق وأفلح ، إظهاراً لعنايته السابقة — سبحانه — بشأنه .

وقوله : « إن كنتم صادقين » فيه إشارة إلى أنهم تعرَّضوا لدعوى الخصوصية ، والفضيلة والمزية على آدم ، فعرَّفهم أن الفضل ليس بتقديم تسبيحهم لكنه فى قديم تخصيصه . ولمَّا عَلِمَ الحقُّ سبحانه تقَاصُرَ علومهم عن معرفة أسماء المخلوقات ثم كلَّفهم الإنباء عنها صار فيه أوضح دلالة على أنَّ الأمر أمرُه ، والحكمَ حُكمُهُ ، فَلَهُ تكليف المستطيع ، ردّاً على من توَهَّمَ أن أحكام الحق سبحانه مُعَلَّلَة باستحسان أرباب الغفلة بما يدعونه من قضايا العقول ، لا بل له أن يلزم ما يشاء لمن يشاء ، الحَسَنُ ما حكم بتحسينه والقبيح ما حكم بتقبيحه[2] .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قالوا سبحانك لا عِلْمَ لنا إلاَّ ما عَلَّمْتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾ .

قدَّموا الثناء على ذكر ما اعتذروا به ، ونزَّهوا حقيقة حُكْمِهِ عن أن يكون يَعرِض وهم المعترضون[3] ، يعنى لا علم لنا بما سألتنا عنه ، ولا يتوجَّه عليكَ لوم فى تكليف العاجز

---

(١) هكذا جاءت العبارة فى ص وهى لا تخلو من غموض ولكننا آثرنا عدم التدخل فى إصلاحها نظراً لخطورة الموقف الذى تصفه ، ونرجح أن الناسخ مخطىء فى نقله .

(٢) يغمز القشيرى هنا بالمعتزلة الذين يقيسون الأفعال الإلهية بمقاييس إنسانية عقلية (ولكنهم نزهوا الله من حيث العقل فأخطأوا ونزهه الصوفية من حيث العلم فأصابوا) الرسالة ص ٢٩ .

(٣) وردت (للمترضين) ، ويعرض هنا مضارع عرض فى الآية السابقة .

بما علمتَ أنه غير مستطيع له ، إنك أنت العليم الحكيم أى ما تفعله فهو حقٌ صِدْقٌ ليس لأحد عليكَ حكمٌ ، ولا منك سَفَهٌ وقبح .

قوله جلّ ذكره : ﴿ قلنا يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلمَّا أنبأهم بأسمائهم قال ألم أَقُلْ لكم إنّى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ .

من آثار العناية بآدم عليه السلام أنه لمَّا قال للملائكة : « أنبئونى » دَاخَلَهُم من هيبة الخطاب ما أخذهم عنهم ، لا سيما حين طالَبَهم بإنبائهم إياه ما لم تُحِطْ به علومهم . ولما كان حديث آدم عليه السلام ردَّه فى الإنباء إليهم فقال : « أنبئهم بأسمائهم » ومخاطبة آدم عليه السلام الملائكة لم يوجب له الاستغراق فى الهيبة . فلما أخبرهم آدم عليه السلام بأسماء ما تقاصرت عنها علومهم ظهرت فضيلته عليهم فقال : « ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض » يعنى ما تقاصرت عنه علوم الخَلْق ، وأعلم ما تبدون من الطاعات ، وتكتمون من اعتقاد الخيرية على آدم عليه السلام والصلاة .

[فصل] ولمَّا أراد الحق سبحانه أن يُنَجِّيَ[(1)] آدمَ عصمه ، وعلّمه ، وأظهر عليه آثار الرعاية حتى أخبر بما أخبر به ، وحين أراد إمضاء حكمه فيه أدخل عليه النسيان حتى نَسِيَ فى الحضرة عهده ، وجاوز حدَّه ، فقال الله تعالى : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً » فالوقت الذى ساعدته العناية تقدم على الجملة بالعلم والإحسان ، والوقت الذى أمضى عليه الحكم ردَّه إلى حال النسيان والعصيان ، كذا أحكام الحق سبحانه فيما تجرى وتمضى ، ذلَّ بحكمه العبيد ، وهو فعَّال لما يريد .

[فصل] ولمَّا توهموا حصول تفضيلهم بتسبيحهم وتقديسهم عرَّفهم أن بساط العز مقدس عن التجمل بطاعة مطيع أو التدنس بزلة جاحد عنيد ، فَرَدَّهُم إلى السجود لآدم أظهرَ الغناءَ عن كل وفاق وخلاف[(2)] .

---

(1) وردت (ينجب) وهى بلا ريب خطأ فى النسخ ويمكن أن تكون ينجى آدم ـ كما أثبتنا ـ أو ينجو آدمٌ ، والأرجح ما اخترناه .

(2) وردت (وخلاق) وهى خطأ فى النسخ ، وقد اخترنا ما يلائم السياق .

قوله جلَّ ذكره : ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم
فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر
وكان من الكافرين ﴾ .

السجود لا يكون عبادة لِعَيْنِه[1] ولكن لموافقة أمره سبحانه ، فكأن سجودَهم لآدم عبادةٌ لله ؛ لأنه كان بأمره ، وتعظيماً لآدم لأنه أمرهم به تشريفاً لشأنه ، فكأن ذلك النوعَ خضوعٌ له ولكن لا يسمى عبادة ، لأن حقيقة العبادة نهاية الخضوع وذلك لا يصحُّ لغيره سبحانه .

ويقال بَيَّن أن تقدُّسَه — سبحانه — بجلاله لا بأفعالهم ، وأن التَجمُّلَ بتقديسهم وتسبيحهم عائدٌ إليهم ، فهو الذى يجل من أَجَلَّه بإجلاله لا بأفعالهم ، ويعز من أعزَّ قدره سبحانه بإعزازه ، جَلَّ عن إجلال الخلق قدْرُه ، وعزَّ عن إعزاز الخَلْق ذِكْرُه .

قوله تعالى : « فسجدوا إلا إبليس » أبي بقلبه ، واستكبر عن السجود بنفسه ، وكان من الكافرين فى سابق حكمه وعلمه . ولقد كان ابليس مدةً فى دلال طاعته يختال فى صدار موافقته ، سلّموا له رتبة التقدم ، واعتقدوا فيه استحقاق التخصيص ، فصار أمره كما قيل :

وكان سراج الوصل أزهر بيننا فهبَّت به ريحٌ من البيْن فانطفا

كان يحسب لنفسه استيجاب الخيرية ، ويحسب استحقاق الزلفة والخصوصية :

فبات بخير والدنى[2] مطمئنة وأصبح يوماً والزمان تقلبا

فلا سالِفَ طاعةٍ نفَعَه ، ولا آنِفَ رجعةٍ رفعه ، ولا شفاعةَ شفيعٍ أدركَتْه ، ولا سابقَ عنايةٍ أمْسكتْه . ومن غَلَبَه القضاء لا ينفعه العناء .

ولقد حصلت من آدم هفوة بشرية ، فتداركتْه رحمة أحدية ، وأما ابليس فأدركته شقوة أزلية ، وغلبته قسمة وقضية . خاب رجاؤه ، وضلَّ عناؤه .

---

(١) الضمير عائد على آدم أى ليس السجود لآدم عينه ، ويحتمل أنها (لغيره) بدليل قوله فيما بعد (وذلك لا يصح لغيره سبحانه) .

(٢) وردت (والزمان) وقد صححنا البيت طبقاً لما ورد فى عيون الأخبار لابن قتيبة .

قوله جل ذكره : ﴿ وقلنا يا آدم أسْكُنْ أنت وزوجك
الجنة وكلا[1] منها رغداً حيث شئتما
ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا
من الظالمين ﴾ .

أسْكَنَه الجنةَ ولكن أثبت مع دخوله شجرة المحنة ، ولولا سابق التقدير لكان يبدل تلك الشجرة بالنضارة ذبولاً ، وبالخضرة يبساً ، وبالوجود فقدا ، وكانت لا تصل يد آدم إلى الأوراق ليخصفها على نفسه — ويقع منه ما يقع .

ولو تطاولت تلك الشجرة حتى كانت لا تصل إليها يده حين مدَّها لم يقع فى شأنه كل ذلك التشويش ولكن بدا من التقدير ما سبق به الحكم .

ولا مكانَ أفضل من الجنة ، ولا بَشَرَ أكيس من آدم ، ولا ناصح يقابل قولة إشارة الحق عليه ، ولا غريبة (منه) قبل ارتكابه ما ارتكب ، ولا عزيمة أشد من عزيمته — ولكنَّ القدرةَ لا تُكَابَر ، والحُكْمَ لا يُعَارَض .

ويقال لما قال له : « أسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً » كان فيه إشارة إلى أن الذى يليق بالخَلْق السكون إلى الخَلْق ، والقيام باستجلاب الحظ ، وآدم عليه السلام وَحْدَه كان بكل خير وكل عافية ، فلمَّا جاء الشكلُ والزوجُ ظهرت أنياب الفتنة ، وانفتح باب المحنة ؛ فحين سَاكَنَ حواء أطاعها فيما أشارت عليه بالأكل ، فوقع فيما وقع ، ولقد قيل :

داء قديمٌ فى بنى آدم صبوةُ إنسان بإنسان

[فصل] وكلُّ ما مُنِع[2] منه ابن آدم توفرت دواعيه إلى الاقتراب منه .

فهذا آدم عليه السلام أبيحت له الجنة بجملتها ونُهِىَ عن شجرة واحدة ، فليس فى المنقول أنه مدَّ يده إلى شىء من جملة ما أبيح ، وكان عِيلَ صبره حتى واقع ما نُهِىَ عنه — هكذا صفة الخَلْق .

[فصل] وإنما نبَّه على عاقبة دخول آدم الجنة من ارتكابه ما يوجب خروجه منها حين قال : « إنى جاعل فى الأرض خليفة » فإذا أخبر أنه جاعله خليفته فى الأرض كيف يمكن بقاؤه فى الجنة ؟

(1) وردت خطأ (فكلا) ، والصحيح (وكلا) البقرة : ٣٥ .
(2) وردت (امتنع) ثم استدرك الناسخ فصححها على هذا النحو فى الهامش .

ويقال أصبح آدم عليه السلام محمود الملائكة ، مسجود الكافة ، على رأسه تاج الوصلة ، وعلى وسطه نطاق القُربة ، وفى جيده (. . . .)[1] الزلفة ، لا أحد فوقه فى الرتبة ، ولا شخص مثله فى الرفعة ، يتوالى عليه النداء فى كل لحظة يا آدم يا آدم . فلم يُمْسِ حتى نُزِعَ عنه لباسُه ، وسُلِبَ استئناسه ، والملائكة يدفعونه بعنف أن اخرجْ بغير مُكْثٍ :

وأمِنْتُهُ فأتاح لى من مَأمنى مكراً ، كذا من يأمن الأحبابا

ولمّا تاه آدم عليه السلام فى مِشيته لم يلبث إلا ساعة حتى خرج بألف ألف عتاب ، وكان كما قيل :

لله دَرُّهُمُ من فِتْيةٍ بَكَرُوا مثلَ الملوكِ وراحوا كالمساكين

[فصل] نهاه عن قرب الشجرة بأمره ، وألقاه فيما نهاه عنه بقهره ، ولبَّس عليه ما أخفاه فيه من سِرِّه .

قوله جل ذكره : ﴿ فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ﴾ .

أزلَّهما أى حَمَلَهما على الزَّلة ، وفى التحقيق : ما صَرَّفَتْهُما إلا القدرة[2] ، وما كان تقلبهما إلا فى القضية ، أخرجهما عما كانا فيه من الرتبة والدرجة جهراً ، ولكن ما ازداد — فى حكم الحق سبحانه — شأنُهما إلا رفعةً وقدراً .

قوله جل ذكره : ﴿ وقلنا اهبطوا بعضُكم لبَعض عَدوٌّ ﴾ .

أوقع العداوة بينهما وبين الشيطان ، ولكن كان سبحانه مع آدم (وحرب وهو معهم محالهم بالظفر[3]) .

[فصل] لم يكن للشيطان من الخطر ما يكون لعداوته إثبات ، فإن خصوصية الحق سبحانه عزيزة قال تعالى : « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » .

[فصل] لو كان لابليس سلطان على غواية غيره لكان له إمكانٌ فى هداية نفسه ،

---

(١) مشتبهة ولكن يحتمل أنها (نُضار) فهى قريبة من ذلك فى الرسم .

(٢) هذا رأى على جانب كبير من الأهمية .

(٣) هكذا وردت العبارة فى ص وقد أثبتناها كما هى دون تصرف حتى فى رسم الحروف .

وكيف يكون ذلك ؟ والتفرد بالإبداع لكل شيء من خصائص نعته سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ .

مشهد الأشباح ومألفها أقطار الأرض ، ومعهد الأرواح ومرتعها رداء العرش ، و لفظ الرداء استعارة وتوسع فكيف يكون للهم بالحدثان تعلّق ، ولصعود القصود إلى الحقائق على الأغيار وقوع .

قوله جل ذكره : ﴿فتلقّى آدمُ من ربه كلماتٍ فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾ .

جرت على لسان آدم مع الحق — سبحانه — كلماتٌ ، وأسمع الحقُّ — سبحانه — آدمَ كلماتٍ ، وأنشدوا :

وإذا خِفْنا من الرقباء عينا تكلمت السرائر في القلوب

وأجمل الحقُّ سبحانه القولَ في ذلك إجمالاً لِيُبْقِيَ القصة مستورة ، أو ليكون للاحتمال والظنون مساغ ، ولما يحتمله الحال من التأويل مطرح[1] .

ويحتمل أن تكون كلمات آدم عليه السلام اعتذاراً وتنصلا ، وكلمات الحق سبحانه قبولاً وتفضلا . وعلى لسان التفسير أن قوله تعالى له : أفراراً منا يا آدم ؟ كذلك قوله عليه السلام : ربنا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنا . وقوله : أمخرجي أنت من الجنة ؟ فقال : نعم ، فقال أتردني إليها ؟ فقال : نعم .

ويقال حين أمر بخروجه من الجنة جعل ما أسمعه إياه من عزيز خطابه زاداً ، ليكون له تذكرة وعتاداً :

وأذكر أيام الحمى ثم انثني على على كبدي[2] من خشية أن تقطّعا

ومخاطبات الأحباب لاتحتمل الشرح ، ولا يحيط الأجانب بها علما ، وعلى طريق الإشارة لا على معنى التفسير والتأويل ، والحكم على الغيب بأنه كان كذلك وأراد به الحق سبحانه

(١) مطرح أي موضع .

(٢) وردت على (كبد) . (والأصل في البيت) (نصدعا) بدلا من (تقطعاً) .

ذلك يحتمل فى حال الأحباب عند المفارقة ، وأوقات الوداع أن يقال إذا خرجت من عندى فلا تنسَ عهدى ، وإنْ تقَاصَر عنك يوماً خبرى فإياك أن تؤثر علىّ غيرى ، ومن المحتمل أيضاً أن يقال إن فاتنى وصولك فلا يتأخَّرَنَّ عنى رسولُك .

قوله جل ذكره : ﴿ قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم منى هدى فمن تَبِع هُداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

سوء الأدب على البساط يوجب الرد إلى الباب ، فلما أساء آدم عليه السلام الأدب فى عين القربة قال الله تعالى : « اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ، بعد أن كان لكم فى محل القربة قرار ومتاع إلى حين ، يستمتعون يسيراً ولكن (فى) آخرهم يعودون إلى الفقر ، وأنشدوا :

إذا افتقروا عادوا إلى الفقر حسبة[1] وإن أيسروا عادوا سراعا إلى الفقر

وحين أخرجه من الجنة وأنزله إلى الأرض بَشَّره بأنه يردُّه إلى حاله لو جنح بقلبه إلى الرجوع فقال : « فإما يأتينكم منى هدىً فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .

والذين قابلوا النعمة بغير الشكر ، وغفلوا عن التصديق والتحقيق فلهم عذاب أليم مؤجَّل ، وفراق معجَّل .

قوله جل ذكره : ﴿ يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم ﴾ .

حقيقة النعمة على لسان العلماء[2] لذة خالصة عن الشوائب ، وما يوجب مثلها فهى أيضاً عندهم نعمة ، وعند أهل الحقيقة النعمة ما أشهدك المُنْعِم أو ما ذكَّرك بالمنعم أو ما أوصلك إلى إلى المنعم أو مالم يحجبك عن المنعم .

---

(١) حسبة أى احتساباً — هكذا فى الهامش .

(٢) واضح أن مقصود القشيرى من (لسان العلماء) و (لسان التفسير) هو التفسير العادى ، أما (عند أهل الحقيقة) و (الإشارة منه) ونحو ذلك فهو التفسير الصوفى .

وتنقسم إلى نعمة أبشار وظواهر ، ونعمة أرواح وسرائر ، فالأولى وجوه الراحات والثانية صنوف المشاهدات والمكاشفات . فمن النعم الباطنة عرفان القلوب ومحاب الأرواح ومشاهدات السرائر[1] .

[فصل] ويقال أمَرَ بنى إسرائيل بذكر النِّعَم وأمَرَ أُمَّةَ محمد صلى الله عليه وسلم بذكر المُنعِم ، وفرق بين من يقال له اذكر نعمتى وبين من يقال له : فاذكرونى أذكركم .

قوله جل ذكره : ﴿وأوفوا بعهدى أوفِ بعهدكم وإياى فارهبون﴾

عهدُه — سبحانه — حفظ المعرفة وعهدنا اتصال المغفرة ، عهده حفظ محابه وعهدنا لطف ثوابه ، عهده حضور الباب وعهدنا جزيل المآب .

أوفوا بعهدى بحفظ السر أوفِ بعهدكم بجميل البِر ، أوفوا بعهدى الذى قبلتم يوم الميثاق أوفِ بعهدكم الذى ضمنت لكم يوم التلاق ، أوفوا بعهدى فى ألا تؤثروا علىّ غيرى أوفِ بعهدكم فى ألا أمنع عنكم لطفى وخيرى ، أوفوا بعهدى برعاية ما أثبتُّ فيكم من الودائع أوفِ بعهدكم بما أُديم لكم من شوارق اللوامع وزواهر الطوالع[2] ، أوفوا بعهدى بحفظ أسرارى أوف بعهدكم بجميل مَبَارِّى ، أوفوا بعهدى باستدامة عرفانى أوفِ بعهدكم فى إدامة إحسانى ، أوفوا بعهدى فى القيام بخدمتى أوفِ بعهدكم فى المِنَّةِ عليكم بقبولها منكم ، أوفوا بعهدى فى القيام بحسن المجاهدة والمعاملة أوفِ بعهدكم بدوام المواصلة والمشاهدة ، أوفوا بعهدى بالتبرى عن الحوْل والمُنَّة أوف بعهدكم بالإكرام بالطول والمِنَّة ، أوفوا بعهدى بالتفضيل والتوكل أوفِ بعهدكم بالكفاية والتفضل ، أوفوا بعهدى بصدق المحبة أوفِ بعهدكم بكمال القربة ، أوفوا بعهدى اكتفوا منى بى أوفِ بعهدكم أرضى بكم عنكم ، أوفوا بعهدى فى دار الغيبة على بساط الخدمة بشدِّ نطاق الطاعة ، وبذل الوسع والاستطاعة أوفِ بعهدكم فى دار القربة على بساط الوصلة بإدامة الأُنْس والرؤية وسماع الخطاب وتمام الزلفة ، أوفوا بعهدى فى المطالبات بترك

---

(١) نعرف من هذا ان الملكات الباطنة عند القشيرى هى فضلا عن النفس التى هى محل المحظورات والمعلولات ،والعقل الذى به تصحيح الإيمان فى البداية ــ القلب وهو مستودع المعرفة والروح وهى مستودع المحبة ثم السر وهو الذى يشاهد الحقائق ، وله فوق ذلك ملكة أخرى هى سر السر أو عين السر لا يطلع عليها سوى الحق .

(٢) اللوامع تسبق الطوالع فى الظهور ، والطوالع ابقى وقتاً وأقوم سلطاناً وأدوم مكثاً وأذهب للظلمة وانفى للتهمة (الرسالة ص ٤٣ ، ٤٤) .

الشهوات أوفِ بعهدكم بكفايتكم تلك المطالبات ، أوفوا بعهدى بأن تقولوا أبداً : ربى ربى أوفِ بعهدكم بأن أقول لكم عبدى عبدى . وإياى فارهبون ، أى أفرِدُونى بالخشية لانفرادى بالقدرة على الإيجاد فلا تصح الخشية ممن ليس له ذرة ولا مِنَّة .

قوله جل ذكره : ﴿وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافرٍ به ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً وإياى فاتقون﴾ .

الإشارة أن يقرن (العبد) إيمانه من حيث النبيان بإيمانه من حيث البرهان ، وجمهور المؤمنين لهم إيمان برهان بشرط الاستدلال ، وخواص المؤمنين لهم إيمان من حيث البيان بحق الإقبال ، وأقبل الحق سبحانه عليهم فآمنوا بالله ، وآخر أحوالهم الإيمان من حيث العيان ، وذلك لخواص الخواص .

ولا تكونوا أول كافرٍ به ، ولا تَسُنُّوا[1] الكفر سُنَّةً فإن وِزْرَ المبتدئ فيما يَسُنُّ أعظم من وزر المقتدى فيما يتابع .

« ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلاً » لا تؤثروا على عظيمِ حقى خسيسَ حظِّكم . «وإياى فاتقون» كثيرٌ[2] من يتقى عقوبته وعزيز من يهاب اطلاعه ورؤيته .

قوله جل ذكره : ﴿ولا تلبسوا[3] الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾ .

لا تتوهموا أن يلتئم لكم جمع الضدين ، والكون فى حالة واحدة فى محلين[4] ، (فالعبد) إما مبسوط بحق أو مربوط بحظ ، وأمّا حصول الأمْرَيْن فمحالٌ من الظن .

« ولا تلبسوا الحق بالباطل » تدنيس ، « وتكتموا الحق» تلبيس ، «وأنتم تعلمون» أن حق الحق تقديس ، وأنشدوا :

أيها المنكح الثريا سهيلا ... عمرك الله ، كيف يلتقيان ؟!
هى شامية إذا ما استهلت ... وسهيلٌ إذا استهل يمانى !

(١) وردت (ولا تنسوا) وهى خطأ فى النسخ .
(٢) وردت (كثيراً) وهى خطأ حيث يجب الرفع على تقدير (منْ يتقى عقوبته كثير) .
(٣) أخطأ الناسخ إذ كتبها . (ولا تلبس) والصحيح ولا تلبسوا (البقرة : ٤١) .
(٤) وردت فى (محلى) وهى خطأ فى النسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة

واركعوا مع الراكعين﴾

احفظوا آداب الحضرة ، فحفظ الآداب أتمّ فى الخدمة من الخدمة ، والإشارة فى إيتاء الزكاة إلى زكاة الهِمَم كما تؤدَّى زكاةُ النعِّم ، قال قائلهم :

كلُّ شىءٍ له زكاةٌ تُؤدَّى وزكاةُ الجمال رحمةُ مثلى

فيفيض من زوائد همه ولطائف نظره على المُتَّبِعين والمُرَبين بما ينتعشون به و (...)[1]، « واركعوا مع الراكعين » : تقتدى بآثار السلف فى الأحوال ، وتجتنب سنن الانفراد فإن السكون فى غمار الجمع أسلم من الامتياز من الكافة[2] .

قوله جل ذكره : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » .

أتُحَرِّضون الناس على البِدار[3] وترضَوْن بالتخلُّف ؟ ويقال أتدعون الخَلْقَ إلينا وتقعدون عنّا ؟ أتسرحون الوفود وتقصرون فى الورود[4] ؟ أتنافسون الخلْق[5] وتنافرونهم بدقائق الأحوال وترضوْن بإفلاسكم عن ظواهرها ؟

ويقال أتبصرون من الحق مثقالَ الذَّرِ ومقياسَ الحَبِّ وتساهمون لأنفسكم أمثال الرِّمال والجبال ؟ قال قائلهم :

وتبصر فى العين منى القذى وفى عينك الجذع لا تبصر ؟ !

ويقال أتُسقَوْنَ بالنُّجُب[6] ولا تشربون بالنُّوَب ؟

(١) هنا لفظتان مشتبهتان وفيهما شطب .

(٢) الاشارة وإن كانت لصلاة الجماعة إلا أنها توضح أيضا حرص القشيرى على الاهتمام بالاجماع كمصدر من مصادر الشريعة .

(٣) وردت بالباء وهى خطأ فى النسخ .

(٤) من ورد الماء أى ذهب ليستقى .

(٥) وردت أتنافسون (الحق) وواضح أنها خطا فى النسخ .

(٦) نجبة الأشياء ونجائبها لُبَابها وخالصها ، وربما كانت النخب (بالخاء) ج نخب وهو الشربة العظيمة الوسيط ص ٩١٥ .

« وأنتم تتلون الكتاب » ثم تعاندون بخفايا الدعاوى وتجحدون بما شام قلوبكم من فضيحات الخواطر وصريحات الزواجر .

« أفلا تعقلون » إن ذلك ذميمٌ من الخِصال وقبيحٌ من الفِعال .

قوله جل ذكره : ﴿ واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾ .

الصبر فطم النفس عن المألوفات ، والصلاة التعرُّض لحصول المواصلات ، فالصبر يشير إلى هجران الغَيْر ، والصلاة تشير إلى دوام الوقوف بحضرة الغيب ، وإن الاستعانة بهما لخصلة شديدة إلا على مَن تجلَّى الحق لسِرِّه فإن فى الخبر المنقول : « إن الله تعالى إذا تجلَّى لشيء[1] خشع له » . وإذا تجلَّى الحق ، خَفَّ وسَهُلَ ما توقَّى الخلْق ، لأن التوالى للطاعات يوجب التكاليف بموجب مقاساة الكلفة ، والتجلى بالمشاهدات — بحكم التحقيق — يوجب تمام الوصلة ودوام الزلفة .

ويقال استعينوا بى على الصبر معى ، واستعينوا بحفظى لكم على صلاتكم لى ، حتى لا تستغرقكم واردات الكشف والهيبة ، فلا تقدرون على إقامة الخدمة .

وإن تخفيف سطوات الوجود على القلب فى أوان الكشف حتى يقوى[2] العبد على القيام بأحكام الفرق لَمِنَّةٌ عظيمة من الحق[3] .

وأقسام الصبر كلها محمودة الصبر فى الله ، والصبر لله ، والصبر بالله والصبر مع الله إلا صبراً واحداً وهو الصبر عن[4] الله :

والصبر يحسن فى المواطن كلها إلا عليك فإنه مذموم[5]

قوله جل ذكره : ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم وأنهم إليه راجعون ﴾ .

---

(١) وردت بدون اللام ، والأصح بها .

(٢) وردت حتى (يقول) وهى خطأ فى النسخ .

(٣) يشير القشيرى بذلك إلى الفرق الثانى ، ويعتبر أن من علامة قبول العبد عند ربه أن يساعده على الرجوع إلى هذا الفرق حتى يستطيع أداء ما عليه من فريضة .

(٤) الأرجح أنها (على) بدليل ورودها فى البيت الشاهد ، كذا في « الرسالة » فى سياق مماثل .

(٥) ورد البيت فى الرسالة هكذا (والصبر يجمل) و (فإنه لا يجمل) ص ٩٣ .

الظن يُذكَر ، ويقال المراد به اليقين ، وهو الأظهر ها هنا .

ويذكر ويراد به الحسبان فَمَنْ ظنَّ ظن يقين فصاحب وصلة .

ومن ظنّ ظن تخمين فصاحب فرقة . ومُلاقو ربهم ، صيغة تصلح لماضى الزمان والحاضر وهم ملاقون ربهم فى المستقبل . ولكن القوم[1] لتحققهم بما يكون من أحكام الغيب صاروا كأن الوعدَ لهم تَقَرَّرَ ، والغيب لهم حضور .

قوله جل ذكره : ﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضّلتكم على العالَمين ﴾ .

أشْهَدَ بنى إسرائيل فضل أنفسهم فقال : « وأنى فضلتكم على العالمين »

وأشهد المسلمين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فضل نفسه فقال : « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا »[2].

فشتّان بين مَنْ مشهودُه فضلُ نفسه ، وبين مَنْ مشهودُه فضل ربه ؛ فشهود العبد فضل نفسه يوجب له الشكر وهو خطر الإعجاب ، وشهود العبد فضل الحق — الذى هو جلاله فى وصفه وجماله فى استحقاق نعته — يقتضى الثناء وهو يوجب الإيجاب[3].

قوله جل ذكره : ﴿ واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل وهم لا ينصرون ﴾ .

العوام خوّفهم بأفعاله فقال : « واتقوا يوماً » « واتقوا النار » .

والخواص خوّفهم بصفاته فقال : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله » وقال : « وما تكون فى شان . . . إلى قوله إلا كنا عليكم شهودا »[4].

وخاص الخاص خوّفهم بنفسه فقال : « ويحذركم الله نفسه »

(١) يقصد الصوفية .

(٢) سورة يونس آية ٥٨ .

(٣) الايجاب = الاستحقاق والقَبول .

(٤) يونس آية ٦١ .

والعدل: الفداء

ويوم القيامة لا تسمع الشفاعة إلا لمن أمر الحق بالشفاعة له، وأذِنَ فيه، فهو الشفيع الأكبر — على التحقيق — وإن كان لا يطلق عليه لفظ الشفيع لعدم التوقيف[1].

وفي معناه قيل:

الحمد لله شكرا فكلُّ خيرٍ لديه
صار الحبيب شفيعاً إلى شفيع إليه

والذين أصابتهم نكبة القسمة لا تنفعهم شفاعة الشافعين، ومالهم من ناصرين، فلا يُقْبَل منهم فداء، ولو افتدوا بملء السموات وملء الأرضين.

قوله جل ذكره: ﴿ وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب، ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾.

من صبر في الله على بلاء أعدائه عوَّضه الله صحبة أوليائه، وأتاح[2] له جميل عطائه؛ فهؤلاء بنو إسرائيل صبروا على مقاساة الضر من فرعون وقومه فجعل منهم أنبياءهم، وجعلهم ملوكا، وآتاهم مالم يؤت أحداً من العالمين. «وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم»: قيل نعمة عظيمة وقيل محنة شديدة. وفي الحقيقه ما كان من الله — في الظاهر — محنةً فهو — في الحقيقة لمن عرفه — نعمةٌ ومِنَّة.

قوله جل ذكره: ﴿ وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون ﴾.

تقاصرت بصائر بني إسرائيل فأراهم المعجزات عياناً، ونفذت بصائر هذه الأمة فكاشفهم بآياته سراً، وبذلك جرت سُنَّته سبحانه، وكل من كان أشحذ بصيرةً كان الأمر عليه أغمض،

---

(١) وردت (التوفيق) وهي خطأ في النسخ، والقشيري — كغيره من الباحثين — يرى أنه لا ينبغي إضافة اسماء وصفات لما ورد في الحديث المرويّ عن أبي هريرة والذي أبلغها تسعة وتسعين، فلا يصح أن يسمى الله عاقلاً ولا ذكياً ونحو ذلك.

(٢) وردت (بالخاء) وهي خطأ في النسخ.

والإشارات معه أوفر ، قال صلى الله عليه وسلم « : أوتيت جوامع الكلم واختصر لى الكلام اختصارا »[1] .

وحين شاهدوا ظاهر تلك الآيات من فلق البحر وإغراق آل فرعون — داخَلَهُمْ ريبٌ ؛ فقالوا : إنه لم يغرق[2] حتى قذفهم البحر ، فنظر بنو إسرائيل إليهم وهم مغرقون . وهذه الأمة لفظ تصديقهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله ، وقوة بصائرهم (أن) قال واحد من أفتاء[3] الناس : « كأنى بأهل الجنة يتزاورون وكأنى بأهل النار يتعاوون وكأنى أنظر عرش ربى بارزاً »[4] فشتَّان بين من يُعاين فيرتاب مع عيانه ، وبين مَنْ يسمع فكالعيان حالُه من قوة إيمانه .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العِجْلَ من بعده وأنتم ظالمون ﴾.

شتَّان بين أمة وأمة ؛ فأُمَّةُ موسى عليه السلام — غاب نبيُّهم عليه السلام أربعين يوماً فاتخذوا العِجْلَ معبودَهم ، ورضوا بأن يكون لهم بمثل العجل معبوداً ، فقالوا : « هذا إلهُكم وإله موسى فَنَسِىَ »[5] وأمة محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم مضى من وقت نبيِّهم سنون كثيرة فلو سمعوا واحداً يذكر فى وصف معبودهم مايوجب تشبيها لما أبقَوْا على حشاشتهم ولو كان فى ذلك ذهاب أرواحهم[6] .

---

(١) « إنما بعثت فاتحاً وخاتماً وأعطيت جوامع الكلم وفواتحه واختصر لى الحديث اختصاراً فلا يهلكنكم المتهوكون » البيهقى فى شعب الإيمان عن أبى قتادة مرسلاً (للمنتخب من كنز العمال جـ ٤ ص ٣٠٢) .

والتهوك = الاضطراب فى القول وأن يكون على غير استقامة .

(٢) الفعل بالمفرد هنا لأنه عائد على لفظ آل أو على فرعون ، ثم تحدث بعد ذلك بالجمع حين أعاده على المعنى

(٣) افتاء وفِتْياء جمع فتىّ وهو الشاب من إنسان أو حيوان الوسيط ص ٦١٠ .

(٤) خرّجنا هذا الحديث المروى عن حارثة فى هامش سبق .

(٥) سورة طه آية ٨٨ .

(٦) يغمز القشيرى هنا بالمشبهة ، فيلحق من يقول بالتشبيه بعبدة العجل ، فكلاهما توقح ونسب للالوهية ما ينبغى أن تتنزه عنه . وأهل السنة يرفضون رفضاً قاطعاً كل ما يشين الذات الإلهية من تصورات مادية .

ويقال إن موسى — صلوات الله عليه — سلَّم أمته إلى أخيه فقال : اخلفنى فى قومى ، وحين رجع وجدهم وقعوا فى الفتنة ، ونبيُّنا — صلوات الله عليه — توكَّل على الله فلم يُشِرْ على أَحَدٍ فى أمر الأمة وكان يقول فى آخر حاله : الرفيق الأعلى . فانظر كيف تولىَّ الحق رعاية أمته فى حفظ التوحيد عليهم . لعمرى يُضَيِّعون حدودَهم ولـكن لا ينقضون[1] توحيدَهم.

قوله جل ذكره : ﴿ ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تشكرون ﴾

سرعة العفو على عظيم الجُرْم تدل على حقارة قدر المعفو عنه ، يشهد لذلك قوله تعالى (مخاطباً أمهاتِ المسلمين) : « من يأتِ منكن بفاحشة مُبَيِّنَةٍ يُضاعف لها العذاب ضِعفين » ، هؤلاء بنو اسرائيل عبدوا العجل فقال الله تعالى : « ثم عفْونا عنكم من بعد ذلك » ، وقال لهذه الأمة (يقصد أمة محمد صلى الله عليه وسلم) : « ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره »

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون ﴾ .

فرقان هذه الأمة الذى اختُصُّوا به نورٌ فى قلوبهم ، به يُفَرِّقون بين الحق والباطل ، قال النبي صلى الله عليه وسلم لوابصة : « استفتِ قلبك »[2] .

وقال : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله »[3] .

وقال الله تعالى : « إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا » وذلك الفرقان ميراث ما قدَّموه من الإحسان .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ﴾ .

أى ما أضررتم إلا بأنفسكم فيما ارتكبتم من ذنوبكم ، فأمَّا الحق سبحانه فعزيز الوصف ، لا يعود إلى عِزِّه من ظلم الظالمين شىء ، ومن وافق هواه واتَّبع مناه فَعَجْلُه ما علَّق به همَّه ، وأفرد له قصده .

---

(١) وردت (ينقصون) بالصاد والأقوى أن تكون بالضاد لأن المقصود هو تمسك أمة محمد (ص) بعدم (نقض) التوحيد .

(٢) هكذا رواه أحمد فى مسنده والبخارى فى تاريخه والدارمى فى سننه وحسنه النووى فى رياض الصالحين بلفظ « استفت نفسك وإن أفتاك المفتون » .

(٣) الترمذى والطبرانى من حديث أبى أمامة والترمذى من حديث أبى سعد والطبرانى وابو نعيم عن انس

قوله جل ذكره : ﴿ فتوبوا إلى بارئكم ﴾ .

الإشارة إلى حقيقة التوبة بالخروج إلى الله بالكلية .

قوله جل ذكره : ﴿ فاقتلوا أنفسكم ﴾

التوبة بقتل النفوس غير (. . .)[1] إلا أن بنى اسرائيل كان لهم قتل أنفسهم جهراً ، وهذه الأمة توبتهم بقتل أنفسهم في أنفسهم سراً ، فأوَّلُ قَدَمٍ فى القصد إلى الله الخروجُ عن النفس .

[فصل] ولقد توهم الناس أن توبة بنى اسرائيل كانت أشق ، ولا كما توهموا ؛ فإن ذلك كان مقاساة القتل مرة واحدة ، وأمَّا أهل الخصوص من هذه (الأمة)[2] ففى كل لحظة قتل ، ولهذا :

ليس من مات فاستراح بميتٍ   إنما الميت ميت الأحياء

وقتل النفس فى الحقيقة التبرى عن حوْلِها وقوتها أو شهود شيءٍ منها ، ورد دعواها إليها ، وتشويش تدبيرها عليها ، وتسليم الأمور إلى الحق — سبحانه — بجملتها ، وانسلاخها من اختيارها وإرادتها ، وانمحاء آثار البشرية عنها ، فأمَّا بقاء الرسوم والهيا كل فلا خطرَ له ولا عبرةَ به .

قوله جل ذكره : ﴿ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التوَّاب الرحيم ﴾

كونه لكم عنكم أتمُّ من كونكم لأنفسكم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ﴾ .

التعرض بمطالعة الذات على غير نعمة إلهية إفصاحٌ بِتَرْكِ الحرمة ، وذلك من أمارات البعد والشقوة .

---

(١) هنا كلمة مُشْتَبِهَة .

(٢) يقصد أمة المصطفى صلوات الله عليه وسلامه .

وإثبات نعت التولى بمكاشفات العزة مقرونا بملاطفات القربة من علامات الوصلة ودلالات السعادة .

فلاجَرَمَ لـما أطلقوا لسان الجهل بتقوية ترك الحشمة أخذتهم الرجفة والصعقة .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم بعثنا كم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ﴾

أعادهم إلى حال الإحساس بعد ما استوفتهم سطوات العذاب إملاءً لهم بمقتضى الحكم ، وإجراءً للسنَّةِ فى الصفح عن الجُرْم ، ومن قضايا الكرم إسبالُ الستر على هَنَاتِ الخَدَم .

قوله جل ذكره : ﴿ وظَلَّلْنا عليكم الغَمام وأنزلنا عليكم المَنَّ والسَّلْوى ، كُلُوا من طيبات ما رزقنا كم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفُسَهم يَظْلمون ﴾ .

لمّا طرحهم فى متاهات الغُربة لم يرضَ إلا بأن ظَلَّلَهُم ، وبلبسة الكفايات جَلَّلَهُم ، وعن تكلف التكسُّب أغناهم ، وبجميل صنعه فيما احتاجوا إليه تولَّاهم ؛ فلا شعُورُهم كانت تَطُول ، ولا أظفارهم كانت تنبُت ، ولا ثيابهم كانت تتسِخ ، ولا شعاعُ الشمس عليهم كان ينبسط . وكذلك سُنَّتُه لمن حال بينه وبين اختياره ، يكون ما يختاره سبحانه له خيراً مما يختاره لنفسه .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رَغَدًا ، وادخلوا البابَ سُجَّداً ، وقولوا حِطَّةٌ نَغفِرْ لكم خطاياكم ، وسنزيد المحسنين ﴾ .

(   )[1] بنو إسرائيل على تضييع ما كانوا يُؤْمَرون ، حتى قالةٍ أُوصُوا بحفظها فبدّلوها ، وحالةٍ من السجود أُمروا بأن يدخلوا عليها فحوّلوها ، وعَرَّضُوا أنفسَهم لِسهام الغيب . ثم لم يطيقوا الإصابة بقَرْعِها[2] ، وتعرضوا لمفاجآت العقوبة فلم يثبتوا عند صدمات وَقْعِها .

(١) كلمة مشتبهة فى ص .   (٢) وردت بدون الباء فى ص وقد أضفناها ليستقيم المعنى .

قوله جل ذكره : ﴿ فَبدَّلَ الذين ظَلَموا قَوْلاً غيرَ الذى قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رِجْزاً من السماء بما كانوا يَفسُقون ﴾ .

لم يمكنهم أن يردوا باب السماء باحتيالهم ، أو يصدوا مِنْ دونهم أسبابَ البلاء بما ركنوا إليه من أحوالهم ، فزعوا من الندم لما عضّهم ناب[1] الألم ، وهيهات أن ينفعهم ذلك لأنه محال من الحسبان .

قوله جل ذكره : ﴿وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الحَجَرَ فانفجرت منه اثنتا عشرة عيْناً ، قد عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مشرَبَهم ، كلوا واشربوا من رِزْقِ اللهِ ، ولا تَعْثَوا فى الأرض مُفْسِدين ﴾ .

إن الذى قدر على إخراج الماء من الصخرة الصمَّاء كان قادراً على إروائهم بغير ماء ولكن لإظهار أثر المعجزة فيه ، وإيصال محل الاستغاثة إليه ، وليكون على موسى عليه السلام — أيضاً فى نقل الحجر — مع نفسه شغل ، ولتكليفه أن يضرب بالعصا مقاساةُ نوعٍ من معالجةِ ما أمضى حكمه عند استسقائه لقومه[2] .

ثم أراد الحق سبحانه أن يكون كل قوم جارياً على سُنَّة ، ملازماً لحَدّه ، غيرَ مُزَاحِمٍ لصاحبه فأفرد لكل سبطة علامةً يعرفون بها مشربهم ، فهؤلاء لا يَرِدُون مشرب الآخرين ، والآخرون لا يَرِدُون مشرب الأولين .

وحين كفاهم ما طلبوا أمرَهُم بالشكر ، وحِفْظِ الأمرِ ، وتَرْكِ اختيار الوزر ، فقال : ولا تعثوا فى الأرض مفسدين .

والمناهل مختلفة ، والمشارب متفاوتة ، وكلٌّ يَرِد مَشْرَبه ؛ فمشربٌ عَذْبٌ فُرات ، ومشربٌ مِلْح أُجاج ، ومشربٌ صافٍ زلال ، ومشرب رنق أو شال[3] . وسائقُ كلٍّ قومٍ

(١) وردت (تاب) بالتاء وهى خطأ فى النسخ .

(٢) لاحظ هنا مذهب القشيرى فى التوكل ، وكيف أنه لا يتعارض مع السعى .

(٣) أوشال : جمع وَشْل = وهو الماء القليل يتحلَّبُ من جبل أو صخرة ولا يتصل قطره الوسيط ص ١٠٤٧ .

يقودهم ، ورائد كُلٍّ طائفة يسوقهم ؛ فالنفوس تَرِدُ مناهل المنى والشهوات ، والقلوب ترد مشارب التقوى والطاعات ، والأرواح ترد مناهل الكشف والمشاهدات ، والأسرار ترد مناهل الحقائق بالاختطاف عن الكون والمرسومات ، ثم عن الإحساس والصفات ثم بالاستهلاك فى حقيقة الوجود والذات .

قوله جل ذكره : ﴿وإذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادعُ لنا ربَّك يُخْرِج لنا مما تُنْبِتُ الأرض من بَقْلِها وقثائها وفُومِها وَعَدَسِها وَبَصَلِها . قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير اهبطوا مصراً فإنّ لكم ما سألتم ، وضُرِبت عليهم الذِّلّةُ والمسكنة وباءوا بغَضَبٍ من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون﴾ .

لم يرضَوْا بحسن اختياره لهم ، ولم يصبروا على قيامه بتولى ما كان يَهُمُّهم من كفاية مأكولهم وملبوسهم ، فنزلوا فى التحير إلى ما جرت[1] عليه عاداتهم من أكل الخسيس من الطعام ، والرضا بالدون من الحال ، فردَّهم إلى مقاساة الهوان ، وربطهم بإدامة الخذلان ، حتى سفكوا دماء الأنبياء وهتكوا حرمة الأمر بِقِلّة الاستحياء ، وتَرْكِ الارعواء ، فعاقبهم على قبيح فعالهم ، وردَّهم إلى ما اختاره لأنفسهم من خسائس أحوالهم ، وحين لم تنجح فيهم[2] النصيحة ، أدركتهم النقمة والفضيحة . ويقال كان بنو إسرائيل متفرقى الهموم مُشَتّتِي القصود ؛ لم يرضوا لأنفسهم بطعامٍ واحد ، ولم يكتفوا فى تدينهم بمعبود واحد ، حتى قالوا لموسى عليه السلام — لمَّا رأوا قوماً يعبدون الصنم[3] — يا موسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم إله ؛

---

(١) وردت فى ص (مرت) وهى بالجيم أصوب . (٢) وردت (فيهم) وهى خطأ فى النسخ .
(٣) وردت (الضم) وهى خطأ فى النسخ .

وهكذا صفة أرباب التفرقة . والصبر مع الواحد شديد ، قال تعالى : « وإذا ذكرتَ ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفورا » .

قوله جل ذكره : ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى
والصابئين من آمن بالله واليوم الآخِر
وعَمِل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم
ولا خوفٌ عليهم ولاهم يحزنون﴾ .

اختلاف الطريق مع اتحاد الأصل لا يمنع من حسن القبول ، فمن صدَّق الحق سبحانه في آياته ، وآمن بما أخبر من حقه وصفاته ، فتبايُن الشرع واختلاف وقوع الاسم غيرُ قادحٍ في استحقاق الرضوان، لذلك[1] قال: «إن الذين آمنوا والذين هادوا» ثم قال : « من آمن منهم » ، أى إذا اتفقوا فى المعارف فالكلٌّ لهم حُسْنُ المآب ، وجزيلُ الثواب. والمؤمن مَنْ كان فى أمان الحق سبحانه ، ومَنْ كان فى أمانه ـ سبحانه وتعالى ـ فبالحرىِّ ألا خوف عليهم ولاهم يحزنون .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا
فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوةٍ
واذكروا ما فيه لعلكم تتقون، ثم توليتم
من بعد ذلك. فلولا فضلُ الله عليكم
ورحمته لكنتم من الخاسرين ﴾ .

أخذ سبحانه ميثاقَ جميع المُكَلَّفِين ، ولكنَّ قوماً أجابوا طوعاً لأنه تعرَّف إليهم فوحَّدوه وقوماً أجابوه كرهاً لأنه ستر عليهم فجحدوه ، ولا حُجَّة أقوى من عيان ما رفع فوقهم من الطور — وهو الجبل — ولكن عَدِموا نورَ البصيرة ، فلا ينفعهم عيانُ البصر . قال الله تعالى « ثم توليتم من بعد ذلك » ، أى رجعتم إلى العصيان بعد ما شاهدتم تلك الآيات بالعيان ، ولولا حكمه بإمهاله ، وحِلْمُهُ بأفضاله لعاجَلكُم بالعقوبة ، وأحلَّ عليكم عظيمَ المصيبة ولخسِرَتْ صفقتُكم بالكُلِّيَة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقُلْنا لهم كونوا قِرَدةً خاسئين﴾ .

---

(١) وردت (كذلك)

مسْخُ هذه الأمة حصل على القلوب ، فكما أنهم لما تركوا الأمر واستهانوا بما أُلزموا به من الشرع — عجلت عقوبتهم بالخسف والمسخ وغير ذلك من ضروب ما ورد به النَّصُّ ، فهذه الأمة مِنْ نَقْضِ العهدِ ورفض الحدِّ عوقبت بمسخ القلوب ، وتبديل الأحوال ، قال تعالى : «ونُقَلِّبُ أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة»(1) وعقوبات القلوب أنكى من عقوبات النفوس ، وفي معناه أنشدوا :

يا سائلي : كيف كنتَ بَعْده ؟ لقيتُ ما ساءني وسَرَّه
ما زلت أختال في وِصالي حتى أمِنت من الزمان مَكْرَه(2)
طال عليَّ الصدود حتى لم يُبْقِ مما شَهِدَت ذرَّه

قوله جل ذكره : ﴿ فجعلناها نَكالاً لِمَا بين يديها وما خلفها وموعظةً للمتقين ﴾ .

هكذا مَنْ مُنِيَ بالهجران ، ووُسِمَ بالخذلان ، صارت أحوالُه عِبْرة ، وتجرَّع — مِنْ مُلاحَظته لحاله — عليه الحسرة ، وصار المسكين — بعد عِزِّه لكلِّ خسيسٍ سُخْرَة . هكذا آثار سُخْطِ الملوك وإعراض السادة عن الأصاغر :

وقد أحدق الصبيان بي وتجمعوا عليَّ وأشلوا بالكلاب ورائيا

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ﴾ .

كان الواجب عليهم استقبال الأمر بالاعتناق ولكنهم تعللوا ببقاء الأشكال توهماً بأن يكون لهم (. . .)(3) تُفضِي بالإخلاد إلى الاعتدال(4) عن عهدة الإلزام فتضاعفت عليهم المشقة وحلَّ بهم(5) ما حَذِرُوه من الافتضاح .

[فصل] ولما قال إنها بقرة لا فارضٌ ولا بِكْرٌ عَوَانٌ بين ذلك ، أي ليست بفَتِيَّةٍ ولا مُسِنَّة بل هي بين السِّنَّيْنِ . حصلت الإشارة أن الذي يصلح لهذه الطريقة مَنْ لا يستهويه

---

(1) سورة الأنعام آية ١١٠ .
(2) ورد في البيت (أحتال) و (وجال) و (أنيت) من الزمان وقد أصلحنا ليستقيم المعنى والوزن .
(3) سقطت هنا لفظة من الناسخ وهو ينتقل من ورقة إلى أخرى .
(4) الاعتدال هنا بمعنى العدول عن الشيء .
(5) وردت (وجلبهم) وهي غير ملائمة للمعنى والسياق .

نَزَقُ الشباب وسُكره ، ولم يُعَطِّله عجزُ المشيب وضعفُه ، بل هو صاحٍ استفاق عن سُكرِه ، وبقيت له — بَعْدُ[1] — نضارةٌ من عمره .

قوله جل ذكره : ﴿صفراء فاقعٌ لونُها تَسُرُّ الناظرين. قالوا
ادعُ لنا ربكَ يُبَيِّن لنا ما هى إنَّ البقر
تَشَابَهَ علينا وإنَّا إنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُون﴾

كما كان يأخذ لونها الأبصار فالإشارة منها أن من كان من أهل القصة[2] يستغرق شاهدُه القلوبَ لِمَا أُلبِس من رداء الجبروت ، وأقيم به من شاهد الغيب[3] حتى أن من لاحظَه تناسى أحوال البشرية ، واستولى عليه ذكر الحق ، كذا فى الخبر المنقول : أولياء الله الذين إذا رأوا ذكر الله (. . . .)[4] .

قوله جل ذكره : ﴿قال إنه يقول إنها بَقَرَةٌ لاَ ذلُولٌ
تُثِير الأرضَ ولا تسقى الحرثَ مُسَلَّمَةٌ
لاشيةَ فيها قالوا[5] الآن جِئْتَ بالحق
فذبحوها وما كادوا يفعلون﴾ .

كما أن تلك البقرة لم يُذَلِّلْها العملُ ، ولم تُبْتَذَلْ فى المكاسب ، لا لونَ فيها يخالف عِظَمَ لَوْنِها فالإشارة منه أن أهل الولاية[6] الذين لم يتبذلوا بالأغيار لتحصيل ماطلبوا من الأسباب ، ولم يركنوا بقلوبهم إلى الأشكال والأمثال ، ولم يتكاوا على الاختيار والاحتيال ، وليسوا نهباً لمطالبات المنى ، ولا صيداً فى مخلب الدنيا ، ولا حكمَ للشهوات عليهم ، ولا سلطان للبشرية تَمَلَّكهم ، ولم يسعَوْا قط فى تحصيل مرادهم ، ولم يشقوا لدرك بُغيتهم ، وليس عليهم رقم الأغيار ، ولا سِمَةُ الأسباب — فَهُمْ قائمون بالله ، فانون عما سوى الله ، بل هم محو ، مُصَرِّفُهم اللهُ . والغالب — على قلوبهم — الله

وكما أن معبودَهم الله كذلك مقصودهم الله .

---

(١) ربما صحت على هذا ويكون المعنى ما زالت فيه بقية من نضارة عمره ، ويحتمل أن تكون فى الأصل (بعض) ويكون المعنى وبقيت له بعض نضارة من عمره .

(٢) يقصد أهل التصوف .

(٣) وردت (الغير) ولا معنى لها هنا لأن شهود الغيب هو الذى يحدث ذلك الأثر .

(٤) فى (ص) علامات تدل على أن الكلام مبتور ، ونرجح أن (ذاكر) بدل (ذكر) .

(٥) أخطأ الناسخ عند كتابة هذه اللفظة من الآية الكريمة حيث وردت (قال) الآية ٧٠ من سورة البقرة .

(٦) فى ص (ولاية) بدون تعريف والأصح بها .

وكما أن مقصودهم الله كذلك مشهودهم الله، وموجودهم الله، بل هم محو بالله و (....)[1] عنهم الله، وأنشد قائلهم.

إذا شئتِ أن أرْضَى وترضَىْ وتملكى زمامِيَ — ما عشنا معاً — وعنانى
إذن فارمُقى الدنيا بعيني واسمعى بأذنى وانطقى بلسانى

قوله جل ذكره: ﴿ قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون ﴾.

طلبوا الحيلة ما أمكنهم فلما ضاقت بهم الحِيَل استسلموا للحكم فتخلصوا من شدائد المطالبات، ولو أنهم فعلوا ما أمِروا به لما تضاعفت عليهم المشاق.

قوله جل ذكره: ﴿وإذا قتلتم نَفْساً فادَّار أتم فيها والله مُخْرِجٌ ما كنتم تكتمون ﴾.

الخائن خائف، ولخشية أن يظهر سرُّه يركن إلى التلبيس والتدليس، والإنكار والجحود ولا محالة ينكشف عوارُه، وتتضح أسرارُه، وتهتك عن شَيْنٍ فعله أستارُه. قال الله تعالى: « والله مخرج ما كنتم تكتمون ».

قوله جل ذكره: ﴿ فقلنا اضْرِبُوهُ ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آيَاتِهِ لعلكم تعقلون﴾.

أراد الله سبحانه أن يحي ميتهم ليفضح بالشهادة على قاتله فأمر بقتل حيوان لهم فجعل سبب حياة مقتولهم قتل حيوان لهم، صارت الإشارة منه:

أن من أراد حياة قلبه لا يصل إليه إلا بذبح نفسه، فمن ذبح نفسه بالمجاهدات حَيِيَ قلبُه بأنوار المشاهدات، وكذلك من أراد اللهُ حياةَ ذِكْرِهِ فى الأبدال[2] أمات فى الدنيا ذكره بالخمول[3].

قوله جل ذكره: ﴿ ثم قَسَتْ قلوبُكم مِنْ بعد ذلك، فهى كالحجارة أو أشد قسوة، وإن من الحجارة لما يتفجرُّ منه الأنهار، وإن منها لَمَا يَشَّقَّقُ فَيخرُجُ منه الماء وإنَّ منها لَمَا يَهْبِطُ من خشية الله وما الله بغافلٍ عمَّا تعملون ﴾.

---

(١) مشتبهة فى ص. (٢) وربما كانت فى الأصل (الأبد).
(٣) أى منع عنه الاشتهار بين الخلق لأن المهم مرتبته لدى الحق.

بَيَّن أنهم — وإن شاهدوا عظيم الآيات وطالعوا واضح البينات — فحين لم تساعدهم العناية ولم يخلق الله (لهم) الهداية، لم تزدهم كثرة الآيات إلا قسوة، ولم تبرز لهم من مكامن التقدير إلا شقوة (على شقوة)، وشبه قلوبهم بالحجارة لأنها لا تنبت ولا تزكو، وكذلك قلوبهم لا تفهم[1]، ولا تغنى[2]. ثم بيَّن أنها أشد (. . . . . . .)[3] من الحجارة، فإنَّ من الحجارة لما يتفجَّر منه الأنهار، ومنها ما تظهر عليه آثار خشية الله[4]، وأمَّا قلوبهم فخالية عن كل خير، وكيف لا وقد مُنِيَتْ بإعراض الحقِّ عنها، وخُصَّتْ بانتزاع الخيرات منها.

قوله جل ذكره: ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يُحَرِّفُونَهُ من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾.

أنبأهم عن إيمانهم، وذكر أنهم بعد سماع الخطاب من الله — سبحانه — حرَّفوا وبدَّلوا فكيف يؤمنون لكم وإنما يسمعون بواسطة الرسالة، ومن لم يَبقَ على الإيمان بعد العيان فكيف يؤمن بالبرهان، والذى لم يصلح للحق لا يصلح لكم، ومن لم (يحتشم من الحق) فكيف يحتشم منكم؟

قوله جل ذكره: ﴿وإذا لَقُوا الذين آمنوا قالوا آمنَّا وإذا خلا بعضهم إلى بعضٍ قالوا أتُحَدِّثُونَهم بما فتح الله عليكم ليُحاجُّوكم به عند ربِّكم أفلا تعْقِلون. أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يُسِرُّون وما يُعلنون﴾.

تواصوا فيما بينهم بإنكار الحق، وإخفاء الحال على المسلمين، ولم يعلموا أن الله يُطْلِعُ رسولَه عليه السلام على أسرارهم، وأن نوراً أظهره الغيب لا ينطفئُ بمزاولة الأغيار. وموافقةُ اللِّسانِ مع مخالفة العقيدة لا يزيد إلا زيادة الفُرْقة.

قوله جل ذكره: ﴿ومنهم أميُّون لا يعلمون الكتابَ إلا أمانىَّ وإن هم إلا يظنون. فويلٌ للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتَرُوا به ثمناً قليلا﴾.

---

(١) تكملة فى الهامش استدرك بها الناسخ اثبتناها فى موضعها.

(٢) أى لا تغنى عنهم من الله شيئاً، وربما كانت فى الأصل (ولا تعى) حتى تتلاءم مع (لا تفهم).

(٣) زيادة ميزها الناسخ — لا لزوم لها.

(٤) إشارة إلى قوله تعالى: «لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله»

أخبر أنهم متفاوتون فى نقائص كفرهم ، فقومٌ منهم أخَسُّ درجةً وأكثر جهلاً ركنوا إلى التقليد ، ولم يملكهم استيلاء شبهة بل اغتروا بظنٍّ وتخمين ، فهم الذين لا نصيب لهم من كتبهم إلا قراءتها ، دون معرفة معانيها . ومنهم مَنْ أكثرُ شأنه ما يتمناه فى نفسه ، ولا يساعده إمكان ، ولا لظنونه قط تحقيق . ثم أخبر عن سوء عاقبتهم بقوله جل ذكره :

« فويل لهم مما كَتَبَتْ أيديهم وويل لهم مما يَكْسِبُون » .

أى خسِروا فى الحال والمآل ، والإشارة فى هذه الآية لمن عَدِمَ الإخلاص فى الصحبة فى طريق الحق ؛ يَنْضَمُّ إلى الأولياء ظاهراً ثم لا تَصْدُقُ له إرادة فهو مع أهل الغفلة مُصَاحِب ، وله مع هذه الطريقة جانب ، كلما دَعَتْهُ هواتف الحظوظ تسارَعَ إلى الإجابة طوعاً ، وإذا قادته دواعى الحق — سبحانه — يتكلف شيئاً ، فَبِئْسَتْ الحالة حين لم يخلص ، وما أشد ندمه فيما ادَّخرَ عن الله ! ثم لا يُفْلِحْ .

قوله جل ذكره: ﴿ وقالوا لن تَمَسَّنَا النار إلا أياماً معدودة ، قُلْ أتَّخَذْتُم عند الله عهداً فلن يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَه أم تقولون على الله مالا تعلمون ﴾ .

الإشارة فى هذه الآية لمن مرت على قلبه دعاواه العريضة ، وغلب عليه حسبانه ، فحكم لنفسه — لفرط غفلته — بأنه من أهل القصة[1] ، ويَخْلُدُ إلى هواجس مناه ، فيحكم على الغيب بأنه يُتَجاوَز عنه ، نَسِيَ قبائح ما أسلفه ، ويذكر مغاليط ما ظَنَّه ، فهو عَبْدُ نَفْسٍ ، يغلب عليه حسن ظنه ، وفى الحقيقة تعتريه نتائج غفلته ومكره ، قال تعالى : « وَذَلِكُمْ ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين » .

قوله جل ذكره : ﴿ بَلَى مَنْ كَسَبَ سيئة وأحاطت به خَطِيئَتُهُ فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ .

الذى أحاطت به خطيئته هو الكافر — على لسان العلم[2] .

---

(١) أى من أهل الطريق الصوفى .

(٢) أى على لسان التفسير العادى أى غير الاشارى .

ولكنّ الإشارة منه إلى مَنْ سكن قلبُه على استغاثاته على وجه الدوام ، فإن أصحاب الحقائق كالحَبّ[1] على المَقْلَى ـ فى أوقات صحوهم ، فمَنْ سَكَنَ فَلِفَرْطِ عِزّتِه ـ لا يَفْتُرُون[2] .

ومَنْ استند إلى طاعة يتوسَّلُ بها ويَظن أنه يقرب بها ينبغى أن يتباعد عن السكون إليها ومَنْ تحقَّقَ بالتوحيد علِمَ ألا وسيلة إليه إلا به .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين آمنوا وعَمِلوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾

فى الحال جنان الوصل . . . .

(. . . . .)

(. . . . .)

(. . . . .)[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتُخْرِجون فريقاً منكم من ديارِهم تظاهرون عليهم بالإثم والعُدوان ﴾ .

. . . أضرابكم وقرنائكم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ، الإشارة فيه أن نصرتكم لإخوانكم على ما فيه بلاؤهم نصرة عليهم بما فيه شقاؤهم ، فالأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن يأتوكم أسارى[4] تُفادوهم ، وهو مُحرّمٌ عليكم إخراجهم ، أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ﴾

أى كما تراعون — بالفداء عنهم — حقوقهم ، فكذلك يُفْتَرَضُ عليكم كَفُّ أيديكم عنهم ، وتَرْكُ إزعاجهم عن أوطانهم ، فإذا قُمتم ببعض ما يجب عليكم فما الذى يقعدكم

(١) وردت (كالحسب) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) من الفترة ، وقد أوضحنا رأى المصنف فى الفترة والوقفة فى هامش سبق .

(٣) حدث سقوط فيما بين (الوصل) و ... (أضرابكم) وبذلك لم يصلنا تفسير الآيات الكريمة من رقم ٨٢ إلى ٨٤ .

(٤) يستخرج القشيرى من لفظه اسارى إشارات معينة بعد قليل .

عن الباقى ، حتى تقوموا به كما أُمِرْتُم ؟ أَمَا علمتم أن مَنْ فَرّقَ بين ما أُمِرَ به فآمن ببعضٍ وكَفَرَ ببعضٍ فقد حبط — بما ضيَّعه — أجرُ ما عَمِلَهُ .

قوله جل ذكره : ﴿ فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزْىٌ فى الحياة الدنيا ، ويومَ القيامةِ يُرَدُّون إلى أَشَدِّ العذاب وما الله بغافلٍ عما تعملون ﴾ .

أى ظنوا أن ما فعلوه نَفَعَهم ، فانكشف لهم فى الآخرة أن جميع ما فعلوه — لمَّا مزجوه بالآفات وجرَّدُوه عن الصدق والإخلاص — غيرُ مقبولٍ منهم .

والأُسَرَاء أصناف : فَمِنْ أسيرٍ غَرِقَ فى بحار الهوى فإنقاذُه بأن تدلَّه على الهُدَى . ومِنْ أسيرٍ بقى فى أيدى الوساوس فافتداؤه أن ترشده إلى اليقين بلوائح البراهين لتنقذه من الشك والتخمين ، وتخرجه عن ظلمات التقليد فيما تقوده إلى اليقين . ومن أسيرٍ تجده فى أسر هواجسه استأسرته غاغة نفسه ، فَفَكُّ أَسْرِه بأن تدلَّه على شهود المِنن ، بِتَبَرِّيه عن حسبانِ كلِّ حَوْلٍ بِخَلْقٍ وغَيْرٍ . ومن أسيرٍ تجده فى ربيطة ذاته ففكُّ أسره إنشاده[1] إلى إقلاعه ، وإنجاده على ارتداعه . ومن أسيرٍ تجده فى أسر صفاته ففكُّ أسره أن تدله على الحق بما يحل عليه من وثائق الكون[2] ، ومن أسيرٍ تجده فى قبضة الحق فتخبره أنه ليس لأسرائهم فداء ، ولا لقتلاهم عَوْد ، ولا لربيطهم خلاص ، ولا عنهم بُدٌّ ، ولا إليهم سبيل ، ولا مِنْ دونهم حيلة ، ولا معَ سِواهم راحة ، ولا لحكمهم رَدٌّ .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يُخَفَّفُ عنهم العذاب ولا هُمْ يُنْصَرُون ﴾ .

إن الذين آثروا عليه شيئاً خسروا فى الدنيا والآخرة كما قالوا :

---

(١) إنشاده إلى إقلاعه أى مطالبته والنصح له .
(٢) وردت (المكون) والأصوب الكون لأن المقصود يقتضى ذلك .

أناسٌ أعرضوا عنَّا بلا جُرْمٍ ولا معنى
فإن كانوا[1] قد استَغْنَوْا فإنَّا عنهم أغنى

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد آتينا موسى الكتابَ وقَفَّيْنا مِنْ بَعده بالرُّسل ، وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القُدُسِ ، أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفُسُكم استكبرتم ففريقاً كَذَّبْتُم وفريقاً تقتُلون ﴾ .

الإشارة : أوصلنا لهم الخطاب ، وأردفنا رسولاً بعد رسول ، والجميع دَعَوْا إلى واحد . ولكنهم أصغَوْا إلى دعاء الداعين بسمع الهوى ، فما استلذته النفوس قبلُوه ، وما استثقلته[2] أهواؤهم جحدوه[3] ، فإذا كان الهوى[4] صفتهم ثم عبدوه ، صارت للمعبود[5] صفات العابد ، فلا جَرَمَ الويل لهم ثم الويل !

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا قلوبنا غُلْفٌ بل لَعَنَهُم الله بكفرهم فقليلاً ما يُؤمِنون ﴾ .

لو كان منهم شيء بمجرد الدعوى لهان وجود المعاني ، ولكن عندمطالبات التحقيق تَفْتَرُّ أنيابُ المُتَلَبِّسِين عن أسنانٍ شاحذة بل (. . . . . .)[6] وقيل :

إذا انسكبت دموعٌ فى خدود تبيَّن مَنْ بكى ممن تباكى

---

(١) اللفظة ناقصة فى المتن ومصححة فى الهامش على اليسار .
(٢) وردت (استسقلته) وهى خطأ فى النسخ .
(٣) وردت (مجدوه) ثم تصحيح لها فى الهامش (جهدوه) ولا يستبعد أنها : (جحدوه) على اساس نكرانهم للتوحيد .
(٤) وردت (الهوا) والصحيح (الهوى) .
(٥) وردت (للعبود) وهى خطأ فى النسخ .
(٦) هنا كلمة مشتبهة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولما جاءهم كتابٌ من عند الله
مُصَدِّقٌ لِمَا معهم وكانوا مِنْ قَبْلُ
يستفتحون على الذين كفروا فلمَّا
جَاءهُم ما عَرَفوا كفروا به فلعنة الله
على الكافرين ﴾ .

الإشارة فيه لمن عزم على الصفاء ، ووعد من نفسه تحقيق الوفاء ، ونشر أعلام النشاط عند البروز[1] إلى القتال ، تنادى بالنِّزال وصدق القتال — انهدم عند التفات[2] الصفوف ، وانجزل عن الجملة خشية هجوم المحذور ، قال تعالى : « فإذا عزموا الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم » .

قوله جل ذكره : ﴿ بئسما اشْتَرَوْا به أَنْفُسَهم أن يكفروا
بما أنزل اللهُ بَغياً أن يُنَزِّل الله
من فضله على من يشاء من عباده فباءوا
بغضبٍ على غَضَبٍ وللكافرين
عذاب مُهِين ﴾ .

أنزلهم التحاسُد عن مقر العِزِّ[3] إلى حضيض الخِزْى ، وسامهم ذُلَّ الصِّغَر حين لم يَرْضُوا بمقتضى الحُكْم ، فأضافوا استيجاب مقتٍ آنفٍ إلى استحقاقِ مقتٍ سالف .

قوله جل ذكره : « وإذا قيل لهم آمِنوا بما أنزل الله
قالوا نؤمن بما أُنْزِلَ علينا ،
ويكفرون بما وراءه وهو الحق
مُصَدِّقاً لِمَا معهم ، قُلْ فَلِمَ تقتلون
أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين » .

---

(١) وردت (البرود) وهى خطأ فى النسخ .
(٢) وردت هكذا فى (ص) ، وربما كانت فى الأصل (التقاء) الصفوف أو (التفاف) كذلك يحتمل (انهزم) بدلا من (انهدم) .
(٣) وردت (العِسر) وهى خطأ فى النسخ .

الإشارة فيه : إذا قيل لهم حَقِّقُوا ما أظهرتم من حكم الوفاق بتحقيق الحال وإقامة البرهان سَمَحَتْ نفوسُهم ببعض ما التبس عندهم لما يوافق أهواءهم ، ثم يكفرون بما وراء حظوظهم ، (. . . .)[1] بُعداً عن زمرة الخواص ، غير معدودين فى جملة أرباب الاختصاص .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد جاءكم[2] موسى بالبينات ثم اتخذتم العِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وأنتم ظالمون ﴾ .

أى دعاكم إلى التوحيد ، وإفراد المعبود عن كل معبود ومحدود ، ولكنكم لم تجنحوا إلا إلى عبادة ما يليق بكم من عِجْلٍ اتخذتموه ، وصنمٍ نحتيتموه . فرفع ذلك من بين أيديهم ، ولكن بقيت آثاره فى قلوبهم وقلوب أعقابهم ، ولذلك يقول أكثرُ اليهود بالتشبيه .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا ، قالوا سمعنا وعَصَيْنا وأُشْرِبوا فى قلوبهم العجلَ بكفرهم ، قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ﴾ .

كرَّرَ الإخبار عن غُلُوِّهم فى حُبِّ العجل ، ونُبُوِّهم عن قبول الحق ، و (... ... ...)[3] وتعريفهم معاجلتهم بالعقوبة على ما يسيئون من العمل ، فلا النصحُ نَجَعَ فيهم ، ولا العقوبةُ أوجبت إقلاعهم عن معاصيهم ، ولا بالذم فيهم احتفلوا[4] ، ولا بموجب الأمر عملوا .

---

(١) هنا لفظة مشتبهة .

(٢) أخطأ الناسخ حين كتبها (جاءم) فصححناها طبقاً للآية ٩٢ .

(٣) هنا عبارة غامضة كتابة وبالتالى معنى .

(٤) وردت (اختلفوا ، والملائم للسياق (احتفلوا) أى اظهروا الاهتمام .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إنْ كانت لكم الدارُ الآخرةُ
عندَ الله خالِصةً مِنْ دون الناس
فتَمَنَّوْا الموتَ إنْ كنتم صادقين *
ولن يتمنوْه أبداً بما قدَّمَتْ أيديهم
والله عليم بالظالمين ﴾ .

من علامات الاشتياق تمنى الموت على بساط العوافى ؛ فمن وَثِقَ بأن له الجنة قطعاً — فلا محالةَ — يشتاق إليها ، ولمَّا لم يتمنوا الموت[1] — وأخبر الله سبحانه أنهم لن يتمنوهُ أبداً — صار هذا التعريف معجزةً للرسول صلوات الله عليه وعلى آله إذ كان كما قال .

وفى هذا بشارة[2] للمؤمنين الذين يشتاقون إلى الموت أنهم مغفور لهم ، ولا يرزقهم الاشتياق إلا وتحقق لهم الوصول إلى الجنة ، وقديماً قيل : كفى للمقصر الحياء يوم اللقاء . قال الله تعالى : « ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم » .

قوله جل ذكره : ﴿ ولَتَجِدَنَّهم أحرصَ الناسِ على حياة ،
ومِنَ الذين أشركوا يَوَدُّ أحَدُهم
لو يُعَمَّرُ ألفَ سنةٍ وما هو بِمُزَحْزِحِهِ
من العذابِ أن يُعَمَّرَ والله بصير
بما يعملون ﴾[3] .

حُبُّ الحياة فى الدنيا نتيجة الغفلة عن الله ، وأشد منه غفلة أحبُّهم للبقاء فى الدنيا . وحالُ المؤمن من هذا على الضِّد . وأما أهل الغفلة وأصحاب التهتك فإنما حرصهم على الحياة لعلمهم بما فقدوا فيها من طاعتهم ؛ فالعبد الآبِق لا يريد رجوعاً إلى سَيِّدِهِ . والانقلابُ إلى مَنْ هو خيرُهُ مَرجوٌّ خيرٌ للمؤمنين من البقاء مع مَنْ شَرُّهُ غيرُ مأمون ، ثم إن امتداد العمر مع يقين

---

(١) فى النسخة (الجنة) ولكن الآية الكريمة والسياق يشيران إلى تمنى الموت ثم إن الضمير فيما بعد فى (لن يتمنوه أبداً) ضمير مذكر وليس ضمير مؤنث .
(٢) وردت (وفى هذا إشارة) والمعنى يتطلب (بشارة) مما يرجح هذه على تلك .
(٣) أسقط الناسخ من الآية من أول (وما هو) إلى (أن يعمر) فأثبتناه .

الموت (لا قيمة له) إذا فَاجَأَ الأمرُ وانقطع العُمْرُ. وكلٌّ ما هو آتٍ فقريب، وإذا انقضت المُدَّةُ فلا مردَّ لهجوم الأجل على أكتاف الأمل.

قوله جل ذكره: ﴿ قُلْ مَنْ كان عَدُوًّا لجبريل فإنه نَزَّلَه على قلبكَ بإذنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِمَا بين يَدَيْهِ وهُدىً وبُشرى للمؤمنين. من كان عدواً لله وملائكته ورُسُلِه وجبريلَ وميكال فإن الله عَدُوٌّ للكافرين ﴾.

زعمت اليهود أن جبريل لا يأتى بالخير، وأنهم لا يحبونه، ولو كان ميكائيل لكانوا آمنوا به، فأكذبهم الحقُّ سبحانه فقال: من كان عدواً لجبريل لأنه لا يأتى بالخير فأى خير أعظم مما نزل به من القرآن؟!

ثم قال إن مَنْ عادى[1] جبريل وميكائيل فإن الله عدو له؛ فإنَّ رسولَ الحبيبِ إلى الحبيبِ العزيزِ المَوْرِدِ — كريمُ المنزلة، عظيم الشرف. وما ضرَّتْ جبريلَ — عليه السلام — عداوةُ الكفار، والحق سبحانه وتعالى وليُّه، ومَنْ عَادَى جبريلَ فالحقُّ عَدُوُّه، وما أعْزِزْ[2] بهذا الشرف وما أجَلَّه! وما أكبر علوه!

قوله جل ذكره: ﴿ ولقد أنزلنا إليك آياتٍ بيناتٍ وما يكفر بها إلا الفاسقون. أَوَ كُلَّما عاهدوا عهداً نَبَذَه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون ﴾.

لم يكفر بواضح آياته إلا من سُدَّتْ عن الإدراك بصائرُه، وسبقت من الله بالشقاوة

---

(١) وردت (عبادى) وهى خطأ فى النسخ، فمادى مناسبة لعدم محبتهم لجبريل كما سبق.

(٢) الصحيح ان يقال وأعزِزْ بهذا الشرف أو: ما أعز هذا الشرف فليس فى التعجب ما افعِلْ به فما حدث هو خطأ من الناسخ لأن القشيرى — كما نعلم من سيرته — حريص أشد الحرص على قواعد النحو.

قِسْمَتُه ، ولا عقلَ لِمنْ يجحدُ أنَّ النهارَ نهار ، وكذلك لا وَصْلَ لمن لم تساعده من الحق أنوارُ واستبصار . أوَ كُلَّما عاهدوا عهداً سابقُ التقدير لهم كان يشوِّش عليهم ، وينقض عَهْدَهُم لا حِقُ التدبيرُ منهم ، والله غالبٌ على أمره .

قوله جل ذكره : ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدقٌ[1] لما معهم نَبَذَ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتابَ الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون﴾ .

جحدوا رُسلَ الحق إلى قلوبهم من حيث الخواطر ، وكذَّبوا رسلهم الذين أتوهم فى الظاهر ، فيا جهلاً ما فيه شظية من العرفان ! ويا حرماناً قارَنَه خِذلان !

قوله جل ذكره : ﴿واتبعوا ما تتلو الشياطين على مُلْكِ سليمان ، وما كَفَرَ سُليمانُ ، ولكنَّ الشياطين كفروا يُعَلِّمون الناسَ السِّحْرَ وما أُنزل على المَلَكَين ببابلَ هاروتَ وماروتَ وما يُعلِّمان من أَحَد حتى يقولا إنما نحن فتنةٌ فلا تَكْفُرْ فيتعلمون منهما ما يُفرِّقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أَحَدٍ إلا بإذن الله ، ويتعلمون مايضرهم ولا ينفعهم ، ولقد عَلِموا لَمَنِ اشتراهُ مالَه فى الآخرة من خَلاق﴾ .

مَنْ فرَّقَتْه الأهواء وقع فى كل مطرح من مطارح الغفلة ، فيستقبله كل جنس من قضايا

---

(١) أخطأ الناسخ فكتبها (مصدقاً) والصحيح (مصدق) الآية ١٠١ .

الجهالة ، ثم إن مَنْ طالت به الغيبة صار للناس عِبْرة ، ولِمَنْ سلك طريقَه فتنة ، فمن اقتدى به في غيِّه انخرط في سِلْكِهِ ، والتحق بجنسه ، هكذا صفة هاروت وماروت فيما استقبلهما ، صارا للخلْق فتنة بل عبرة ، فمَنْ أصغى إلى قيلهما ، ولم يعتبر بجهلهما تعلَّق به بلاؤهما ، وأصابه في الآخرة عناؤهما .

والإشارة من قصتهما إلى مَنْ مَالَ في هذه الطريقة إلى تمويهٍ وتلبيس ، وإظهار دعوى بتدليس ، فهو يستهوى مَنْ اتَّبَعَهُ[1] ، ويلقيه في جهنم بباطله ، (. . . . .)[2]

ومن تهتك بالجنوح إلى أباطيله تهتكت أستارُه ، وظهر لذوى البصائر عوارُه . وإن هاروت وماروت لما اغترا بحاصل ما اعتاداه من المعصية بَسَطاَ لسان الملامة في عُصَاة بني آدم ، فلماَ رُكِّب فيهما من نوازع الشهوات، ودواعي الفتن والآفات ، اقتحما في العصيان ، وظهر منهما ما انتشر ذِكْرُه على ألسنة القصاص ، وهما مُنَكَّسَان إلى يوم القيامة ولولا الرفق بهما وبشأنهما لمَاَ انتهى في القيامة عذابُهما ، ولكنَّ لطفَ الله مع الكافة كثيرٌ . ولَمَّا قال الله تعالى: « ويتعلمون ما يضرُّهم ولا ينفعهم ، عَلِمَ أهل التحصيل أن العلم بكل معلوم — وإن كان صفةَ مدحٍ — ففيه غيرُ مرغوبٍ فيه ، بل هو مستعاذٌ منه قال النبي صلى الله عليه وسلم : أعوذ بك من علم لا ينفع .

قوله جل ذكره : ﴿ولبئس ما شَرَوْا به أنفسَهم لو كانوا يعلمون﴾

لو علم المغبونُ ماذا أبقى وماذا أبلى لتقطعت أحشاؤه حسراتٍ ، ولكن سيعلم — يوم تُبْلَى السرائر — الذى فاته من الكرائم .

قوله جل ذكره : ﴿ولَوَ انهم آمنوا واتقوا لمَثُوبَةٌ مِنْ عندِ الله خيرٌ لو كانوا يعلمون﴾

ولو آثروا الإقبالَ على الله على اشتغالهم عن الله ، لحَصَّلُوا ذُخْرَ الدارَيْن ، ووصلوا إلى

---

(١) وردت (التبعة) وهى خطأ فى النسخ .

(٢) هنا عبارة غامضة كتابة ومعنى ، ويرجح أن الناسخ قد وقع فى أخطاء نقلية .

عِزِّ الكَوْنين ، ولكن كَبَسَتْهُمْ سطواتُ القهر ، فأثبَتَتْهم فى مواطن الهجر .

قوله جل ذكره : ﴿يا أيها الَّذِينَ آمنوا لا تقولوا راعِناً وقولوا انظُرْناَ واسمعوا وللكافرين عذاب أليم ﴾ .

قصودُ الأعداء فى جميع أحوالهم — من أعمالهم وأقوالهم — قصودٌ خبيثة ؛ فهم — على مناهجهم — يبنون فيما يأتون ويَذَرُون . فسبيلُ الأولياء التَّحرزُ عن مشابهتهم ، والأخذ فى طريق غير طريقهم .

قوله جل ذكره : ﴿ما يودُّ الذين كفروا من أهلِ الكتاب ولا المشركين أن يُنَزَّلَ عليكم مِنْ خيرٍ مِنْ رَبِّكُم ، والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

كراهية الأعداء لانتظام صلاح الأولياء متصِلَةٌ مُستَدامةٌ ، ولكن الحسود لا يسود ، ولا يحصُل له مقصود . وخصائص الرحمة للأولياء كافية — وإنْ زَعَمَ مِنَ الأعداء أفَّاكٌ أنه انهدمت من أوطان فرحهم أكناف وأطراف .

قوله جل ذكره : ﴿ما نَنسَخ مِنْ آيةٍ أَوْ نُنْسِها نأتِ بخيرٍ منها أو مثلها أَلَمْ تَعْلَمْ أن الله على كل شىء قدير ﴾ .

النسخُ الإزالة أى ما ينقلك من حال إلى ما هى فوقها وأعلى منها ، فغُصنُ وَصْلِك أبداً ناضر ، ونجمُ عِزِّكَ أبداً ظاهر ، فلا ننسخُ من آثار العبادةِ شيئا إلا وأبدلنا عنه أشياء من أنوار العبودية ، ولا نسخنا من أنوار العبودية أشياء إلا أقمنا مكانها أشياء من أقمار العبودة[1] .

(١) وردت (من أقمار العبودية) وهى خطأ من الناسخ ، لأن السياق هنا يتطلب (العبودة) =

فأبداً[1] سيرُك في الترقي ، وقدرك في الزيادة بحسن التولّي

وقيل مارقّاكَ عن محل العبودية إلا سَلَكَكَ بساحات الحرية ، وما رَفَعَ عنك شيئاً من صفات[2] البشرية إلا أقامك بشاهدٍ من شواهد الألوهية .

قوله جل ذكره : ﴿ ألم تعلم أن الله له مُلْكُ السموات والأرض وما لكم من دون الله من وليٍّ ولا نصير ﴾ .

سُنَّتُهُ — سبحانه — أن يجذب أولياءه عن شهود مُلْكِهِ إلى رؤية مِلْكِهِ[3] ، ثم يأخذهم من مُطالعةِ مِلْكه إلى شهود حقّه ، فيأخذهم من رؤية آياته إلى رؤية صفاته ، ومن رؤية صفاته إلى شهود ذاته .

قوله جل ذكره : ﴿ أمْ تريدون أنْ تسألوا رسولَكم كما سُئِل موسى من قبل . ومَنْ يَتَبَدَّل الكفرَ بالإيمان فقد ضلَّ سَواء السبيل ﴾ .

إنَّ بني إسرائيل آذَوْا موسى عليه السلام ، فنُهِيَ المسلمون عن فِعْل ما أسلفوه ، وأُمِروا

= فنحن نعرف من مذهب القشيري ان العبادة للعوام من المؤمنين ، والعبودية للخواص ، والعبودة لخاص الخاص .

العبادة لأصحاب المجاهدات ، والعبودية لأرباب المكابدات ، والعبودة صفة اهل المشاهدات . . . وهكذا — ومن أسانيد كثيرة في باب العبودية في « الرسالة » — نلاحظ ان الدرجة القصوى في الأمر هي (العبودة) ، والترتيب هنا يمشي هكذا آثار العبادة ، انوار العبودية ، أقمار العبودة ، وهو ترتيب في غاية الدقة ، يعطي كل درجة قدرها .

(1) وردت (فأبد) بدون تنوين .

(2) نلفت النظر هنا إلى أهمية كلمة صفات البشرية ، أي أن المقصود — حسب مذهب القشيري — ليس سقوط البشرية في حد ذاتها ، وإنما صفاتها المعلولة ، وينبغي أن يكون واضحاً تمام الوضوح ان التصوف الإسلامي الحق — والقشيري من أفضل المعبرين عنه — لا يقول بأدنى تداخل بين البشرية والألوهية فالعبد عبد والرب رب .

(3) ضبطنا ملك وملك مستفيدين من كلام القشيري في كتابه « التحبير » ضمن اسم « الملك » .

بمراعاة أن حشمة الرسول صلى الله عليه وسلم بغاية ما يتسع فى الإمكان . فكانوا بحضرته كأنَّ على رءوسهم الطير . قال تعالى : « تعززوه وتوقروه » وحسنُ الأدب — فى الظاهر — عنوانُ حسن الأدب مع الله فى الباطن .

قوله جل ذكره : ﴿ ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردُّونكم من بعد إيمانكم كُفَّاراً حَسَداً من عِندِ أنفسهم مِنْ بعد ما تبيَّن لهم الحقُّ فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره إن الله على كل شىء قدير ﴾

مَنْ لَحِقَهُ خسرانُ الفهم من أصحاب الغفلة ودَّ ألاَّ يطلعَ لأحدٍ بالسلامة نجمٌ ، ومَنْ اعتراه الحسد أراد ألا تنبسط على محسوده شمسٌ .

وكذلك كانت صفات الكفار ، فأرغم اللهُ أنفَهُم ، وكبَّهم على[1] وجوههم .

والإشارة من هذا إلى حال أصحاب الإرادة فى البداية إذا رغبوا فى السلوك ، فمن لم يساعده التوفيق (فى الصحبة ، وعاشر أناساً متر سِّمين بالظواهر)[2] فإنهم يمنعون هؤلاء من السلوك ولا يزالون يخاطبونهم بلسان النصح ، والتخويف بالعجز والتهديد بالفقر حتى ينقلوهم إلى سبيل الغفلة ، ويقطعوا عليهم طريق الإرادة ، أولئك أعداء الله حقاً ، أدركهم مقت الوقت . وعقوبتهم حرمانهم من أن يشموا شيئاً من روائح الصدق .

« فاعفوا واصفحوا . . . » فسبيل المريد أن يحفظ عن الأغيار سِرَّه ، ويستعمل مع كل أحدٍ ضلة[3] ، ويبذل فى الطلب رفعة[4] ، فعن قريب يفتح الحق عليه طريقه .

---

(١) فى النسخة ص (وكبهم لوجوههم) وقد آثرنا عليها (على وجوههم) .

(٢) أصلحنا فى هذه العبارة قليلا لكى يتضح معناها طبقاً لوصايا القشيرى للمريدين فى « رسالته »

(٣) هكذا وردت فى (ص) وقد نقلناها كما جاءت ، وربما كانت فى الأصل (خلة) بمعنى الصفة اى أن يحافظ على سره مع ربه عن طريق اتصافه مع صحبته بصفات ملائمة . تضمن أن يكون سره محفوظاً

(٤) ربما كانت فى الأصل (ويبذل فى الطلب وسعه) .

قوله جل ذكره : ﴿ وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله إن الله بما تعملون بصير ﴾.

الواجب على المريد إقامة المواصلات ، وإدامة التوسل بفنون[1] القُربات ، واثقاً بأن ما يقدمه من صدق المجاهدات تُدْرَكُ[2] ثمرته فى أواخر الحالات.

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا لن يَدْخُلَ[3] الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ، تلك أمانيُّهم ، قل هاتوا بُرهانكم ، إنْ كنتم صادقين ﴾ .

كلُّ حِزْبٍ يُمَهِّد الأملَ لنفسه ، ويظنُّ النجاة لحاله ، ويدّعى الوسل[4] من سهمه . ولكنّ مجرد الحسبان دون تحقق البرهان لا يأتى بحاصل ، ولا يحوز بطائل .

قوله جل ذكره : ﴿ بَلَى[5] مَنْ أَسْلَمَ وجهَه للهِ وهو مُحسِنٌ فله أجْرُه عِنْدَ ربِّه ولا خَوْفٌ عليهم ولاهم يَحزنون ﴾ .

أسلم وجهه أى أخلص لله قصده ، وأفرد لله وجهه ، وطهرَّ عن الشوائب عقله . « وهو محسن » . عالِمٌ بحقيقة ما يفعله وحقيقة ما يستعمله ، وهو محسن فى المآل كما أنه مسلم فى الحال .

ويقال الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فتكون مستسلماً بظاهرك ، مشاهداً بسرائرك ، فى الظاهر جهد وسجود وفى الباطن كشف ووجود .

---

(١) جاءت هكذا فى ص (يفنون) ثم صححها الناسخ فى الهامش .

(٢) جاءت فى ص (تدركوا) .

(٣) أخطأ الناسخ إذ كتبها (يدخلوا) والصحيح (يدخل) الآية ١١١ .

(٤) الوسل والوسيلة والواسلة = الوصلة والقربى من الله (الوسيط ص ١٠٤٤)

(٥) أسقط الناسخ (بلى) والصحيح وجودها الآية ١١٢ .

ويقال « أسلم وجهه » بالتزام الطاعات ، « وهو محسن » قائمٌ بآداب الخدمة بحسن آداب الحضور ، فهؤلاء ليس عليهم خوف الهجر ، ولا يلحقهم خفيُّ المكر ، فلا الدنيا تشغلهم عن المشاهدة ولا الآخرة تشغلهم غداً عن الرؤية .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء ، وهم يتلون الكتاب ، كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ .

الإشارة في هذه الآية على العكس من حكم الظاهر ؛ فالأعداء يتبرأ بعضهم من بعضٍ اليوم ، والأولياء من وجه كذلك ، ولذا قالوا : لا زالت الصوفية بخيرٍ ما تنافروا ، ولا يَقْبَلُ بعضهم بعضاً لأنه لو قَبِل بعضُهم بعضاً بقي بعضُهم مع بعض .

لكنّ الأعداء كلهم على الباطل . عند تَبَرِّى بعضهم من بعض أمَّا الأولياء فكُلُّهم على الحق — وهذه ما ذكرنا من حكم العكس .

قوله جل ذكره : ﴿ ومَنْ أظلمُ ممَّن منع مَسَاجِدَ الله أنْ يُذْكر فيها اسمُه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفينَ . لَهُمْ في الدنيا خِزْيٌ ولهم في الآخرةِ عذابٌ عظيم ﴾ .

الإشارة فيه أن الظالم مَنْ خَرَّبَ أوطان العبادة بالشهوات ، وأوطان العبادة نفوس العابدين . وخَرَّبَ أوطان المعرفة بالمُنى والعلاقات ، وأوطان المعرفة قلوب العارفين . وخَرَّب أوطان المحبة بالحظوظ والمُسَاكنات ، وهي أرواح الواجدين . وخرَّب أوطان

المشاهدات بالالتفات إلى القربات وهى أسرار الموحدين[1] .

قوله جلَّ ذكره : ﴿ لهم فى الدنيا خِزْىٌ ولهم فى الآخرة عذاب عظيم ﴾ .

لأهل الإشارة خزى الدنيا بذل الحجاب، وعذاب الآخرة الامتناع بالدرجات .

قوله جل ذكره : ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فَثَمَّ وجهُ اللهِ إن اللهَ وَاسِعٌ عليم ﴾ .

الإشارة منها إلى مشارق القلوب ومغاربها . وللقلوب شوارق وطوارق . وطوارقها هواجس النفوس تطرق فى ظلمات المنى والشهوات .

وشوارقها نجوم العلوم وأقمار الحضور وشموس المعارف .

فما دامت الشوارق طالعة فَقِبْلَةُ القلوب ، واضحة ظاهرة ، فإذا استولت[2] الحقائق خَفِىَ سلطانُ الشوارق ، كالنجوم تستتر عند طلوع الشمس ، كذلك عند ظهور الحق يحصل اصطلام وقهر ، فلا شهود رسم ، ولا بقاء حِسٍّ وفَهْم ، ولا سلطان عقل وعلم ، ولا ضياء عرفان . فإن وجدان[3] هذه الجملة صفات لائقة ببقاء البشرية ، وإذا صار الموصوف محواً فأنَّى لهم ببقاء الصفة !

قال تعالى : « فَأَيْنَمَا تولوا فثمّ وجه الله » مادام يبقى من الإحساس والتمييز بقية — ولو شظية — فالقِبْلة مقصودة ، فإن لم تكن معلومة تكون مطلوبة . وعلى لسان العلم إذا اشتبهت الدلائلُ بكلِّ وِجْهةٍ ، ولا معرفةَ بالقِبْلة تَساَوَتْ الجهاتُ فى جواز الصلاة إلى كل واحدٍ منها إذا لم يكن للنية ترجيح .

---

(١) نعرف من مذهب القشيرى أن الأسرار (للموحدين) ولذا نرجح أن الناسخ أخطأ حينما كتبها (الواجدين) وقد أثبتناها هنا على هذا الترجيح .

(٢) وردت (سوِلت) وهى خطأ فى النسخ .

(٣) وجدان ، ووجود مصدران لوجد ، غير ان القشيرى يؤثر استعمال لفظة (الوجود) بمعناها الاصطلاحى الدقيق فى موضعها الملائم (التواجد بداية والوجد واسطة والوجود نهاية) .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه ﴾ .

مَكَرَ بهم لم يُفْنِهم — من الإفناء — فى الحال ، بل جعل موجب اغترارهم طول الإمهال ، فنطقوا بعظيم الفِرْية على الله ، واستنبطوا عجيب المِرْية فى وصف الله ، فوصفوه بالولد ! وأنَّي بالولد وهو أحدى الذات ؟! لا حدَّ لذاتِه ، ولا تجوز الشهوة فى صفاته .

قوله جل ذكره : ﴿ بل له ما فى السماوات والأرض كُلٌّ له قانتون ﴾ .

أى ليس فى الكون شىء من الآثار المفتقرة أو الأعيان المستقلة إلا وتنادى عليه آثار الخِلْقَة ، وتفصح منه شواهد الفطرة ، وكل صامتٍ منها ناطق ، وعلى وحدانيته — سبحانه — دليلٌ وشاهد .

قوله جل ذكره : ﴿ بديع السماوات والأرض فإذا قضى أمراً فانما يقول له كُنْ فيكون ﴾ .

البديع عند العلماء مُوجِد العين لا على مِثْل ، وعند أهل الإشارة الذى ليس له شىء مِثله . فهذا الاسم يشير إلى نفى المثل عن ذاته ، ونفى المثال عن أفعاله ، فهو الأحد الذى لا عدد يجمعه ، والصمد الذى لا أَمَدَ يقطعه ، والحق الذى لا وهم يصوِّره ، والموجود الذى لا فهم يقدره . وإذا قضى أمراً فلا يعارض[1] عليه مقدور ، ولا ينفكُّ من حكمه محظور .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الذين لا يعلمون لولا يُكلمنا[2] الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين مِن قَبْلِهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بيَّنَّا[3] الآيات لقوم يُوقنون ﴾ .

---

(١) الصواب أن تكون (فلا يعتاص) ، فهكذا يعبر القشيرى فى مثل هذا السياق .

(٢) وردت (لولا يكلمهم) وهى خطأ ، وقد صححناها طبقاً للآية ١١٧ .

(٣) وردت خطأ (بيَّن) والصحيح (بينا) الآية ١١٧ .

كلام الله سبحانه متعلق بجميع المخلوقات بأعيانها وآثارها، وأمر التكوين (يتناول المكلفين وأفعال المكلفين)[1] ، لكن من عَدِم سمع الفهم تصامم[2] عن استماع الحق ، فإنه — سبحانه — خاطب قوماً من أهل الكتاب، وأسمعهم خطابه[3] ، فلم يطيقوا سماعه، وبعدما رأوا من عظيم الآيات حرَّفوا وبدَّلوا . وفى الآيات التى أظهرها ما يزيح العِلّة من الأغيار، ويشفى الغُلّة من الاخيار ، ولكن ما تُغْنِي الدلائل — وإنْ وَضُحَتْ — عمن حُقَّتْ لهم الشقاوة وسبقت ؟

قوله جل ذكره : ﴿إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسأل عن أصحاب الجحيم﴾ .

أفردناكَ بخصائص لم نظْهِرْها على غيرك ، فالجمهور والكافة تحت لوائك ، والمقبول من وافقَك ، والمردود من خالفَك ، وليس عليك من أحوال الأغيار سؤال ، ولاعنك لأحدٍ (. . .)[4] .

قوله جل ذكره : ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع مِلّتهم قُلْ إنَّ هُدَى الله هو الهُدَى ولئن اتَّبَعْت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِىٍّ ولا نصير﴾ .

لا تبالِ برضاء الأعداء بعد ما حصل لك رضانا ، فإنهم لا يرضون عنك إلا بمتابعة أديانهم، ودون ذلك لهم حظ القتال فَأَعْلِنْ[5] التبرى منهم ، وأظهر الخلاف معهم ، وانصب المداوة

---

(١) العبارة التى فى (ص) مضطربة فى الخط والمعنى ، وقد صححناها طبقاً لما نعرف من آراء القشيرى الكلامية : إن الله خالق العباد وأفعال العباد (فالله خالق كل شىء ، أما الانسان فليس له أن يوصف بذلك لأن كل من لحقه وصف التكوين لا يصح منه الايجاد) .

(٢) وردت (تصامع) وهى خطأ فى النسخ .

(٣) وردت أسمهم (خاطبهم) والأرجح أنها فى الأصل أسمعهم (خطابه) .

(٤) مشتبهة .

(٥) وردت (ما علف) وهى خطأ فى النسخ ، وقد جعلناها (فأعلن) لتلائم (وأظهر) بعدها .

لهم ، واعلم أن مساكنتهم إلى ما يرضون سبب الشقاوة المؤبدة ، فاحرص ألا يخطر ذلك ببالك[1] ، وادعُ — إلى البراءةِ عنهم وعن طريقتهم — أُمّتَكَ ، وكُنْ بنا لَنَا ، مُتَبرِّياً عمن سوانا ، واثقاً بنصرتنا ، فإنَّكَ بِنا وَلَنَا .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حقَّ تلاوته أولئك يؤمنون به ، ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون ﴾ .

الذين فتحنا أبصارهم بشهود حقنا وَكَلْنَا أسماع قلوبهم بسماع خطابنا ، وخصصناهم بإسبال نور العناية عليهم ، وأيَّدناهم بتحقيق التعريف فى أسرارهم ، يقومون بحق التلاوة ، ويتصفون بخصائص الإيمان والمعرفة فهم أهل التخصيص ، ومَنْ سِواهم أصحابُ الرد .

قوله جل ذكره : ﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنِّى فضلتكم على العالمين ﴾

جرت سُنتُه — سبحانه — فى الخطاب مع قوم موسى عليه السلام أن يناديهم بنداء العلامة فيقول : يا بنى إسرائيل اذكروا ، أى يا بنى يعقوب ، ومع هذه الأمة[2] أن يخاطبهم بنداء الكرامة فيقول : « يأيها الذين آمنوا »

قوله جل ذكره : ﴿ واتقوا يوماً لا تَجزى نَفْسٌ عن نَفْسٍ شيئاً ولا يُقْبَلُ منها عَدْلٌ ، ولا تنفعها شفاعة ولاهُمْ يُنْصَرُون ﴾

أمَّا الأعداء فلا يَقْبَلُ منهم شيئا ، وأمَّا الأولياء فقال صلى الله عليه وسلم : « اتقوا النار ولو بِشِقِّ تمرة » ، والكفار لا تنفعهم شفاعة الشافعين فهذا حكم كل أمةٍ مع نبيِّها ، وأمَّا المؤمنون — فعلى التخصيص — تنفعهم شفاعة نبيِّهم صلى الله عليه وسلم .

---

(١) جاءت الجملة فى ص هكذا (فاحرس عن أخطار ذلك ببالك) وسمحنا لأنفسنا بشىء من التصرف يتيح فهم المعنى ، وربما كان اقرب إلى الأصل .

(٢) يقصد امة المصطفى صلوات الله عليه وسلامه .

وكلُّ أحدٍ يقول يومئذٍ نفسى نفسى ونبيُّنا صلى الله عليه وسلم يقول: أمّتى أمّتى [1] .

قوله جل ذكره : ﴿وإذا ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمّهنّ﴾

البلاء تحقيق الولاء ، فأصدقهم ولاءً أشدُّهم بلاء .

ولقد ابتلى الحق — سبحانه — خليلَه عليه السلام بما فرض عليه وشرع له ، فقام بشرط وجوبها ، ووفّى بحكم مقتضاها ، فأثنى عليه سبحانه بقوله : « وإبراهيم الذى وفّى » — من التوفية — أى لم يُقَصِّر بوجهٍ ألبتة .

يقال حمَّله أعباء النبوة ، وطالبه بأحكام الخُلّة ، وأشد بلاء له كان قيامه بشرائط الخلة ، والانفراد له بالتجافى عن كل واحد وكل شىء ، فقام بتصحيح ذلك مختلياً عن جميع ما سواه ، سِرّاً وعَلَناً . [2]

كذلك لم يلاحظ جبريلَ عليه السلام حين تعرض له وهو يُقْذَف فى لجُة الهلاك ، فقال : هل من حاجة ؟ فقال : أمَّا إليكَ . . . . فلا .

ومن كمال بلائه تعرض جبريل عليه السلام فى تلك الحالة ، وأى بقية كانت بقيت له منه حتى يكون لمخلوق فيه مساغ كائناً من كان ؟ !

---

(١) أخطأ الناسخ حين نقلها « كل عهد يقول . . والصواب » كل أحد ... وقد سمع القشيرى هذه العبارة من أستاذه الدقاق — كما يقول فى رسالته فى باب الفتوة .

(٢) هذا هو رأى القشيرى فى « الخُلَّة » ، ونرى لزاماً علينا أن ننبه إلى بعض الآراء الأخرى فيها . فالمعتزلة — الذين يبتعدون عن كل ما يحمل على التشبيه — يبذلون جهدهم فى الاستعانة باللغة للحصول على تأويلات للنص القرآنى تخدم هذه الغاية ، فلما لم يرضهم تحْمِل لفظة الخليل على ظاهرها فى الآية « واتخذ الله إبراهيم خليلاً » (النساء : ١٢٥) استشهدوا ببيت من الشعر القديم لزهير وهو :

وإن اتاه خليــل يوم مسألة يقول لا غائب مالى ولا حرم

(ديوان زهير نشر دار الكتب ص ١٥٣) وفيه خليل بمعنى محتاج ، وقد أورد القشيرى هذا الرأى ضمن تفسيره للآية ١٢٤ النساء ، أى أنه لا يعارض أن تحتمل اللفظة هذا المعنى .

ويفسر دكتور عبد الرحمن بدوى قول أبى طالب المكى (إن رابعة قد ارتفعت إلى وصف معنى الخلة) بما يلى : (على أن مقام الخلة هذا يمكن أن يُفسر على أساس أنه شعور بتجاوز الخير والشر ، ذلك أن القيم الأخلاقية لا اعتبار لها إلا بالنسبة إلى بنى الإنسان والدنيا . أما — رابعة ورباح — فقد تجاوزا نطاق البشرية وصارا يلوذان بجوار الألوهية واطرحا الناسوت وشاع فيهما اللاهوت » .

شهيدة العشق الالهى ص ٦٣ ، ٦٤

وفى هذا إشارة دقيقة إلى الفَرْقِ بين حال نبيِّنا صلى الله عليه وسلم وحالِ إبراهيم عليه السلام ، لأنه تعرض جبريل للخليل وعَرَضَ عليه نفسه :

فقال : أمَّا إليكَ . . فلاَ . ولم يُطِقْ جبريل صحبة النبى صلى الله عليه وسلم فنطق بلسان العجز وقال :

لو دنوتُ أنملة لاحترقتُ[1] .

وشتّان بين حالة يكون فيها جبريل عليه السلام من قُوَّته بحيث يعرض للخليل عليه السلام نفسه ، وبين حالةٍ يعترف للحبيب — صلوات الله عليه — فيها بعجزه .

قوله جل ذكره : ﴿ إنى جاعلك للناس إماماً ، قال ومِنْ ذريتى قال : لا ينال عهدى الظالمين . وإذ جعلنا البيتَ مثابةً للناس وأمْنا ﴾

الإمام مَنْ يُقْتَدى به ، وقد حقَّق له هذا حتى خاطب جميع الخلائق إلى يوم القيامة بالاقتداء به فقال : « ملة أبيكم إبراهيم » أى اتبعوا ملة إبراهيم يعنى التوحيد ، وقال : « واتخذوا من مقام إبراهيم مُصَلَّى » .

هذا هو تحقيق الإمامة . ورتبة الإمامة أن يَفْهَمَ عن الحق ثم يُفْهِمَ الخلْق ؛ فيكون واسطة بين الحق والخلْق ، يكون بظاهره مع الخلْق لا يفتر عن تبليغ الرسالة ، وبباطنه مشاهداً للحق ، لا يتغير له صفاء الحالة ، ويقول للخلْق ما يقوله له الحق .

قوله جل ذكره : ﴿ ومن ذريتى ﴾

نطق بمقتضى الشفقة عليهم ، فطلب لهم ما أُكرِم به . فأخبره أن ذلك ليس باستحقاق نَسَبٍ ، أو باستيجاب سبب ، وإنما هى أقسام مضت بها أحكام فقال له : « لا ينال عهدى

---

(1) يشير بهذا إلى ما حدث ليلة الاسراء والمعراج فى الملأ الأعلى (انظر كتاب المعراج) للقشيرى نشره دكتور على عبد القادر . ط . (الكتب الحديثة) سنة ١٩٦٤ .

الظالمين » وليس هذا كنعيم الدنيا وسعة الأرزاق فيها ، فهى لا ادِّخار لها عن أحد وإن كان كافراً ، ولذلك :

قال جلّ ذكره : ﴿ وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر ﴾ .
فقال الله تعالى : ﴿ ومن كفر فأمتّعُهُ قليلا ﴾

يعنى ليس للدنيا من الخطر ما يمنعها عن الكفار ، ولكن عهدى لا يناله إلا مَنْ اخترته مِنْ خواص عبادى .

أمّا الطعام والشراب فغير ممنوع من أحد .

أمّا الإسلام والمحاب فغير مبذول لكل أحد .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ جعلنا البيت مثابةً للناس وأَمْناً ﴾

واذكر يا محمد حين جعلنا البيت — يعنى الكعبة — مثابة للناس إليه يثوبون ، ومأمنا لهم إليه يرجعون ، وإياه من كل نحوٍ يقصدون .

هو بيت خلقتُه من الحجر ولكن أضفته إلى الأزل ؛ فمن نظر إلى البيت بعين الخِلْقَة انفصل ، ومن نظر إليه بعين الإضافة وصل واتصل[1] ، وكلٌّ من التجأ إلى ذلك البيت أَمِنَ من عقوبة الآخرة إذا كان التجاؤه على جهة الإعظام والاحترام ، والتوبة عن الآثام .

ويقال بُنِيَ البيتُ من الحجر لكنه حجر يجذب القلوب كحجر المغناطيس يجذب الحديد .

بيتٌ من وقع عليه ظِلُّه أناخ بعَقْوَةِ[2] الأمن .

---

(١) قارن رأى القشيرى الصوفى الحريص بآراء بعض الصوفية الذين أوتوا حظاً من الجرأة فى التعبير . عن هذا الموضوع ، من ذلك مثلا قول رابعة « لا أريد الكعبة بل رب الكعبة أما الكعبة فماذا أفعل بها ... ولم تشأ أن تنظر إليها (تذكرة الأولياء . العطار ج ١ ص ٦١) .
وقول الحلاج : « إن شوقنا إلى الله يجب أن يمحو عقلياً فى نفوسنا صورة الكعبة ، كما نجد من أقامها « شخصيات قلقة فى الاسلام . د . بدوى ص ٦٨ .

(٢) العَقْوَة = الموضع المتسع أمام الدار أو المحلة أو حولهما (الوسيط ص ٦٢٤) .

بيتٌ مَنْ وقع عليه طَرْفُه بُشِّرَ بتحقيق الغفران .

بيتٌ مَنْ طاف حَوْلَه طافت اللطائف بقلبه ، فطَوْفَةٌ بطوفة ، وشَوْطَة بشوطة وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان .

بيتٌ ما خَسِرَ مَنْ أنفق على الوصول[1] إليه مَالَه .

بيت ماربح مَنْ ضَنَّ عليه بشيء ، مَنْ زاره نَسِيَ مزارَه ، وهجر ديارَه .

بيت لا تُستَبْعَدُ إليه المسافة ، بيت لا تُتْرَك زيارته لحصول مخافة ، أو هجوم آفة ، بيت ليس له بهجة الفقراء آفة .

بيت من قعد عن زيارته فَلِعدَمِ فُتُوَّته ، أو لقلة محبته .

بيتٌ من صَبرَ عنه فقلبه أقسى من الحجارة . بيت من وقع عليه شعاعُ أنواره تَسَلَّى عن شموسه وأقماره .

بيت ليس العجب ممن بقي (عنه)[2] كيف يصبر ، إنما العجب ممن حضره كيف يرجع !

قوله جل ذكره : ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مُصَلًّى﴾ .

عَبْدٌ رفع الله سبحانه قَدَمًا فإلى القيامة جعل أثر قَدَمِهِ قِبْلَةً لجميع المسلمين إكرامًا لا مدى له .

قوله جل ذكره : ﴿وَعَهِدْنا إلى إبراهيم وإسماعيل أنْ طَهِّرَا بيتى للطائفين والعاكفين والرُّكَّعِ السجود . وإذ قال إبراهيم ربِّ اجعل هذا البلد آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخِر قال ومن كفر فأُمَتِّعه

---

(١) وردت (الوصل) وهي خطأ في النسخ .

(٢) (عنه) تكملة جاءت في هامش الصفحة ، وهي تكملة ضرورية .

قليلا ، ثم أضطره إلى عذاب النار
وبئس المصير ﴾ .

الأمر فى الظاهر بتطهير البيت ، والإشارة من الآية إلى تطهير القلب .

وتطهير البيت بصَوْنه عن الأدناس والأوضار ، وتطهير القلب بحفظه عن ملاحظة الأجناس والأغيار .

وطوافُ الحجاج حول البيت معلومٌ بلسان الشرع ، وطوافُ المعانى معلومٌ لأهل الحق ؛ فقلوب العارفين المعانى فيها طائفة ، وقلوب الموحِّدين الحقائق فيها عاكفة ، فهؤلاء أصحاب التلوين[1] وهؤلاء أرباب التمكين .

وقلوبُ القاصدين بملازمة الخضوع على باب الجود أبداً واقفة .

وقلوب الموحِّدين على بساط الوصل أبداً راكعة .

وقلوب الواجدين على بساط القرب أبداً ساجدة .

ويقال صواعد نوازع الطالبين بباب الكرم أبداً واقفة ، وسوامى قصود المريدين بمشهد الجود أبداً طائفة ، ووفود هِمَمِ العارفين بحضرة العزِّ أبداً عاكفة .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قال إبراهيم ربِّ اجعل هذا
البلد آمنا ﴾ .

السؤال إذا لم يكن مشوباً بحظِّ العبد كان مستجابا ، ولم يكن سؤال إبراهيم هـذا لحظِّ نفسه ، وإنما كان لِحقِّ ربه عزَّ وجلَّ .

ولمَّا حفظ شرط الأدب طلب الرزق لمن آمن منهم على الخصوص أجيب فيهم

---

(١) وردت (التكوبن) وهى خطأ من الناسخ ، والصحيح أنها (التلوين) .
والتلوين والتمكين لفظان اصطلاحيان : (التلوين صفة ارباب الأحوال والتمكين صفة أهل الحقائق ، فما دام العبد فى الطريق فهو صاحب تلوين لأنه يرتقى من حال إلى حال ، وينتقل من وصف إلى وصف وهو أبداً فى الزيادة أما صاحب التمكين فوصل ثم اتصل ، وأمارة أنه اتصل أنه بالكلية عن كليته بطل . والتغير بما يرد على العبد إما لقوة الوارد او لضعف صاحبه ، والسكون إما لقوته أو لضعف الوارد عليه) الرسالة ص ٤٤

وفى الذين لم يؤمنوا . ولمَّا قال فى حديث الإمامة : «ومن ذُرِّيتى » من غير إذن مُنِــعَ وقيل له : لا ينال عهدى الظالمين » .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنَّا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ﴾ .

نجْحُ السؤال فى صدق الابتهال ؛ فلما فزعا إلى الخضوع فى الدعاء أتاهما المدد ، وتحقيق السؤال .

« إنك أنت السميع » لأقوالنا « العليم » بأحوالنا .

قوله جل ذكره : ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ، ومن ذريتنا أُمَّةً مُسْلِمةً لك ، وأرِنا مَنَاسِكَنا وتُبْ علينا إنك أنتَ التواب الرحيم ﴾ .

« مسلمين » : منقادين لحكمك حتى لا يتحرك مِنّا عِرْق بغير رضاك ، واجعل من ذريتنا أمة مسلمة لك لتقوم بعدنا مقامنا فى القيام بحقوقك ، وشتان بين من يطلب وارثاً لماله ، وبين من يطلب نائبا بعده يقوم بطاعته فى أحواله .

« وأرنا مناسكنا » إذ لا سبيل إلى معرفة الموافقات إلا بطريق التوفيق والإعلام .

« وتب علينا » : بعد قيامنا بجميع ما أمَرْتَنَا حتى لا نلاحظ حركاتِنا وسكناتِنا ، ونرجع إليك عن شهود أفعالنا لئلا يكونَ خطرُ الشِّرْك الخفىِّ فى توهُّمِ شىء مِنّا بِنَا .

قوله جل ذكره : ﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتِك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنَّك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

إن الواجبات لمّا كانت من قِبَلِ الرسل دون مجرد المعقول سأل ألا يتركهم سُدىً ، وألا يخليهم عن رسول وشرع . وطلب فى ذلك الموقف أن يكون الرسول « منهم » ليكونوا أسْكَنَ إليه وأسْهَلَ عليهم ، ويصحُّ أن يكون معناه أنه لما عَرَّفَهُ — سبحانه — حالَ نبيِّنا صلى الله عليه وسلم سأل إنجاز ما وعده على الوجه الذى به (أمره[1]) .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يرغب عن مِلَّةِ إبراهيم إلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهَ ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمِن الصالحين ﴾ .

أخبر أنه آثر الخليل صلوات الله عليه على البرية ، فجعل الدينَ دينَه ، والتوحيدَ شِعارَه والمعرفةَ صِفته ؛ فمن رَغِبَ عن دينه أو حاد عن سُنَّتِهِ فالباطل مطرحه ، والكفر مهواه ؛ إذ ليست الأنوار بجملتها إلا مقتبسة من نوره .

قوله جل ذكره : ﴿ إذ قال له ربُّه أسْلِمْ قال أسلمتُ لربِّ العالمين ﴾

الإسلام هو الاخلاص وهو الاستسلام ، وحقيقته الخروج عن أحوال البشرية بالكلية من منازعات الاختيار ومعارضات النفس ، قال : « أسلمت لرب العالمين » : قابلت الأمر بالسمع والطاعة ،واعتنقت الحكم على حسب الاستطاعة . ولم يدخر شيئاً من ماله وبدنه وولده ، وحين أُمِرَ بذبح الولد قصد الذبح ، وحين قال له خلِّه من الأسر (عمل)[2] ما أُمِرَ به ، فلم يكن له فى الحالين « اختيار » ولا تدبير .

ويقال إن قوله : «أسلمتُ» : ليس بدعوى من قِبَلِه لأن حقيقة الإسلام إنما هو التَّبرى من الحوْل والقوة ، فإذا قال : « أسلمت » فكأنه قال أَقِمْنى فيما كلفتنى ، وحَقِّق منى ما بِهِ أمرتنى . فهو أحال الأمر عليه ، لا لإظهار معنى أو ضمان شىء من قِبَلِ نفسه .

ويقال أمَرَه بأن يستأثر بمطالبات القدرة ؛ فإن من حلَّ فى الخلَّة محلَّه يحل به — لا محالة — ما حلَّ به .

(١) نرجح أنها فى الأصل (أخبره) حتى تتلاءم مع السياق وبذا يكون الناسخ مخطئاً فى نقلها .
(٢) فى ص (فَسَلِمَ) ويمكن أن يحتملها المعنى ، ولكن ترجيح (عمل) أقوى فى الدلالة على الامتثال

ويُسأَلُ ها هنا سؤال فيقال : كيف قال إبراهيم صلوات الله عليه : « أسلمت » ولم يَقُلْ نَبيُّنا صلى الله عليه وسلّم حينما قيل له إعْلَمْ « علمت » ؟ .

والجواب عن ذلك من وجوه : منها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « أنا أعلمكم بالله[1] » ولكن لم يَرِد بعده شرع فكان يخبر عنه بأنه قال علمت .

ويقال إن الله سبحانه أخبر عن الرسول عليه السلام بقوله : « آمن الرسول » لأن الإيمان هو العلم بالله سبحانه وتعالى ، وقول الحق وإخباره عنه أتمُّ من إخباره ـ عليه السلام ـ عن نفسه .

والآخر أن إبراهيم لما أخبر بقوله : « أسلمت » اقترنت به البلوى ، ونبيُّنا — صلى الله عليه وسلم — يتحرز عما هو صورة الدعوى فَحُفِظَ وكُفِيَ .

والآخر أن إبراهيم عليه السلام أُمِرَ بما يجرى مجرى الأفعال ، فإن الاستسلامَ به إليه يشير . ونبينا صلى الله عليه وسلم أُمِر بالعلم ، (ولطائف العلم أقسام)[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ وَوَصَّى بها إبرهيمُ بنيهِ ، ويعقوبُ :
يا بَنِيَّ إن الله اصطفى لكم الدِّينَ
فلا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون ﴾ .

أخبر أن إبراهيم عليه السلام وصَّى بنيه ، وكذلك يعقوب عليه السلام قال لبنيه لا يصيبنكم الموت إلا وأنتم بوصف الإسلام . فشرائعهم — وإن اختلفت فى الأفعال — فالأصل واحد ، ومشرب التوحيد لا ثانى — له فى التقسيم — وقوله تعالى : « إن الله اصطفى

---

(١) « أنا أعلمكم بالله وأخشاكم لله » .
البخارى عن أنس « والله إنى لأخشاكم وأتقاكم له » .
والشيخان عن عائشة « والله إنى لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية » .

(٢) هنا وضع الناسخ علامة تدل على أنه أخطأ فى النقل ، ولهذا فإن العبارة التى وردت فى (ص) مضطربة وقد آثرنا أن نلتقط منها ما نرجح أنه ملائم للمعنى . فالمقصود أن إبراهيم عليه السلام عبَّر بقوله « أسلمت » وهذا فعل إنسانى بينما لم يقل الرسول (ص) « علمت » لأن العلم ليس كسباً للعبد وإنما هو قسمة له أى أنه من عين الجود لا من قبيل المجهود ، والله أعلم .

لـكم الدين » بِشارة بما تقوى به دواعيهم على الرغبة فيما يكلفهم من الإسلام ، لأنهم إذا تحققوا أن الله سبحانه اصطفى لهم ذلك علموا أنه لا محالة يعينهم فيسهل عليهم القيام بحق الإسلام .

قوله جل ذكره : ﴿ أم كنتم شهداء إذ حَضَرَ يعقوبَ الموتُ إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلٰهك ﴾ .

جروا كلهم — صلوات الله عليهم — على منهاج واحد فى التوحيد والإسلام ، وتوارثوا ذلك خَلَفاً عن سَلَف ، فهم أهل بيت الزلفة ، ومستحقو القربة ، والمُطَهَّرون من قِبَل الله — على الحقيقة .

قوله جل ذكره : ﴿ إلٰهك وإلٰه آبائك إبرهيم وإسماعيل وإسحاق إلٰهاً واحداً ونحن له مسلمون ﴾ .

لم يقولوا إلٰهنا مراعاة لخصوصية قَدْرِه ، حيث سلموا له المزية ، ورأوا أنفسهم ملحقين بمقامه ، ثم أخبروا عن أنفسهم أنهم طُيَّعٌ له[1] بقولهم « ونحن له مسلمون » .

قوله جل ذكره : ﴿ تلك أُمَّة قد خَلَتْ لها ما كَسَبَتْ ولـكم ما كَسَبْتُم ولا تُسْألون عما كانوا يعملون ﴾ .

أنزل الحقُّ — سبحانه — كُلاًّ بمحلِّه ، وأفرد لـكل واحدٍ قَدْراً بموجِبِ حكمه ، فلا لهؤلاء عن أشكالهم خبر ، ولا بما خَصَّ به كل طائفة إلى آخرين أثر ، وكلٌّ فى إقليمه مَلِك ، ولـكلٍ يدور بالسعادة فَلَك .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا ، قل بل ملة إبرهيم حنيفاً وما كان من المشركين ﴾ .

---

(١) وردت (طبع لهم) ونرجح أن الناسخ قد أخطأ فى النقل لأن « ونحن له مسلمون » معناه (ونحن طُيَّعٌ له) وطُيَّع جمع طائع مثل رُكَّع وسُجَّد من راكع وساجد .

معناه إذا تجاذبتك الفِرَق ، واختلفت عليك المطالبات بالموافقة ، فاحكم بتقابل دعاواهم ، وأزِد من توجهك إلينا ، جارياً على منهاج الخليل عليه السلام فى اعتزال الجملة ، سواء كان أباه ، أو كان ممن لا يوافق مولاه ، ولذا قال « وأعتزلكم وما تدعون من دون الله » للحق بالحق .

قوله جل ذكره : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أُنْزِلَ إلينا
وما أُنْزِلَ إلى إبرهيم وإسماعيل
وإسحاق ويعقوب والأسباط ،
وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى
النبيُّون من ربِّهم ، لا نُفَرِّق بين أحدٍ
منهم ونحن له مسلمون ﴾ .

لمَّا آمن نبيُّنا صلى الله عليه وسلم بجميع ما أُنْزِلَ من قَبْلِهِ أُكْرِمَ بجميع ما أَكْرَمَهُ من قبله ، فلمَّا أظهر موافقة الجميع أَمَرَ الكُلَّ بالكَوْنِ تحت لوائه فقال : « آدمُ ومَنْ دونه تحت لوائى يوم القيامة »[1] .

ولمَّا آمنت أُمَّتُه بجميع ما أنزل الله على رسله[2] ، ولم يفرقوا بين أحدٍ فهم ضربوا فى التكريم بالسَّهم الأعلى فتقدموا على كافة الأمم .

قوله جل ذكره : ﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا
وإن تولوا فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم
الله وهو السميع العليم ﴾ .

إن سلكوا طريقتكم ، وأخذوا بسبيلكم ، أُكرِموا بما أُكْرِمتم ، ووصلوا إلى ما وصلتم ، وإنْ أَبَوْا إلا امتيازاً أَبَيْنا إلا هوانهم . فإنَّ نَظَرَنا لمن خدمك يا محمد بالوصلة ،

---

(١) « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدى لواء الحمد ولا فخر ، ومانبى يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائى » .
من أحاديث الشفاعة رواه الترمذى (٧٩ / ٦ منتخب كنز العمال) .
(٢) وردت رسوله ، والأولى أن تكون رسله لأن السياق يقتضى ذلك .

وإعراضنا عمن بَايَنَكَ وخالفك (. . .)[1] ، من خالفك فهو فى شق الأعداء ، ومن خدمك فهو فى شق[2] الأولياء .

« فسيكفيكم الله وهو السميع العليم » : كفاية الله متحققة لأن عناية الله بكم متعلقة ، فمن نابذكم قصمته أيادى النصرة ، ومن خالفكم قهرته قضايا القسمة ، وهو السميع لمناجاة أسراركم معنا على وصف الدوام ، العليم باستحقاقكم (منا)[3] خصائص اللطف والإكرام .

قوله جل ذكره : ﴿ صِبْغَةَ اللهِ ومَنْ أَحْسَنُ من الله صبغة ونحن له عابدون ﴾ .

معناه الزموا صبغةَ الله ، فهو نصب بإضمار فعل .

والإشارة أن العبرة بما وضع الحق لا بما جمع العبد ، فما يتكلفه الخلْقُ فإلى الزوال مآله ، وما أثبت الحق عليه الفطرةَ فبإثباته العبرة .

وللقلوب صبغة وللأرواح صبغة وللأسرار صبغة وللظواهر صبغة . صبغة الأشباح والظواهر بآثار التوفيق ، وصبغة الأرواح والسرائر بأنوار التحقيق .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أَتُحاجوننا فى الله وهو رَبُّنا وربُّكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلِصون ﴾[4] .

كيف تصحُّ محاجة الأجانب[5] وهم تحت غطاء الغيبة ، وفى ظلال الحجبة . والأولياء فى ضياء الكشف وظهُورْ الشهود ؟

---

(١) هنا كلمة (بالواجب) ونظن أنها فى الأصل (بالفرقة) او ما فى معناها لتقابل (الوصلة) .
(٢) وردت (سك) والمعنى يرفضها تماما مما يدل على أنها خطأ من الناسخ . وربما كانت (سلك) .
(٣) وردت (من) وهى مقبولة ، ولكن الأجمل أن تكون (منا) حتى تنسجم الموسيقى الداخلية — وهذه خصيصة فى أسلوب القشيرى — مع (معنا) فى الجملة السابقة عليها ، فضلا عن أن فيها إعادة كل فضل إلى الله .
(٤) أخطأ الناسخ وكتبها (مصلحون) وصحة الآية (١٣٨) (... مخلصون) .
(٥) وردت (الاجابة) وهى خطأ من الناسخ .

ومتى يستوى حال من هو بنعت الإفلاس بِغَيْبَتِهِ مع حال من هو فى حكم الاختصاص والإخلاص لانغراقه فى قُرْبَتِهِ ؟ هيهات لا سواء !

قوله جل ذكره : ﴿ أم تقولون إن إبراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هوداً أو نصارى قُلْ أأنتم أعْلَمُ أم الله ، ومن أظلم ممن كَتَمَ شهادة عِنْدَه مِنَ الله وما الله بِغَافلٍ عما تعملون ﴾ .

مَنْ نظر منْ نفسه إلى الخَلْقِ يتخيَّل كُـلاًّ بِرَقْهِ ، ويحسب الجميع بنعت مثله ؛ فلمَّا كانوا بحكم الأجنبيَّة حَكَمَ الأنبياء — عليهم السلام — بمثل حالتهم ، فردَّ الحقُّ — سبحانه — عليهم ظنَّهم و (. . .)[1] فيهم رأيهم . وهل يكون المجذوب عن شاهده كالمحجوب فى شاهده ؟ وهل يتساوى المختطف[2] عن كُلِّه بالمردود إلى مثله ؟

ذلك ظن الذين كفروا فتعساً[3] لهم !

قوله جل ذكره : ﴿ تلك أمة قد خَلَتْ لها ما كَسَبَتْ ولـكم ما كسبتم ولا تُسْأَلون عما كانوا يعملون ﴾ .

حالت بينـكم وبينهم حواجز من القِسمةِ ؛ فهم على الفُرقة والغفلة أسسوا بنيانهم ، وأنتم على الزلفة والوصلة ضربتم خيامـكم . وعتيق فضلنا لا يشبه طريد قهرنا[4] .

---

(١) مشتبهة فى (ص) .

(٢) وردت (المختلف) وهى خطأ من الناسخ ، فمن معرفتنا بأسلوب القشيرى نجزم أنها (المختطف) عن كله خذ مثلا قوله فى مستهل رسالته معبراً عن الفـكرة ذاتها ... واختطفوا عنهم بالـكلية) .

(٣) وردت (فتعاساً) والصحيح (فتعسا) .

(٤) أخطأ احد قراء النسخة (ص) حينما فَهِمَ (عتيق) هنا على معنى قديم والمقصود هنا — حسب السياق العام — أنها بمعنى حر ، فمعنى العبارة : إن من يتحرر فى اكناف فضل الله ليس كمن يشرد في متاهات قهره .

قوله جل ذكره : ﴿ سيقول السفهاء من الناس ماولاَّهم
عن قِبلَتِهم التى كانوا عليها﴾ .

سقمت بصائر الكفار فلم يَلُحْ لهم وجهُ الصواب فى جميع أحوال المؤمنين ، فطالعوها بعين الاستقباح ، وانطلقت ألسنتهم بالاعتراض[1] فى كل ما كان ويكون منهم ، فلم يروا شيئاً جديداً إلا أتَوْا عليه باعتراض جديد .

فمن ذلك تغير أمر القِبلْة حينما حُوِّلَتْ إلى الكعبة قالوا إن كانت قبلتهم حقاً فما الذى ولاَّهم[2] عنها ؟ فقال جل ذكره :

﴿قُل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾

يتعبَّد العباد إلى أى قطرٍ و (. . .) ونحوٍ شاءوا ، وكذلك أصحابُ الغيبة والُحجبة — عن شهود تصريف الحق لأوليائه — يطلبون وجوهاً من الأمر ، يحملون عليها أحوالهم ، ولو طالعوا الجميع من عين واحدة لتخلصوا عن ألم تَوَزُّع الفِكْر ، وشُغْل تَرَجُّم الخاطر ، ومطالبات تَقَسُّم الظنون ، ولكنَّ الله يهدى لنوره من شاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وكذلك جعلنا كم أمة وسطاً لتكونوا
شهداء على الناس ويكون الرسول
عليكم شهيداً ﴾ .

الوسط الخيار ، فجعل هذه الأمة خيار الأمم ، وجعل هذه الطائفة[3] خيار هذه الأمة فهم خيار الخيار . فكما أن هذه الأمة شهداء على الأمم فى القيامة فهذه الطائفة هم الأصول ، وعليهم المدار ، وهم القطب ، وبهم يحفظ الله جميع الأمة ، وكلٌّ من قَبِلَتْهُ قلوبهم فهو المقبول ، ومن رَدَّتْه[4] قلوبهم فهو المردود . فالحكم الصادق لفراستهم ، والصحيح حكمهم ، والصائب نظرهم

---

(١) وردت (بالأعراض) وربما يقبلها المعنى ، ولكن النطق (بالاعتراض) أكثر ملاءمة ، خصوصا وقد جاءت (الاعتراض) بعد قليل .
(٢) وردت (ولاهم) وهى خطأ فى الكتابة .
(٣) يقصد أهل الحقائق .
(٤) فى النسخة (روية) ومصححه فى الهامش (ردّته) وهى الصحيحة .

عصم جميع الأمة (عن)[1] الاجتماع على الخطأ، وعصم هذه الطائفة عن الخطأ فى النظر والحكم، والقبول والرد، ثم إن بناء أمرهم مُسْتَنِدٌ إلى سُنَّة الرسول صلى الله عليه وسلم. وكل ما لا يكون فيه اقتداء بالرسول[2] عليه السلام فهو عليه ردٌّ[3]، وصاحبه على لا شىء.

قوله جل ذكره: ﴿ وما جعلنا القِبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول مِمَّنْ ينقلب على عقبيه، وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هَدَى اللهُ، وما كان الله لِيُضِيعَ إيمانكم إن الله بالناسِ لَرَءوفٌ رحيم ﴾.

بيَّن أن الحكم فى تقرير أمر القبلة إلى وقت التحويل، وتحويلها من وقت التبديل كان اختباراً لهم من الحق ليتميز الصادق من المارق[4]، ومَنْ نَظَر إلى الأمر بعين التفرقة لكَبُر عليه أمر التحويل، ومن نظر بعين الحقيقة ظهرت لبصيرته وجوه الصواب. ثم قال: «وما كان الله ليضيع إيمانكم» أى من كان مع الله فى جميع الأحوال على قلبٍ واحد فالمختلفات من الأحوال له واحدة، فسواءٌ غيَّر أو قرَّر، وأثبت أو بدَّل، وحقَّق أو حوَّلَ فَهُمْ بِهِ لَهُ فى جميع الأحوال، قال قائلهم:

كيفما دارت الزجاجة دُرْنا يحسب الجاهلون أنَّا جُنِنَّا

فإنْ قابلوا شرقاً أو واجهوا غرْباً، وإنْ استقبلوا حجراً أو قاربوا مدراً، فمقصودُ قلوبهم واحدٌ، وما كان للواحد فحُكْمُ الجميع فيه واحد.

قوله جل ذكره: ﴿ قد نرى تقلُّبَ وجهك فى السماء فلنولينك قِبْلَةً ترضاها، فَوَلِّ وجهك شطر المسجد الحرام، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾.

---

(١) وردت (على) والصحيح عصم (عن) وقد استعملت (عن) فى الجملة التالية فى المعنى نفسه.
(٢) أخطأ الناسخ فكتبها (بالوصل).
(٣) جاءت (فهو عليهم رد) والصواب أن تكون (فهو عليه رد).
(٤) وردت (المارن) وقد جعلناها (المارق) للاءمتها للمعنى. ونرجح أنها كذلك فى الأصل.

حَفِظَ — صلوات الله عليه — الآدابَ حيث سكت بلسانه عن سؤالٍ ما تمنَّاه من أمر القبلة بقلبه ، فَلَاحَظَ السماء لأنها طريق جبريل عليه السلام ، فأنزل الله عزَّ وجل : « قد نرى تقلب وجهك فى السماء » أى علمنا سؤلك عمَّا لم تُفْصِحْ عنه بلسان الدعاء ، فلقد غيَّرنا القِبْلَةَ لأجلك ، وهذه غاية ما يفعل الحبيب لأجل الحبيب .

كلٌّ العبيد يجتهدون فى طلب رضائى وأنا أطلب رضاك : فلنولينك قِبْلَةً ترضاها » . « فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام » : ولكن لا تُعَلِّقْ قلبَكَ بالأحجار والآثار ، وأَفْرِد قلبك لى ، ولتكنْ القِبلةُ مقصودَ نَفْسِك ، والحقُّ مشهودَ قلبك ، وحيثما كنتم أيها المؤمنون فولوا وجوهكم شطره ، ولكن أَخْلِصوا قلوبكم لى وأَفرِدوا شهودكم بى .

قوله جل ذكره : ﴿وَإِنَّ الذينَ أوتوا الكتاب لَيَعْلَمُونَ أنه الحقُّ من ربهم وما اللهُ بغافلٍ عما يعملون﴾ .

ولكنه عِلْمٌ لا يكون عليهم حجة ، ولا تكون لهم فيه راحة أو منه زيادة ، « وما الله بغافل عما تعملون » تهويلا على الأعداء ، وتأميلاً على الأولياء .

قوله جل ذكره : ﴿ ولئن أتَيْتَ الذين أُوتوا الكتاب بكلِّ آية ما تبعُوا قِبلَتك وما أنت بتابعٍ قِبْلَتَهُم وما بعضهم بتابع قِبلَةَ بعض . ولئن اتبعتَ أهواءهم مِنْ بعد ما جاءك مِنَ العِلْمِ إنَّكَ إذاً لِمَنَ الظالمين ﴾ [1] .

سبق لكم من قديم الحكم (. . .) [2] انفرادٌ بطريق الحق ، ووقوع أعدائكم فى شق

---

(١) وقع الناسخ فى الخطأ حين وضع مكان (إنك إذاً لمن الظالمين) مالك من الله من ولى ولا نصير ، فأصلحناه .

(٢) هنا كلمة (القرب) ثم استبعدها الناسخ لزيادتها .

البُعْد ، فبينكما برزخٌ لا يبغيان ، فما هم بتابِعى قبلتكم وإنْ أريتهم من الآثار ما هو أظهر من الشموس والأقمار ، ولا أنت — بتابعٍ قبلتهم وإن أتوا بكل احتيال ، حُكْماً من الله — سبحانه — بذلك فى سابق الأزل .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبْنَاءَهُمْ وإنَّ فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون ﴾.

حَمَلَتْهم مُسْتَكِنَّاتُ الحَسَدِ على مكابرة ما علموه بالاضطرار ، فكذلك المغلوب فى ظلمات نفسه ، ألقى[1] جلباب الحياء فلم ينْجع فيه مَلَام ، ولم يَرْدَعْه عن انهماكه كلام .

قوله جل ذكره : ﴿ الحقُّ مِنْ رَبك فلا تكونَنَّ مِن المُمْتَرِين ﴾ .

أى بعدما طلعت لك شموس اليقين فلا تَذْعَنْ[2] إلى مجوزات التخمين[3] . والخطاب له والمراد به الأمة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولكلٍ وِجْهَةٌ هو مُوَلِّيها فاستبقوا الخيرات ، أينما تكونوا يأتِ بكم الله جميعاً إن الله على كل شىء قدير ﴾ .

الإشارة منه : أنَّ كل قومٍ اشتغلوا عنَّا بشىءٍ حَالَ بينهم وبيننا ، فكونوا أنتم أيها المؤمنون لنا وبنا ، وأنشد بعضهم :

إذا الأشغالُ ألْهَوْنى عنك بشُغْلِهم جعلتك أشغالى فأنْسَيْتَنى شُغْلى

---

(١) وردت (تلقى) وهى خطأ من الناسخ .

(٢) وردت (فلا ترعن) . والصواب أن تكون (فلا تذعَن) بالذال .

(٣) يغمز القشيرى هنا بما بين علوم أرباب الأحوال وبين العلوم العقلية ، لأننا نعرف من مذهبه أنه مع احترامه للعقل فى البداية إلا أنه محتمل للإصابة بالتجويز والتخمين وغيرهما من الآفات التى لا تجعله جديرا ـ وحده ـ بالوصول إلى المعارف العليا .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنْ حيثُ خَرَجْتَ فولِّ وجهك شطر المسجد الحرام ﴾ .

كما تستقبلون أينما كنتم القِبْلَةَ — قَرُبتم منها أم بَعُدْتُم — فكذلك أقْبِلُوا علينا بقلوبكم كيفما كنتم ؛ حَظِيتم منا أو مُنِيتُم .

قوله جل ذكره : ﴿وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة إلا الذين ظلموا منهم ﴾ .

إذا أردت ألا يكون لأحد عليك سبيلٌ ، ولا يقع لمخلوق عليك ظِلٌّ ، ولا تصل إليك بالسوءِ يَدٌ ، فحيثما كنتَ وأينما كنتَ وكيفما كنتَ كُنْ لَنَا وكُن مِنّا ، فإنَّ من انقطع إلينا لا يتطرق إليه حدثان .

قوله جل ذكره : ﴿ فلا تخشوهم واخشونى ﴾ .

إذا كانوا محوا عن كونهم رسوماً تجرى عليهم أحكامنا — فأنّى بالخشية منهم ! ؟

قوله جل ذكره : ﴿ ولأُتِمَّ نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون ﴾ .

إتمام النعمة إضافة الكشف إلى اللطف ، فإن من كفاه بمقتضى جوده دون من أغناه بحق وجوده ، وفى معناه أنشدوا :

نحن فى أكملِ السرورِ ولكنْ ليس إلا بكم يَتِمُّ السرور
عيبُ ما نحن فيه ـيا أهلَ وُدِّى ـ أنّكم غُيَّبٌ ونحن الحُضُور

قوله جل ذكره : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو[1] عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ .

---

(١) أخطأ الناسخ حين كتبها (يتلون) .

إرسال الرسول مفاتحة لأبواب الوصول ، فكان فى سابق علمه — سبحانه — أن قلوب أوليائه متعطشة إلى لقائه . ولا سبيل لأحد إليه إلا بواسطة الرسل ، فأقوام ألزمهم — بإرسال الرسل إليهم — الكُلَف ، وآخرون أكرمهم — بإرسال الرسل إليهم — بفنون القُرَب والزُّلَف ، وشتّان بين قوم وقوم !

قوله جل ذكره : ﴿ فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ﴾ .

الذكر استغراق الذاكر فى شهود المذكور ، ثم استهلاكه فى وجود المذكور ، حتى لا يبقى منك أثر يذكر ، فيقال قد كان مرةً فلان .

« فاذكرونى أذكركم » أى كونوا مستهلكين فى وجودنا ، نذكركم بعد فنائكم عنكم ، قال الله تعالى : « إنهم كانوا قبل ذلك محسنين » كانوا وقتاً ولكنهم بانوا دائما[1] :

انــاس حــديث حسن فكن حديثا حسنا لمن وعى[2]

وطريقة أهل العبارة[3] (فاذكرونى) بالموافقات (أذكركم) بالكرامات ، وطريقة أهل الإشارة (فاذكرونى) بِتَرْكِ كل حظ (أذكركم) بأن أقيمكم بحقى بعد فنائكم عنكم .

(فاذكرونى) مكتفين بى[4] عن عطائى وأفضالى (أذكركم) راضياً بكم دون أفعالكم .

(فاذكرونى) بذكرى لكم ما تذكرون ، ولولا سابِقُ ذكرى لما كان لاحِقُ ذكركم .

(فاذكرونى) بقطع العلائق (أذكركم) بنعوت الحقائق .

ويقال اذكرنى لكل مَنْ لَقِيتَه أذكرك لمن خاطَبتُه ، فمن ذكرنى فى مَلأٍ ذكرته فى ملأٍ خيرٍ منهم .

---

(١) يقول يحيى بن معاذ : العارف كائن بائن . ومرة قال : العارف كان فبان (الرسالة ص ١٥٧) .

(٢) البيت منقول كما جاء فى ص ، لم نحاول أن نبدل فى كتابته وهو مضطرب وزنا ومعنى .

(٣) وردت (العبادة) والأصوب أن يكون احتمال ورودها فى الأصل (العبارة) لتعبِّر عن درجة أدنى من درجة أهل (الإشارة) .

(٤) وردت (مكتفيا لى) والأقرب الى المعنى أن نجعلها فى صورة الجمع وأن يكون حرف الباء أولى من اللام حيث يقال اكتفيتُ بالله عن عطاء الله .

ويقال (واشكرونى) على عظيم المِنَّةِ عليكم بأن قُلْتُ: (فاذكرونى أذكركم).

ويقال الشكر من قبيل الذكر، وقوله (ولا تكفرون) النهى عن الكفران أمرٌ بالشكر، والشكر ذكر، فكرر عليك الأمر بالذكر، والثلاث أول حدٌّ الكثرة، والأمر بالذكر الكثير أمر بالمحبة لأنَّ فى الخبر: «من أحب شيئاً أكثر ذكره» فهذا — فى الحقيقة — أمرٌ بالمحبة أى أَحْبِبْنِي أحبك، «فاذكرونى أذكركم» أى أحبونى أحببكم.

ويقال: (فاذكرونى) بالتذلل (أذكركم) بالتفضُّل.

(فاذكرونى) بالانكسار (أذكركم) بالمبار.

(فاذكرونى) باللسان (أذكركم) بالجِنان.

(فاذكرونى) بقلوبكم (أذكركم) بتحقيق مطلوبكم.

(فاذكرونى) على البـاب من حيث الخدمة (أذكركم) بالإيجاب على بساط القربة بإكمال النعمة.

(فاذكرونى) بتصفية السِّر (أذكركم) بتوفية البِّر.

(فاذكرونى) بالجهد والعناء (أذكركم) بالجود والعطاء.

(فاذكرونى) بوصف السلامة (أذكركم) يومَ القيامة يومَ لا تنفع الندامة.

(فاذكرونى) بالرهبة (أذكركم) بتحقيق الرغبة.

قوله جل ذكره: ﴿يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين﴾.

استعينوا بالصبر على الصلاة أى بصبركم — عند جريان أحكام الحق عليكم — استحقاقكم صلاة ربكم عليكم، ولذا فإنه تعالى بعد «وبَشِّر الصابرين» يقول: «أولئك عليهم صلوات من ربهم».

ويقال استوجب الصابرون نهاية الذخر، وعلو القدر حيث نالوا مَعِيَّةَ الله قال تعالى: «إن الله مع الصابرين».

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تقولوا لِمَنْ يُقْتَلُ فى سبيل الله أمواتٌ بل أحياء، ولـكن لا تشعرون ﴾.

فاتهم الحياة فى الدنيا ولـكن وصلوا إلى الحياة الأبدية فى العُقْبَى، فهم فى الحقيقة أحياء، يجدون من الله فنون الـكرامات .

ويقال هم أحياء لأن الخَلَفَ عنهم اللهُ ومَنْ كان الخلفُ عنه الله لا يكون ميتاً ، قال قائلهم فى مخلوق :

إن يكن عنَّا مضى بسبيله فما مات من يبقى له مثل خالد

ويقال هم أحياء بذكرِ الله لهم، والذى هو مذكور الحق بالجميل بذكره السرمدى ليس بميت .

ويقال إنَّ أشباحهم وإنْ كانت متفرقة ، فإنَّ أرواحهم — بالحق سبحانه — متحققة . ولئن فَنِيَتْ بالله أشباحُهم فلقد بَقِيَتْ بالله أرواحُهم لأنَّ من كان فناؤه بالله كان بقاؤه بالله .

ويقال هم أحيـاء بشواهد التعظيم ، عليهم رداء الهيبة وهُمْ فى ظلال الأُنْس ، يبسطهم جَمَالُه مرةً ، ويستغرقهم جلاله أخرى[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ ولنَبْلُوَنَّـكُمْ بشىءٍ من الخوفِ والجوعِ ونقص من الأموالِ والأنْفُس والثمراتِ وبَشِّرِ الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبةٌ قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ .

ابتلاهم بالنعمة لِيُظْهِرَ شـكرهم، وابتلاهم بالمحنة ليظهر صبرهم ، فلما أدخل المعلوم من حالهم فى الوجود ، ورسمهم بالرقم الذى قَسَمَه ، وأثبتهم على الوصف الذى علمه ، (ابتلاهم)

---

(١) شبيه بذلك ما يقوله القشيرى فى كتابه « التحبير فى التذكير » حينما شرح « المحيى المميت » و « الجليل الجميل » : « من كاشفه بجلاله أفناه ، ومن كاشفه بجماله أحياه ، فـكشف الجلال يوجب محواً وغيبة ، وكشف الجمال يوجب صحواً وقربة » .

بالخوف وفيه تصفية لصدورهم ، وبالجوع وفيه تنقية لأبدانهم ، وبنقص من الأموال تزكو به نفوسهم ، وبمصائب النفوس يعظم بها عنــد الله أجرهم ، وبآفة الثمرات يتضاعف من الله خلفهم .

« وبَشِّر الصابرين » يعنى الذين لا اعتراض لهم على تقديره فيما أمضاه .

ويقال طالبهم بالخوف (ابتعاداً) عن عقوبته ثم بمقاساة الجوعِ ابتغاء قربته وكرامته ، ونقصٍ من الأموال بتصَدُّقِ الأموال والخروج عنها طلبًا للخير منه بحصول معرفته .

« والأنفسِ » تسليما لهــا إلى عبادته . « والثمرات » القول بترك ما يأملونه من الزوائد فى نعمته « وبشِّر الصابرين » على استحسان قضيته ، والانقياد لجريان قدرته .

ومطالبات الغيب إما أن تــكون بالمال أو بالنفس أو بالأقارب ؛ فمن أوقف المــال لله فله النجاة[1] ، ومن بذل لحــكمه النَّفْسَ فله الدرجات ، ومن صبر عند مصائب الأقارب فله الخلف والقرُبات ، ومن لم يدخر عنه الروح فله دوام المواصلات .

قوله جل ذكره : ﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة﴾ ... الآية .

قابلوا الأمر بالصبر لا بل بالشــكر لا بل بالفرح والفخر .

ومن طالع الأشياء مِلْــكاً للحق رأى نفسه أجنبيا بينه وبين حكمه ؛ فمُنشِىء الخلْقِ أولى بالخلْــق من الخَلْــق .

ويقال من شهد المصائب شهد نفسه لله وإلى الله ، ومن شاهد المُبْلِي عَلِمَ أن ما يكون من الله فهو عبد بالله ، وشتان بين من كان لله وبين من كان بالله ؛ الذى كان لله فصابرٌ واقفٌ ، والذى هو بالله فساقط الاختيار والحــكم ، إنْ أثبته ثَبَتَ ، وإنْ محاه انمحى ، وإنْ حرَّكه تحرك ، وإن سَــكَّنه سَــكَن ، فهو عن اختياراته فانٍ ، وفى القبضة مُصَرَّفٌ .

قوله جل ذكره : ﴿أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾ .

---

(١) ربما كانت فى الأصل (الجنات) .

بصلواته[1] عليهم ابتداء وصلوا إلى صبرهم ووقوفهم عند مطالبات التقدير ، لا بصبرهم ووقوفهم وصلوا إلى صلواته ، فلولا رحمته الأزلية لما حصلت طاعتهم بشرط العبودية ، فعنايته السابقة أوجبت لهم هداية خالصة[2].

قال تعالى : « وَأُولئك هم المهتدون » لما رحمهم فى البداية اهتدوا فى النهاية .

قوله جل ذكره : ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ .

تلك المشاهد والرسوم ، وتلك الأطلال والرقوم ، تُعظَّمُ[3] وتُزَار ، وتُشَدُّ إليها الرحال[4] لأنها أطلال الأحباب ، وهنالك تلوح الآثار :

أهوى الديار لمن قد كان ساكنها   وليس فى الدارِ همٌّ ولا طَرَبُ[5]

وإن لتُرابِ طريقهم بل لغبار آثارهم — عند حاجة الأحباب — أقداراً عظيمة ، وكل غبرة تقع على (حافظات طريقهم)[6] لأعزُّ من المِسْك الأذفر :

وما ذاك إلا أن مشت عليه أميمةٌ   فى تِربها وجرَّت به بُردا

قوله جل ذكره : ﴿فمن حَجَّ البيتَ أوِ اعتمر فلا جُناحَ عليه أن يطوفَ بهما ومَنْ تطوع خيراً فإنَّ اللهَ شاكرٌ عليم﴾ .

حَظِيَ الصفا والمروة بجوار البيت فَشُرِعَ السعى بينهما كما شرع للبيت الطواف ، فكما أن الطوافِ ركن فى النُّسك فالسعى أيضاً ركن ، والجارُ يُكْرَمُ لأجل الجار .

---

(١) وردت (بصلواتهم) وهى خطأ من الناسخ لأن السياق يؤدى إلى (صلاته) سبحانه عليهم فى سابق الأزل ، كذلك تشير الآية الكريمة إلى صلاته لا إلى صلواتهم .

(٢) لاحظ هنا معارضة القشيرى لفكرة وجوب إثابة المطيع على الله . فالله فى رأى القشيرى تنزه عن أن يجب عليه شىء ، لأن طاعة المطيع أولا فضل من الله ، وليست بفضل العبد .

(٣) وردت (تعظيم) وهى خطأ فى النسخ .

(٤) وردت (الرجال) وهى خطأ فى النسخ .

(٥) إما أن تكون (همٌّ) صحيحة ، أى لا حزن ولا فرح ، واما أنها فى الأصل (همسُ) لتناسب الطرب ، وليتناسبا مع خلو الدار من أقل أثر للحياة .

(٦) هكذا وردت فى (ص) .

قوله جل ذكره : ﴿ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من
البينات والهُدى مِنْ بعدما بيَّناه
فى الكتاب أولئك يلعنهم اللهُ
ويلعنهم اللاعنون ﴾.

الإشارة فى هذه الآية لمن كاشفه الحقُّ سبحانه بعلم من آداب السلوك ثم ضنّ[1] بإظهاره للمريدين على وجه النصيحة والإرشاد استوجب المقت فى الوقت ، ويخشى عليه نزع البركة عن علمه متى قصَّر فيه لما أخَّر من تعليم المستحِق .

قوله جل ذكره : ﴿ إلا الذين تابوا وأصلحوا وبَيَّنوا
فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب
الرحيم ﴾ .

تداركوا ما سلف من تقصيرهم بحسن الرُّجْعَى ، والقيام للمريدين على وجه النصيحة ، وبيَّنوا لهم — بجميل البيان وإقامة البرهان على ما يقولون — حسنَ قيامهم بمعاملاتهم . فإنَّ أظهرَ الحُجَج لبيانِ أفعالك وأصدقَ الشهادةِ لتصحيح ما تدعو به الخلْق إلى الله — ألا يُخالِفَ بمعاملتك ما تشير إليه بمقالتك ، قال الله تعالى : « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه » .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين كفروا وماتوا وهم كُفّار
أولئك عليهم لعنة الله والملائكة
والناس أجمعين . خالدين فيها
لا يُخَفَّفُ عنهم العذاب ولاهم يُنظرون ﴾

الإشارة فيه أن الذين بدا لهم بعدما سلكوا طريق الإرادة (أنْ) يرجعوا إلى أحوال العادة ، ثم فى تلك الوحشة قُبضوا ، وعلى تلك الحالة من الدنيا خرجوا ، أولئك أصحاب الفُرقة ،

---

(١) وردت (ضمن) وهى خطأ من الناسخ وقد استندنا فى الوصول الى أنها (ضنّ) من كلمة (بخل) التى سجلها الناسخ تحتها . والسياق يؤيدها .

فلا على أرواحهم إقبال ولا لمصيبتهم جبران ، ولا لأحد عليهم ترحم ، خسروا فى الدنيا والآخرة ، يلعنهم البقُّ فى الهواء والنقعُ على المـاء .

« خالدين » أى مقيمين أبداً فى هوانهم وصغرهم ، لا تخفيف ولا إسعـاف ، ولا رفق ولا ألطاف .

قوله جل ذكره : ﴿ وإلٰهُـكم إله واحد لا إلٰه إلا هو الرحمن الرحيم ﴾ .

شَرَّفهم غايةَ التشريف بقوله وإلٰهـكم . وإن شيوخ هذه الطائفة قالوا : علامةُ من يَعُدُّه من خاصِّ الخواص أن يقول له : عبدى ، وذلك أتمُّ من هذا بكثير لأن قوله : « وإلهـكم » : وإضافة نَعْتِه أتمُّ من إضافته إياك إلى نفسه لأن إلهيته لَكَ بلا عِلَّة ، وكونُك له عبد يُعوِّض كل نقصك وآفتك . ومتى قال لـكم « وإلهـكم » ؟

حين كانت طاعتك وحركاتك وسكناتك أو ذاتك وصفاتك لا بل قبل ذلك أزل الأزل حين لا حِينَ ولا أَوَانَ ، ولا رسم ولا حدثان .

و « الواحد » من لا مِثْلَ له يدانيه ، ولا شكل يلاقيه . لا قسيم يجانسه ولا نديم يؤانسه . لا شريكَ يعاضده ولا مُعِين يساعده ولا منازعَ يعانده .

أحدىُّ الحق صمدىُّ العين ديموُمى البقاء أبدىُّ العز أزلىُّ الذات .

واحدٌ فى عز سنائه فَردٌ فى جلال بهائه ، وِتْرٌ فى جبروت كبريائه ، قديم فى سلطان عِزِّه ، مجيد فى جَمال ملـكوته . وكل مَنْ أطنب فى وصفه أصبح منسوباً إلى العمى[1] (فـ) لولا أنه الرحمن الرحيم لتلاشى العبدُ إذا تعرَّض لعرفانه عند أُول ساطعٍ من باديات عِزِّه .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ فى خلقِ السموات والأرضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ والفُلْكِ التى تجرى فى البحرِ بما ينفعُ الناسَ ، وما أَنْزَلَ اللهُ من السماءِ مِنْ ماءٍ

---

(١) وردت (الأعمى) فى ص ويمـكن قبولها على أنها اسم جنس .

فأحيا بهِ الأرضَ بَعْدَ مَوْتِها
وَبَثَّ فيها مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وتصريفِ
الرياحِ ، والسحابِ المُسَخَّرِ بين
السماءِ والأرضِ لآياتٍ لقومٍ يعقلون﴾ .

تَعَرَّف إلى قلوب الطالبين من أصحاب الاستدلال وأرباب العقول بدلالات قدرته ، وأمارات وجوده ، وسمات ربوبيته التي هي أقسام أفعاله . ونبههم على وجود الحكمة ودلالات الوحدانية بما أثبت فيها من براهينَ تلطُف عن العبارة ، ووجوهٍ من الدلالات تَدِقُّ عن الإشارة ، فما من عينٍ من العدم محصولة — من شخصٍ أو طلل ، أو رسمٍ أو أثر ، أو سماء أو فضاء[1] ، أو هواء أو ماءٍ ، أو شمسٍ أو قمر ، أو قَطْرٍ أو مطر ، أو رمل أو حجرٍ ، أو نجم أو شجرٍ — إلا وهو على الوحدانية دليل ، ولِمَنْ يقصد وجوده سبيل .

قوله جل ذكره : ﴿ ومِنَ الناس مَنْ يتخذ من دون الله
أنداداً يحبونهم كَحُبِّ الله ﴾

هؤلاء قوم لم يجعلهم الحق سبحانه أهل المحبة ، فَشَغَلَهم بمحبة الأغيار حتى رضوا لأنفسهم أن يحبوا كل ما هَوَتْه أنفسهم ، فرضوا بمعمولٍ لهم أن يعبدوه ، ومنحوت — من دونه — أن يحبوه .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين آمنوا أشد حباً لله ولو يرى
الذين ظلموا إذ يرون العذاب أنَّ القوة
لله جميعاً وأنَّ الله شديد العذاب ﴾ .

ليس المقصود من هذا ذكر محبة الأغيار للأصنام ، ولكن المراد منه مدح المؤمنين على محبتهم ، ولا تحتاج إلى كثير محبة حتى تزيد على محبة الكفار للأصنام ، ولكن من أحبَّ حبيباً استكثر ذكره ، بل استحسن كل شيء منه .

ويقال وجه رجحان محبة المؤمنين لله على محبة الكفار لأصنامهم أن (هذه) محبة الجنس

(١) وردت (قضاء) في ص .

للجنس ، وقد يميل الجنس إلى الجنس ، وتلك محبةُ منْ ليس بجنسٍ لهم فذلك أعزُّ وأحق .

ويقال إنهم أحبوا ما شاهدوه ، وليس بعجيب محبة ما هو لك مشهود ، وأمَّا المؤمنون فإنهم أحبوا من حَالَ بينهم وبين (شهوده) رداء الكبرياء على وجهه .

ويقال الذين آمنوا أشد حباً لله لأنهم لا يتبرأون من الله سبحانه وإنْ عَذَّبَهُم . والكافر تبرأ من الصنم والصنمُ من الكافر كما قال تعالى : إذ تبرأ الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبَعُوا . . . الآية » .

ويقال محبة المؤمنين حاصلة من محبة الله لهم فهى أتم ، قال تعالى : « يحبهم ويحبونه » . ومحبتهم للأصنام من قضايا هواهم .

ويقال محبة المؤمنين أتمُّ وأشدُّ لأنها على موافقة الأمر ، ومحبة الكفار على موافقة الهوى والطبع ، ويقال إنهم كانوا إذا صلحت أحوالهم ، واتسعت ذات يدهم اتخذوا أصناماً أحسن من التى كانوا يعبدونها قبل ذلك فى حال فقرهم ؛ فكانوا يتخذون من الفضة — عند غِناهم — أصناماً ويهجرون ما كان من الحديد . . . وعلى هذا القياس ! وأمَّا المؤمنون فأشَدُّ حباً لله لأنهم عبدوا إلهًا واحداً فى السَّراءِ والضراءِ .

قوله جل ذكره : ﴿ إذْ تَبَرَّأَ الذين اتُّبِعُوا مِنَ الذين اتَّبَعُو اورأواالعذاب وتقطعت بهم الأسباب ﴾ .

إذا بَدَتْ لهم أوائلُ العذاب اتضح أنهم لم يقفوا من الصدق على قَدَمٍ ، وأمَّا المؤمنون فيسلبهم أرواحهم وأملاكهم وأزواجهم وأولادهم ، ويُسْكِنُ (أولئك)[1] فى القبور سنين ثم يبتليهم فى القيامة بطول الآجال[2] وسوء الأعمال ثم يلقيهم فى النار .

---

(١) أضفنا (أولئك) ليمتنع اللبس .

(٢) فى ص (طول الأحوال) ونرجح أنها فى الأصل (الآجال) لأن وصف الأحوال بالطول غير ملائم فضلا عن أننا نفترض أن القشيرى لا يستعمل الأحوال الا لأرباب الأحوال . وطول الآجال فى جهنم معناه تأبيد العذاب .

(أما المؤمنون)[1] فيأتى عليهم طول الأيام والأعمال فلا يزدادون إلا محبة (على محبة)[2] ولذلك قال : والذين آمنوا أشدُّ حبًا لله .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كَرَّةً
فنتبرأ منهم كما تبرأوا منَّا كذلك
يريهم الله أعمالهم حسراتٍ عليهم
وماهم بخارجين مِنَ النار ﴾ .

عند[3] ذلك يعرفون مرارة طعم صحبة المخلوقين ولكن لا يحصلون إلا على حسرات .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الناس كُلُوا مما فى الأرض
حلالاً طيبًا ولا تتبعوا خطوات
الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾.

الحرام — وإنْ اسْتُلِذَّ فى الحال — فهو وبِىء فى المآل ، والحلال — وإن اِسْتُكْرِه فى الحال — فهو مرىء فى المآل .

والحلال الصافى ما لم ينسَ مُكْتَسِبُه الحقَّ فى حال اكتسابه[4] .

ويقال الحلال ما حصله الجامع له والمكتسب على شهود الحق فى كل حال .

وكلُّ ما يحملك على نسيان الحق أو عصيان الحق فهو من خطوات الشيطان .

قوله جل ذكره : ﴿ إنما يأمركم بالسوءِ والفحشاءِ وأن تقولوا
على الله مالا تعلمون ﴾ .

لاجترائه على الله يدعوك به إلى افترائك على الله .

---

(١) أضفناها ليستقيم السياق إذ يبدو أنها سقطت اثناء النسخ .
(٢) فى الهامش مستدركة وعليها علامة بموضعها .
(٣) وردت (عن) والأصح (عند) .
(٤) القشيرى هنا مستفيد من تعريف سهل بن عبد الله التُّسْتَرى للحلال الصافى (الرسالة ص ٥٩) .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا
بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أوَ لَوْ كان
آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون ﴾.

لا ترفع أبصارهم عن أشكالهم وأصنافهم ، من أضرابهم وأسلافهم ، فَبَنَوْا على منهاجهم ، فلا جَرَمَ انخرطوا فى النار ، وانسلكوا فى سلكهم ، ولو عَلِمُوا أن أسلافهم لا عقل يردعهم ، ولا رشد يجمعهم لنابذوهم مناصبين ، وعاندوهم مخالفين ، ولكن سلبوا أنوار البصيرة ، وحُرِموا دلائل اليقين .

قوله جل ذكره : ﴿ ومثل الذين كفروا كَمَثَلَ الذى
ينْعِقُ بما لا يسمع إلا دُعاءً ونداء صُمٌّ
بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَعقِلون ﴾ .

عدموا سمع الفهم والقبول ، فلم ينفعهم سمع الظاهر ، فنزلوا منزلة البهائم فى الخلوِّ عن التحصيل ، وَمَنْ رضى أن يكون كالبهيمة لم يقع عليه كثير قيمة .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا كلوا من طيبات
ما رزقناكم واشكروا لله إنْ كنتم
إياه تَعبُدُون ﴾ .

الحلال ما لا تَبِعَةَ عليه ، والطيب الذى ليس لمخلوقٍ فيه مِنَّة ، وإذا وجد العبد (طعا) ما يجتمع فيه الوصفان فهو الحلال الطيب .

وحقيقة الشكر عليه ألا تتنفس فى غير رضاء الحق ما دام تبقى فيك القوة لذلك الطعام .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّما حَرَّم عليكم المَيْتَةَ والدَّمَ ولَحْمَ
الخنزيرِ وما أُهِلَّ به لغيرِ الله ،
فمَنْ اضطُرَّ غيرَ باغٍ ولا عادٍ فلا إثْمَ
عليه إن الله غفورٌ رحيم ﴾ .

حرَّم على الظواهر هذه المعدودات وهى ما أهل به لغير الله ، وحرَّم على السرائر صحبة غير الله بل شهود غير الله ، فمن اضطر — أى لم يجد إلى الاستهلاك فى حقائق الحق وصولاً — فلا يَسْلُكَنَّ غير سبيل الشرع سبيلاً ، فإما أن يكون محواً فى الله ، أو يكون قائماً بالله ، أو عاملاً لله ، والرابع همجٌ لا خَطَرَ له .

قوله جل ذكره : ﴿إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلا أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم﴾ .

العلماء مُطَالَبُون بنشر دلائل العلم ، والأولياء مأمورون بحفظ ودائع السِّر فإنْ كَتَم هؤلاء براهين العلوم أُلجِموا بلجام من النار ، وإن أظهر هؤلاء شظية من السر عُوجِلوا ببعاد الأسرار ، وسَلْبِ ما أوتوا[1] من الأنوار . ولكُلٍ حدٌ ، وعلى كل أمرٍ قطيعة .

قوله جل ذكره : ﴿أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهُدَى والعذابَ بالمغفرة فما أصبرهم على النار . ذلك بأنَّ الله نزَّل الكتاب بالحقِّ وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شِقَاقٍ بعيد﴾ .

إن الذين آثروا الغَيْرَ على الغيب ، والخلْقَ على الحقِّ ، والنَفْسَ على الأُنسِ ، ما أقسى قلوبهم ، وما أوقح محبوبهم ومطلوبهم ، وما أخسّ[2] قدرهم ، وما أفضح[3] لذوى الأبصار أمرهم ! ذلك بأن الله نَزَّل الكتاب بالحق ، وأمضى القضاء والحكم فيه بالصدق ، وأوصلهم إلى مَآلَهُ أَهَّلَهُمْ ، وأثبتَهُم على الوجه الذى عليه جَبَلَهُمْ .

---

(١) وردت (أتوا) والصواب (أوتوا) لتناسب المعنى .

(٢) وردت (أخص) والصواب أخس لتناسب المعنى .

(٣) وردت ما (أفصح) ونرجح أنها فى الأصل ما (افضح) .

قوله جل ذكره : ﴿ ليس البرَّ أن تولوا وجوهكم قِبَلَ المشرق والمغرب ولكنَّ البرَّ مَنْ آمَنَ بالله واليوم الآخِر والملائكةِ والكتابِ والنبيين وآتى المالَ على حُبِّه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيلِ والسائلين وفى الرِّقاب ، وأقام الصلاة وآتى الزكاة[1] والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدَقوا وأولئك هم المتقون ﴾ .

والإشارة أن الظواهِرَ ليس لها كثيرُ اعتبارٍ إنما الخبر عن الله عزيز .

وكثرة الأوراد — وإن جلَّت — لحرفة العجائز ، وإخلاص الطاعات — وإن عزَّ — فصفة العوام ، وَوَصْلُ الليل بالنهار فى وظائف كثيرة ومجاهدات غزيرة عظيم الخطر فى استحقاق الثواب ، ولكنَّ معرفة الحق عزيزة .

وما ذُكِر فى هذه الآية من فنون الإحسان ، ووجوه قضايا الإيمان ، وإيتاء المال ، وتصفية الأعمال ، وصلة الرحم ، والتمسك بفنون الذِّمم والعِصَم ، والوفاء بالعهود ، ومراعاة الحدود — عظيم الأثر ، كثير الخطر ، محبوب الحق شرعاً ، ومطلوبه أمراً لكِنَّ قيام الحق عنك بعد فنائك ، وامتحائك مِنْ شاهِدِك ، واستهلاكك فى وجود القِدَم ، وتعطل رسومك عن مساكنات إحساسك — أتمُّ وأعلى فى المعنى ؛ لأن التوحيد لا يُبقِى رسماً ولا أثراً ، ولا يغادر غَيْراً ولا غَبَراً[2] .

---

(١) اخطأ الناسخ فكتبها (وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة) .

(٢) الغير = السوى أما (الغَبَر) فمعروف .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا كُتِبَ عليكم القِصَاصُ فى القتلى الُحرُّ بالحرِّ والعَبْدِ بالعَبْدِ والأنثى بالأنثى فَمَنْ عُفِيَ له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ، ذلك تخفيف من ربِّكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم ﴾ .

حق القِصاص مشروع ، والعفو خير ، فمن جنح إلى استيفاء حقه فَمُسَلَّمٌ له ، ومن نزل عن ابتغاء حقه فمحسن ، فالأول صاحب عبادة بل عبودية ، والثانى صاحب فتوة بل حرية .

والدم المراق يجرى فيه القِصاص على لسان أهل العلم ، وأمَّا على لسان الإشارة لأهل القصة[1] فدماؤهم مطلولة وأرواحهم هدرة قال :

وإن فؤداً رعته لَكَ حامدٌ وإنَّ دماً أجريته بِكَ فاخرُ

وسفك دماء الأحباب (فوق)[2] بِساط[3] القرب خلوف أهل الوصال ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « اللونُ لونُ الدم والريحُ ريح المِسْك »

قوله جل ذكره : ﴿ ولكم فى القِصاص حياةٌ يا أولى الألباب لعلكم تتقون ﴾ .

فى استيفاءِ القصاص حياة لأنه إذا عَلِمَ أنه إذا قَتَلَ قُتِلَ أمْسَكَ عن القتل وفى ذلك حياة القاتل والمقتول .

ولكن ترك القصاص — على بيان الإشارة — فيه أعظم الحياة لأنه إذا تلِفَ فيه (سبحانه)

---

(١) أهل القصة م أرباب الأحوال .

(٢) وردت (فى) والأصوب فوق .

(٣) وردت (سباط) وقد رجحنا (بساط) القرب لورودها فى مواضع أخرى هكذا .

فهو الخَلَفُ عنه ، وحياته عنه أتم له من بقائه بنفسه . وإذا كان الوارثَ عنهم اللهُ والخَلَفَ عنهم اللهُ فبقاء الخلفِ[1] أعزُّ مِنْ حياةِ مَنْ ورد عليه التلف .

قوله جل ذكره : ﴿ كُتِبَ عليكم إذا حضرَ أحدَكم الموتُ إن ترَكَ خيراً الوصيةُ للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين ﴾ .

مَنْ تَركَ مالاً فالوصية له فى مالِه مُسْتَحبةٌ ، ومَنْ لم يترك شيئاً فأَنَّى بالوصية ! ! فى حالة الأغنياءِ يوصون فى آخر أعمارهم بالثلث ، أمّا الأولياء فيخرجون فى حياتهم عن الكُلِّ ، فلا تبقى منهم إلا همةٌ انفصلت عنهم ولم تتصل بشىءٍ ؛ لأن الحق لا سبيل للهمة إليه ، والهمة لا تعلَّقَ لها بمخلوق ، فبقيت وحيدة منفصلة غير متصلة ، وأنشدوا :

أحبكُمُ ما دمتُ حياً فإنْ أَمُتْ   يحبكم عظمى فى التراب رميم

هذه وصيتهم : وقال بعضهم :

(. . . . .)[2]

لا بل كما قال قائلهم :

وأتى الرسول فأخبر أنهم رحلوا قريباً
رجعوا إلى أوطانهم فجرى له دمعى صبيباً

قوله جل ذكره : ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بعدما سمِعَهُ فإنما إثمُهُ على الذين يُبَدِّلونه إن الله سميعٌ عليم ﴾ .

من حرّف نُطْقاً جرى بحقِّهِ لِحَقَهُ شؤمُ ذلك ووباله .

وعقوبته أن يُحرَم رائحة الصدق أن يشمه . فمن أعان الدينَ أعانه الله ، ومن أعان على الدين خذله الله .

---

(١) وردت (الخلق) والصواب (الخلف) .

(٢) هنا شاهد شعرى عجزنا تماماً عن قراءته أو إصلاحه ... وما أكثر خطأ الناسخ فى نقل شواهد الشعر ! !

قوله جل ذكره : ﴿ فَمَنْ خاف مِنْ مُوصٍ جَنَفاً أو إثماً فأصلح بينهم فلا إثمَ عليه إنَّ اللهَ غفورٌ رحيم ﴾ .

الإشارة فيه : أن من تَفَرَّسَ[1] فى بعض المريدين ضعفاً ، أو رأى فى بعض[2] أهل البداية رخاوةَ قصدٍ أو وجد بعض الناصحين يتكلم بالصدق المحض على من لم يحتمله — فرأى أن يرفق بذلك المريد بما يكون ترخيصاً له أو استمالة له أو مداراة أو رضا بتعاطى مباح — فلا بأسَ به فإن حَمْلَ الناس على الصدق المحض مما لم يثبت له كثيرُ أجر . فالرِّفق بأهل البداية — إذا لم يكن لهم صارم عزم ، ولا صادق جهد — ركنٌ فى ابتغاء الصلاح عظيم .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كُتِبَ عليكم الصيام كما كُتِبَ على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ .

الصوم على ضربين : صوم ظاهر وهو الإمساك عن المفطرات مصحوباً بالنية ، وصوم باطن وهو صَوْنُ القلب عن الآفات ، ثم صون الروح عن المساكنات ، ثم صون السِّرِّ عن الملاحظات .

ويقال صوم العابدين شرطه — حتى يَكْمُلَ — صونُ اللسان عن الغيبة ، وصون الطَرْف عن النظر بالريبة كما فى الخبر : (مَنْ صام فَلْيَصُمْ سمعه وبصره . . .) . . . الخبر[3] ، وأما صوم العارفين فهو حفظ السر عن شهود كل غيره .

وإن من أمسك عن المفطرات فنهاية صومه إذا هجم الليل ، ومن أمسك عن الأغيار فنهاية صومه أن يشهد الحق ، قال صلى الله عليه وسلم : « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته » : الهاء فى قوله

(١) وردت بالصاد وهى خطأ من الناسخ .

(٢) وردت (فى أهل بعض البداية) وواضح أنها خطأ من الناسخ .

(٣) (إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك ويدك : معناه من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة أن يدع طعامه وشرابه) .
رواه البخارى وأصحاب السنن عن أبى هريرة .

عليه السلام — لرؤيته — عائدة عند أهل التحقيق إلى الحق سبحانه ، فالعلماء يقولون معناه عندهم صوموا إذا رأيتم هلال رمضان وأفطروا لرؤية هلال شوال ، وأمّا الخواص فصومهم لله لأن شهودهم الله وفطرهم بالله وإقبالهم على الله والغالب عليهم الله ، والذى[1] هم به محو — الله .

قوله جل ذكره : ﴿ أياماً معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فَعِدَّةٌ من أيامٍ أُخَر ﴾ .

من شهد الشهر صام لله ، ومن شهد خالق الشهر صام بالله ، فالصوم لله يوجب المثوبة ، والصوم بالله يوجب القربة . الصوم لله تحقيق العبادة والصوم بالله تصحيح الإرادة . الصوم لله صفة كل عابد والصوم بالله نعت كل قاصد . الصوم لله قيام بالظواهر والصوم بالله قيام بالضمائر . الصوم لله إمساك من حيث عبادات الشريعة والصوم بالله إمساك بإشارات الحقيقة .

من شهد الشهر أمسك عن المفطرات ومن شهد الحق أمسك فى جميع أوقاته عن شهود المخلوقات .

من صام بنفسه سُقِىَ شرابَ السلسبيل والزنجبيل ، ومن صام بقلبه سُقِىَ شراب المحاب بنعمة الإيجاب .

ومن صام بسِرِّه فهم الذين قال فيهم الله تعالى : « وسقاهم ربهم شراباً طهوراً » .
شراب يا له من شراب ! ! شراب لا يُدار على الكف لكنه يبدو له من اللطف .
شراب استئناس لا شراب كاس .

قوله تعالى : « فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر » أى من أفطر لهذه الأعذار فعليه صوم عدة أيام بعدد ما أفطر قضاء لذلك . الإشارة لمن سقمت إرادته عن الصحة فيرجع إلى غيره إما لرخصة تأويل أو لقلة قوة واحتمال ، أو عجز للقيام بأعباء أحكام الحقيقة

(١) وردت (والذين) وهو خطأ من الناسخ .

فليُمْهَل حتى تقوى عزيمته وتشتد إرادته ، فعند ذلك يُسْتَدْرَك منه ما رُخِّص له بالأخذ بالتأويل ، وتلك سُنَّةُ الله سبحانه وتعالى فى التسهيل على أهل البداية ، ثم استيفاه ذلك منهم واجبٌ فى آخر الحال .

قوله جل ذكره : ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية[1]

. . . . طعام

مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له

وأن تصوموا خير لكم إن كنتم

تعلمون ﴾ .

الإشارة منه أنَّ مَنْ فيه بقية من القوة للوقوف لمطالبات الحقيقة ويرجع إلى تسهيل الشريعة وينحط إلى رخصة التأويل فعليه الغرامة بواجب الحال وهو الخروج عما بقى له من معلوم مال أو مرسوم حال ويبقى مجرداً للواحد .

[فصل] ويقال إنه لما علم أن التكليف يقتضى المشقة خففه عليك ذلك بأن قلَّل أيام الصوم فى قلبك فقال : « أياماً معدودات » أى مدة هذا الصوم أيام قليلة فلا يهولنكم سماع ذكره ، وهذا كقوله تعالى : وجاهدوا فى الله حق جهاده . ثم قال : « وما جعل عليكم فى الدين من حرج أى لا يلحقكم كثير مشقة فى القيام بحق جهاده .

قوله جل ذكره : ﴿ شهر رمضان الذى أُنزل فيه القرآن

هدىً للناس وبيِّنات من الهدى

والفرقان فمن شهد منكم الشهر

فليصمه ، ومن كان مريضاً أو على

سفرٍ فعِدَّةٌ من أيامٍ أُخر ﴾ .

رمضان يُرْمِضُ ذنوب قوم ويرمض رسوم قوم ، وشتان بين من تحرق ذنوبَه رحمته وبين من تحرِق رسومَه حقيقتُه .

---

(١) وقع الناسخ فى سهو حين أعاد ثلاثة أسطر مما سبق له أن كتبه ، ووقعت هذه الأسطر المعادة بين كلمتى (فدية ، وطعام) فى الآية الكريمة .

شهر رمضان شهر مفاتحة الخطاب ، شهر إنزال الكتاب ، شهر حصول الثواب ، شهر التقريب والإيجاب . شهر تخفيف الكلفة ، شهر تحقيق الزلفة . شهر نزول الرحمة ، شهر وفور النعمة . شهر النجاة ، شهر المناجاة .

قوله جل ذكره : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العُسر ﴾ .

أراد بك اليسر (وأنت تظن) أنه أراد بك العسر .

ومن أمارات أنه أراد بعبده اليسر أنه (أقامه)[1] بطلب اليسر ؛ ولو لم يُرِدْ به اليسر لَمَا جعله راغباً فى اليسر ، قال قائلهم :

لو لم تُرِدْ نَيْلَ ما أرجو وأطلبُه من فيضِ جودِك ما علمتنى الطلبا

حقّق الرجاء وأكّد الطمع وأوجب التحقيق حيث قال : « ولا يريد بكم العسر » لينفىَ عن حقيقة التخصيص مجوزاتِ الظنون .

قوله جل ذكره : ﴿ولتكملوا العِدَّة﴾ .

على لسان العلم تكملوا مدة الصوم .

وعلى لسان الإشارة لتقرنوا بصفاء الحال (وفاء)[2] (المآل)[3] .

ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون » فى النَّفَسِ الأخير ، وتخرجوا من مدة عمركم بسلامة إيمانكم . والتوفيق فى أن تكمل صوم شهرك عظيم لكن تحقيق أنه يختم عمرك بالسعادة — أعظم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ﴾

---

(١) جاءت (أقام) وقد جعلناها (أقامه) ليزداد وضوح المعنى .

(٢) جاءت (ووفاء) ونظن أن الواو الأولى زائدة من الناسخ .

(٣) جاءت (المال) وقد اعتاد الناسخ أن يكتب المال مثل المآل أى بدون علامة على المد ، وآثرنا هنا أن نضمها ، فالمقصود الإعداد لليوم الآخر بالطاعات والعبادات ، وغاية التمام أن تجمع بين الحقيقة والشريعة . هذا فضلا عن أن الإشارة للصوفية ، والصوفية قوم لا مال لهم .

سؤال كل أحدٍ يدلُّ على حاله ، لم يسألوا عن حكم ولا عن مخلوق ولا عن دين[1] ولا عن دنيا ولا عن عقبي بل سألوا عنه فقال تعالى : « وإذا سألك عبادى عنى » . وليس هؤلاء من جملة من قال : « ويسألونك عن الجبال » ، ولا من جملة من قال : « ويسألونك عن اليتامى » ، ولا من جملة من قال : « ويسألونك عن المحيض » ، ولا من جملة من قال : « ويسألونك عن الروح » ، ولا من جملة من قال : « ويسألونك عن الخمر والميسر » ، « ويسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه » .

هؤلاء قوم مخصوصون : « وإذا سألك[2] . . . . عبادى عنى » .

أى إذا سألك عبادى عنى فبماذا تجيبهم ؟ ليس هذا الجواب بلسانك يا محمد ، فأنت وإنْ كنتَ السفير بيننا وبين الخلْق فهذا الجواب أنا أتولاه « فإنى قريب » (رَفَعَ الواسطة من الأغيار عن القربة فلم يَقُل قل لهم إنى قريب بل قال جل شأنه : فإنى قريب)[3] .

ثم بَيَّن أن تلك القربة ما هى : حيث تقدَّس الحقُّ سبحانه عن كل اقتراب بجهة أو ابتعاد بجهة أو اختصاص ببقعة فقال : « أجيب دعوة الداعى » وإن الحق سبحانه قريب — من الجملة والكافة — بالعلم والقدرة والسماع والرؤية ، وهو قريب من المؤمنين على وجه التبرية والنصرة وإجابة الدعوة ، وجلَّ وتقدَّس عن أن يكون قريباً من أحد بالذات والبقعة ؛ فإنه أحدىٌّ لا يتجه فى الأقطار ، وعزيز لا يتصف بالكُنْهِ والمقدار .

قوله جل ذكره : ﴿ أجيب دعوة الداعِ إذا دعانِ فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يَرْشُدون ﴾ .

لم يَعِدْ إجابة من كان باستحقاق زهد أو فى زمان عبادة بل قال دعوة الداعى متى دعانى وكيفما دعانى وحينما دعانى ثم قال : « فليستجيبوا لى » هذا تكليف ، وقوله : « أجيب دعوة

---

(١) تكررت كلمة (دنيا) مرتين فرجحنا أن تكون الأولى (دين) وتركنا الثانية (دنيا) لتتقابل مع (عقبى) .

(٢) وضع الناسخ علامة تشعر بوجود كلمات زائدة بين (سألك) ... (وعبادى) فحذفنا الزائدة .

(٣) ما بين القوسين تكملة من الهامش استدركها الناسخ فوضعناها فى موضعها .

الداعى » تعريف وتخفيف، قدَّم التخفيف على التكليف، وكأنه قال : إذا دعوتنى - عبدى - أجبْتُك ، فأَجِبْنى أيضاً إذا دَعَوْتُك ، أنا لا أرضى بِرَدِّ دعائِك فلا تَرْضَ — عبدى — بردِّى من نفسك . إجابتى لك بالخير تحملك — عبدى — على دعائى ، ولا دعاؤك يحملنى على إجابتك . « فليستجيبوا لى ، وليؤمنوا بى » : وليثقوا فى ، فإنى أجيب من دعانى ، قال قائلهم :

يا عزّ أُقْسِم بالذى أنا عبده ... وله الحجيج وما حوت عرفات[1]

لا أبتغى بدلا سِواكِ خليلة ... فثِقى بقولى والكرامُ ثِقات

ثم قال فى آخر الآية : « لعلهم يرشدون » أى ليس القصد من تكاليفك ودعائك إلا وصولك إلى إرشادك .

قوله جل ذكره : ﴿أُحِلَّ لكم ليلة الصيام الرَّفَثُ إلى نسائكم هُنَّ لِباس لكم وأنتم لِباسٌ لهن ، علم الله أنكم كنتم تختانون أنفُسَكم فتاب عليكم وعفا عنكم ، فالآن باشِروهن ، وابتغوا ما كتب الله لكم ، وكلوا واشربوا حتى يتبيَّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود مِنَ الفَجر ثم أَتِمُّوا الصيام إلى الليل﴾ .

أخبر أنه — فى الحقيقة — لا يعود إليه عائد من أوصاف الخَلْق ؛ إنْ كُنتَ فى العبادة التى هى حق الحق أو فى أحكام العادة من صحبة جِنْسِك التى هى غاية النفس والحظ ، فَسِيَّان فى حالك إذا أُورد فيه الإذن .

---

(١) جاءت (عرفان) وهى خطأ فى النسخ .

نزلت الآية فى زَلّةٍ بَدَرَتْ من الفاروق[1] ، فَجَعَلَ ذلك سببَ رُخْصَةٍ لجميع[2] المسلمين إلى القيامة . وهكذا أحكام العناية .

ويقال علم أنه لا بُدَّ للعبد عن الحظوظ فقسم الليل والنهار فى هذا الشهر بين حقه وحظِّك ، فقال أما حقى « فأتموا الصيام إلى الليل » ، وأما حظك « فكلوا واشربوا حتى يتبيَّن لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر » .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تُباشِروهن وأنتم عاكفون
فى المساجد تلك حدود الله
فلا تقربوها ، كذلك يُبَيِّنُ الله
آياته للناسِ لَعلَّهم يتقون ﴾ .

أخبر أن محل القدرة مقدَّس عن اجتلاب الحظوظ ، وقال إذا كنتم مشاغيل بنفوسكم كنتم محجوبين بِكُم فيكم ، وإذا كنتم قائمين بنا فلا تعودوا منَّا إليكم .

ويقال غيرة الحق سبحانه على الأوقات أن يُمزَجَ الجدُّ بالهزلِ ، قالت عائشة رضى الله عنها : يا رسول الله إنى أحبك وأحب قربك فقال عليه السلام : ذرينى يا ابنة أبى بكر أتعبد ربى . وقال صلى الله عليه وسلم لى وقت لا يسعنى غير ربى[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل
وتُدْلُوا بها إلى الحُكَّام لتأكلوا
فريقاً من أموال الناس بالإثم
وأنتم تعلمون ﴾ .

---

(١) أى عمر بن الخطاب . قال هشام عن حصين بن عبد الرحمن عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال قام عمر ابن الخطاب رضى الله عنه فقال : يارسولَ الله إنى أردت أهلى البارحة على ما يريد الرجلُ أهله فقالت إنها قد نامت فظننتها تعتلّ فواقعتها فنزل فى عمر (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) وهكذا روى عن مجاهد وعطاء وعكرمة وقتادة (تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ١ ص ٢٢٠ ، ٢٢١ ط الحلبى) .

(٢) وردت (جميع) .

(٣) للحديث صورة أخرى « لى مع الله وقت لا يسعنى فيه شىء غير الله عز وجلّ » والمعنى صحيح ولكن سنده غير معروف .

إذا تحاكمتم إلى المخلوقين فاعلموا أن الله مطلع عليكم ، وعلمه محيط بكم ، فراقبوا موضع الاستحياء من الحق سبحانه ، ولئن كان المخلوقون[1] عالمين بالظوهر فالحق ـ سبحانه وتعالى ـ يتولى السرائر .

قوله جل ذكره : ﴿يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج﴾ .

الأهلة — جمعُ هلال — مواقيت للناس ؛ لأشغالهم ومحاسباتهم .

وهى مواقيت لأهل القصة فى تفاوت أحوالهم ؛ فللزاهدين مواقيت أورادهم ، وأما أقوام مخصوصون فهى لهم مواقيت لحالاتهم ، قال قائلهم .

أعد الليالى ليلةً بعد ليلةٍ وقد كنت قدما لا أعد اللياليا

وقال آخر :

ثمانٍ قد مضَيْنَ بِلا تلاقٍ وما فى الصبر فضل عن ثمانٍ

وقال آخر :

شهورٌ يَنْقَضين وما شعرنا بأنصافٍ لهن ولا سِرار[2]

قوله جل ذكره : ﴿ وليس البرُّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكنَّ البرَّ من اتقى وأْتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لكم تفلحون﴾ .

يعنى ليس البر مراعاة الأمور الظاهرة ، بل البر تصفية السرائر وتنقية الضمائر .

قوله جل ذكره : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين ﴾ .

لتكن نفوسُكم عندكم ودائعَ الحق ؛ إنْ أَمَرَ بإمساكها أمْسِكُوها وصونوها ، وإنْ أَمَرَ

(١) وردت (المخلوقين) وهى خطأ من الناسخ لأن اسم كان مرفوع بالواو .

(٢) سِرار النهر وسَراره (بالكسر والفتح) آخر ليلة فيه (الوسيط ص ٤٢٨) .

بتسليمها إلى القتل فلا تدَّخروها عن أمره ، وهذا معنى قوله : « ولا تَعْتَدُوا » وهو أن تقف حيثما أُوقِفْتَ ، وتفعل ما به أُمِرْتَ .

قوله جل ذكره : ﴿ واقتلوهم حيث ثَقِفْتُمُوهم ﴾

يعنى عليكم بنصب العداوة مع أعدائى — كما أن عليكم إثبات الولاية والموالاة مع أوليائى — فلا تُشْفِقُوا[1] عليهم وإن كان بينكم واصد[2] الرحم ووشائج القرابة .

« وأخرجوهم من حيث أخرجوكم » : أولاً أَخْرِجوا حبَّهم وموالاتهم من قلوبكم ، ثم (. . . .)[3] عن أوطان الإسلام ليكون الصغار جارياً عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ والفتنةُ أشدُّ من القتل ﴾

والإشارة : أنَّ المحنةَ التى تَرِدُ على القلوب من طوارق الحجب أشد من المحنة التى تَرِدُ على النفوس مِنْ بذل الروح ، لأن فوات حياة القلب أشد من فوات حياة النَّفْس ، إذ النفوس حياتها بمألوفاتها ، ولكن حياة القلب لا تكون إلا بالله .

ويقال الفتنة أشد من القتل : أن[4] تنأى عن الله أعظم من أن تنأى عن روحك وحياتك .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام
حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم
كذلك جزاء الكافرين ﴾

الإشارة منه : لا تشوش وقتك[5] مع الله إذا كان بوصف الصفات بما تدخله على نفسك .

---

(١) ووردت (فلا تشقوا) والمعنى والسياق يرفضانها رفضاً قاطعاً وقد صوبناها بما يتلاءم .
(٢) الواصد والآصد = العهد . مثل الورث والإرث والوحد والأحد وربما كانت أواصر .
(٣) مشتبهة فى ص وربما كانت : ثم (أخرجوهم) .
(٤) وردت (تنقى) والمعنى والسياق يرفضانها رفضاً قاطعاً وقد صوبناها بما يتلاءم .
(٥) قال الدقاق ـ شيخ القشيرى ـ فى تعريف الوقت : الوقت ما أنت فيه فإن كنت بالدنيا فوقتك الدنيا ، وإن كنت بالعقبى فوقتك العقبى ، وإن كنت بالسرور فوقتك السرور ، وإن كنت بالحزن فوقتك الحزن .
ويعلِّق القشيرى على رأى أستاذه قائلا : يريد بهذا أن الوقت ما كان هو الغالب على الإنسان . ويقولون الصوفي ابن وقته يريدون بذلك أنه مشتغل بما هو أَوْلى به فى الحال ، قائم بما هو مُطالبٌ به فى الحين . وينبغى ألا يفرط العبد فيما يقتضيه حق الشرع .

وإنْ كانت نوافل من الطاعات ، فإن زاحمك مزاحم يشغلك عن الله فاقطع مادة ذلك عن نفسك بكل ما أمكنك لئلا تبقى لك علاقة تصدك[1] عن الله .

قوله جل ذكره : ﴿فإِنْ انْتَهَوْا فإِنَّ اللهَ غفورٌ رحيمٌ﴾

الإشارة منه : إذا انقطعت عنك غاغة خواطرك وأعداء نفسك ، مما يخرجك عنه ويزاحمك ، فَلُمْ حديثَ النفس ودَعْ مجاهداتها ؛ فَإِنَّ مَنْ طولب بحفظ الأسرار لا يتفرغ إلى مجاهدات النفوس بفنون المخالفات[2] .

قوله جل ذكره : ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدِّينُ لله ، فإن انتهوْا فلا عُدْوَانَ إلا على الظالمين﴾ .

الإشارة من الآية إلى مجاهدات النفوس ؛ فإنَّ أعدى عدوِّك نَفْسُك التي بين جنبيك . أي استوفِ أحكام الرياضات حتى لا يبقى للآثار البشرية شيء ، وتُسلِم النَّفْسَ والقلبَ لله ، فلا يكون مُعارِض ولا مُنازِعٌ منك لا بالتوقي ولا بالتلقي ، لا بالتدبير ولا بالاختيار — بحالٍ من الأحوال ؛ تجرى عليك صروفه[3] كما يريد ، وتكون[4] محواً عن الاختيارات ، بخلاف ما يرد به الحكم ، فاذا استسلمت النفس فلا عدوان إلا على أرباب التقصير ، فأمّا من قام بحق الأمر تقصى عن عهدة الإلزام .

قوله جل ذكره : ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قِصاصٌ . فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾

---

(١) وردت (تصدق) والمعنى والسياق يرفضانها رفضاً قاطعاً وقد صوبناها بما يتلاءم .

(٢) يريد القشيري بهذه الفقرة أن تنزل على حكم المرحلة التى وصلت إليها ، فإذا اجتاز بك فضل الله مرحلة جهادك مع نفسك إلى ما فوقها فلا تشغلنّ وقتك إلا بما صرت عليه ، بمعنى أن تنزل على حكم الوقت.

(٣) وردت (حروفه) والصواب صروفه ، وقد جاء فى الرسالة هذا الشاهد :

تجرى عليك صروفه   وهموم سرك مطرقة   (الرسالة ص ٦٣)

(٤) وردت (يكون) وهى خطأ من الناسخ .

الإشارة فيه : إذا تقابل حقان كلاهما لله فَسَلِّم الوقت بحكم الوقت ، ودُل مع إشارات الوقت ، وإياك أن ترجح أحدهما على الآخر بمالَكَ من حظ — وإنْ قَلَّ — فتُحجَبَ عن شهود الحق ، وتَعْمَى بصيرةُ قلبك . وكلُّ ما كان إلى خلاف هواكَ أقرب ، وعن استحلائِكَ وسكونك إليه أبعد — كان ذلك فى نفسه أصوبَ .

« واعلموا أن الله مع المتقين » : الذين اتقوا إيثار هواهم على ما فيه رضاه ، فإذا قاموا لله — فيما يأتون — لا لَهُم فإن الله تعالى بالنصرة معهم ، قال تعالى : « إن تنصروا الله ينصركم »

قوله جل ذكره : ﴿ وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين ﴾

إنفاق الأغنياء من أموالهم ، وإنفاق العابدين بنفوسهم لا يدخرونها عن العبادات والوظائف ، وإنفاق العارفين بقلوبهم لا يدخرونها عن أحكامه ، وإنفاق المحبين بأرواحهم لا يدخرونها عن حُبِّه .

إنفاق الأغنياء من النِّعَم وإنفاق الفقراء من الهِمَم .

إنفاق الأغنياء إخراج المال من الكيس ، وإنفاق الفقراء إخراج الروح عن أنفس النفيس ، وإنفاق الموحِّدين إخراج الخَلْق من السِّر .

قوله تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » الإشارة فيه إلى إمساك يدك عن البذل ؛ فمن أمسك يده وادَّخر شيئاً لنفسه فقد ألقى بيده إلى التهلكة . ويقال : إلى إيثار هواك على رضاه .

ويقال « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » أى الغفلة عنه بالاختيار .

ويقال تَوَهُّمُ أنك تعيش من دون لطفه وإقباله لَحْظَةً .

ويقال الرضا بما أنت فيه من الفترة والحجاب .

ويقال إمساك اللسان عن دوام الاستغاثة فى كل نَفَس .

قوله تعالى : « وأَحْسِنوا إن الله يحب المحسنين » الإحسان أن ترفق مع كل أحد

إلا معك ؛ فإحسانُك إلى نفسك فى صورةٍ إساءتُك إليها فى ظن الاعتماد ، وذلك لارتكابك كل شديدة ، ومقاساتك فيه كل عظيمة . والإحسان أيضاً ترك جميع حظوظك من غير بقية ، والإحسان أيضاً تفرغك الى قضاء حق كل أحد علّق عليك حديثه . والإحسان أن تعبده على غير غفلة . والإحسان أن تعبده وأنت بوصف المشاهدة .

قوله جل ذكره : ﴿ وأَتِمُّوا الحَجَّ والعُمْرَةَ لله ﴾

إتمام الحج على لسان العلم القيام بأركانه وسننه وهيئته ، وإراقة الدماء التى تجب فيها (دون) التقصير فى بعض أحوالها .

وفى التفسير أن تحرم بهما من دويرة أهلك[1] .

وعلى لسان الإشارة الحج هو القَصْد ؛ فقَصْدٌ إلى بيت الحق وقصد إلى الحق ، فالأول حج العوام والثانى حج الخواص .

وكما أن الذى يحج بنفسه يُحْرِمُ ويَقِفُ ثم يطوف بالبيت ويسعى ثم يحلق ، فكذلك من يحج بقلبه ؛ فإحرامه بعقد صحيح على قصد صريح ، ثم يتجرد عن لباس مخالفاته وشهواته ، ثم باشتماله بثوبى صبره وفقره ، وإمساكه عن متابعة حظوظه من اتباع الهوى ، وإطلاق خواطر المنى ، وما فى هذا المعنى . ثم الحاج أشعث أغبر تظهر عليه آثار الخشوع والخضوع ، ثم تلبية الأسرار باستجابة كل جزء منك .

وأفضل الحج الشَّجُّ والعجّ ؛ الشَّجُّ صَبُّ الدَّم والعجُّ رفع الصوت بالتلبية ، فكذلك سفك دم النفس بسكاكين الخلاف[2] ، ورفع أصوات السِّر بدوام الاستغاثة ، وحسن الاستجابة ثم الوقوف بساحات القربة باستكمال أوصاف الهيبة . وموقف النفوس عَرَفَات وموقف

---

(١) قال شعبة عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن سلمة عن على أنه قال فى هذه الآية (وأتموا الحج والعمرة لله) قال أن تحرم من دويرة أهلك ، وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير وطاوس .
(تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ١ ص ٢٣٠ ط الحلبى) .

(٢) الخلاف هنا معناها (المخالفة) أى مخالفة النفس وأهوائها .

القلوب الأسامى والصفات لِعزِّ الذات (عند)[1] المواصلات . ثم طواف القلوب حول (مشاهدة)[2] العز ، والسعى بالأسرار بين صَفَىِّ كشف الجلال ولطف الجمال .

ثم التحلل بقطع أسباب الرغائب والاختيارات ، والمنى والمعارضات . . بكل وجه .

قوله جل ذكره : ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾

الحصر بأمرين بعدو أو مرض .

والإشارة فيه إنْ استولى عدو النفس فلم تجد بداً من الإناخة بعقوة الرُّخَص وتأويلات العلم فعند ذلك تتحلل بموجب العذر والاضطرار إذ لا مزاحمة مع الحُكْم . « والهَدْيِ » الذى يهدى به عند التحلل بالعذر ، والخروج عن المعلوم ، وتسليمه للفقراء ، وانتظار أن يزول الحصر فيستأنف الأمر . وإن مَرِضَتْ الواردات وسَقِمتْ القصود وآل الأمرُ إلى التكليف فليجتهد ألا ينصرف كما أنه فى الحج الظاهر يجتهد بألا ينصرف لكل مرض أو إن احتاج إلى اللبس والحلق وغير ذلك — بشرط الفدية .

ثم إن عجز ، اشترط أن محله حيث حسبه فكذلك يقوم ويقعد فى أوصاف القصد وأحكام الإرادة ، فإن رجع — والعياذ بالله — لم يُقابَلْ إلا بالردِّ والصد ، وقيل :

فلا عن قِلىً كان التقرب بيننا ولكنه دهر يُشِتُّ ويجمع

وقال الآخر :

ولستُ — وإنْ أحببتُ مَنْ يَسْكُن الفضا . بأولِّ راجٍ حاجة لا ينالها

قوله جل ذكره : ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ .

---

(١) وردت (عن) فى ص ، والأسامى والصفات مقصود بها أسماء الله الحسنى وصفاته .

(٢) نرجح أنها فى الأصل (مشاهد) جمع مشهد لتناظر (مشاهد) الحج .

يبذل ما أمكنه ، ويخرج عن جميع ما يملكه ، وعليه آثار الحسرة ، واستشعار أحزان الحجبة .

فمن كان منكم مريضاً . . . الخ : الإشارة منه أن يبتهل ويجتهد بالطواف على الأولياء ، والخدمة للفقراء ، والتقرب بما أمكنه من وجود الاحتيال والدعاء .

قوله جل ذكره : ﴿ فإذا أَمِنتُم فَمَنْ تَمَتَّعَ بالعُمْرَة
إلى الحج فما استيسر من الهَدْى ،
فمن لم يجِدْ فصيام ثلاثة أيام فى الحج
وسبعةٍ إذا رَجَعْتم ، تلك عَشَرَةٌ
كاملة ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى
المسجد الحرام . واتقوا الله واعلموا
أن الله شديد العقاب ﴾ .

فاذا تجلت أقمار القصود عن كشوف التعزز ، وانجلت غيابة الحجبة عن شموس الوصلة وأشرق نور الإقبال فى تضاعيف أيام الوقفة ، فليستأنِف للوصلة وقتاً ، وليفرش للقربة بساطاً ، وليجدد للقيام بحق السرور نشاطاً ، وليَقُلْ : حَيٌّ على البهجة ! فقد مضت أيام المحنة .

وليُكْمِل الحج والعمرة ، وَلْيَسْتَدِم القيام بأحكام الصحبة والخدمة .

« واعلموا أن الله شديد العقاب » بالحجاب لمن لم يُرِه أَهِلَّة الوصلة والاقتراب .

قوله جل ذكره : ﴿ الحجُّ أشْهُرٌ معلومات ﴾ .

كما أن الحج بالنفوس أشْهُرٌ معلومات لا ينعقد الإحرام به إلا فيها ، ولا يجوز فعل الحج فى جميع السَّنَةِ إلا فى وقت مخصوص ، من فاته ذلك الوقت فاته الحج — فكذلك حج القلوب له أوقات معلومة لا يصح إلا فيها ، وهى أيام الشباب ؛ فمن لم تكن له إرادة فى حال شبابه فليست له وصلة فى حال مشيبه ، وكذلك من فاته وقت قصده وحال إرادته فلا يصلح إلا للعبادة التى آخرها الجنة ، فأما الإرادة التى آخرها الوصلة . . فلا .

قوله جل ذكره : ﴿ فمَنْ فَرَضَ فيهن الحج فلا رَفَث
ولا فُسُوق ولا جِدالَ فى الحج ﴾ .

كذلك الإشارة لمن سلك طريق الإرادة ألا يُعرِّج على شيء فى الطريق ، ولا يمزج إرادته بشيء . فمن نازَعه أو عارَضَهُ أو زاحمه — سَلَّم الكل للكل ، فلا لأجل الدنيا مع أحدٍ يخاصم ، ولا لشيء من حظوظ النَّفْس والجاه مع أحد يزاحم ، قال تعالى : « وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما » .

قوله جل ذكره : ﴿ وَما تَفْعلوا مِنْ خيرٍ يَعْلَمْهُ الله ﴾ .

تكتفى بِعِلْمِهِ وحُكْمِهِ عن شهود خَلْقِهِ وحُكْمِ خلقه وعلم خلقه .

قوله جل ذكره : ﴿ وتزودوا فان خيرًا لزاد التقوى
واتقونِ يا أولى الألباب ﴾ .

تقوى العامة مُجانبة الزلات ، وتقوى الخواص مجانبة الأغيار بالسرائر .

قوله جل ذكره : ﴿ ليس عليكم جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغوا
فَضْلاً مِنْ ربِّكم ﴾ .

الإشارة فيه أن ما تبتغى من فضل الله مما يُعينك على قضاءِ حقِّه ، ويكون فيه نصيب للمسلمين أو قوة للدين — فهو محمود . وما تطلبه لاستيفاء حظك أو لما فيه نصيب لنفسك — فهو معلول .

قوله جل ذكره : ﴿ فإذا أَفَضْتُم من عَرَفَات فاذكروا
الله عِنْدَ المشعر الحرام واذكروه
كما هداكم وإنْ كنتم من قبله
لِمنَ الضالين ﴾ .

الإشارة فيه إذا وقفت حتى قمت بحق طلبه فاذكر فضله معك ، فلولا أنه أَرَادَكَ لما أَرَدْتَه ، ولولا أنه اختارك لما آثرتَ رضاه .

قوله جل ذكره : ﴿ ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس
واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾

الإشارة فيه ألا تعلم نفسك بما تمتاز عن أشكالك فى الظاهر ، لا بلبسة ولا بخرقة ولا بصفة ،

بل تكون كواحد من الناس ، وإذا خطر ببالك أنك فعلت شيئاً ، أو بك أو لك أو معك شيء فاستغفرْ اللّهَ ، وجَدِّدْ إيمانك فإنه شِرْكٌ خَفِيٌّ خامَرَ قلبَك.

قوله جل ذكره : ﴿ فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كَذِكرِكم آباءكم أو أشدَّ ذِكْرا ﴾

« قضيتم مناسككم » إشارة إلى القيام بحق العبودية .

« فاذكروا الله كذكركم آباءكم » إشارة إلى القيام بحق المحبة .

قضاء المناسك قيامٌ بالنفس .

« فاذكروا الله كذكركم آباءكم » قيامٌ له بالقلب على استدامة الوقت واستغراق العمر .

ويقال كما أنَّ الأغيار يفتخرون بآبائهم ، ويستبشرون بأسلافهم فَلْيَكُنْ افتخاركم بنا واستبشاركم بنا .

ويقال إن كان لآبائكم عليكم حقُّ التربية فحقُّنا عليكم أوجب ، وأفضالنا عليكم أتم .

ويقال إن كان لأسلافكم مآثر ومناقب[1] ، فاستحقاقنا لنعوت الجلال فوق ما لآبائكم من حسن الحال .

ويقال إنك لا تملُّ ذكر أبيك ولا تنساه على غالب أحوالك ، فاستَدِمْ ذِكرنا ، ولا تَعْتَرِضَنَّك ملالة أو سآمة[2] أو نسيان .

ويقال إنْ طَعَنَ في نَسَبِكَ طاعِنٌ لم ترضَ فكذلك ما تسمع من أقاويل أهل الضلال والبِدَعِ فَذُبَّ عنَّا .

ويقال الأَبُ يُذكَرُ بالحرمة والحشمة فكذلك اذكرنا بالهيبة مع ذكر لطيف القربة بحسن التربية .

وقال « كذكركم آباءكم » ولم يقل أمهاتكم لأن الأب يُذكَر احتراماً والأم تُذكَر شفقةً عليها ، والله يَرْحَمُ ولا يُرْحَمُ .

---

(١) وردت (مناقب) وهي خطأ في النسخ .
(٢) وردت (مسامة) وهي خطأ في النسخ .

« أو أشد ذكرا » لأن الحقَّ أحقُّ ، ولأنك قد تستوحش كثيراً عن أبيك ، والحقُّ سبحانه مُنَزَّهٌ عن أن يخطر ببال من يعرفه أنه بخلاف ما يقتضى الواجب حتى إن كان ذرة .
وقوله « كذكركم آباءكم » الأب على ما يستحقه والرب على ما يستحقه .

قوله جل ذكره : ﴿ فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا[1] وَمَا لَهُ فِى الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ .

خطاب لو قاله مخلوقٌ لَكَ كان شاكراً[2] ، ولو أنه شكامنك كما شكا إليك لساءت الحالة ، ولكن بفضله أَحَلَّكَ محل أن يشكو إليك فقال : مِنَ الناس من لا يجنح قلبه إلينا ، ويرضى بدوننا عنًّا ، فلا يبصر غير نفسه وحظِّه ، ولا يمكن إيمان له بربه وحقِّه .

قوله جل ذكره : ﴿ ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ﴾ .

إنما أراد بها حسنة تنتظم بوجودها جميع الحسنات ، والحسنةُ التى بها تحصل جميع الحسنات فى الدنيا — حفظُ الإيمان عليهم فى المآل ؛ فإنَّ مَنْ خرج من الدنيا مؤمنا لا يخلد فى النار ، وبفوات هذا لا يحصل شىء . والحسنة التى تنتظم بها حسنات الآخرة — المغفرة ، فإذا غفر فبعدها ليس إلا كل خير .

ويقال الحسنة فى الدنيا العزوف عنها ، والحسنة فى الآخرة الصون عن مساكنتها .
والوقاية من النار ونيران الفُرقه إذ اللام فى قوله « النار » لام جنس فتحصل الاستعاذة عن نيران الحرقة ونيران الفرقة جميعاً .

ويقال الحسنة فى الدنيا شهود بالأسرار وفى الآخرة رؤية بالأبصار .

ويقال حسنة الدنيا ألا يُغنيك عنك وحسنة الآخرة ألا يردك إليك .

---

(١) التبس على الناسخ نقل هذه الآية بالآية التى تليها فوضع هنا (حسنة) وهى زائدة .
(٢) نرجح أنها (شاكيا) فى الأصل .

ويقال حسنةُ الدنيا توفيق الخدمة وحسنة الآخرة تحقيق الوصلة .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك لهم نصيب مما كسبوا ﴾ .

إن كان خيراً فخير وإن كان غيراً فغير . « والله سريعُ الحساب » للعوام فى الفرصة ، وللخواص فى كل نَفَس .

ويقال ذكر فريقين : منهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا ، والثانى يقول فى الدنيا والعقبى ، وثالث لم يذكرهم وهم الراضون بقضائه ، المستسلمون لأمره ، الساكنون عن كل دعاء واقتضاء .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكروا الله فى أيامٍ معدوداتٍ
فَمَنْ تَعَجَّلَ فى يومين فلا إثمَ عليه ،
ومَنْ تأخَّر فلا إثمَ عليه لِمَنْ اتَّقَى ،
واتقوا الله ، واعلموا أنكم إليه
تُحشَرون ﴾ .

هذه صفة أواخر النسك ، وهو الرمى فى أيام مِنىً لما قدموا بأركان الحج خَفَّفَ عنهم بأن خَيَّرهم فى المقام والإفاضة والتعجيل فى التفريق .

والإشارة منه أنَّ مَنْ خمدت نفسُه ، وحَيِيَ قلبُه ، واستدام بحقائق الشهود (سِرُّه)[1] — فإنْ سَقَطَ عنه شىء من فروع الأوراد ففيما هو له مستديمٌ من آداب الحضور عِوَضٌ عن الذى يفوت .

قوله جل ذكره : ﴿ ومِنَ الناسِ مَنْ يعجبك قوله
فى الحياة الدنيا ويُشْهِدُ اللهَ على
ما فى قلبه وهو ألَدُّ الخصام ﴾ .

أخبر أن قوماً أعرض الحق سبحانه وتعالى عن قلوبهم فأعطاهم فى الظاهر بَسْطَةً فى اللسان ولكن ربط على قلوبهم أسباب الحرمان ؛ فَهُمْ فى غطاء جهلهم ، ليس وراءهم معنىً ، ولا على قولهم اعتمادٌ ، ولا على إيمانهم اتِّكالٌ ، ولا بهم ثقةٌ بوجهٍ .

(١) نعلم من مذهب القشيرى أن حقائق الشهود متصلة بالسر ، وما دام قد ذكر النفس والقلب فقد وجدنا من الضرورى للتوضيح ذكر (سره) حيث نرجح أنها سقطت من الناسخ .

والإشارة إلى أهل الظاهر الذين لم تساعدهم أنوار البصيرة فهم مربوطون بأحكام الظاهر ؛ لا لهم بهذا الحديث إيمان ، ولا بهذه الجملة استبصار ، فالواجبُ صونُ الأسرار عنهم فإنهم لا يقابلون هذا الحديث إلا بالإنكار[1] ، وإن أهل الوداعة[2] من العوام الذين فى قلوبهم تعظيم لهذه الطريقة ، ولهم إيمان على الجملة بهذا الحديث لأقرب إلى هذه الطريقة من كثيرٍ ممن عدَّ نفسه من الخواص وهو بمعزل عن الإيمان بهذا الأمر .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا تولَّى سعى فى الأرْض ليُفْسِدَ فيها ويُهلِك الحَرْثَ والنَّسْلَ والله لا يحب الفساد ﴾ .

الإشارة لِمَنْ سَعْيُه مقصورٌ على استجلاب حظوظه ، فهو لا يبالى بما يَنْحَلُّ من عُرى الدين، ويهى من أسباب الإسلام ، بعدما تَشتد حبال دنياهم ، وتنتظم أسباب مناهم ، من حرامٍ جمعوه ، وحُطامٍ حَصَّلوه . فإذا خَلَوْا لوساوسهم وقصودهم الردية سَعَوْا بالفساد بأحكام أسباب الدنيا ، واستمالهم مَنْ يستعينون بهم فى تمشية أمورهم مِنَ القوم الذين نزع الله البصيرة من قلوبهم .

« والله لايحب الفساد » : ما كان فيه خراب الأمور الدينية ونظام الأحوال الدنيوية فهو الفساد الظاهر .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا قِيل له اتقِ اللهَ أخذَتْهُ العِـزَّةُ بالإثمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ المِهَادُ ﴾ .

هؤلاء أقوام استولى عليهم التكبُّر ، وزال عنهم خضوعُ الإنصاف ، فشَمَخَتْ آنافُهم عن قبول الحق فإذا أمرته بمعروف قال : ألمثلى يقال هذا ؟ !

---

(١) هنا نلاحظ أن القشيرى يرى عدم البوح بأسرار الطريقة وأن الكتمان خير ـ وهذا موقف هام فى مسألة على جانب عظيم من الخطورة .

(٢) وردت (الاوداعة) ونرجح أنها الوداعة لأنها أقرب إلى السياق .

وأنا كذا وكذا ؛ ثم يكبر عليك (. . .)[1] فيقول : وأنت أولى بأن تؤمر بالمعروف وتُنهى عن المنكر فإن من حالك وقصتك كذا وكذا .

أو لو ساعده التوفيق وأدركته الرحمة ، وتقلّد المنة بمن هداه إلى رؤية خطئه ، ونبهه على سوء[2] وصفه ، لم يطوِ على نصيحة جنبيه وتبقى فى القلب — إلى سنين — آثارها .

قال تعالى « فحسبه جهنم » يعنى ما هو فيه فى الحال من الوحشة وظلمات النفْس وضيق الاختيار حتى لا يسعى فى شىء غير مراده ، فيقع فى كل لحظة غير مرة فى العقوبة والمحنة ، ثم إنه منقول من هذا العذاب إلى العذاب الأكبر ، قال الله تعالى : « ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر .

قوله جل ذكره : ﴿ ومن الناسِ من يشرى نفسه ابتغاء مرضاةِ الله والله رءوف بالعبادِ ﴾ .

أولئك الذين أدركتهم خصائص الرحمة ، ونعتتهم سوابق القسمة ، فآثروا رضاء الحق على أنفسهم ، واستسلموا بالكلية لمولاهم ، والله رءوف بالعباد : ولرأفته بهم وصلوا إلى هذه الأحوال ، لا بهذه الأحوال استوجبوا رأفته .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ .

كلَّف المؤمنَ بأن يُسالِمَ كل أحدٍ إلا نفْسَه فإنها لا تتحرك إلا بمخالفة سيده ؛ فإن مَنْ سَالَم نَفْسَه فتَرَ عن مجاهداته ، وذلك سبب انقطاع كل قاصد ، وموجِبُ فترةِ كل مريد .

و « خطوات الشيطان » ما يوسوسه إليك من عجزك عن القيام باستيفاء أحكام المعاملة ، وتركِ نزعاتٍ لا عبْرة بها ، ولا ينبغى أن يُلتَفَتَ إليها ، بل كما قال الله تعالى : فإذا خِفْتِ عليه فألقيه فى الْيَمِّ » ثم أبْصِرْ ما الذى فعل به حين أَلقَتْه ، وكيف ردّه إليها بعدما نجَّاه.

---

(١) مشتبهة .

(٢) وردت (سواء) وهى خطأ فى النسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ فإنْ زللتم مِنْ بعدمَا جاءتْكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم ﴾

الزَّلةُ الواحدةُ بعد كشف البرهان أقبحُ من كثيرٍ منها قبل ذلك ، ومَنْ عُرِفَ فى الخيانة لا يُعْتَمد عليه فى الأمانة . ومحنة الأكابر[1] إذا حلَّت كان فيها استئصالهم بالكلية .

قوله جل ذكره : ﴿ هل ينظُرون إلا أنْ يأتيَهم الله فى ظُلَلٍ مِنَ الغَمامِ والملائكة ﴾ .

استبطأ القومُ قيامَ الساعةِ فأُخبروا عن شدة الأمر إذا قامت الساعة بتفصيل ما ذكر .

وتلك أفعال فى معنى الأحوال ، يظهرها الله سبحانه بما يزيل عنهم الإشكال فى علو شأنه سبحانه وتعالى ، ونفاذ قدرته فيما يريد . « وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور » أى انهتك ستر الغيب عن صريح التقدير السابق . ولقد استغنت قلوب الموحدين لما فيها من أنوار البصائر عن طلب التأويل لهذه الآية وأمثالها إذ الحق سبحانه مُنَزَّهٌ عن كل انتقال وزوال ، واختصاص بمكان أوزمان ، تقدس عن كل حركة وإتيان[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ سَلْ بنى إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة ومَنْ يُبَدِّلْ نعمة الله من بعدما جاءته فإن الله شديد العقاب ﴾

فائدة السؤال ليقرر عليهم بالسؤال الحجة ، لا ليُقرِر للرسول صلى الله عليه وسلم بسؤالهم ما أشكل عليهم من واضح المحبة .

« ومن يبدل نعمة الله من بعدما جاءته فإن الله شديد العقاب » بزوال تلك النعمة . وعند ذلك يعرفون قدرها ، ثم يَنْدُبُونها ولا يصلون إليها قط ، قال قائلهم :

ستهجرنى وتتركنى   فتطلبنى فلا تَجِدِ

---

(١) محنة الأكابر المقصود بها هنا زلات الأكابر ، وعقوبتها اشد ، وقد استدل القشيرى على ذلك فى موضع سابق بأن من ترتكب فاحشة من أمهات المسلمين يضاعف لها العذاب ضعفين .

(٢) إشارة إلى ما فى الآية الكريمة (يأتيهم الله) .

قوله جل ذكره : ﴿ زُيِّنَ للذين كفروا الحياةُ الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة ، والله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾ .

مكروا[1] فلم يشعروا ، وحملهم اشتداد الظلمة على بصائرهم على الوقيعة فى أوليائه سبحانه ، والسخرية منهم ، وحين تقشعت غواية الجهل عن قلوبهم (. . . . .)[2] علموا مَنْ الخاسر منهم مِن الذى كان فى ضلال بعيد .

قوله جل ذكره : ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحقِّ ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه منْ بعدما جاءتهم البينات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحقِّ بإذنه والله يهدى مَنْ يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ .

يعنى الغيبة عن الحق جمعتهم ، فلما أتتهم الرسل تباينوا على حسب مارُزقوا من أنوار البصيرة وحُرِموها . ويقال كانوا على ما سبق لهم من الاختيار القديم ، وبمجىء الرسل تهود قوم وتنَصَّر قوم ، ثم فى العاقبة يُرَدُّ كل واحد إلى ما سبق له من التقدير ، وإن الناس اجتمعوا كلهم فى علمه سبحانه ثم تفرَّقوا فى حكمه ، فقوم هداهم وقوم أغواهم ، وقوم حجبهم وقوم

---

(١) ربما كانت فى الأصل (مُكِر بهم) فلم يشعروا ، فالآية تقول (زُيِّن للذين ...) فهم لم يشعروا بأن تزيين الدنيا لهم مكر من الله والله خير الماكرين .

(٢) زائدة .

جذبهم ، وقوم ربطهم بالخذلان وقوم بسطهم بالإحسان ، فلا مِنْ المقبولين أمر مكتسب ، ولا لردّ المردودين سبب ، بل هو حُكْمٌ بُتٌّ وقضاء جُزِم .

قوله جل ذكره : ﴿ أم حسبتم أنْ تدخلوا الجنة
ولمَّا يأتِكم مَثَلُ الذين خَلَوْا مِنْ
قبلكم مَسَّتْهُم البأساء والضَّرَّاء
وزُلْزِلوا حتى يقول الرسول والذين
آمنوا معه متى نصر الله ألا إنَّ نصرَ
الله قريب ﴾ .

خلق الله الجنة وحفَّها بالمصاعب ، وخلق النار وحفَّها بالشهوات والرغائب ، فَمَنْ احتشم ركوب الأهوال بقى عن إدراك الآمال . ثم إن الحق سبحانه ابتلى الأولين بفنونٍ من مقاساة الشدائد ، وكلٌّ من أُلْحِقَ بهم من خلف الأولياء أدخلهم فى سِلْكِهم ، وأدرجهم فى غمارهم ، فمن ظنَّ غير ذلك فسَرَابٌ ظَنَّه ماءً ، وحكم لم يحصل على ما ظَنه تأويلا . ولقد مضت سُنَّة الله سبحانه مع الأولياء أنهم لا يُنيخُون بعقوة الظفر إلا بعد إشرافهم على عرصات اليأس ، فحين طال بهم الترَقُّبُ صادَفَهم اللطفُ بغتةً وتحقق لهم المُبْتَغَى فجأة . قال تعالى « ألا إن نصر الله قريب » .

قوله جل ذكره : ﴿ يسألونك ماذا ينفقون قُلْ ما أنفقتم
من خير فللوالدَيْن والأقربين
واليتامى والمساكين وابن السبيل ،
وما تفعلوا من خير فإن الله
به عليم ﴾ .

علموا أن العبد غير منفردٍ بالفاعلية أن يفعل ، فإنَّ العبد ليس له فعل شىء إلا بإذن مولاه فتوقفوا فى الإنفاق على ما يشير إليه تفصيل الإذن ، لأنَّ العبودِيَة الوقوفُ حيثما أوقفك الأمر .

ويقال لم يتفقوا على إشارات الهوى . وإنَّ ما طالعوه تفاصيلُ الأمر وإشارات الشرع . والواو فى هذه الآية فى قوله : « والأقربين واليتامى » تشير إلى نوعٍ من الترتيب ؛ فالأَوْلى بمعروفك والداك ثم أقاربك ثم على الترتيب الذى قاله .

قوله جل ذكره : ﴿ كُتِبَ عليكم القتال وهو كُرْهٌ لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خيرٌ لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شَرٌّ لكم والله يعلم وأنتم لاتعلمون ﴾ .

صعبت على النفوس مباشرة القتال ، فبيَّن أن راحات النفوس مؤجلة لأنها فى حكم التأديب ، وبالعكس من هذا راحات القلوب فإنها معجلة إذ هى فى وصف التقريب ، فالسعادة فى مخالفة النفوس ؛ فمن وافقها حاد عن المحبة المثلى ، كما أن السعادة فى موافقة القلوب فمن خالفها زاغ عن السُّنَّة العليا .

وبشرى ضمان الحق باليُسْر أَوْلَى أن تُقْبَل من محذرات هواجس النفوس فى حلول العسر وحصول الضر .

قوله جل ذكره : ﴿ يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قُلْ قِتال فيه كبيرٌ وَصَدٌّ عن سبيل الله ، وكُفرٌ به والمسجد الحرام ، وإخراجُ أهله منه أكبرُ عند الله ، والفتنة أكبر من القتل ﴾ .

من المعاصى ما يكون أشد من غيره وأصعب فى المعنى ، فسوء الأدب على الباب لا يُوجِب ما يُوجِبه على البساط ؛ فإذا حصلت الزلة بالنَّفْس فأثرها بالعقوبة المؤجلة وهى الاحتراق ، وإذا زلّ[1] القلب فالعقوبة معجلة وهى بالفراق ، وأثر الغفلة على القلوب أعظم من ضرر الزلة

(١) وردت (زال) وهى قطعاً خطأ فى النسخ .

على النفوس ، فإن النفس عن الحظ تبقى ، والقلب عن الحق يبقى .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم
عن دينكم إن استطاعوا ، ومن يَرْتَدِدْ
منكم عن دينه فَيَمُتْ وهو كافر
فأولئك حَبِطَتْ أعمالهم فى الدنيا
والآخرة وأولئك أصحاب النار هم
فيها خالدون ﴾ .

الإشارة من هذا أن أهل الغفلة إذا راودوك أرادوا صَرْفَكَ إلى ما هم عليه من الغفلة ، فلا يرضون إلا بأن تفسخ عقد إرادتك بما تعود إليه من سابق حالتك ، ومَنْ فسخ مع الله عهده مَسَخَ قلبه .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين آمنوا والذين هاجروا
وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون
رحمة الله والله غفور رحيم ﴾ .

إن الذين صدقوا فى قصدهم ، وأخلصوا فى عهدهم ، ولم يرتدوا فى الإرادة على أعقابهم ، أولئك الذين عاشوا فى رَوْحِ الرجاء إلى أن يصلوا إلى كمال البقاء ودار اللقاء .

قوله جل ذكره : ﴿ يسألونك عن الخمرِ والميسر قُلْ فيهما
إثمٌ كبير ومنافع للناس وإثمهما
أكبر من نفعهما ﴾ .

الخمر ما خامر العقول ، وكما أن الخمر حرام بعينها فالسُّكْر حرام بقوله صلى الله عليه وسلم : « حُرِّمت الخمر بعينها ، والسُّكْر من كل شراب » ، فمن سَكِرَ من شراب الغفلة استحق ما يستحق شارب الخمر من حيث الإشارات ، فكما أنَّ السكران ممنوع من الصلاة فصاحب السُّكْر بالغفلة محجوب عن المواصلات وأوضح شواهد الوجود ، فمَنْ لم يُصَدِّقْ فَلْيُجَرِّبْ .

ومعنى القمار موجود فى أكثر معاملات أهل الغفلة إذا سلكوا طريق الحِيَل والخداع والكذب فى المقال . وبذلُ الصدقِ والإنصافِ عزيزٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قُلْ العَفْوَ
كذلك يُبَيِّن اللهُ لكم الآياتِ
لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة ﴾

قيل العفوُ ما فضل عن حاجتك ، وهذا للخواص يخرجون من فاضل أموالهم عن قدر كفاياتهم ، فأمَّا خواصّ الخواص فطريقهم الإيثار وهو أن يُؤْثِر به غيرَه على نفسه وبه فاقة إلى ما يخرج وإن كان صاحبه الذى يؤثِر به غنياً .

قوله جل ذكره : ﴿ ويسألونك عن اليتامى قُلْ إصلاح لهم
خير وإن تخالطوهم فإخوانُكُم ﴾ .

إصلاح حالهم بما يكون فيه تأديبهم أتمّ من إصلاح مالهم ، ثم الصبر على الاحتمال عنهم مع بذل النصح ، و (مفارقة المال مَنْ مِنْ أرشادهم خير من الترخص بأن يقول إنه لا يتوجه على فرضيهم)[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ والله يعلم المُفْسِدَ مِنَ المصلح ولو شاء
الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم ﴾ .

فيُعاملُ كلاً على سواكن قلبه من القُصُود لا على ظواهر كَسْبِهِ من جميع الفنون .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يُؤْمِنَّ
ولأَمَةٌ مُؤمنةٌ خيرٌ من مشركة
ولو أعجبتكم ولا تنكحوا المشركين
حتى يؤمنوا ولَعَبْدٌ مؤمنٌ خيرٌ مِنْ
مُشْرِكٍ ولو أعجبكم ، أولئك يدعون

---

(١) فيما بين قوسين غموض ربما نتج عن خطأ فى النقل .

إلى النـار والله يدعو إلى الجنـة
والمغفرة بإذنه ، ويُبَيِّنُ آياته للناسِ
لعلهم يتذكَّرون ﴾ .

صلة حبل الدين والتمسك بعصمة المسلمين أتم من الرضا بأن تنتهى إلى أحدٍ يسلك إلى الكفر ، ولئن كانت رخصة الشريعة حاصلة فى فعله فإشارة الحقيقة مانعة من حيث التبرئة عن اختياره ، هذا فى الكتابيات اللاتى يجوز مواصلتهن ، فأما أهل الشِرْك فحرامٌ مواصلتهم قطعاً ، وأوجهُ مباينتهم فى هذا الباب حُكْمٌ جَزْمٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذىً
فاعْتَزِلُوا النسـاء فى المحيـض
ولا تقربوهن حتى يَطْهُرْنَ فإذا
تطهَّرن فأتوهن من حيث أمركم الله﴾

ليس كل ما يكون موجب الاستحياء والنفور مما هو باختيار العبد ، فقد يكون من النقائص ما ليس للعبد فيه كسب ، وهو ابتداءُ حكمُ الحق ، فمن ذلك ما كتب الله على بنات آدم من تلك الحالة ، ثم أُمِرْنَ باعتزال المُصَلَّى فى أوان تلك الحالة ، فالمصلِّى مناجٍ ربَّه ، فَنُحِّينَ عن محل المناجاة حكماً من الله لا جُرْماً لهن . وفى هذا إشارة فيقال : إنهن – وإنْ مُنِعْنَ عن الصلاة التى هى حضور بالبدن فلم يحجبن عن استدامة الذكر بالقلب واللسان ، وذلك تعرض بساط القرب ، قال صلى الله عليه وسلم مخبراً عنه تعالى : « أنا جليس من ذكرنى » .

قوله جل ذكره : ﴿ إن الله يحب التـوَّابين ويحب
المتطهرين ﴾ .

يقال يحب التوابين من الذنوب ، والمتطهرين من العيوب .

ويقال التوابين من الزلة ، والمتطهرين من التوهم أن نجاتهم بالتوبة .

ويقال التوَّابين من ارتكاب المحظورات ، والمتطهرين من المساكنات والملاحظات .

ويقال التوّابين بماء الاستغفار والمتطهرين بصوب ماء الخجل بنعت الانكسار .

ويقال التوَّابين من الزلة ، والمتطهرين من الغفلة .

ويقال التوَّابين من شهود التوبة ، والمتطهرين من توهم أن شيئاً بالزلة بل الحكم ابتداء من الله تعالى .

قوله جل ذكره : ﴿ نساؤكم حَرْثٌ لكم فأتوا حرثكم
أنَّى شئتم وَقَدِّموا لأنفسكم واتقوا
الله واعلموا أنكم ملاقوه وبَشِّر
المؤمنين ﴾ .

لمَّا كانت النفوس بوصف الغيبة عن الحقيقة أباح لها السكون إلى أشكالها إذا كان على وصف الإذن ، فلمَّا كانت القلوب فى محل الحضور حرم عليها المساكنة إلى جميع الأغيار والمخلوقات .

« وقدِّموا لأنفسكم » من الأعمال الصالحة ما ينفعكم يوم إفلاسكم ، لذلك قال :

« واعلموا أنكم ملاقوه » فانظروا لأنفسكم بتقديم ما يسركم وجدانه عند ربكم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تجعلوا الله عُرضَةً لأَيْمانِكم
أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين
الناس والله سميع عليم ﴾

نزِّهوا ذِكْرَ ربكم عن ابتذاله بأى حظ من الحظوظ .

ويقال لا تجعلوا ذكر الله شَرَكاً يُصْطَادُ به حطام الدنيا .

قوله جل ذكره : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو فى أَيْمانِكم
ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم
والله غفور رحيم ﴾

ما جرى به اللسان على مقتضى السهو فليس له كثير خطرٍ فى الخير والشر ، ولكن ما انطوت عليه الضمائر ، واحتوت عليه السرائر ، من قصود صحيحة ، وعزائم قوية فذلك الذى يؤخذ به إن كان خيراً فجزاؤه جميل ، وإن كان شراً فعناؤه طويل .

قوله جل ذكره : ﴿ للذين يُؤْلُون من نسائهم تَرَبُّصُ أربعة أشهر ﴾

إذا كان حق صحبة الأشكال محفوظاً عليك — حتى لو أخلَلْتَ به — وأُخَذَكَ بحكمه : فحقُّ الحقِّ أحقُّ بأن تجب مراعاته . « فإن فاءوا » أى رجعوا إلى إحياء ما أماتوا ، واستدراك ما ضيَّعوا « فإن الله غفور رحيم » فلما تقاصر لسان الزوجة — لكونها أسيراً فى يد الزوج — تَوَلَّى الله — سبحانه — الأمرَ بمراعاة حقها فأمر الزوج بالرجوع إليها أو تسريحها .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم ﴾

إنْ ملَّ حق صحبتها ، وأكَّد العزم على مفارقتها فإن الله مطلع على حاله وسره ، فإنْ بدا له بادٍ من ندم فلا يُلبِس بأركان الطلاق فإن الله سبحانه عليم أنه طلَّقها .

ولمَّا كان الفراق شديداً عزَّى المرأة بأن قال إنه « سميع » أى سمعنا موحش تلك القالة ، فهذا تعزية لها من الحق سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ﴾ .

أمَرَ المطلقات بالعِدَّة احتراماً لصحبة الأزواج ، يعنى إنْ انقطعت العلاقة بينكما فأقيموا على شرط الوفاء لما سَلَفَ من الصحبة ، ولا تقيموا غيره مقامه بهذه السرعة ؛ فاصبروا حتى يمضى مقدار من المدة . ألا ترى أن غير المدخول بها لم تؤمر بالعدة حيث لم تقم بينهما صحبة ؟

ثم قال جل ذكره : ﴿ ولا يَحِلُّ لَهُنَّ أنْ يكْتُمن ما خلق الله فى أرحامهن إنْ كُنَّ يُؤمِنَّ بالله واليوم الآخر ﴾ .

يعنى إنْ انقطع بينكما السببُ فلا تقطعوا ما أثبت الله من النَّسَبِ .

ثم قال جل ذكره : ﴿ وبُعولتُهُنَّ أحَقُّ بِرَدِّهن ﴾ .

يعنى مَنْ سَبَقَ له الصحبة فهو أحق بالرجعة لما وقع فى النـكاح من الثلمة

﴿ فى ذلك إنْ أرادوا إصلاحاً﴾ .

يعنى أن يكون القصد بالرجعة استدراك ما حصل من الجفاء لا تطويل العدة عليها بأن يعزم على طلاقها بعدما أرجعها .

﴿ولَهُنَّ مِثلُ الذى عليهن بالمعروف﴾

يعنى إن كان له عليها حق ما أنفق من المال فلها حق الخدمة لما سلف من الحال ..

﴿وللرجال عليهن درجة والله عزيز حكيم ﴾ .

فى الفضيلة ، ولهن مزية فى الضعف وعجز البشرية .

قوله جل ذكره : ﴿ الطلاق مرتان ﴾ .

نُدب إلى تفريق الطلاق لئلا تسارع إلى إتمام الفراق ، وقيل فى معناه :

إنْ تَبَيَّنْتُ أَنَّ عَزْمَكِ قتلى   فذرينى أُضنى قليـلا قليلا

ثم قال جلَّ ذكره : ﴿ فإمساكٌ بمعروفٍ أو تسريحٌ بإحسان ﴾ .

إمَّا صحبة جميلة أو فُرْقة جميلة . فأمَّا سوء العشرة وإذهاب لذة العيش بالأخلاق الذميمة فغير مَرْضِيٍ فى الطريقة ، ولا محمود فى الشريعة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا يَحِلُّ لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً ﴾ .

فإن فى الخبر « العائد فى هبته كالعائد فى قَيْئِهِ » والرجوع فيما خرجتَ عنه خِسةَّ .

ثم قال جل ذكره : ﴿إلاَّ أنْ يخافا ألاَّ يُقيمَا حُدودَ الله فإن خِفتُم ألاَّ يُقيما حدودَ الله فلا جُناحَ عليهما فيما افتدت به﴾ .

يعنى إنْ أرادت المرأة أن تتخلص من زوجها فلا جناح عليها فيما تبذل من مال ، فإنّ النفس تساوى لصاحبها كل شيء ، والرجل إذا فاتته صحبة المرأة فلو اعتاض عنها شيئاً فلا أقلَّ من ذلك ، حتى إذا فاتته راحة الحال يصل إلى يده شيء من المال .

قوله جل ذكره : ﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها وَمَنْ يتَعدَّ حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾

هذه آداب يُعَلِّمكمها الله ويَسُنُّها لكم ، فحافظوا على حدوده ، وداوموا على معرفة حقوقه .

قوله جل ذكره : ﴿ فإنْ طلَّقَها فلا تَحِلُّ له من بَعْدُ حتى تنكِحَ زوجاً غيره ﴾ .

الرجلُ يَشُقُّ عليه أن ينكحَ زوجتَه غيرُه فمنعه عن اختيار الفراق بغاية الفراق بُغْيةَ المنع[1] لما بيَّن أنها لا تحل له إن فارقها إلا بأن تفعل[2] غاية ما يشق عليه وهو الزواج الثانى لِيَحْذَرَ الطلاق ما أمكنه. ثم قال «فإنْ طَلَّقَها» يعنى الزوج «فلا جُناحَ عليهما أن يتراجعا» يعنى تتزوج بالزوج الأول .

والإشارة فيه أن استيلاء المحبة على القلب يُهَوِّن مُقاساةَ كلٍّ شديدة ؛ فلو انطوى الزوجان بعد الفرقة على التحسُّر على مافاتهما من الوصلة ، وندما على ذلك غاية الندامة فلا جناح عليهما أن يتراجعا ، والمرأة فى هذه الحالة كأنها (. . .)[3] من الزوج الأول بمكان الزوج الثانى والزوج كالآتى على نفسه فى احتمال ذلك .

ثم قال جل ذكره ﴿ إن ظنَّا أن يقُيما حدودَ الله ، وتلك حدودُ الله يُبيِّنُهاَ لقومٍ يعلمون ﴾

يعنى لا يعودان بعد ذلك إلى الفراق ثانياً إذا علما حاجة أحدهما إلى صاحبه ، قال قائلهم :

ولقد حلفت لئن لقيتك مرةً ... ألا أعود إلى فراقك ثانية

---

(١) وردت (بغاية المنع) والأرجح أنها (بُغية المنع) فإن السياق يتطلب ذلك .

(٢) وردت (يفعل) والأصوب أن تعود على المرأة لأنها هى التى ستتزوج ثانية وهذا هو ما يشق على الزوج الأول .

(٣) هنا كلمة رسمها هكذا (الميشور) وربما كانت (المبتور) .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن
فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن
بمعروف ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا
ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه
ولا تتخذوا آيات الله هزواً واذكروا
نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من
الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا
الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم ﴾

تضمنت الآية الأمر بحسن العشرة ، وترك المغايظة مع الزوجة ، والمحك على وجه اللجاج ؛ فإمّا تخلية سبيلٍ من غير جفاء أو قيامٌ بحق الصحبة على شرط الوفاء .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن
فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن
إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك
يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله
واليوم الآخر ذلك أزكى لكم
وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ .

تضمنت الآية نهيَ الأولياء[1] عن مضارتهن ، وتركَ حمية الجاهلية ، والانقيادَ لحكم الله في تزويج النساء إنْ أردن النكاح من دون استشعار الأنفة والحمية .

بل إذا رضيت بكفوٍ يخطبها فحرام عليكم ظلمها . والتذويبُ عن أوصاف البشرية بقهر النفس أشدُّ مجاهدةً وأصدقُ معاملة لله .

قوله جل ذكره : ﴿ والوالدات يُرضِعْن أولادهن حَوْلَيْن
كاملين لِمَنْ أراد أن يتم الرضاعة ﴾

(١) الأولياء هنا من ولاية الرجل على المرأة وليست من الولاية في باب التصوف .

غايةُ الرحمة التى يُضْرب بها المَثَلُ رحمةُ الأمهات ؛ فأَمَرَ الله سبحانه الأمهاتِ بإكمال الرحمة بإرضاع المولود حَوْلَين كاملين ، وقطعُ الرضاعة عنه قبل الحولين إشارةٌ إلى أن رحمة الله بالعبد أتمُّ من رحمة الأمهات .

ثم قال جل ذكره : ﴿وعلى المولود له رِزْقُهن وكسوتهن بالمعروف﴾ .

يعنى الأب عليه رزقهن وكسوتهن — أى المرضعات — بالمعروف . لمَّا يَنُبْن عنك وَجَبَ حَقُّهُن عليك ، فإنَّ مَنْ لكَ كله فعليك كله .

ثم قال جل ذكره : ﴿ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إلا وُسْعَهَا ﴾

إدخارُ المستطاع بُخْلٌ ، والوقوفُ — عند العجز — عذر .

ثم قال جل ذكره : ﴿لا تُضارَّ والدةُ بِوَلَدِها﴾ .

فى الإرضاع وما يجب عليه .

﴿ولا مولودٌ له بِوَلَدِه وعلى الوارث مثل ذلك﴾ .

يعنى الوالد[1] بولده يعنى فيما يلزم من النفقة والشفقة . فكما يجب حق المولود على الوالدين يجب حق الوالدين على المولود .

ثم قوله جل ذكره : ﴿فإن أرادا فِصالا عن تَراضٍ منهما وتشاورٍ فلا جُناح عليهما وإنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُناحَ عَلَيْكُمْ إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف ، واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير﴾

يعنى فطاماً قبل الحولين ، فلا جناح بعدما كان القصد الصلاح . اشتملت الآية على تمهيد طريق الصحبة ، وتعليم محاسن الأخلاق فى أحكام العسرة وإن من لا يَرْحَم لا يُرْحَم .

وقال صلى الله عليه وسلم لمن ذكر أنه لم يُقَبِّل أولاده : « إن الله لا ينزع الرحمة إلا من قلب شقى » .

(١) وردت (الولد) والسياق يقتضى أن تكون (الوالد) بعد أن تحدث عن (الوالدة) .

قوله جل ذكره : ﴿والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً
يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر
وعَشْراً فإذا بلغن أجلهن فلا جناح
عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف
والله بما تعملون خبير﴾

لمّا كان حق الميت أعظم لأن فراقه لم يكن بالاختيار كانت مدة الوفاء له أطول . وكانت عدة الوفاة فى ابتداء الإسلام سَنَةً ، ثم رُدت إلى أربعة أشهر وعشرة أيام لتتحق براءة الرحم عن ماء الزوج ، ثم إذا انقضت العدة أبيح لها التزوج بزوجٍ آخر . والميت لا يستديم وفاءه إلى آخر العمر أحدٌ كما قيل :

وكما تَبْلَى وجوهٌ فى الثرى فكذا يَبْلَى عليهن الحَزَن

قوله جل ذكره : ﴿ولا جناح عليكم فيما عَرَّضتم به من
خِطبة النساء أو أكْنَنْتُم فى أنفسكم
علم الله أنكم ستذكرونهن ولكن
لا تواعدوهن سِرًّا إلا أن تقولوا
قولاً معروفاً﴾

أبيح من ذلك ما كان فيه استجلاب للمودة ، وتأسيس لحال الوصلة . وحرِّم منه ما فيه ارتكاب المحظورات من إلمام بذنب أو عِدةٌ بجُرْمٍ (1) .

قوله جل ذكره : ﴿ولا تَعْزِموا عُقْدَةَ النكاحِ حتى
يبلغ الكتابُ أَجَله ، واعلموا أن الله
يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه واعلموا
أن الله غفور رحيم﴾

---

(1) وردت بالحاء والصحيح أن تكون بالجيم .

أى تنقضى عدة الأول فإن حُرْمة الماضى لا تضيع .

قوله جل ذكره : ﴿ لا جُناحَ عليكم إن طلقتم النساء
ما لم تَمَسُّوهُنَّ أو تَفْرِضوا لهن فريضة
ومَتِّعُوهنَّ على المُوسِعِ قَدَرُهُ ،
وعلى المُقْتِرِ قَدَرُهُ متاعاً بالمعروف
حقاً على المحسنين ﴾

إنْ ابتلاءٌ تَمَّ بوصيلة[1] أشكالكم ثم بدالكم فلا جناح[2] عليكم فى اختيار الفرقة — إذا أردتم — فإن الذى لا يجوز اختيار فرقته — واحد ؛ فأمّا صحبة الخَلْق بعضهم مع بعض فليس بواجب ، بل غاية وصفه أنه جائز .

ولمَّا وقع عليهن اسمكم فنصف المسَّى يجب لهن ، فإن الفراق — كيفما كان — فهو شديد ، فجعل ما يستحق من العوض كالخلَفِ لها عند تجرع كأس الفرقة .

فإن لم يكن مسمًّى فلا يخلو العقد من متعة ؛ فإن تجرع الفرقة — مجرداً عن الراحة — بلاء عظيم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن
وقد فرضتم لَهُنَّ فريضة فنصف
ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفوَ الذى
بيده عُقْدَةُ النكاح ، وإنْ تعفوا
أقربُ للتقوى ﴾ .

ثم ذكر أن العفو أتم وأحسن ، إمَّا من جهة المرأة فى النصف المستحق لها ، أو من قِبَل الزوج فى النصف العائد إليه .

---

(١) وردت (بوصيلة) وربما كانت الباء زائدة وأنها (بوصلة) أشكالكم .

(٢) وردت (فلاح جرح) وهى خطأ من الناسخ ، وقد صححناها (فلا جناح) طبقاً للآية ، ويحتمل أيضاً أنها فى الأصل (فلا مُجرْم) .

ثم قال جلَّ ذكره : ﴿ ولا تَنْسَوْا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير ﴾ .

يقال من أخذ بالفضل واقتصر على الفرض فعن قريب يخل[1] بالفرض .

ويقال نسيان الفضل يقرب صاحبه من البخل ، وإن من سُنَّةِ الكرام إذا خفيت عليهم مواضع الكرم أن يشحذوا بصائر الجود لتطالع لطائف الكرم فتتوفر دواعيهم فى اقتناء أسباب الفضل .

قوله جل ذكره : ﴿حافظوا على الصَّلَوَاتِ والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين﴾ .

المحافظة على الصلاة أن يدخلها بالهيبة ، ويخرج بالتعظيم ، ويستديم بدوام الشهود بنعت الأدب ، والصلاة الوسطى (أبهم ذكرها على البيت)[2] لتراعى الجميع اعتقاداً منك لكل واحدة أنها هى لئلا يقع منك تقصير فى شىء منها .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ خِفْتُمْ فَرِجالا أو رُكبانًا فإذا أَمِنْتُم فاذكروا الله كما علَّمكم مالم تكونوا تعلمون ﴾ .

أى لا تُخِلُّوا بمناجاتى لأوقاتها على الوصف الذى أمكنكم فان ماتحسونه[3] من أعدائكم أنا سلّطتُهم عليكم ، فاذا خلوتم بى بقلوبكم قصرت أيديهم عنكم ، وجعلت لكم الظفر عليهم ، ثم إذا زال عنكم الخوف وأمنتم فعودوا إلى استقراركم باستفراغ أوقاتكم فى الاعتكاف بحضرتى سراً وجهراً .

---

(١) يحتمل انها (يخل) و (يُخيلّ) ، فإذا عرفنا أن الصوفية عموماً يتشددون في التعبد ويتفوقون فيه على الكافة أمكن القول أن المعنى ممكن أن ينصرف إلى يخل بمعنى أن القشيرى يحذر من أن الاكتفاء بالفرض قد يؤدى إلى البخل به ، وهذا بدوره يؤدى إلى أن يخل بشأنه وقد وردت يخل ويخل فى السياق فيما بعد ــ والله أعلم .

(٢) وردت هكذا وقد نقلناها من النص دون تعديل وربما كانت (أبهم ذكرها عن البت) .

(٣) يحتمل أن تكون (تخشونه) من أعدائكم وكلاهما مقبول ، وإن كنا نؤثر (تخشونه) لتناسب « فإن خفتم » فى الآية .

قوله جل ذكره: ﴿ والذين يُتوفَّوْن منكم ويذَرُون أزواجاً وصيةً لأزواجهم متاعا إلى الحَوْلِ غير إخراجٍ فان خَرَجْنَ فلا جُناح عليكم فيما فعَلْنَ فى أنفُسِهن من معروفٍ واللهُ عزيزٌ حكيم ﴾ .

كانت عِدَّةُ الوفاة فى ابتداء الإسلام سَنَةً مستديمة كقول العرب وفعلهم ذلك حيث يقول قائلهم :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكم ومَنْ لبَّاك حولاً كاملاً فقد اعتذر

ثم نُسِخَ ذلك إلى أربعة أشهر وعشرة أيام إذ لابد من انتهاء مدة الحداد ولقد قال قائلهم :

قال : لو مِتَّ لم أعِشْ قلتُ : نافقتَ فاسْكُتِ
أى حىٍ رأيتَه ماتَ وَجْدًا بميِّتِ ؟ ![1]

قوله جل ذكره : ﴿ وللمطلقات متاعٌ بالمعروف حقاً على المتقين ﴾ .

الإشارة ألا تجمعوا عليهن الفراق والحرمان فيتضاعف عليهن البلاء .

﴿ كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون ﴾ .

الدلائلَ ، فتتأدبوا بما أشير عليكم ، وتفلحوا بما تعقلون من إشارات حِكَمى .

قوله جل ذكره : ﴿ ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حَذَرَ الموتِ فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم إن الله لذو فضلٍ على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ .

---

(١) فى الشعر أخطاء كثيرة وقع فيها الناسخ فحاولنا إصلاحها بقدر الممكن ليكون مفهوماً .

لمّا استبعدوا قدرة الله فى الإعادة أراهم فى أنفسهم عيانا ، ثم لم ينفع إظهار ذلك لِمَنْ لم يشحذ بصيرته فى التوحيد . ومن قويت بصيرته لم يضره عدم تلك المشاهدات فإنهم تحققوا بما أُخْبِرُوا ، لِماَ آمنوا به بالغيب .

قوله جل ذكره : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم ﴾ .

يعنى إنْ مَسَّكم ألمٌ فتصاعد[1] منكم أنين فاعلموا أن الله سميع لأنينكم ، عليم بأحوالكم ، بصير بأموركم . والآية توجِبُ تسهيل ما يقاسونه من الألم ، وقالوا :

إذا ما تمنى الناسُ روحا وراحةً تمنيت أن أشكو إليك فتسمع

قوله جل ذكره : ﴿ مَنْ ذا الذى يُقْرِض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ﴾ .

سُمِّى القرض قرضاً لأنه يقطع[2] من ماله شيئاً ليعطيه للمقترض ، والمتصدِّق لما يقطع الصدقة من ماله سميت صدقته قرضاً ، فالقرض القطع ، ولكن هذه التسمية لحفظ قلوب الأحباب حيث خاطبك فى باب الصدقة باسم القرض ولفظه .

ويقال دلّت الآية على عِظَم رتبة الغَنِيِّ حيث سأل منه القرض ، ولكن رتبة الفقير فى هذا أعظم لأنه سأل لأَجْلِهِ القرضَ ، وقد يسأل القرض من[3] كل أحد ولكن لا يسأل لأجل كل أحد . وفى الخبر « مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ودرعه مرهونة عند أبى شحمة اليهودى على شعيرٍ أخذه لقوت عياله[4] أبْصِرْ مِمَّنْ اقترض ولأجل مَنْ اقترض !

ويقال القرض الحسن ما لا تتطلع عليه لجزاء ولا تطالب بسببه العِوَض .

---

(١) وردت (فتصاعد) وواضح أنها خطأ فى النسخ .

(٢) أخطأ الناسخ فجاءت (يقع) وقد اخترنا (يقطع) لتناسب القرض ... القطع كما سيذكر بعد .

(٣) وردت (عن) والصحيح والملائم للسياق أن يقال (من) .

(٤) للحديث بقية (... ولم يترك ديناراً ولا درهماً ، ولم يقسم له ميراث ولم يوجد فى بيت أثاث) البخارى ومسلم والترمذى عن عائشة (توفي ودرعه مرهونة عند يهودى بثلاثين) ، وعن البيهقى بثلاثين صاعاً من الشعير ، والترمذى والنسائى والبيهقى عن ابن عباس بعشرين صاعاً من طعام أخذه لأهله . وسنده حسن ، ولم يترك ولا درهما ، مسلم عن عائشة .

ويقال القرض الحسن ألا يعطى على الغفلة ، وإنما يعطى عن شهود .

ويقال القرض الحسن من العلماء[1] إذا كان عند ظهر الغنى ، ومن الأكابر إذا كان بشرط الإيثار يعطى ما لا بد منه .

ويقال القرض الحسن من العلماء عن مائتين خَمْسَةٌ[2] ، وعلى لسان القوم بذل الكل ، وزيادة الروح على ما يبذل .

قوله جل ذكره ﴿والله يَقْبِضُ ويَبْسُطُ وَإليه تُرجَعون﴾ .

يقبض الصدقة من الأغنياء قبض قبوله ، ويبسط عليهم بسط خَلَفِهِ .

ويقال يقبض الرزق أى يُضَيِّق ، يبسط الرزق أى يوسِّع ؛ يقبض على الفقراء ليمتحنَهم بالصبر ، ويبسط على الأغنياء ليطالبهم بالشكر .

ويقال يقبض تسلية للفقراء ليطالبهم حتى لا يروا من الأغنياء ، ويبسط لئلا يتقلدوا المِنَّةَ من الأغنياء .

ويقال قال للأغنياء : إذا أنا قبضت الرزق على الفقراء فلا تذروهم ، وإذا أنا بسطت عليكم فلا تروا ذلك لفضيلة لكم .

ويقال قَبَضَ القلوب بإعراضه وبَسَطَها بإقباله .

ويقال القبض لما غلب القلوب من الخوف ، والبسط لما يغلب عليها من الرجاء .

ويقال القبض لقهره والبسط لبرِّه .

ويقال القبض لِسرِّه والبسط لكشْفِه .

ويقال القبض للمريدين والبسط للمُرادين .

ويقال القبض للمتسابقين[3] والبسط للعارفين .

ويقال يقبضك عنك ثم يبسطك به ،

---

(١) يقصد القشيرى بالعلماء . على لسان الشريعة ، وبالأكابر — على لسان الحقيقة .

(٢) يشير بذلك إلى مقدار زكاة المال وهى ربع العشر .

(٣) ربما كانت « للسابقين » إشارة إلى قوله تعالى : « والسابقون السابقون أولئك المقربون » .

ويقال القبض حقه ، والبسط حظك .

ويقال القبض لمن تولَّى عن الحق ، والبسط لمن تجلَّى له الحق .

ويقال يقبض إذا أشْهَدَكَ فِعْلَكَ ، ويبسط إذا أشهدك فضله .

ويقال يقبض بذكر العذاب ويبسط بذكر الإيجاب .

قوله جل ذكره : ﴿ ألم تَرَ إلى الملأِ مِنْ بنى إسرائيل مِنْ بعد موسى إذا قالوا لنبيٍ لهم ابعث لنا مَلِكاً نقاتل فى سبيل الله قال هل عَسَيْتُم إن كُتِبَ عليكم القتال ألا تقاتلوا ﴾ .

استقبلوا الأمر بالاختيار ، واقترحوا على نبيِّهم بسؤال الإذن لهم فى القتال ، فلمَّا أُجيبوا إلى ما ضمنوه من أنفسهم ركنوا إلى التكاسل ، وعرَّجوا في أوطان التجادل والتغافل. ويقال إنهم أظهروا التصلب والجد فى القتال ذَبًّا عن أموالهم ومنازلهم حيث :

﴿ قالوا وما لنا ألا نُقاتلَ فى سبيل الله وقد أُخرِجْناَ مِنْ ديارنا وأبنائنا فلمَّا كُتِبَ عليهم القتال تولوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين ﴾ .

فلذلك لم يتم قصدهم لأنه لم يَخْلُص — لحقِّ الله — عزمُهم ، ولو أنهم قالوا ومالنا ألا نقاتل فى سبيل الله لأنه قد أمرنا ، وأوجب علينا ، فإنه سيدنا ومولانا ، ويجب علينا أمره — لعلَّهم وُفِّقُوا لإتمام ما قصدوه .

قوله جل ذكره : ﴿ وقال لهم نبيُّهم إن الله قد بعث لكم طالوتَ مَلِكاً قالوا أنَّى يكون له مُلْك علينا ونحنُ أحقُ بالملك منه ولم يُؤتَ سَعَةً من المال قال إن الله اصطفاه

عليكم وزاده بسطة فى العِلْم والجسم
والله يؤتى مُلْكه من يشاء والله
واسع عليم ﴾

نسوا حق الاختيار فنظروا إلى الحال بعين الظاهر فاستبعدوا أن يكون طالوت ملكاً لأنه[1] كان فقيراً لا مال له ، فبيَّن لهم أن الفضيلة باختيار الحق ، وأنه وإن عَدِمَ المالَ فقد زاده الله علماً فَفَضَلَكم بعلمه وجسمه ، وقيل أراد أنه محمود خصال النفس ولم يُرِدْ عظيم البِنْيَة فإن فى المثل : « فلان اسم بلا جسم » أى ذكر بلا معنى .

قوله جل ذكره : ﴿ وقالَ لهم نبيُّهم إنَّ آيةَ مُلْكِه أن
يأتيَكم التابوت فيه سكينة من ربكم
وبقيةٌ مما ترك آل موسى وآل
هارون تحمله الملائكة إنَّ فى ذلك
لآية لكم إنْ كنتم مؤمنين ﴾

إن الله سبحانه إذا أظهر نوراً أمدَّه بتأييد من قِبَلِه ، فلما ملك طالوت عليهم أزال الإشكال عن صفته بما أظهر من آياته الدالة على صدق قول نبيِّهم فى اختياره ، فردَّ عليهم التابوت الذى فيه السكينة ، فاتضحت لهم آية ملكه ، وأن نبيهم عليه السلام صَدَقَهم فيما أخبرهم .

ويقال إن الله تعالى جعل سكينة بنى إسرائيل فى التابوت الذى رُضُوا عن الألواح ، وعصا موسى عليه السلام ، وآثار صاحب نبوتهم . وجعل سكينة هذه الأمة[2] فى قلوبهم ، فقال : « هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين » ثم إن التابوت كان تتداوله أيدى الأعداء وغيرهم ؛ فمرَّةً كان يُدْفَن ومرة كان يُغلب عليه فيُحمَل ، ومرة يُرَد ومرة ومرة . . . وأما قلوب المؤمنين فَحَالَ بين أربابها وبينها ، ولم يستودعها ملكا ولا نبياً ، ولا سماء ولا هواء ، ولا مكاناً ولا شخصاً ، وقال صلى الله عليه وسلَّم :

---

(١) وردت (كانه) وهى خطأ فى النسخ .
(٢) يقصد أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

« قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن » يعنى فى قبضة الحق سبحانه ، وتحت تغليبه وتصريفه ، والمراد منه « القدرة » ، وشتّان بين أمة سكينتهم فيما للأعداء عليه تسلُّط وأمةٍ سكينتهم فيما ليس لمخلوق عليه سلطان .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾

الإشارة من هذه الآية أن الله سبحانه ابتلى الخَلْق بصحبة الخَلْق وبالدنيا وبالنَّفس ، ومن كانت صحبته مع هذه الأشياء على حدِّ الاضطرار بمقدار القوام ، وما لا بد منه نجا وسَلِمَ[1] ، ومن جاوز حد الاضطرار وانبسط فى صحبته مع شيء من ذلك من الدنيا والنفس والخلْق بموجب الشهادة[2] والاختيار — فليس من الله فى شيء إنْ كان ارتكاب محظور ، وليس من هذه الطريقة فى شيء إن كان على جهة الفضيلة وماله منه بُدٌّ .

ثم قال جل ذكره : ﴿ فشربوا منه إلا قليلاً منهم ﴾

كذلك الخواص فى كل وقت يقل عددهم ولكن يجل قدرهم .

قوله جل ذكره : ﴿ فَلَمَّا جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ﴾

فنظروا إلى الحال بعين الظاهر فَدَاخَلَهم شيء من رعب البشرية ، فربط الله على قلوبهم بما ذكّرهم من نصرة الحق سبحانه لأوليائه إذا شاء .

---

(١) هذه درجة فى الاعتدال يتسم بها مذهب القشيرى ، يوفق بها بين الشريعة والحقيقة فى النظر إلى الدنيا والنفس والناس فى عرف أرباب القلوب .

(٢) أى أن يشهد الدنيا والنفس والخلق في شيء من الأشياء والواجب أن يشهد الله فى كل شيء ، غير أننا لا نستبعد أنها ربما كانت فى الأصل (الشهوة) أى أنه ليس من الله فى شيء من ينظر إلى هذه الأمور بشهوة واختيار .

قوله جل ذكره : ﴿ قال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾

لا بهم ولكن بإذن الله ، بمشيئته وعونه ونصرته ، والله مع الصابرين بالنصرة والتأييد والقوة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولمَّا برزوا لجالوتَ وجنودِه قالوا رَبَّنَا أَفْرِغْ علينا صبراً ، وثَبِّتْ أقدامَنَا وانصرنا على القومِ الكافرين ﴾

كان أهم أمورهم الصبر والوقوف للعدو ، ثم بعده النصرة عليهم ، فإن الصبر حق الحق ، والنصرة نصيبهم ، فقدَّموا تحقيق حقه — سبحانه — وتوفيقه لهم ، ثم وجود حظِّهم من النصرة ، ثم أشاروا إلى أنهم يطلبون النصرة عليهم — لا للانتقام منهم لأَجْلِ ما فاتهم من نصيبهم — ولكن لكونهم كافرين ، أعداء الله .

فقاموا بكل وجهٍ لله بالله ؛ فلذلك نُصِرُوا وَوَجدوا الظفر .

قوله جل ذكره : ﴿ فهزموهم بإذن الله وقتَلَ داودُ جالوتَ ، وآتاه اللهُ المُلْكَ والحكمة وعلَّمَهُ مما يشاء ﴾

هيَّبَ الله الأعداء بطالوت لما زاده من البسطة فى الجسم ولكن عند القتال جعل الظفر على يدى داود . وكان كما فى القصة رَبْعَ القامة غير عظيم الجثة ، مختصر الشخص ، ولم يكن معه من السلاح إلا مقلاع ، ولكن الظفر كان له لأن نصرة الله سبحانه كانت معه .

قوله جل ذكره : ﴿ فهزموهم بإذن الله ﴾

فلم يبق منهم أثر ولا عين ، وقتل داودُ جالوتَ . وداود بالإضافة إلى جالوت فى الضخامة والجسامة كان بحيث لا تُتَوَهَّم غلبته إياه ولكن كما قال قائلهم :

استقبلني وسيفه مسلول وقال لي واحدنا معذول[1]

قوله جل ذكره: ﴿ولولا دفعُ اللهِ الناسَ بعضَهم ببعضٍ لَفَسَدَتِ الأرضُ ولكنَّ اللهَ ذو فضلٍ على العالمين﴾.

لو تظاهر الخلْق وتوافقوا بأجمعهم لهلك المستضعفون لغلبة الأقوياء ولكن شغل بعضهم ببعض ليدفع بتشاغلهم شرَّهم عن قوم.

قوله جل ذكره: ﴿تلك آيات الله نتلوها عليك بالحقِّ وإنك لَمِنَ المرسلين﴾.

لم يكن فى علمك ولا فى وسع احتيالك الوقوف على هذه الغائبات من الكائنات التى سلفت، وإنما وَقَفْتَ عليها بتعريفٍ من قِبَلِ الله سبحانه.

قوله جل ذكره: ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض، منهم مَنْ كَلَّم الله، ورَفَعَ بعضَهم درجاتٍ، وآتينا عيسى بن مريم البينات، وأيّدناه برُوحِ القُدُسِ﴾

جمعتهم الرسالة ولكن تباينوا فى خصائص التفضيل، لكل واحدٍ منهم أنوار، ولأنوارهم مطارح، فمنهم من هو أعلى نورا، وأتم من الرفعة وفورا. فلم تكن فضائلهم استحقاقهم على أفعالهم وأحوالهم، بل حُكْمٌ بالحسنى أدركهم، وعاقبة بالجميل تداركتهم.

قوله جل ذكره: ﴿ولو شاء اللهُ ما اقتتل الذين مِنْ بعدهم مِنْ بعدما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا، ولكن الله يفعل ما يريد﴾.

---

(١) ربما كانت (مخذول).

ولكنهم مُصَرّفون بالمشيئة الأزلية ، ومسلوبون من الاختيار الذى عليه المدار وبه الاعتبار . والعبودية شدُّ نطاق الخدمة وشهود سابق القسمة .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم
من قبل أن يأتى يوم لا بيعٌ فيه ولا خُلَّة
ولا شفاعة ، والكافرون هم الظالمون ﴾

يعنى اغتنموا مساعدة الإمكان فى تقديم الإحسان قبل فتور الجَلَد وانقضاء الأمل .

قوله جل ذكره : ﴿ الله لا إله إلا هو الحى القيوم ﴾ .

« الله » اسم تفرّد به الحق — سبحانه فلا سمِىّ له فيه . قال الله تعالى : « هل تعلم له سمياً » أى هل تعرف أحداً غيره تسمَّى « الله » ؟

من اعتبر فى هذا الاسم الاشتقاق فهو كالمتعارض ، فهذا اسم يدل على استحقاق صفات الجلال لا على اشتقاق الألفاظ ، فلا يعارض ما لا يعارض فيه من الأقوال .

قوله « لا إله إلا هو » : إخبار عن نفى النظير والشبيه ، بما استوجب من التقديس والتنزيه . ومن تحقق بهذه القالة لا يرى ذَرّةً من الإثبات بغيره أو من غيره ؛ فلا يرفع إلى غيره حاجته ، ولا يشهد من غيره ذرة ، فَيَصْدُقُ إليه انقطاعه ، ويديم لوجوده انفرادَه ، فلا يسمع إلا من الله وبالله ، ولا يشهد إلا بالله ، ولا يُقْبِلْ إلا على الله ، ولا يشتغل إلا بالله ، فهو محوٌ عما سِوى الله ، فَمَالَهُ شكوى ولا دعوى ، ولا يتحرك منه لغيره عِرْقٌ ، فاذا استوفى الحق عبداً لم يَبْقَ للحظوظ — ألبتة — مساغ .

ثم إن هذه القالة تقتضى التحقق بها ، والفناء عن الموسومات بجملتها ، والتحقق بأنه لا سبيل لمخلوق إلى وجود الحق — سبحانه ، فلا وصل ولا فصل ولا قُرْبَ ولا بُعْدَ ، فإن ذلكَ أجمعَ آفاتٌ لا تليق بالقِدَم .

وقوله « الحى القيوم » : المتولى لأمور عباده ، القائم بكل حركة ، و (المحوى)[1] ، لكل عين وأثر .

---

(١) وردت هكذا ويحتمل أن تكون فى الأصل إما (المحيى) لتتلاءم مع (الحى) أو أن تكون (المجري) أي القائم أو (القيوم) على ملكه :

« لا تأخذه سنة ولا نوم » لأنه أحدى لا ترهقه غفلة ، وصمد لا تمسه علة ، وعزيز لا تقاربه قلة ، وجبار لا تميزه عزلة ، وفَرْدٌ لا تضمه جثة ، ووتر لا تحده جهة ، وقديم لا تلْحَقُه آفة ، وعظيم لا تدركه مسافة .

تَقَدَّس مِنْ جمالِه جلالُه ، وجلالُه جمالُه ، وسناؤه بهاؤه ، وبهاؤه سناؤه ، وأزله أبده ، وأبده سرمده ، وسرمده قِدَمُه ، وقدمه وجوده .

قوله جل ذكره : ﴿ له ما فى السموات وما فى الأرض ﴾

مِلْكاً وإبداعا ، وخَلْقاً واختراعا .

﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ﴾

من ذا الذى يتنفس بنَفَس (. . .)[1] إلا بإجرائه ، أو يتوسل إليه من دون إذنه وإبدائه . ومن ظنَّ أنه يتوسل إليه باستحقاقٍ أو عمل ، أو تذلل أو أمل ، أو قربة أو نسب ، أو علة أو سبب — فالظنُّ وطنه والجهل مألفه والغلط غايته والبعد قُصاراه .

قوله جل ذكره : ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ .

لأنه لا يخرج عن علمه معلوم ، ولا يلتبس عليه موجود ولا معدوم .

﴿ ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء ﴾

يعنى من معلوماته ، أى تقاصرت العلوم عن الإحاطة بمعلوماته إلا باذنه .

فأى طمع لها فى الإحاطة بذاته وحقه ؟ وأنَّى تجوز الإحاطة عليه وهو لا يقطعه فى عِزِّه أمَد ، ولا يدركه حَدٌّ ؟ !

قوله جل ذكره : ﴿وَسِعَ كرسيُّه السموات والأرض﴾ .

خطاب لهم على قدر فهمهم . وإلا فأى خَطَرٍ للأكوان عند صفاته ؟

جلَّ قَدْرُه عن التعزز بعرش أو كرسى ، والتجمل بجنٍ أو إنْسِى .

---

(١) مشتبهة فى (ص) ويحتمل أن تكون مشطوبة لزيادتها فهناك شبه علامة على ذلك .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا يئوده حفظهما وهو العلى العظيم ﴾

كيف تُتْعِبُ المخلوقاتُ مَنْ خَلْقُ الذرة والكون بجملته — له سواء؛ فلا من القليل له تَيَسُّر ، ولا من الكثير عليه تَعَسُّر .

قوله جل ذكره : ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾

فإن الحجج لائحة ، والبراهين ظاهرة واضحة .

﴿ قد تبيَّن الرشدُ من الغى ﴾

وامتاز الليل بظلامه عن النهار بضيائه ، والحقوق الأزلية معلومة ، والحدود الأولية معلولة فهذا بنعت القدم وهذا بوصف العَدَم .

﴿ فمن يكفر بالطاغوت ﴾

وطاغوتُ كلٍّ واحدٍ ما يشغله عن ربه

﴿ ويؤمن بالله ﴾

والإيمان حياة القلب بالله

﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴾

الاستمساك بالعروة الوثقى الوقوف عند الأمر والنهى ، وهو سلوك طريق المصطفى صلى الله عليه وسلم وعلى آله .

﴿ لا انفصامَ لها والله سميع عليم ﴾

فمن تحقق بها سراً ، وتعلَّق بها جهراً فاز فى الدارين وسَعِد فى الكونين .

قوله جل ذكره : ﴿ الله ولى الذين آمنوا ﴾

الولى بمعنى المتولى لأمورهم ، والمتفرد بإصلاح شئونهم ، ويصح أن يكون الولى على وزن فعيل فى معنى المفعول فالمؤمنون يقولون[1] طاعته . وكلاهما حق : فالأول جمع والثانى فرق ،

---

(١) أخطأ الناسخ فكتبها (يقولون) بالقاف ونرجح أنها (يتولون) بالتاء .

وكلُّ جمعٍ لا يكون مقيداً بفرقٍ وكلُّ فرقٍ لا يكون مؤيداً بجمع فذلك خطأ وصاحبه مبطل[1] والآية تُحْمَلُ عليهما جميعاً .

﴿ يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾

يعنى . بكمه الأزلى صانهم عن الظلمات التى هى الضلال والبدع ، لأنهم[2] ما كانوا فى الظلمات قط فى سابق علمه .

﴿ والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت ﴾

ما استهواهم من دواعى الـكفر

﴿ يخرجونهم من النور إلى الظلمات
أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾

باستيلاء الشُبَه على قلوبهم ، فيجحدون الربوبية ، أولئك الذين بقوا عن الحق بقاء أبدياً .

ويقال يخرجهم من ظلمات تدبيرهم إلى سعة شهود تقديره .

ويقال يخرجهم من ظلمات ظنونهم أنهم يتوسلون أو يَصِلُون إليه بشىء من سكناتهم وحركاتهم .

ويقال يخرجهم من ظلماتهم بأن يرفع عنهم ظِلَّ أنفسهم ويدخلهم في ظل عنايته .

ويقال يخلصهم عن حسبان النجاة بهم .

ويقال يحول بينهم وبين الاعتماد على أعمالهم والاستناد إلى أحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ألم تَرَ إلى الذى حاجَّ إبراهيم فى ربِّه
أن آتاه الله المُلْكَ إذ قال إبراهيم
ربى الذى يحيى ويميت قال أنا أحيى
وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتى

---

(١) يقصد القشيرى من ذلك أن الفرق ضرورى وهام ، إذ يتسنى للعبد خلاله أن يؤدي ما عليه من فرائض ، وهذا ركن أساسى فى مذهب القشيرى وغيره من الشيوخ الثقاة .

(٢) سقطت (ما) والمعنى يتطلبها .

بالشمس من المشرق فأتِ بها من
المغرب فبُهتَ الذى كفر والله لا يهدى
القوم الظالمين ﴾

عَجَّل الحق سبحانه لأعدائه عقوبة الفرقة قبل أن يعاقبهم بالحرقة ، وهذه العقوبة أشد أثراً فى التحقيق — لو كانت لهم عين البصيرة . وإن الحق سبحانه أخبر أن إبراهيم عليه السلام انتقل مع العدو اللعين من الحجة الصحيحة إلى أخرى ، أَوْضَحَ منها — لا لِخَلَلٍ فى الحجة — ولـكنْ لقصورٍ فى فهم الـكافر ، ومحكٌّ مَنْ سُدَّتْ بصائره عن التحقيق تضييعُ الوقت بلا فائدة تُجدِى ، لا بمقدار ما يكون من الحاجة لأمرٍ لابُدَّ منه .

قوله جل ذكره : ﴿ أو كالذى مرَّ على قريةٍ وهى خاوية
على عُروشِها قال : أنَّى يحيي هذه
هذه اللهُ بعد موتها ؟ فأماته الله مائة
عام ثم بعثه قال : كم لبثتَ ؟ قال :
لَبِثْتُ يوماً أو بعض يوم قال : بل
لَبِثْتَ مائة عام فانظر إلى طعامك
وشرابك لم يَتَسَنَّهْ وانظر إلى حمارِك
ولنجعلك آية للناس ، وانظُرْ إلى
العِظَامِ كيف نُنْشِزها ثم نكسوها
لحماً ، فلمَّا تبيَّن له قال : أَعْلَمُ أنَّ
الله على كل شيء قدير ﴾

لم يكن ذلك سؤال جحدٍ ، ولا قضية جهل ، ولا دلالة شكٍ فى القدرة ، فإن هذا الخبر عن عُزَيْر النبي عليه السلام ، والأنبياء عليهم السلام لا يجوز عليهم الشَّكُّ والجهل ، ولـكنه كان سؤال تعجُّب ، وأراد بهذه المقالة زيادة اليقين ، فأراه الله ذلك فى نفسه ، بأن أماته

ثم أحياه ثم بعث حماره وهو ينظر إليه ، فازداد يقينا على يقين . وسؤالُ اليقين من الله ، والحيلةُ فى ردِّ الخواطر المشكلةُ ، دَيْدَنُ المتعرفين ، ولذلك (. . . . .)[1] الله سبحانه عُزيرا فى هذه المقالة حتى قدَّر عليه ما طلب من زيادة اليقين فيه . ثم قال « واعلم أن الله على كل شيء قدير » من الإحياء والإماتة أى ازددت معرفة بذلك ، وأرانى من عظيم الآيات ما أزداد به يقيناً ؛ فإنَّ طعامه وشرابه لم يتغيرا فى طول تلك المدة ، وحماره مات بلا عظام . والطعام والشراب بالتغيير أوْلى .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذ قال إبراهيم رَبِّ أرِنى كيف تحيي الموتى قال : أوَلمْ تؤمن؟ قال : بلى ، ولكن ليطمئن قلبي . قال : فخذ أربعة من الطير فَصُرْهُنَّ إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جُزْءاً ثم ادعُهُنَّ يَأتِينَك سَعْيًا ، واعلمْ أن الله عزيز حكيم ﴾ .

قيل كان فى طلب فى زيادة اليقين ، فأراد أن يقرن حق اليقين بما كان له حاصلاً من عين اليقين[2] .

وقيل استجلب خطابه بهذه المقالة إلى قوله سبحانه : « أو لم تؤمن قال بلى » كنت أومن ولكنى اشتقتُ إلى قولك لى أوَلم تؤمن ، فإن بقولك لى « أو لم تؤمن » تطمينا لقلبي . والمحبُّ أبداً يجتهد فى أن يجد خطاب حبيبه على أى وجه أمكنه .

---

(١) مشتبهة .

(٢) من أقوال القشيرى التى تتناثر فى كتبه تجد أنه ينظر للمعرفة على أنها ثلاث درجات .

١ — عقلية ونورها البرهان أو علم اليقين .

٢ — قلبية ونورها البيان أو عين اليقين :

٣ — كشفية ونورها العرفان أو حق اليقين ،

ويقول : (علم اليقين كالنجوم يطلع عليها بدر عين اليقين ، ولكن كل الأنوار تتبدد أمام شمس حق اليقين) .

اللطائف ـ التحبير فى التذكير ص ٧٠ ـ الرسالة ص ٤٣ ، ٤٤ والواقع أن القشيرى التزم بهذا الترتيب التزاما دقيقاً ولم يتخل عنه فى كل ما كتب .

وقيل إنه طلب رؤية الحق سبحانه ولكن بالرمز والإشارة فَمُنِعَ منها بالإشارة بقوله « واعلَمْ أن الله عزيز حكيم » . وإن موسى — عليه السلام — لما سأل الرؤية جهراً وقال : « ربِّ أَرِنى أنظر إليك » فَرُدَّ بالجهر صريحاً وقيل له « لن ترانى » .

وقيل إنما طلب حياة قلبه فأُشير إليه بأن ذلك بذبح هذه الطيور ، وفي الطيور الأربعة طاووس ، والإشارة إلى ذبحه تعنى زينة الدنيا ، وزهرتها ، والغراب لحِرْصه ، والديك لمشيته ، والبط لطلبه لرزقه .

ولما قال إبراهيم عليه السلام : أرنى كيف تحيي الموتى ؟ قيل له : وأرنى كيف تذبح الحى ؟ يعنى إسماعيل ، مطالبة بمطالبة . فلمَّا وَفَّى بما طولب به وفَّى الحق سبحانه بحكم ما طلب .

وقيل كان تحت ميعاد من الحق — سبحانه — أن يتخذه خليلاً ، وأمارة ذلك إحياء الموتى على يده ، فجرى ما جرى .

ووصل بين[1] قصة الخليل صلى الله عليه وسلم فيما أراه وأظهره على يده من إحياء الموتى وبين عزَيْر إذ أراه فى نفسه ، لأن الخليل يَرْجُحُ على عزير فى السؤال وفي الحال ، فإن إبراهيم — عليه السلام — لم يَرُدَّ عليه فى شىء ولكنه تَلَطَّف فى السؤال ، وعُزَيْر كلمه كلام من يُشْبِه قولُه قولَ المستَبْعِد ، فأراد الحق أن يظهر له أقوى معجزة وأتمَّ دلالة حيث أظهر إحياء الموتى على يده حين التبس على نمرود ما قال إبراهيم — عليه السلام — ربى الذى يحيي ويميت ، فقال « أنا أحيي وأميت » أراد إبراهيم أن يُرِيَه الله سبحانه إحياء الموتى ليعلم أنه ليس هو الذى ادَّعى .

وفى هاتين الآيتين رخصة لمن طلب زيادةَ اليقين من الله سبحانه وتعالى فى حال النظر[2] .

ويقال إن إبراهيم أراد إحياء القلب بنور الوصلة بحكم التمام ، فقيل له : « أو لم تؤمن » يعنى أما تذكر حال طلبك إيانا حين كنت تقول لكل شىء رأيته « هذا ربى » فلم تَدْرِ كيف بَلَّغْنَاكَ إلى هذه الغاية ، فكذلك يوصلك إلى ما سَمَتْ إليه هِمَّتُك .

---

(١) جميل من القشيرى أن يوضح التماسك والالتئام فى السياق القرآنى بين قصة وقصة .

(٢) خصوصاً فى مرحلة البداية من أجل تصحيح الإيمان .

والإشارة من هذا أن حياة القلب لا تكون إلا بذبح هذه الأشياء يعنى النفس ؛ فمَنْ لم يذبح نفسه بالمجاهدات لم يَحْيَ قلبُه بالله .

وفيه إشارة أيضاً وهو أنه قال قَطِّعْ بيدك هذه الطيور ، وفَرِّقْ أجزاءها ، ثم ادْعُهُنَّ يأتينك سعياً ، فما كان مذبوحاً بيد صاحب الخلة ، مقطعاً مُفَرَّقاً بيده — فإذا ناداه استجاب له كل جزء مُفَرَّق . . كذلك الذى فَرَّقه الحق وشتَّته فإذا ناداه استجاب :

ولو أنَّ فوق تُرْبَةً وَدَعَوْتَني لأَجَبْتُ صَوْتَكُ ، وَالعِظَامُ رُفَاتُ

قوله جل ذكره : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثَلِ حبةٍ أنبتَتْ سَبْعَ سنابل فى كلِّ سُنبلة مائة حبة والله يضاعف لِمَنْ يشاء والله واسعٌ عليم ﴾ .

فالخَلَفُ لهم الجنة ، والذين ينفقون أرواحهم فى سبيل الله فالخَلَفُ عنهم الحقُّ سبحانه ، وشتان بين خلف من أنفق ماله فوجد مثوبته ، ومَنْ أنفق حاله فوجد قربته ؛ فإنفاق المال فى سبيله بالصدقة ، وإنفاق الأحوال فى سبيله بملازمة الصدق ، وبنفى كل حظ ونصيب ، فترضى لجريان حكمه عليك من غير تعبيس القلب ، قال قائلهم :

أُريد وصاله ويريد هجرى فأترك ما أريد لما يريد

والإنفاق على ضربين : إنفاق العابدين وإنفاق الواجدين . أمَّا العابدون فاذا أنفقوا حَبَّةً ضاعَفَ لهم سبعين إلى ما ليس فيه حساب ، وأما الواجدون فكما قيل :

فلا حَسَنٌ نأتى به يقبلونه ولا إن أسأنا كان عندهم محو

قوله جل ذكره : ﴿ الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثُمَّ لا يُتْبِعون ما أنفقوا مناً ولا أذىً لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

المنُّ شهود ما تفعله ، والأذى تذكيرُك — لمن أحسنت إليه — إحسانَك .

ويقال ينفقون ما ينفقون ثم لا يشهدون ألبتة أفعالهم ولا أعمالهم .

ويقال كيف يمنون بشيء تستعذرونه وتستحقونه .

ويقال لا يمنون بفعلهم بل يشهدون المنة لله بتوفيق ذلك عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قولٌ معروفٌ ومغفرة خيرٌ من صدقةٍ يتبعها أذىً والله غنى حليم ﴾

يعنى قولٌ — للفقير المجرد — يرد به من تعرض له باظهار العذر خير وأتم من صدقة المعجَبِ بفعله ، وما يتبع من إلزام المنة فيه .

ويقال إقرار منك مع الله بعجزك وجُرْمك ، وغفران الله لك على تلك القالة — خيرٌ مِنْ صَدَقَةٍ بالمنِّ مشوبة ، وبالأذى مصحوبة .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا لاتُبْطِلوا صدقاتكم بالمنِّ والأذى كالذى ينفق ماله رِئاء الناسِ ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فَمَثَلُهُ كمثلِ صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين ﴾ .

إنما يُحْمَلُ جميلُ المنة من الحق سبحانه ، فأمَّا من الخلْق فليس لأحد على غيره مِنَّةَ ، فإنَّ تحمل المنن من المخلوقين أعظم محنة ، وشهود المنة من الله أعظم نعمة ، قال قائلهم :

ليس إجلالُكَ الكبار بِذُلٍّ إنما الذُّلُّ أَنْ تُجِلَّ الصِّغَارا

ويقال أفقرُ الخلْق مَنْ ظنَّ نفسَه موسِراً فيَبِين له إفلاسه ، كذلك أقل الخلْق قدراً من ظن أنه على شيءٍ فيبدو له من الله ما لم يكن يحتسبه .

قوله جل ذكره : ﴿ ومَثَلُ الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جَنَّةٍ بربوة أصابها وابل فآتت أُكُلَها ضِعفين فإنْ لم يُصبْها وابلٌ فَطَلٌ والله بما تعملون بصير * أَيَوَدُّ أحدُكم أن تكون له جَنَّةٌ من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكِبَرُ وله ذرية ضُعَفَاء فأصابها إعصارٌ فيه نارٌ فاحترقت ، كذلك يُبَيِّن الله لكم الآياتِ لعلكم تتفكرون ﴾ .

هذه آيات كثيرة ذكرها الله تعالى على جهة ضرب المثل للمخلص والمنافق : لمن أنفق فى سبيل الله ، ولمن أنفق ماله فى الباطل ؛ فهؤلاء يحصل لهم الشرف والخلف ، وهؤلاء لا يحصل لهم فى الحال إلا الردّ ، وفى المآل[1] إلا التلف . وهؤلاء ظلَّ سعيهم مشكوراً ، وهؤلاء يدعون ثبورا ويَصْلَوْنَ سعيراً . هؤلاء تزكو أعمالهم وتنمو أموالهم وتعلو عند الله أحوالهم وتكون الوصلة مآلهم ، وهؤلاء حَبِطَتْ أعمالهم وخسرت أحوالهم وختم بالسوء آمالهم ويضاعف عليهم وَبالهم .

ويقال مَثَلُ هؤلاء كالذى أنبت زرعا فزكا أصله ونما[2] فصله ، وعلا فَرْعُهُ وكثر نَفْعُهُ . ومَثَلُ هؤلاء كالذى خسرت صفقته وسرقت بضاعته وضاعت — على كبره[3] —

---

(١) وردت (المال) والصحيح أنها (المآل) على عادة القشيرى فى المقابلة بين ما يحدث فى الدنيا وفى الآخرة ؛ بين الحال والمآل .

(٢) وردت (نماء) والصحيح أنها فعل (نما) لينسجم التركيب الداخلى للأسلوب .

(٣) إشارة إلى باقى الآية : (وأصابه الكبر) .

حيلته وتواترت من كل وجهٍ وفى كل وقت محنته .... هل يستويان مثلاً ؟ وهل يتقاربان شَبَهًا ؟

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومِمَّا أخرجنا لكم من الأرض ، ولا تَيَمَّمُوا الخبيث منه تنفقون ولَسْتُم بآخذيه إلا أنْ تُغْمِضُوا فيه واعلموا أنَّ الله غنيٌّ حميد ﴾

لينظرْ كلٌّ واحدٍ ما الذى ينفقه لأجل نفسه ، وما الذى يخرجه بأمر ربه . والذى يخرج عليك من ديوانك : فما كان لحظِّك فنفائس ملكك ، وما كان لربك فخصائص مالك الذى لله (فاللقْمةُ لقُمْتُه)[1] ، والذى لأجلك فأكثرها قيمة وأكلها نعمة .

ثم أبصر كيف يستر عليك بل كيف يقبله منك بل أبصر كيف يعوضك عليه ، بل أبصر كيف يقبله منك ، بل أبصر كيف يمدحك بل أبصر كيف ينسبه إليك ؛ الكلُّ منه فضلاً لكنه ينسبه إليك فعلاً[2] ، ثم يُولِى عليك عطاءه ويسمى العطاء جزاءً ، يوسعك بتوفيقه بِرًّا ، ثم يملأ العالَم منك شكراً .

قوله جل ذكره : ﴿ الشيطان يَعِدْكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يَعِدُكم مغفرة منه وفضلاً والله واسعٌ عليم ﴾

يَعِدُ الشيطانُ الفقرَ لفقره ، والله يَعِدُ المغفرةَ لكرمه .

---

(١) وردت هكذا (فاقمته لقمته) ويحتمل ان تكون كما أثبتنا ، أو أن تكون فالقيمة لقيمته بدليل مابعدها .

(٢) تأمل كيف يرى القشيرى قيمة العمل الإنسانى : إنه على الحقيقة فضل من الله ولكن من الناحية النسبية فعل للانسان ... وهذه مسألة هامة تتفرع عنها قضايا كلامية كثيرة يختلف فيها عن المعتزلة .

الشيطانُ يعدكم الفقر فيشير عليكم بإحراز المعلوم ، ويقال يشير عليكم — بطاعته — بالحرص ، ولا فقرَ فوقه .

يعدكم الفقر بالإحالة على تدبيركم واختياركم .

يعدكم الفقر بنسيان ما تعوَّدتموه من فضله — سبحانه[1] .

ويقال يعدكم الفقر بأنه لا يزيد شكايتك .

ويقال يعدكم الفقر بتعليق قلبك بما لا تحتاج إليه .

ويقال بالتلبيس عليك رؤية كفايته .

« ويأمركم بالفحشاء » أى الرغبة فى الدنيا ، ويقال بالأسباب التى تقوى الحرص ، ويقال بكثرة الأمل ونسيان القناعة ، ويقال بمتابعة الشهوات ، ويقال بإيثار الحظوظ ، ويقال بالنظر إلى غيره ، ويقال بإخطار شىء سواه ببالك .

ويقال بالانحطاط إلى أوطان الرُّخص والتأويلات بعد وضوح الحق .

ويقال بالرجوع إلى ما تركته لله .

« والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً » : الفضل الموعود — فى العاجل — القناعة ، وفى الآجل الثواب والجنان والرؤية والرضوان و (. . . .)[2] والغفران .

ويقال فى العاجل الظفر بالنفس ، ويقال فتح باب العرفان ، ونشر بساط القرب ، والتلقى لمكاشفات الأُنْس .

قوله جل ذكره : ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء وَمَنْ يُؤْتَ الحكمةَ فقد أوتى خيراً كثيراً

وما يذَّكَّر إلا أولو الألباب ﴾

---

(١) أضفنا (سبحانه) ليمتنع اللبس وهى غير موجودة فى (ص) .

(٢) هنا لفظة مشتبهة أقرب ما تكون إلى (العفو) ولكننا آثرنا عدم إثباتها فى النص لعدم التأكد .

الحكمة : يحكم عليكم خاطرُ الحقِّ لا داعى النفس ، وتحكم عليكم قواهر الحق لا زواجر الشيطان .

ويقال الحكمة صواب الأمور .

ويقال هى ألا تحكم عليك رعوناتُ البشرية .

(ومن لا حكم له على نفسه لا حكم له على غيره)[1] .

ويقال الحكمة موافقة أمر الله تعالى ، والسَّفَهُ مخالفة أمره .

ويقال الحكمة شهود الحق والسَّفَهُ شهود الغير .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أنفقتم من نفقةٍ أو نَذَرْتُم مِن نَذْرٍ فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصارٍ ﴾

قوم تَوَعَّدَهم بعقوبته ، وآخرون توعدهم بمثوبته.. وآخرون توعدهم بعلمه ، فهؤلاء العوام[2] وهؤلاء الخواص . قال تعالى : « واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا » فلا شىء يوجب سقوط العبد من عين الله كمخالفته لعهوده معه بقلبه ، فليحذر المريد من إزلال[3] نفسه فى ذلك غايةَ الحذر .

قوله جل ذكره : ﴿ إنْ تبدُوا الصدقات فَنِعِمَّا هى ، وإنْ تُخْفُوها وتُؤْتوها الفقراء فَهُوَ خَيْرٌ لكم ، ويُكَفِّر عنكم من سيئاتِكم ، والله بما تعملون خبير ﴾

---

(١) ربما وقع الناسخ فى خطأ حين وضع هذه الجملة فى هذا المكان ، والأقرب أن تكون بعد كلمة (زواجر الشيطان) فنحن نعرف من مذهب القشيرى أنه يرى أن الشيطان لا يملك أن يغرى الخلق (لأنه لو كان قادراً على ذلك لكان يمسك على الهداية نفسه ، ومن عجز أن يحافظ على نفسه كان فى إغراء غيره أشد عجزاً) قال تعالى : « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » .

(٢) العوام هنا تنصرف إلى الموعودين بالمثوبة والمتوعدين بالعقوبة .

(٣) (إزلال) بالزاى معناها الايقاع فى الزلة والتسبب فى ارتكابها ، أوضحناها حتى لا تلتبس (بإذلال) ومع ذلك فيمكن قبول (إذلال) بالذال إذا فهمنا أن سقوط العبد من عين الله هو (ذلة) لنفسه .

إنْ أظْهَرْتَ صحبتَكَ معنا وأعلنتَ فلقد جوَّدْتَ وأحسنْتَ ، وإنْ حفظت سِرَّنا عن دخول الوسائط بيننا صُنْتَ شروط الوداد ، وشيَّدت من بناء الوصلة العماد .

قوله جل ذكره : ﴿ لَيْسَ عليك هداهم ولٰكنَّ الله يهدى مَنْ يشاء ، وما تنفقوا مِنْ خَيْرٍ فلأنفسِكم ، وما تُنْفِقُونَ إلا ابتغاء وجهِ الله ، وما تُنْفِقُوا مِنْ خيرٍ يُوفَّ إليكم وأنتم لا تُظْلَمُون ﴾

لكَ المقام المحمود ، واللواء المعقود ، والرتب الشريفة ، والمنازل العلية ، والسنن المرضية . وأنت سيد الأولين والآخرين ، ولا يدانيك أحدٌ — فضلاً عن أن يساميك ، ولكن ليس عليك هداهم فالهداية من خصائص حقنا ، وليس للأغيار منه شظية . يا محمد : أنت تدعوهم ولكن نحن نهديهم[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ للفقراء الذين أُحصِرُوا فى سبيلِ الله لا يستطيعون ضَرْباً فى الأرض ، يحسَبهم الجاهِلُ أغنياء مِنَ التعفف، تعرفهم بسيماهم ، لا يسألون النَّاسَ إلحافاً ، وما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فإنَّ الله به عليم ﴾

أخذ عليهم سلطانُ الحقيقة كلَّ طريقٍ ، فلا لهم فى الشرق مذهب ، ولا لهم فى الغرب مضرب . كيفما نظروا رأوا سرادقات التوحيد محدقة بهم :

كأنَّ فجاجَ الأرض ضاقَتْ برَحْبِها ... عليهم فما تزداد طولاً ولا عرضاً

---

(١) من هذه الفقرة يتضح موقف التصوف الإسلامى الحق في نظرته إلى الرسول صلوات الله عليه وليس في الأمر — كما ترى — جموحٌ أو شطط (قارن ذلك بنظرة ابن عربى وتلاميذه) .

ولا يسلم لهم نفس مع الخلْق ، وأنَّى بذلك ولا خَلْق !! وإذا لم يكن فإثبات ما ليس شِرْكٌ (سقها)[1] فى التوحيد .

والفقير الصادق واقف مع الله بالله ، لا إشراف للأجانب عليه ، ولا سبيل لمخلوق إليه تنظره عين الأغيار فى لبسة سوى ما هو به ؛ قال تعالى : « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف » ، فأما من كان ذا بصيرة فلا إشكال عليه في شيء من أحوالهم . تعرفهم يا محمد — أنت — بسيماهم ، فليست تلك السيماء مما يلوح للبصر ولكنها سيماء تدركها البصيرة . لا إشراف عليهم إلا بنور الأحدية .

ويقال « تعرفهم بسيماهم » : استبشار قلوبهم عند انكسار نفوسهم ، وصياح أسرارهم إلى العرش (نشاطاً عنه) عند ذبول ظاهرهم عن الانتعاش[2] .

ويقال تكسر الظاهر عند تكسر الباطن وبالعكس من هذه لا يسألون الناس إلحافاً ، فإن جرى منهم من الخلق بدون الإلحاف سؤال — لما يشير إليه دليل الخطاب — فذلك صيانة لهم وإسر قصتهم ، لئلا يلاحظهم الخلْق بعين السؤال ، وليس على سرهم ذرة من الإثبات للأغيار[3] .

ويقال : « أُحصِرُوا فى سبيل الله » : وقفوا على حكم الله ، وأَحْصَرُوا نفوسَهم على طاعته وقلوبَهم على معرفته ، وأرواحَهم على محبته ، وأسرارَهم على رؤيته .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار
سِرّاً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم
ولا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ﴾

مادام لهم مال لا يفترون ساعة عن إنفاقه ليلاً ونهاراً ، فإذا نفد المال لا يفترون عن شهوده لحظةً ليلاً ونهاراً .

---

(١) مشتبهة وقد آثرنا أن ننقلها كما هى وربما كانت (سقما) أى علة فى التوحيد .
(٢) العبارة فيها شيء من غموض نتيجة اشتباه ما بين القوسين ولكن المراد — والله أعلم — أنه بينما تبدو ظواهرهم ذابلة بحكم التواضع والانكسار فإن أسرارهم جادة فى التسبيح من حول العرش .
(٣) هنا يبدو القشيرى متأثراً بتعاليم أهل الملامة النيسابورية .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين يأكلون الربا لا يقومون
إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان
مِنْ المسِّ ، ذلك بأنهم قالوا إنما البيع
مثل الربا ، وأحلَّ الله البيعَ وحرَّم
الربا ، فَمَنْ جاءه موعظة من ربه
فانتهى فله ماسلف ، وأمْرُهُ إلى الله
ومَنْ عاد فأولئك أصحاب النـار
هم فيها خالدون ﴾

مَنْ أعرض عن الأمر ، ورخَّص لنفسه بما يسوِّله له خاطره من التأويل فلا استقلال لهم فى الحال ولا انتعاش فى المآل ؛ خسروا فى عاجلهم ولم يربحوا فى آجلهم .

ومَنْ انتبه بزواجر الوعظ ، وكَبَحَ لجامَ الهوى ، ولم يُطْلِقْ عنان الإصرار فَلَهُ الإمهال فى الحال ، فإنْ عاد إلى مذموم تلك الأحوال فلْيَنْتَظِروا أوشكَ الاستئصال وفجاءة النَّـكال.

قوله جل ذكره : ﴿ يَمْحَقُ اللهُ الربا ويُرْبى الصدقاتِ
والله لا يحبُّ كُلَّ كَفَّار أثيم ﴾ .

ما كان بإذن منه —سبحانه— من التصرفَّات فمقرون بالخيرات ، ومصحوب بالبركات .
وما كان بمتابعة الهوى يُسَلِّط عليه المَحْقَ ، وكانت عاقبة أمره الخسران .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين آمنوا وعَمِلُوا الصالحات
وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم
عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم
يحزنون ﴾ .

إن الذين كانوا لنا يكفيهم ما يجدون مِنَّا ، لا نضيع أجر من أحسن عملاً .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا
ما بقى من الربا إنْ كنتم مؤمنين ﴾

الاكتفاء بموعود الربِّ خيرٌ للمسلم من تعليق قلبه بمقصود نفسه .

ومقصودُك من تسويلات النفس ، وموعودك مما ضمنه الحق .

قوله جل ذكره : ﴿ فإنْ لم تفعلوا فَأْذَنُوا بحربٍ من الله ورسوله،وإنْ تُبْتُم فلكم رءوس أموالكم لا تَظْلِمون ولا تُظْلَمون ﴾

إن صاحب الإصرار ليس له عندنا وزن ولا مقدار ، ولا قَدْرٌ ولا أخطار .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنْ كان ذو عُسْرَةٍ فَنَظِرةٌ إلى ميسرة وَأنْ تَصَدَّقُوا خيرٌ لكم إنْ كنتم تعلمون ﴾ .

إذا تقرر عند القاضى إفلاس المحبوس فلا تحل له استدامة حَبْسه ، وإن ظهرت لذى الحق حجة المفلس فذلك مرتهن بحق خصمه ، ولكنه فى إمهال وإنظار . والرب لا يحكم بهذا علينا ؛ فمع علمه بإعسارنا وعجزنا ، وصدق افتقارنا إليه وانقطاعنا له — يرحمنا .

قوله « إلى ميسرة » : ليس للفقير المفلس وجه يحصل له منه شىء إلا من حيث ما جعل الله سبحانه من سهم الغارمين ، فأمَّا من جهة الغلات فالغلة تدخل من رقاب الأموال والعقد .. وأنَّى للمفلس به ؟ !

وأمَّا الربح فى التجارة من تقليب رأس المال والتصرُّف فيه .. فأنَّى المفلس به ؟ !

ما بقى للمفلس إلا قول من قال من الفقهاء (. . . . .)[1] وإن كان ضعيفاً ، فذلك لمن بقيت له منة الحراك أما المفلس عن قوته — كما هو مفلس عن ماله — ما بقى له وجه إلا ما يسبب له مولاه .

قوله جل ذكره : ﴿ واتقوا يوماً تُرجَعون فيه إلى الله ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وهُمْ لا يُظْلَمُون ﴾ .

---

(١) هنا عبارة مطموسة .

الرجوع على ضربين : بالأبشار والنفوس غداً عند التوفى ، وبالأسرار والقلوب فى كل نَفَسٍ محاسبة ؛ نقْدٌ ووعد ، فَنَقْدُ مطالبته أحقُّ مما سيكون فى القيامة من وعده .

وقال للعوام : « واتقوا يوماً » وقال للخواص : « وإياى فاتقون »

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بِدَيْنٍ إلى أَجَلٍ مُسمىً فاكتبوه وليكتب بينكم كاتِبٌ بالعدل ولا يَأْبَ كاتبٌ أن يكتب كما عَلَّمه الله فليكتب وليُمْلِلْ الذى عليه الحقُّ وليَتَّقِ الله ربَّه ولا يَبْخَسْ منه شيئاً فإن كان الذى عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً أو لا يستطيع أنْ يُمِل هو فليُمْلِلْ وليُّه بالعدل ، واستشهدوا شهيدين مِنْ رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان مِمَّنْ ترضون من الشهداء أنْ تَضِلَّ إحداها فتذكرَ إحداها الأخرى ولا يأبَ الشهداء إذا ما دُعُوا ، ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلاَّ أنْ تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جُناح ألا تكتبوها ، وأشهِدوا إذا تبايعتم ، ولا يُضَارَّ كاتبٌ ولا شهيد وإن تفعلوا فإنه فُسُوقٌ بكم ، واتقوا الله ويُعلِّمُكُم

الله ، والله بكل شيء عليم * وإنْ
كنتم على سفَرٍ ولم تجدوا كاتباً
فرِهَانٌ مقبوضة فإنْ أمِنَ بعضكم
بعضاً فليؤد الذى أُؤْتمِنَ أمانَتَه
وَلْيَتَّقِ اللهَ ربَّه ولا تـكتموا
الشهادة وَمَنْ يكتمها فإنه آثِمٌ
قلبُه والله بما تعملون عليم ﴾ .

أَمَرَ الله سبحانه الخلْقَ بالقيام بالصدق ، وعَلَّمَهم كيفية معاملاتهم فيما بينهم ، والأخذ بالاحتياط والاستشهاد لئلا يُجْرِيَ — بعضُهم على بعض — حيفاً ، وذلك من مقتضى رحمته سبحانه عليهم ، وموجب رِفقِهِ بهم كيلا يتخاصموا . فأمر بتحصين الحقوق بالـكتابة والإشهاد ، وأمر الشهود بالتحمل ثم بالإقامة .

ومن شرع اليومَ ما يقطع الخصومة بينهم فبالحرى أن يجرى ما يرفع فى الآخرة آثار الخصومة[1] بينهم ، وفى الخبر المنقول : تواهبوا فيما بينـكم فقد وهبت منكم مالى عليـكم ، فإن الـكريم إذا قدر غفر .

وفيما شرع من الدَّيْن[2] رِفْق بأرباب الحاجات ، لأن الحاجة تمس فيحمله الحال على الاحتيال، ويضيق به الصدر عن الاحتمال ، ويمنعه حفظ التجمل عن الـكدية والسؤال ، فأذِنَ له فى الاستدانة لِيَجْبُرَ أمرَه فى الحال ، وينتظرَ فضل اللهِ فى المآل ، وقد وعد على الإدانة الثوابَ الـكثير ، وذلك من لطفه تعالى .

قوله جل ذكره : ﴿ للهِ ما فى السموات وما فى الأرض
وإن تبدُوا ما فى أنفسكم أو تُخفوه
يحاسبْـكم به اللهُ فيغفرُ لِمَنْ يَشاء

(١) وردت (الحـكومة) ونظن أنها خطأ فى النسخ وأن الأصل (الخصومة) .
(٢) ضبطناها هكذا وذلك هو الملائم للسياق .

ويعذبُ من يشاء واللهُ على كلِّ شيء
قدير ﴾ .

من المعانى والدعاوى ، ويقال من القصود والرغائب ، وفنون الحوائج والمطالب .

ويقال ما « تبديه » : العبادة ، « وما تخفيه » الإرادة .

ويقال ما « تخفيه » : الخطرات و « ماتبديه » : « العبارات » .

ويقال ما « تخفيه » : السكنات والحركات[1]

ويقال الإشارة فيه إلى استدامة المراقبة واستصحاب المحاسبة ، فلا تعقل[2] خطرة ولا تحمل وقتك نَفَساً[3] .

قوله جل ذكره : ﴿ آمن الرسولُ بما أُنْزِلَ إليه من ربهِّ
والمؤمنون كلٌّ آمَنَ باللهِ وملائكته
وكتبِه ورُسُله لا نُفَرِّقُ بين أَحَدٍ
من رُسُلِه وقالوا سَمِعْنَا وأَطَعْنَا
غُفْرَانك ربَّنا وإليك المصير ﴾ .

هذه شهادة الحق – سبحانه – لنبيِّه – صلى الله عليه وسلم وعلى آله – بالإيمان ، وذلك أتمُّ له من إخباره عن نفسه بشهادته .

ويقال آمن الخلق كلُّهم من حيث البرهان وآمن الرسول – عليه السلام – من حيث العيان .

ويقال آمن الخلْق بالوسائط وآمن محمد – صلى الله عليه وسلم – بغير واسطة .

---

(١) ربما كانت فى الأصل « تخفيه » السكنات « وتبديه » الحركات وسقطت تبديه من الناسخ .
(٢) وردت (تعقل وربما صحت على أساس أن تعقل (بمعنى تحبس) أو بمعنى استخدام العقل ، وهو فى هذه الحالة آفة تعترض الفناء الكامل .
(٣) ضبطناها هكذا لأن الانتباه إلى (التنفّس) أمارة عدم اكتمال الفناء .

ويقال هذا خطاب الحق معه ليلة المعراج على جهة تعظيم القَدْر فقال « آمن الرسول » ، ولم يقل آمنتَ ، كما تقول لعظيم الشأن من الناس : قال الشيخ ، وأنت تريد قلتَ .

ويقال آمن الرسرل والمؤمنون كلٌ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، ولكن شتان بين إيمان وإيمان ، الكلُّ آمنوا استدلالا ، وأنت يا محمد آمنتَ وصالا .

قوله جل ذكره ﴿ لا يكلِّف الله نَفْساً إلا وُسْعَها ﴾

لكمال رحمته بهم وقفهم على حد وسعهم ودون ذلك بكثير ، كل ذلك رِفق منه وفضل .

﴿ لهـا ما كَسَبَتْ ﴾

من الخيرات .

﴿ وعليها ما ا كْتَسَبَتْ ﴾

ما تكسبه من التوبة التى تُنَجِّى من كسب[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبَّنا ولا تَحمِلْ علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربّنا ولا تُحمِّلنا ما لا طاقة لنا به ﴾

كان إذا وقعت حاجة كلَّموه بلسان الواسطة . قالوا « ياموسى ادْعُ لنا ربك » وهذه الأمة قال لهم : « وقال ربكم ادعونى أستجب لكم » .

وكانت الأمم (السالفة)[2] إذا أذنبوا احتاجوا إلى مضى مدة لقبول التوبة ، وفى هذه الأمة قال صلى الله عليه وسلم : « الندم توبة » . . .

وكانت الأمم السالفة منهم من قال اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، وهذه الأمة اختصت بإشراق أنوار توحيدهم ، وخصائصهم أكثر من أن يأتى عليه الشرح .

---

(١) قد يبدو للوهلة الأولى ان القشيرى فى استخراج إشارته من (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) يتجه إتجاهاً مخالفاً للتفسير التقليدى ، ولكن الواقع ان إشارة القشيرى مرتبطة بمذهبه فى أن الله خالق كل شىء حتى أفعال العباد ، فهو خالق التوبة وحين يتقبلها تعود (على) العبد ، انظر مثلا تفسيره (ويتوب عليكم) من سورة النساء من (المجلد الثانى من هذا الكتاب) .

(٢) (السالفة) موجودة فى الهوامش فأثبتناها فى موضعها من المتن .

قوله جل ذكره : ﴿ واعفُ عنَّا ﴾

فى الحال

﴿ واغفر لنـا ﴾

فى المـآل

﴿ وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا
على القوم الـكافرين ﴾

فى جميع الأحوال إذ ليس لنا أحد سواك ، فأنت مولانا فاجعل النصرة لنـا على ما يشغلنا عنك .

ولما قالوا « ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا » خَفَّفَ الله ذنوبهم بدل خسف المتقدمين ، فأبدل ذنوبهم حسنات بدل مسخهم ، وأمطر عليهم الرحمة بدل ما أمطر على المتقدمين من الحجارة .

والحمد لله رب العالمين .

السورة التى يذكر فيها آل عمران

« بسم الله الرحمن الرحيم »

اختلف أهل التحقيق فى اسم « الله » هل هو مشتق من معنًى أم لا ؟ فـكثير منهم قالوا إنه ليس بمشتق من معنيً ، وهو له سبحانه على جهة الاختصاص[1] ، يجرى فى وضعه مجرى أسماء الأعلام فى صفة غيره ، فاذا قرع بهذا اللفظ أسماء أهل المعرفة لم تذهب فُهومُهم ولا علومهم إلى معنى غير وجوده سبحانه وحقه . وحقٌّ هذه المقالة أن تـكون مقرونة بشهود القلب فاذا قال بلسانه « الله » أو سمع بآذانه شهد بقلبه « الله » .

وكما لا تدل هذه الـكلمة على معنى سوى « الله » لا يـكون مشهودُ قائلها إلا « الله » فيقول بلسانه « الله » ، ويعلم بفؤاده « الله » ، ويعرف بقلبه « الله » ، ويحب بروحه « الله » ،

---

(١) وردت (الاقتصاص) .

ويشهد بسره «الله»، ويتملق[1] بظاهره بين يدى الله، ويتحقق بسرِّه الله، ويخلو بأحواله لله وفى الله، فلا يكون فيه نصيب لغير الله، وإذا أشرف على أن يصير محواً فى الله لله بالله تداركه الحق سبحانه برحمته فيكاشفه بقوله[2] الرحمن الرحيم استبقاءا لمهجتهم أن تتلف، وإرادةً فى قلوبهم أن تنقى؛ فالتلطفُ سُنَّة منه سبحانه لئلا يفنى أولياؤه بالكلية.

قوله جل ذكره: ﴿الم * الله﴾

أشار بقوله ألف إلى قيامه بكفايتك على عموم أحوالك، فأنت فى أسر الغفلة لا تهتدى إلى صلاحك ورشدك، وهو مجرٍ مايجبرُك، وكافٍ بما ينصرك، فبغير سؤالك — بل بغير علمك بحالك — يكفيك من حيث لا تشعر، ويعطيك من غير أن تطلب.

والإشارة من اللام إلى لطفه بك فى خفىِّ السِّر حتى أنه لا يظهر عليك محل المنة فيما يثبتك فيه. والإشارة من الميم لموافقة جريان التقدير بمتعلقات الطِّلْبَةِ من الأولياء، فلا يتحرك فى العالم شىء، ولا تظهر ذرة إلا وهو بمحل الرضا منهم حتى أن قائلاً لو قال فى قوله: «كل يوم هو فى شان» إن ذلك الشان تحقيق مراد الأولياء — لم يكن ذلك ببعيد.

ويقال تفرَّق عن القلوب — باستماع هذه الحروف المقطعة التى هى خلاف عادة الناس فى التخاطب — كلُّ معلومٍ ومرسوم، ومعتاد وموهوم، من ضرورة أو حِسٍّ أو اجتهاد، حتى إذا خلت القلوب عن الموهومات والمعلومات، وصفَى الأسرار عن المعتادات والمعهودات يَرِدُ هذا الاسم وهو قوله: «الله» على قلبٍ مقدَّسٍ من كل غَيْرٍ، وسِرٍّ مصفىً عن كل كيف؛ فقال «الم الله لا إله إلا هو الحى القيوم».

فهو الذى لا يلهو فيشتغل عنك، ولا يسهو فتبقى عنه، فهو على عموم أحوالك رقيبُ سِرِّك؛ إنْ خلوتَ فهو رقيبك، وإن توسطت الخَلْقَ فهو رقيبك[3]، وفى الجملة — كيفما دارت بك الأحوال — فهو حبيبك.

---

(١) إستخدم القشيرى هذا الفعل فى موضع مماثل عند قوله (تذكير ماسلف من الإنعام فتح لباب التملق فى اقتضاء امثاله فى المستقبل) وفى موضع آخر (فبحمله صدق الإرادة على التملق والتضرع ص ٢٤٨ من هذا الجزء.

(٢) وردت (بقو).

(٣) وردت فهو (قريبك) والمعنى يحتملها ولكن الانسجام فى الأسلوب يتطلب (رقيبك) مكررة

قوله جل ذكره : ﴿ نَزَّلَ عليكَ الكتابَ بالحقِّ ﴾ .

وما كنتَ يا محمد تدرى ما الكتاب ، ولا قصة الأحباب ، ولكنما صادفك اختيار أزلىّ فألقاك فى أمرٍ عجيبٍ شانُه ، جَلِىٍّ برهانُه ، عزيزٍ محلُّه ومكانُه .

﴿ مُصَدِّقاً لِماَ بين يديه ﴾ .

أى محققاً لموعوده لك فى الكتاب على ألسنة الرسل عليهم السلام .

﴿ وأنزل التوراة والإنجيل * مِن قبلُ هدى للناسِ وأنزل الفُرقان ﴾ .

أى إنا وإن أنزلنا قبلك كُتُبَناَ على المرسلين فما أخْلَيْناَ كتاباً من ذِكْرِكْ ، قال قائلهم :

وعندى لأحبابنا الغائبين صحائفُ ذِكرُك عنوانُها

وكما أتممنا بك أنوار الأنبياء زيَّنا بذكرك جميع ما أنزلنا من الأذكار .

قوله جل ذكره : ﴿ إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد ﴾ .

وهو ذُلُّ الحجاب ، ولكنهم لا يشعرون .

« والله عزيز » على أوليائه « ذو انتقام » من أعدائه ، عزيز يطلبه كل أحد ، ولكن لا يجده — كثيراً — أحد .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الله لايخفى عليه شىء فى الأرضِ ولا فى السماء ﴾ .

لا يتنفس عبدٌ نَفَساً إلا والله سبحانه وتعالى مُحْصِيه[1] ، ولا تحصل فى السماء والأرض ذرة لا وهو سبحانه مُحْدِثُهُ ومُبْدِيه ، ولا يكون أحد بوصف ولا نعت إلا هو متوليه .

هذا على العموم ، فأمَّا على الخصوص : فلا رَفَعَ أحدٌ إليه حاجةً إلا وهو قاضيها ، ولا رجع أحدٌ إليه فى نازلة إلا وهو كافيها .

---

(١) وردت (محيصة) وهى خطا من الناسخ .

قوله جل ذكره : ﴿ هو الذى يُصَوِّرُكم فى الأرحام كيف يشاء ﴾ .

هذا فيما لا يزال من حيث الخلقة ، وهو الذى قدَّر أحوالكم فى الأزل كيف شاء ، وهذا فيما لم يزل من حيث القضاء والقسمة .

﴿ لا إله إلا هو العزيز الحكيم ﴾

فلا يُعَقَّبُ حكمُه بالنقض ، أو يُعَارَضُ تقديره بالإهمال والرفض .

قوله جل ذكره : ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أُمُّ الكتاب وأُخَرُ مُتَشَابِهات فأمَّا الذين فى قلوبهم زَيْغٌ فيَتَّبِعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العِلْمِ يقولون آمنا به ، كلٌّ مِنْ عِندِ ربِّنا ، وَمَا يذَّكَّرُ إلا أولو الألباب ﴾

جَنَّسَ عليهم الخطاب ؛ فمِنْ ظاهرٍ واضح تنزيله ، ومن غامض مشكل تأويله . القِسْم الأول لبسط الشرع واهتداء أهل الظاهر ، والقِسْم الثانى لصيانة الأسرار عن اطلاع الأجانب عليها ، فسبيلُ العلماءِ الرسوخُ فى طلب معناه على ما يوافق الأصول ، فما حصل عليه الوقوف فمُقَابَلٌ بالقبول ، وما امتنع من التأثر فيه بمعلول الفكر سلَّموه إلى عالم الغيب .

وسبيل أهل الإشارة والفهم إلقاء السمع بحضور القلب ، فما سنح لفهومهم من لائح التعريفات بَنَوْا (عليه)(1) إشارات الكشف .

---

(١) فى ص (بنوا على) والأصوب (بنوا عليه) حتى تتماسك العبارة لأن الإشارة تنبنى على التعريف .

إنْ (طولبوا)[1] باستدامة الستر وطيِّ السِّر تخارسوا عن النطق ، وإنْ أُمِروا بالإظهار والنشر أطلقوا بيان الحق ، ونطقوا عن تعريفات الغيبة ، فأمَّا الذين أُيِّدوا بأنوار البصائر فستضيئون بشعاع شموس الفهم ، وأمّا الذين أُلبسوا غطاء الريب ، وحرموا لطائف التحقيق ، فتتقسم بهم الأحوال وتَتَرجَّمُ بهم الظنون ، ويطيحون فى أودية الرَّيْبِ والتلبيس ، فلا يزدادون إلا جهلاً على جهل ، ونفوراً على شك .

قوله جل ذكره : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾

ومَنْ وجد علمه من الله فيكون إيمانهم بلا احتمال جولان خواطر التجويز بل عن صريحات الظهور ، وصافيات اليقين . وأمّا أصحاب العقول الصاحية ففى صحبة التذكر ، لظهور البراهين و (. . . .)[2] أحكام التحصيل .

قوله جل ذكره : ﴿ ربَّنا لا تُزِغْ قلوبنا بعد إذ هَدَيْتنا وَهَبْ لنا من لدُنك رحمة إنَّكَ أنت الوَهَّاب ﴾

ما ازدادوا قرباً إلا ازدادوا أدباً ، واللياذ إلى التباعد أقوى أسباب رعاية الأدب[3] .

ويقال حين صدقوا فى حسن الاستغاثة أُمِدُّوا بأنوار الكفاية .

قوله جل ذكره : ﴿ رَبَّنا إنَّكَ جامِعُ الناس ليوم لا ريب فيه إنَّ الله لا يُخْلِفُ الميعاد ﴾

اليوم جمع الأحباب على بساط الاقتراب ، وغداً جمع الكافة لمحل الثواب والعقاب ،

---

(١) فى ص (طالبوا) والأوفق أن تبنى للمجهول مثل (أمِروا) التى بعدها ، لأن فاعليتهم حينئذ مفقودة .

(٢) مشتبهة .

(٣) ربما يقصد القشيرى من هذه العبارة أنهم أبداً طامعون فى الهداية محتاجون - لا لأعمالهم - بل لفضل الله ، ومهما أسبغ عليهم يشعرون بأنهم ما زالوا بعيدين عن التمام ، وعلى هذا التفسير تنسجم هذه العبارة مع سابقتها « ما ازدادوا قرباً إلا ازدادوا أدباً » .

اليوم جمع الأسرار لكشف الجلال والجمال ، وغداً جمع الأبشار لشهود الأحوال ، ومقاساة ما أخبر عنه من تلك الأحوال .

قوله جل ذكره : ﴿ إن الذين كفروا لن تُغْنِيَ عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود النار ﴾

فلا فداء ينفعهم ، ولا غناء يدفعهم ، ولا مال يُقبَلُ منهم ، ولا حجاب يُرفَع عنهم،ولا مقال يُسمَع فيهم ، بهم يُسَعَّرُ الجحيم ، ولهم الطرد الأليم ، والبعد والحميم .

قوله جل ذكره : ﴿ كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كَذَّبوا بآيتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب ﴾

أصرُّوا فى العتوِّ على سَنَنِهم ، وأدَمْنَا لهم فى الانتقام سَنَنَنَا ، فلا عن الإصرار أقلعوا ، ولا فى المَبَارِّ طَمِعُوا ، ولعمرى إنهم هم الذين نَدِموا وتحسَّرُوا على ما قدَّموا — ولكنْ حينما وجدوا البابَ مسدوداً ، والندمَ عليهم مردودا .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ للذين كفروا سَتُغْلَبُون وتُحْشَرون إلى جهنم وبئس المِهاد ﴾

أخبرهم أنهم يفوتهم حديث الحق فى الآجل[1] ، ولا تكون لهم لذةُ عيشٍ فى العاجل ، والذى يلقونه فى الآخرة من شدة العقوبة بالُحرْقة فوق ما يصيبهم فى الدنيا من الغيبة عن الله والفرقة[2] ، ولكن سَقِمتْ البصائر فلم يحسوا بأليم العقاب .

---

(١) يشير القشيرى بهذا إلى الآية الكريمة « لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم » .

(٢) أما الخواص فيرون رؤية الله منتهى آمالهم ، وصدُّه عنهم أشد عليهم من عذاب السعير ، يقول البسطامى : « لله خواصٌ من عباده لو حجبهم فى الجنة عن رؤيته ساعة لاستغاثوا بالخروج من الجنة كما يستغيث أهل النار من النار » .

قوله جل ذكره : ﴿ قد كان لكم آيةٌ فى فئتين التقتا فِئة
تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة
يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد
بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة
لأولى الأبصار ﴾

إذا أراد اللهُ إمضاء أمرٍ قلّل الكثير فى أعين قوم ، وكثّر القليل فى أعين قوم ، وإذا لبَّس على بصيرة قوم لم ينفعهم نفاذ أبصارهم ، وإذا فتح أسرار آخرين فلا يضرهم انسداد بصائرهم[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ زُيِّن للناسِ حُبُّ الشهواتِ مِن النساء
والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب
والفضة والخيل المسومة والأنعام
والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله
عنده حُسْنُ المآب ﴾

يذكر بعض الشهوات على ما سواها مما هو فى معناها ، وفى الجملة ما يحجبك عن الشهود فهو من جملتها . وأصعب العوائق فى هذه الطريق الشهوة الخفية . وأداء الطاعاتِ على وجه الاستحلاء معدودٌ عندهم فى جملة الشهوة الخفية . ومن المقاطع المشكلة السكون إلى ما يلقاك به من فنون تقريبك ، وكأنه فى حال ما يناجيك يناغيك ، فإنه بكل لطيفة يصنك (فيطريك)[2] وتحتها خُدَعٌ خافية . ومن أدركته السعادة كاشفه بشهود جلاله وجماله (لا)[3] بإثباته فى لطيف أحواله وما يخصه به من أفضاله وإقباله .

---

(١) من هذا نفهم أن ترتيب ملكات الاطلاع عند القشيرى هو على هذا النحو : البصر ثم البصيرة ثم السر
(٢) مستدركة فى الهامش فأثبتناها فى موضعها .
(٣) نظن أن (لا) زائدة لأن السعادة التى تدرك العبد لا تتم إلا (بإثباته فى . .) .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أَأُنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جناتٌ تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواجٌ مُطَهَّرة ورضوانٌ من الله والله بصير بالعباد ﴾

بيَّن فضيلة أهل التقوى على أرباب الدنيا ، فقال : هؤلاء لهم متابعة المنى وموافقة الهوى وأولئك لهم الدرجات العُلى ، والله بصير بالعباد ؛ أنزل كل قوم مَنْزِلَه ، وأوصله إلى ما لَهُ أَهْلَه .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين يقولون ربنا آمَنَّا فاغفر لنا ذنوبنا وقِنا عذاب النار ﴾

أى ينقطعون إلينا بالكلية ، ويتضرعون بين أيدينا بذكر المحن والرزية ، أولئك ينالون منا القربة والخصوصية ، والدرجات العليَّة ، والقِسَم المرْضيَّة .

قوله جل ذكره : ﴿ الصابرين والصادقين والقانتين والمُنْفِقين والمستغفرين بالأسحار ﴾

الصبرُ حبسُ النَّفْس ، وذلك على ثلاث مراتب :

صبر على ما أُمِرَ به العبد ، وصبر عما نُهِىَ عنه وصبر هو الوقوف تحت جريان حكمه على ما يريد ؛ إمَّا فى فوات محبوبك أو هجوم ما لا تستطيعه[1] .

فإذا ترقيتَ عن هذه الصفة ـ بألا تصيبك مشقةٌ أو تنال راحةً ـ فذلك رضاً لا صبر[2] .

ويقال الصابرين على أمر الله ، والصادقين ، فيما عاهدوا الله .

و « القانتين » ، بنفوسهم بالاستقامة فى محبة الله .

---

(١) فوات المحبوب صدُّه عنك وهجره لك ، والهجوم الذى لا تستطيعه هو الذى (يرد على القلب بقوة الوقت من غير تصنع منك ، ومنهم من تصرفه الهواجم ومنهم من يكون فوق ما يفجؤه حالا وقوة ، أولئك سادات الوقت) الرسالة ص ٤٤ .

(٢) لاحظ الفرق بين الرضا والصبر .

و « المستغفرين » عن جميع ما فعلوه لرؤية تقصيرهم فى الله[1] .

ويقال : « الصابرين » بقلوبهم و « الصادقين » بأرواحهم و « القانتين » بنفوسهم ، و « المستغفرين » بألسنتهم .

ويقال « الصابرين » على صدق القصود و « الصادقين » فى العهود و « القانتين » بحفظ الحدود و « المستغفرين » عن أعمالهم وأحوالهم عند استيلاء سلطان التوحيد .

ويقال « الصابرين » الذين صبروا على الطلب ولم يتعللوا بالهرب ولم يحتشموا من التعب ، وهجروا كل راحة وطلب . وصبروا على البلوى ، ورفضوا الشكوى، حتى وصلوا إلى المولى ، ولم يقطعهم[2] شىء من الدنيا والعقبى .

و « الصادقين » الذين صدقوا فى الطلب فقصدوا ، ثم صدقوا حتى وردوا ، ثم صدقوا حتى شهدوا ، ثم صدقوا حتى وجدوا ، ثم صدقوا حتى فقدوا .. فترتيبهم قصود ثم ورود ثم شهود ثم وجود ثم خمود[3] .

و « القانتين » الذين لازموا الباب ، وداوموا على تجرّع الاكتئاب ،

وتركوا المحاب ، ورفضوا الأصحاب إلى أن تحققوا بالاقتراب .

و « المُنْفِقِين » الذين جادوا بنفوسهم من حيث الأعمال ، (ثم جادوا بميسورهم من الأموال)[4] ، ثم جادوا بقلوبهم بصدق الأحوال ، ثم جادوا بترك كل حظٍ لهم فى العاجل والآجل ، استهلاكا عند القرب والوصال بما لقوا من الاصطلام والاستئصال[5] .

و « المستغفرين » عن جميع ذلك إذا رجعوا إلى الصحو عند الاسحار يعنى ظهور الإسفار ، وهو فجر القلوب لا فجرٌ يظهر فى الأقطار .

---

(١) قارن ذلك بما يحكيه المناوى في (طبقاته) وابن الجوزى فى (صفة الصفوة) عن رابعة أنها كانت تردد : (استغفارنا يحتاج إلى استغفار لعدم الصدق فيه) .

(٢) قواطع الدنيا معروفة أما قواطع العقبى فهى تعليق العمل المبذول بالاجر ، إما الطمع فى المثوبة أو الخوف من العقوبة .

(٣) هذا تلخيص دقيق للمعراج الروحى ينبغى أن نتمهل عنده لحسن فهمه واستيعابه .

(٤) مستدركة فيما بين السطور فأثبتناها فى موضعها .

(٥) الاستئصال هو الذى عبر عنه القشيرى فى رسالته بقوله : (كأس تصطلمهم منهم وتفنيهم وتختطفهم ولا تبقهم ، كأس لا تبقى ولا تذر ، تمحوم بالكلية ، ولاتبقى شظية من آثار البشرية) الرسالة ص ٤٣

قوله جل ذكره : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّه لا إله إلا هو ﴾

أى عَلِمَ اللهُ وأخبر اللهُ وحَكَمَ اللهُ بأنه لا إله إلا هو ، فهو شهادة الحق للحق بأنه الحق ، وأوَّلُ مَنْ شهد بأنه اللهُ — اللهُ ، فشهد فى آزاله بقوله وكلامه وخطابه الأزلى ، وأخبر عن وجوده الأحدى ، وكونه الصمدى ، وعونه القيومى ، وذاته الديمومى ، وجلاله السرمدى ، وجماله الأبدى . فقال : « شهد الله » ثم فى آباده ، « شهد الله » أى بَيَّنَ اللهُ بما نَصَبَ من البراهين ، وأثبت من دلائل اليقين ، وأوضح من الآيات ، وأبدى من البينات . فكلُّ جزء من جميع ما خلق وفطر ، ومن كتم العدم أظهر ، وعلى ما شاء من الصفة الذاتية حصل ، من أعيان مستقلة ، وآثار فى (ثانى)[1] وجودها مضمحلة ، وذوات الملاقاة قابلة ، وصفات فى المحَالِّ متعاقبة — فهو لوجوده مُفْصِح ، ولربوبيته موضِّح ، وعلى قِدَمِه شاهد ، وللعقول مُخْبِر بأنه واحد ، عزيز ماجد ، شهد سبحانه بجلال قَدْره ، وكمال عزه ، حين لا جحد ولا جهود[2] ولا عرفان لمخلوق ولا عقل ، ولا وفاق ، ولا كفر ، ولا حدثان ، ولا غير ، ولا إلحاد ، ولا شِرْك ، ولا فهم ولا فكر ، ولا سماء ولا فضاء ، ولا ظلام ولا ضياء ، ولا وصول للمزدوجات[3] ، ولا فضول باختلاف الآفات .

قوله جل ذكره : ﴿ والملائكةُ ﴾

لم يؤيِّد شهادته بوحدانيته بشهادة الملائكة بل أسعدهم وأيَّدهم ، حين وفَّقهم بشهادته وسدَّدهم ، وإلى معرفة وحدانيته أرشدهم .

قولة جل ذكره : ﴿ وأولو العِلم ﴾

وهم أولياء بنى آدم إذ علموا جلال قدرته ، وعرفوا نعت عزته فأكرمهم حيث قرن شهادته بشهادتهم ، فشهدوا عن شهود وتعيين ، لا عن ظن وتخمين ، إن لم يدركوه — اليوم —

(١) ربما كانت في الأصل فى (شان) وجودها ... بتخفيف الهمز .

(٢) ربما كانت فى الأصل (جحود) ، ويحتمل أنها (جهود) فيكون المقصود الجهود الإنسانية الكسبية .

(٣) ربما قصد منها كل شيء وضده ، وربما كانت (للدرجات) .

ضرورة وحِسًّا ، لم يعتقدوه ظنًا وحَدْساً ، تعرَّف إليهم فعرفوه ، وأشهدهم فلذلك شهدوا ، ولو لم يقُلْ لهم إنه مَنْ هو لَمَا عرفوا مَنْ هو .

ولكنَّ العلماء يشهدون بصحو عقولهم ، والمُوَحِّدُون يشهدون بعد خمودهم ؛ فهم كما قيل :

مُسْتَهْلَكُون بقهر الحق قد هَمَدُوا واستُنْطِقُوا بعد افتنائهمُ بتوحيد

فالمُجْرِي عليهم ما يبدو منهم — سواهم ، والقائمُ عنهم بما هم عليه وبه — غيرُهم ، ولقد كانوا لكنهم بانوا ، قال قائلهم :

كتابي إليكم بعد موتى بليلة ولم أدرِ أنِّي بعد موتيَ أكتب

وأولو العلم على مراتب : فَمِنْ عالِمٍ نَعْتُه وفاق ورهبانية ، ومن عالم وصفه فناء وربانية ، وعالم يعرف أحكام حلاله وحرامه ، وعالم يعلم أخباره وسننه وآثاره ، وعالم يعلم كتابه ويعرف تفسيره وتأويله ، ومحكمه وتنزيله ، وعالم يعلم صفاته ونعوته ويستقوى حججه وتوحيده بحديث يخرجه (. . . .)[1] ، وعالمٍ لاطفه حتى أحضره ثم كاشَفَه فقهره ، فالاسم باقٍ ، والعين محو ، والحكم طارق والعبد محق ، قال قائلهم .

بنو حق غدوا بالحق صِرفاً فنعت الخلْق فيهمو مستورُ

وليست الإشارة من هذا إلا إلى فنائهم عن إحساسهم ، وعند عِلْمِهم بأنفسهم ، فأما أعمالهم[2] أعيانهم فمخلوقة ، وما يفهم بذواتهم من أحوالهم فمسبوقة ، وذات الحق لا توصف بقبول حدثان ، وصفات ذاته لا تقبل اتصالاً بالغير ولا انفصالاً عن الذات ، تقدَّس الحق عن كل ضدٍّ وندٍّ ، ووصل وفصل ، وجمع وفرق ، وعين وخلق ، وملك وفلك ، ورسم وأثر ، وعبد وبشر ، وشمس وقمر ، وشخص وغَبَر .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الدينَ عند الله الإسلام ﴾ .

---

(١) مشتبهة .

(٢) نرجح أنه فى الأصل (وأعيانهم) وأن الواو سقطت من الناسخ أى أنهم وما يصنعون — من خلق الله ، وذلك الأصل من الأصول الكلامية عند القشيرى .

الدِّينُ الذى يرتضيه ، والذى حكم لصاحبه بأنه يجازيه ويعليه ، وبالفضل يُلَقِّيه — هو الإسلام .

والإسلام هو الإخلاص والاستسلام ، وما سواه فمردود ، وطريق النجاة على صاحبه مسدود .

قوله جل ذكره : ﴿ وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا مِنْ بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ، ومَنْ يكفر بآيات الله فإنَّ الله سريع الحساب ﴾ .

جاءهم العلم الذى عليهم حجة ، لا المعرفة التى لها بيان ومحجة ، فأصروا على الجحود ، لأنهم حُجِبُوا عن محل الشهود .

قوله جل ذكره : ﴿ فإنْ حاجوك فَقُلْ أَسْلَمْتُ وجهى لله ومَنِ اتَّبَعَنِ ، وقُل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسْلَمْتُمْ ، فإنْ أسلموا فقد اهتدوا ، وإنْ تولَّوْا فإنما عليك البلاغ ، والله بصير بالعباد ﴾ .

طَالِعْهُم بعين التصريف كيلا يفترق بك الحال فى شهود اختلافهم وتباين أطوارهم ؛ فإنَّ مَنْ طالَعَ الكائناتِ بعين القدرة علم أن المُثْبِتَ للكلِّ — على ما اختص به كل واحد من الكل — واحدٌ .

فَأَدْعُهم جهراً بجهر ، واشهد تصريفنا إياهم سِرًّا بسر ، واشغل لسانك بنصحهم ، وفرِّغ قلبك عن حديثهم ، وأفرد سِرَّك عن شهودهم ، فليس الذى كلفناك من أمورهم إلا البلاغ ، والمُجرِى للأمور والمبدى — نحن .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيِّين بغير حق ، ويقتلون الذين

يأمرون بالقسط مِنْ الناس فَبَشِّرْهم
بعذابٍ أليم ﴾ .

إن الذين ربطناهم بالخذلان ووسمناهم بوصف الحرمان — أَخْبِرْهم بأن إعراضنا عنهم مؤبد ، وأن حكمنا سبق بنقلهم عن دار الجنـان إلى دار الهوان ، من الخذلان والحرمان إلى العقوبة والنيران .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك الذين حَبِطت أعمـالُهم
في الدنيـا والآخرة وما لهم من
ناصرين ﴾

أولئك الذين ليس لهم — اليومَ — توفيق بأعمالهم ، ولا غداً تحقيق لآمالهم ، وما ذلك إلا لأنهم فقدوا في الدارين نصرتنا ، ولم يشهدوا عِزَّنا وقدرتنا .

قوله جل ذكره : ﴿ أَلَمْ تَرَ إلى الذين أوتوا نصيباً من
الـكتاب يُدْعَوْن إلى كتاب الله
ليحـكم بينهم ثم يتولَّى فريق منهم
وهم مُعْرِضون ﴾

امتحناك بدعوة من سبق علمنا بأنهم لا يستجيبون ، فاصبر على ما أُمِرْتَ فيهم ، واعلم سوء أحوالهم ، فإنهم أهل التولِّي عن الإجابة ، لأنهم فقدوا منا حسن التجلي بسابق الإرادة .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك بأنهم قالوا لَنْ تَمَسَّـا النار
إلا أياما معدودات ، وغرَّهم في دينهم
ما كانوا يفترون ﴾

عاقبناهم في الدنيا بالاستدراج حتى حكموا لأنفسهم بالنجاة وتخفيف العقاب ، وسوف يعلمون تضاعف البلاء عليهم ، ويحسبون أنهم على شيء ألا أنهم هم الـكاذبون .

ظن المخطئون حكما . . .

﴿ فكيف إذا جمعناهم ليومٍ لا ريب فيه ووفيت كل نَفْسٍ ما كسبت وهم لا يُظلَمون ﴾

هذه كلمة تعجب لما أخبر به عن تعظيم الأمر ، وتفخيم الشأن عند بهتة عقولهم ودهشة أسرارهم ، وانقطاع دواعيهم ، وانخلاع قلوبهم من مكامنها ، وتراقيها إلى تراقيهم ، ثم ما يلقونه من الحساب والعتاب ، والعذاب والعقاب ، وعدم الإكرام والإيجاب ، وما فى هذا الباب .

وقيامةُ الكفار يومَ الحشر، وقيامة الأحباب فى الوقت ، ولِشَرْحِ هذا تفسير طويل[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ اللهم مالكَ المُلْكِ ﴾

«اللهم» معناها يا الله والميم فى آخرها بدل عن حرف النداء وهو يا . فهذا تعليم الحق كيفية الثناء على الحق ، أى صِفْنى بما أَسْتَحِقُّه من جلال القدْر فَقُلْ : يا مالكَ المُلْكِ لا شريكَ لكَ ولا مُعينَ ، ولا ظهير ولا قرين ، ولا مُقاسِمَ لكَ فى الذات ، ولا مُساهِمَ فى المُلْك ، ولا مُعارِضَ فى الإبداع .

﴿ تُؤْتِي المُلْكَ مَنْ تَشاء وتنزع الملك ممن تشاء ﴾

حتى نعلم أن الملك لكَ ، والمَلِكُ من المخلوقين مَنْ تَذَلَّلَ له ، ومنزوعُ المُلْكُ ممن تكبَّر عليه ؛ فَتَجَمُّلُ الخلقِ فى تذللهم للحق ، وعِزُّهم فى محوهم فيه ، وبقاؤهم فى فنائهم به

﴿ وتُعِزُّ من تشاء ﴾

بعز ذاتك .

﴿ وتُذِلُّ من تشاء ﴾

بخذلانك .

وتعز من تشاء بأن تهديه ليشهدك ويوحدك ، وتذل من تشاء بأن يجحدك ويفقدك . وتعزُّ

---

(١) من كلام القشيرى فى هذا الخصوص فى موضع آخر من هذا الكتاب :
(والقيامة عند هؤلاء تقوم كل يوم غير مرة بالهجر والنوى والفراق ، وليس لها كاشف غيره سبحانه)

من تشاء بيُمْنِ إقبالك، وتذل من تشاء بوحشة إعراضك . وتعزُّ من تشاء بأن تؤنسه بك ، وتذل من تشاء بأن توحشه عنك . وتعز من تشاء بأن تشغله بك ، وتذل من تشاء بأن تشغله عنك . وتعز من تشاء بسقوط أحكام نفسه ، وتذل من تشاء بغلبة غاغة نفسه . وتعز من تشاء بطوالع أُنسه وتذل من تشاء بطوارق[1] نفسه . وتعز من تشاء ببسطه بك ، وتذل من تشاء بقبضه عنك .

وتؤتى المُلْكَ من تشاء بشد نطاق خدمتك ، وتنزع الملك ممن تشاء بنفيه عن بساط عبادتك[2] . تؤتى الملك من تشاء بإفراد سِرِّه لك وتنزع الملك ممن تشاء بأن تربط قلبه بمخلوق ، وتعز من تشاء بإقامته بالإرادة ، وتذل من تشاء بردِّه إلى ما عليه أهل العادة .

﴿ بيدك الخير ﴾

ولم يذكر الشر حفظاً لآداب الخطاب ، وتفاؤلا بذكر الجميل ، وتطيراً من ذكر السوء .

﴿ إنك على كل شيء قدير ﴾

من الحجب والجذب ، (والنصرة)[3] والخذلان ، والأخذ والرد ، والفرق والجمع ، والقبض والبسط .

قوله جل ذكره : ﴿ تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى ، وترزق من تشاء بغير حساب ﴾

---

(١) الطوارق فى اللغة ما يطرق بالليل ، وروى عن النبى (ص) أنه كان يدعو : « وأعوذ بك من شر طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير » .

وعن بعض المشايخ : يطرق سمعى علم من علوم أهل الحقائق فلا أدعه أن يدخل قلبي إلا بعد أن أعرضه على الكتاب والسنة . (اللمع للطوسى ص ٤٢٢) .

(٢) وردت (عبادك) والأصوب أن يقال (عبادتك) لأن العبودية لا تنتفى عن مخلوق ، أما العبادة فهى حالة مخصوصة يعان عليها العبد أو لا يعان ، فالعبد إما فى العبادة أو فى العادة .

(٣) أضفنا هذه الكلمة من عندنا حتى يتم الانسجام الداخلى للأسلوب ويكون المعنى أوضح ، ونحن فى هذه الإضافة ـ كدأبنا دائماً ـ متمثلين النهج الذى يسلكه القشيرى فى مثل هذا المواضع .

تولج الليل فى النهار حتى يَغْلِبَ سلطانُ ضياءِ التوحيد فلا يَبْقَى من آثار النفس وظلماتها شىء ، وتولج النهار فى الليل حتى كأن شموسَ القلوب كُسِفَت ، أو كأن الليل دام ، وكأن الصبح فُقِد .

وتخرج الحى من الميت حتى كأن الفترة لم تكن ، وعهد الوصال رجع فَتِيًّا ، وَعُودُ القلوبِ صار غضًّا طريًّا .

وتخرج الميت من الحى حتى كأن شجرة البرم أورقت شوكا وأزهرت شوكا ، وكأن اليائس لم يجد خيراً ، ولم يشم ريحاً ، وتقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة .

﴿ وترزق من تشاء بغير حساب ﴾

حتى لا (كدر)(1) ولا جُهْدَ ولا عَرَقَ جبينٍ ، ولا تَعَبَ يمينٍ . لَيْلُهُ رَوْح وراحة ، ونهارُه طرب وبهجة ، وساعاته كرامات ، ولحظاته قُرُبات ، وأجناس أفعاله على التفصيل لا يحصرها لسان ، ولا يأتى على استقصاء كنهها عبارة ولا بيان .

وفيما لوَّحنا من ذلك تنبيه على طريق كيفية الإفصاح عنه .

ويقال لما قال : « وتنزع الملك ممن تشاء انكسر خُمَارُ كلٍّ ظانٍّ أنه مَلِكٌ لأنه شاهد ملكه يعرض للزوال فَعَلِمَ أن التذلل إليه فى استبقاء ملكه أَوْلى به من الإعجاب والإدلال .

ويقال المَلِكُ فى الحقيقة — مَنْ لا يشغله شىء بالالتفات إليه عن شهود من هو المَلِكُ على الحقيقة .

قوله جل ذكره : ﴿ لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ﴾

من حقائق الإيمان الموالاةُ فى الله والمعاداة فى الله .

وأَوْلى مَنْ تسومه الهجرانَ والإعراضَ عن الكفار — نَفْسُك ؛ فإنها مجبولةٌ على

(1) نرجح أنها (كدٌّ) بدون راء ، ومع ذلك فالمعنى يتقبل كليهما .

المجوسية حيث تقول : لى ومنى وبى[1] ، وقال الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار[2] .

وإن الإيمان فى هذه الطريقة عزيز ، ومن لا إيمان له بهذه الطريقة من العوام — وإن كانوا قد بلغوا من الزهد والجهد مبلغاً عظيماً — فليسوا بأهل لموالاتك ، والشكل بالشكل أليق .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ يفعل ذلك فليس من الله
فى شىء إلا أنْ تتقوا منهم تُقَاةً
ويحذركم الله نَفْسَه ، وإلى الله المصير ﴾

صحبة الحق سبحانه وقربته لا تكون مقرونة بصحبة الأضداد وقربتهم — ألبتة .

« ويحذركم الله نفسَه » : هذا خطاب للخواص من أهل المعرفة ، فأمَّا الذين نزلت رُتْبَتُهم عن هذا فقال لهم : « واتقوا النار التى . . . » وقال : « واتقوا يوماً ترجعون . . » إلى غير ذلك من الآيات .

ويقال : « يحذركم الله نفسه » أن يكون عندكم أنكم وصلتم ؛ فإن خفايا المكر تعترى الأكابر ، قال قائلهم :

وأَمِنْتُهُ فأتاح لى من مأمنى مكراً ، كذا مَنْ يأمن الأحبابا

ويقال « يحذركم الله نفسه » لأن يجرى فى وهم أحد أنه يصل إليه مخلوق ، أو يطأ بساطَ العِزِّ قَدَمُ همة بشر ، جلَّتْ الأحدية وعزَّت !

وإنَّ من ظن أنه أقربهم إليه ففى الحقيقة أنه أبعدهم عنه .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إنْ تخفوا ما فى صدوركم أوتبدوه
يعلمه الله ويعلم ما فى السموات

---

(١) وإلى هذا يشيرون حين يقولون (التوحيد إسقاط الياءات) الرسالة ص ١٤٩ . لأن التوحيد الحق لا يقتضى شعورك بما سوى المُوحَّد ، ولكن النفس مجبولة على الدعوى . وهذا شرك خفى .
(٢) سورة التوبة آية ١٢٣ .

وما فى الأرض والله على كل شىء
قدير ﴾

لا يَعْزُبُ معلوم عن علمه ، فلا تحتشم من نازلة بك تسوءك ، فعن قريب سيأتيك الغوث والإجابة ، وعن قريب سيزول البلاء والمحنة ، ويُعَجِّلُ المَدَدَ والكفاية .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ من خيرٍ مُحْضَراً وما عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لو أَنَّ بينها وبينه أَمَدَاً بعيداً ﴾ .

وَدَّ أهل الطاعات أنْ لو استكثروا منها ، ووَدَّ أهل المخالفات أنْ لو كبحوا لجامهم عن الركض فى ميادينهم ، قال قائلهم :

ولو انى أُعْطِيتُ من دهرى المُنَى وما كلُّ مَنْ يُعْطَى المنى بِمُسَدَّدِ
لَقُلْتُ لأيامٍ مَضَيْن : ألا ارجعى وقلتُ لأيام أتين ألا ابعدى

قوله جل ذكره : ﴿ ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد ﴾ .

الإشارة من قوله : « ويحذركم الله نفسه » للعارفين ، ومن قوله « والله رءوف بالعباد » للمستأنفين ، فهؤلاء أصحاب العنف والعنوة ، وهؤلاء أصحاب التخفيف والسهولة .

ويقال لمَّا قال : « ويحذركم الله نفسه » اقتضى أسماع هذا الخطاب تحويلهم[1] فقال مقروناً به « والله رءوف بالعباد » لتحقيق تأميلهم ، وكذلك سُنَّته يطمعهم[2] فى عين ما يروعهم .

ويقال أفناهم بقوله « ويحذركم الله نفسه » ثم أحياهم وأبقاهم بقوله « والله رءوف بالعباد »

---

(١) ربما يقصد القشيرى تحويلهم من الخوف إلى الرجاء ، فبعد أن خوفهم نفسه أطمعهم فى رأفته .
(٢) وردت (بطمهم) وواضح أنها خطأ فى النسخ فأصلحناه بما يلائم السياق .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ إنْ كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفورٌ رحيم ﴾

« تحبون الله » فرق ، و « يحببكم الله » جمع .

« تحبون الله » مشوب بالعلة ، و « يحببكم الله » بلا علّة ، بل هو حقيقة الوصلة .
ومحبة العبد لله حالة لطيفة يجدها من نفسه ، وتحمله تلك الحالة على موافقة أمره على الرضا دون الكراهية ، وتقتضى منه تلك الحالة إيثاره — سبحانه — على كل شىء وعلى كل أحد .

وشرطُ المحبةِ ألا يكون فيها حظٌّ بحال ، فمَنْ لم يَفْنَ عن حظوظه بالكلّيّة فليس له من المحبة شظيّة .

ومحبة الحق للعبد إرادته إحسانَه إليه ولطفَه به ، وهى إرادةُ فضلٍ مخصوص ، وتكون بمعنى ثنائه سبحانه عليه ومدحه له ، وتكون بمعنى فضله المخصوص معه ، فعلى هذا تكون من صفات فعله .

ويقال شرط المحبة امتحاء كليتك عنك لاستهلاكك فى محبوبك ، قال قائلهم .

وما الحبُّ حتى تنزف العين بالبكا وتخرس حتى لا تجيب المناديا

وهذا فرق[1] بين الحبيب والخليل ؛ قال الخليل : « فمن تبعنى فإنه منى » .

وقال الحبيبُ : « فاتبعونى يحببكم الله » .

فإن كان مُتَّبِعُ الخليل « منه » إفضالاً فإن متابِعَ الحبيبِ محبوبُ الحقِّ سبحانه ، وكفى بذلك قربة وحالاً .

ويقال قطع أطماع الكافة أن يسلم لأحدٍ نفس إلا ومقتداهم وإمامهم سيد الأولين والآخرين محمد صلى الله عليه وسلم .

ويقال فى هذه الآية إشارة إلى أن المحبة غير معلولة وليست باجتلاب طاعة ، أو التجرد

---

(١) وردت (فراق) وهى خطأ من الناسخ ، إذ المراد التفرقة بين موقف المصطفى (ص) وإبراهيم عليه السلام .

عن آفة لأنه قال يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ، بيَّن أنه يجوز أن يكون عبد له فنون كثيرة ثم يحبُّ اللهَ ويحبُّه اللهُ .

ويقال قال أولاً : « يحببكم الله » ثم قال : « ويغفر لكم ذنوبكم » والواو تقتضى الترتيب ليُعْلَمَ أنَّ المحبةَ سابقةٌ على الغفران ، أولاً يحبهم ويحبونه (وبعده) يغفر لهم ويستغفرونه ، فالمحبة توجِب الغفران لأن العفو يوجب المحبة .

والمحبة تشير إلى صفاء الأحوال ومنه حَبَبُ الأسنان[1] وهو صفاؤها .

والمحبة توجب الاعتكاف بحضرة المحبوب فى السر .

ويقال أحب البعير إذا استناخ فلا يبرح بالضرب .

والحبُّ حرفان حاء وباء ، والإشارة من الحاء إلى الروح ومن الباء إلى البَدَن ، فالُمحِبُّ لا يَدَّخِر عن محبوبه لا قلبَه ولا بَدَنَه .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ أطيعوا الله والرسول فَإن تَوَلَّوْا فإنَّ الله لا يحب الكافرين ﴾ .

أمرهم بالطاعة ثم قال : « فإن تولوا » أى قَصَّرُوا فى الطاعة بأن خالفوا ، ثم قال : « فإن الله لا يحب الكافرين » لم يَقُلْ العاصين بل قال الكافرين ، ودليل الخطاب أنه يحب المؤمنين وإن كانوا عُصاةً[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عِمران على العالَمين * ذرية بعضها مِنْ بعض والله سميع عليم ﴾

اتفق آدم وذريته فى الطينة ، وإنما الخصوصية بالاصطفاء الذى هو من قِبَلِه ، لا بالنَّسَب ولا بالسبب .

---

(١) وردت (الإنسان) وهى خطأ من الناسخ (أنظر الرسالة ص ١٥٨) .

(٢) فالمؤمن العاصى منزلة بين المنزلتين : الإيمان والكفر - فى نظر القشيرى المتكلم .

قوله جل ذكره : ﴿ إِذْ قالت امرأة عمران ربِّ إنِّى نذرتُ لك ما فى بطنى محرراً ، فتقبلْ منى إنك أنت السميع العليم *
فلمَّا وَضَعَتْهَا قالت ربى إنى وَضَعْتُهَا أُنْثَى ، والله أعلم بما وضعت ، وليس الذكر كالأنثى ، وإنِّى سَمَّيْتُهَا مريم وإنِّى أُعِيذُها بِكَ وذُرِّيَّتها من الشيطان الرجيم ﴾ .

المُحَرَّرُ الذى ليس فى رِقِّ شىء من المخلوقات ، حرَّرَه الحق سبحانه فى سابق حكمه عن رق الاشتغال بجميع الوجوه والأحوال . فلمَّا نذرت أمُّ مريم ذلك ، ووضعتها أنثى خَجِلت ، فلمَّا رأتها قالتْ « ربِّ إنى وضعتها أنثى » وهى لا تصلح أن تكون محرراً فقال تعالى : « والله أعلم بما وضعت » ولعمرى ليس الذكر كالأنثى فى الظاهر ، ولكن إذا تَقَبَّلَها الحقُّ — سبحانه وتعالى — طلع عنها كل أعجوبة .

ولما قالت « إنى نذرت لك ما فى بطنى محرراً » قالت « فَتَقَبَّلْ منى » فاستجاب ، وظهرت آثار القبول عليها وعلى ابنها ، ونجا بحديثها عَالَمٌ وهَلَكَ بسببها عَالَمٌ ، ووقعت الفتنة لأجلهما فى عَالَم .

قالت : « وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » استجارت بالله من أن يكون للشيطان فى حديثها شىء بما هو الأسهل ، لتمام ماهم به من أحكام القلوب .

قوله جل ذكره : ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وكَفَّلَهَا زكريا ﴾

حيث بَلَّغَها فوق ما تَمَنَّتْ أمها ، ويقال تقبَّلها بقبول حسنٍ حتى أفردها لطاعته ، وتولاَّهَا بما تولَّى به أولياءه ، حتى أفضى جميع مَنْ فى عصرها العَجَبَ من حُسْنِ توليه أمرها ، وإن كانت بنتاً .

ويقال القبولُ الحَسَنُ حُسْنُ تربيته لها مع علمه — سبحانه — بأنه يُقال فيه بسببها ما يُقال، فلم يُبالِ بقُبْح مقال الأعداء .

أجد الملامة فى هواكِ لذيذةً حُبّاً لذكرك فليلمنى اللُّوَّمُ

وكما قيل :

ليقـــل من شاء ما شـاء فإنى لا أُبـالى

ويقال القبول الحسن أنْ ربّاها على نعت العصمة حتى كانت تقول : « إنى أعوذ بالرحمن منك إنْ كنت تقيّا » .

« وأنبتها نباتاً حسناً » حتى استقامت على الطاعة ، وآثرت رضاه — سبحانه — فى جميع الأوقات ، وحتى كانت الثمرة منها مثل عيسى عليه السلام ، وهذا هو النبات الحسن ، وكفلها زكريا . ومن القبول الحسن والنبات الحسن أنْ جعل كافلَها والقيِّمَ بأمرها وحفظها نبياً من الأنبياء مثل زكريا عليه السلام ، وقد أوحى الله إلى داود عليه السلام : إنْ رأيْتَ لى طالباً فكُنْ له خادماً .

قوله جل ذكره : ﴿ كلما دخل عليها زكريا المحراب وَجَدَ عندها رزقاً ، قال : يا مريم أنَّى لكِ هذا ؟ قالت : هو مِنْ عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ﴾

مِنْ أمارات القبول الحسن أنها لم تكن توجد إلا فى المحراب ، ومن كان مسكنه وموضعه الذى يتعبَّدُ فيه وهناك يوجد المحراب — فذلك عَبْدٌ عزيز .

ويقال مِنَ القبول الحسن أنه لم يطرح أمرَها كُلَّه وشغْلَها على زكريا عليه السلام ؛ فكان إذا دخل عليها زكريا ليتعهدها بطعام وَجَدَ عندها رزقاً ليعْلَمَ العاملون أن الله — سبحانه — لا يُلْقِى شُغْلَ أوليائه على غير[1] ، ومن خدم ولياً من أوليائه كان هو فى رفق الولى لا إنه

(١) وردت على (عين) وهى خطأ فى النسخ .

تكون عليه مشقة لأجل الأولياء . وفى هذا إشارة لمن يخدم الفقراء أن يعلم أنه فى رفق الفقراء .

ثم كان زكريا عليه السلام يقول : أَنَّى لكِ هذا ؟ لأنه لم يكن يعتقد فيها استحقاق تلك المنزلة ، وكان يخاف أن غيره يغلبه وينتهز فرصة تعهدها ويسبقه بكفاية شُغْلها ، فكان يسأل ويقول : أَنَّى لك هذا ؟ ومن أتاكِ به ؟

وكانت مريم تقول : هو من عند الله لا من عند مخلوق ، فيكون لزكريا فيه راحتان : إحداها شهود مقامها وكرامتها عند الله تعالى ، والثانية أنه لم يغلبه أحد على تعهدها ، ولم يسبق به . قوله « كلما دخل عليها زكريا المحراب » فلفظة كلَّما للتكرار[1] وفى هذا إشارة : وهو أن زكريا عليه السلام لم يَذَرْ تَعَهُّدَها — وإنْ وجد عندها رزقا — بل كل يوم وكل وقتٍ كان يتفقد حالها لأن كراماتِ الأولياء ليست مما يجب أن يدوم ذلك قطعاً ؛ فيجوز أن يُظهِرَ الله ذلك عليهم دائماً ، ويجوز ألا يظهر ، فما كان زكريا عليه السلام يعتمد على ذلك فيترك تفقد حالها ، ثم كان يُجَدِّدُ السؤال عنها بقوله : « يا مريم أَنَّى لكِ هذا ؟ » لجواز أن يكون الذى هو اليوم لا على الوجه الذى كان بالأمس ، فإنه لا واجب على الله سبحانه[2] .

وقوله : « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » إيضاح عن عين التوحيد ، وأن رزقه للعباد ، وإحسانه إليهم بمقتضى مشيئته ، دون أن يكون مُعَلَّلاً بطاعاتهم ووسيلة عباداتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ هُنالِكَ دعا زكريا ربَّه قال ربِّ هَبْ لى مِنْ لدنْك ذُرِّيَّة طيبة إنك سميع الدعاء ﴾

أى لما رأى كرامة الله سبحانه معها ازداد يقيناً على يقين ، ورجاء على رجاء ، فسأل الوَلَدَ على كبر سِنِّه ، وإجابتُه إلى ذلك كانت نقضاً للعادة .

---

(١) أى لتكرار زيارة زكريا لها مرة بعد مرة .

(٢) هنا إشارة دقيقة تتصل بمذهب القشيرى — الذى يخالف المعتزلة — أنه لا وجوب على الله فى إثابة المطيع ، لأن طاعة المطيع ليست زيْناً لله ، ومعصيته ليست شيناً لله ، وإنما المعول عليه فضل الله ، وهذا لا علة له ، ولا وجوب على الله فيه .

ويقال إن زكريا عليه السلام سأل الولدَ ليكونَ عوناً له على الطاعة ، ووارثا من نسله في النبوة ، ليكون قائما بحقِّ الله ، فلذلك استحق الإجابة ؛ فان السؤال إذا كان لحقٍّ الحقِّ — لا لحظِّ النفْسِ — لا يكون له الرد[1] .

وكان زكريا عليه السلام يرى الفاكهة الصيفية عند مريم في الشتاء ، وفاكهة الشتاء عندها في الصيف ، فسأل الولد في حال الكِبَر ليكون آية ومعجزة .

قوله جل ذكره : ﴿ فَنَادَتْهُ الملائـكةُ وهو قائمٌ يُصَلِّى في المحراب ﴾ .

لما سأل السؤال ، ولازم الباب أَتَتْهُ الإجابةُ .

وفيه إشارة إلى أن من له إلى الملوك حاجة فعليه بملازمة الباب إلى وقت الإجابة .

ويقال حكم الله — سبحانه — أنه إنما يقبل بالإجابة على من هو مُعَانِقٌ لخدمته ، فأمَّا مَنْ أعرض عن الطاعة ألقاه في ذُلِّ الوحشة .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الله يُبَشِّرُك بيحيي مُصَدِّقا بكلمةٍ من الله وسَيِّداً وحَصُوراً ونَبِيًّا مِنَ الصالحين ﴾ .

قيل سمَّاه يحيي لحياة قلبه بالله ، ولسان التفسير أنه حيي به عقر أمه .

ويقال إنه سبب حياة من آمن به بقلبه .

قوله : مصدقا بكلمة من الله : أن تصديقه بكلمة « الله » فيما تعبده به أو هو مكوَّن بكلمة الله .

وقوله « وسيداً » : السيِّد من ليس في رق مخلوق ، تحرَّر عن أسر هواه وعن كل مخلوق ، ويقال السيد من تحقق بعلويته سبحانه ، ويقال السيد من فاق أهل عصره ، وكذلك كان يحيي عليه السلام .

---

(١) الرد هنا معناها الرفض .

ويقال سيد لأنه لم يطلب لنفسه مقاما ، ولا شاهَدَ لنفسه قَدْراً . ولما أخلص فى تواضعه لله بكل وجهٍ رقّاه على الجملة ، وجعله سيدا للجميع .

وقوله « وحصورا » أى مُعْتَقا من الشهوات ، مكفيا أحكام البشرية مع كونه من جملة البشر . ويقال متوقيا عن المطالبات ، مانعا نفسه عن ذلك تعززا وتقربا ، وقيل منعته استئصالات بواده الحقائق عليه فلم يبق فيه فَضْلٌ لحظٍّ .

« ونبيًّا من الصالحين » أى مستحقا لبلوغ رتبتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قال ربِّ أنَّى يكون لى غلام
وقد بلغنى الكِبَرُ وامرأتى عاقِرٌ
قال كذلك الله يفعل ما يشاء ﴾ .

قيل كان بين سؤاله وبين الإجابة مدة طويلة ولذلك قال : أنَّى يكون لى غلام ؟

ويحتمل أنه قال : بأى استحقاقٍ منى تكون لى هذه الإجابة لولا فضلك ؟

ويحتمل أنه قال أنَّى يكون هذا : أعَلَى وجهِ التبنى أم على وجه التناسل ؟

ويحتمل أنه يكون من امرأة أخرى سوى هذه التى طعنت فى السن أو من جهة التَّسرِّى بمملوكة ؟ أمْ مِنْ هذه ؟

فقيل له : لا بَلْ مِنْ هذه ، فإنكما قاسيتما وحشة الانفراد معا ، فكذلك تكون بشارة الولد لكما جميعا .

قوله جل ذكره : ﴿ قال ربِّ اجعل لى آية قال آيتك
ألا تُكَلِّم الناس ثلاثة أيّام إلا رَمْزًا ﴾

طلب الآية ليعلم الوقت الذى هو وقت الإجابة على التعيين لا لِشكٍ له فى أصل الإجابة .

وجعل آية ولايته[1] فى إمساك لسانه عن المخلوقين مع انطلاقها مع الله بالتسبيح ، أى لا تمتنع عن خطابى فإنى لا أمنع أوليائى من مناجاتى .

---

(١) وردت (دلالته) وقد تكون مقبولة فى المعنى أيضاً .

قوله جل ذكره : ﴿ واذكر ربَّكَ كثيرا ﴾ .

بقلبك ولسانك فى جميع أوقاتك .

﴿ وسَبِّح بالعَشِىِّ والإبكار ﴾ .

فى الصلاة الدائمة .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذْ قالت الملائكة يا مريم إنَّ اللهَ اصطفاكِ وطَهَّرَكِ واصطفاكِ على نِساء العالمين ﴾ .

يجوز أن يكون هذا ابتداء خطاب من الملائكة على مريمَ من قِبَلِهم رفعا بشأنها ، ويجوز أن تكون قد سمعت كلامهم وشاهدتهم ، ويجوز أنها لم تشاهدهم وأنهم هتفوا بها : إن الله اصطفاك بتفضيلك ، وإفرادكِ من أشكالك وأندادك ، وطَهَّرَكِ من الفحشاء والمعاصى بجميل العصمة ، وعن مباشرة الخلْق [1] ، واصطفاك على نساء العالمين فى وقتك .

وفائدة تكرار [2] ذكر الاصطفاء : الأول اصطفاك بالكرامة والمنزلة وعلو الحالة والثانى اصطفاكِ بأَنْ حمَلْتِ بعيسى عليه السلام من غير أب ، ولم تشبهك امرأة — ولن تشبهَك — إلى يوم القيامة ، ولذلك قال « على نساء العالمين » .

قوله جل ذكره : ﴿ يا مريم اقنتى لربِّكِ واسجدى واركعى مع الراكعين ﴾ .

لازمى بساط العبادة ، وداومى على الطاعة ، ولا تُقَصِّرى فى استدامة الخدمة ، فكما أفردكِ الحقُّ بمقامك ، كونى فى عبادته أوحد زمانك .

قوله جل ذكره : « ذلك من أنباءِ الغيبِ نوحيه إليكَ

---

(١) ربما يقصد القشيرى من ذلك أنه أبعدها عن أن يباشرها الزوج شأن نساء العالمين .

(٢) لاحظ كيف يلتمس القشيرى معنى متجدداً لكلمة تتكرر بلفظها — لأنه لا يرى أن فى القرآن تكراراً إلا لداع متجدد .

وما كنتَ لديهم إذ يُلقون
أقلامهم أيُّهم يَكفُلُ مريمَ وما كنتَ
لديهم إذ يختصمون ﴾

أى هذه القصص نحن عرفنا كهاو (خا) طبناك بمعانيها ، وإنْ قَصَصْنا نحن عليك هذا — فعزيزٌ خطابُنا ، وأعزُّ وأتم مِنْ أنْ لو كنتَ مشاهداً لها .

قوله جل ذكره : ﴿ إذ قالت الملائكة يا مريم إنَّ الله
يُبَشِّرُكِ بكلمةٍ منه اسمه المسيح
عيسى ابن مريم وجيهاً فى الدنيا
والآخرة ومِنَ المقربين . وَيُكَلِّمُ
النـاسَ فى المهـدِ وكهـلاً ومِنَ
الصالحين ﴾

لم يُبَشِّرها بنصيب لها فى الدنيا ولا فى الآخرة من حيث الحظوظ ، ولكن بَشَّرها بما أثبت فى ذلك من عظيم الآية ، وكونه نبياً لله مؤيَّداً بالمعجزة .

ويقال عرَّفها أن مَنْ وقع فى تغليب القدرة ، وانتهى عند حكمه يَلْقَى من عجائب القدرة ما لا عهد به لأحد . ولقد عاشت مريم مدةً بجميل الصيت ، والاشتهار بالعفة ، فشوَّش عليها ظاهر تلك الحالِ بما كان عند الناس بسبب استحقاق ملام ، ولكن — فى التحقيق — ليس كما ظَنَّهُ الأغبياء[1] الذين سكرت أبصارهم من شهود جريان التقدير .

وقيل إنه (. . . . .)[2] عَرَّفها ذلك بالتدريج والتفصيل ، فأخبرها أن ذلك الولدَ يعيش حتى يُكَلِّمَ الناس صبيًّا وكهلا ، وأن كيد الأعداء لا يؤثر فيه .

وقيل كهلاً بعد نزوله من السماء .

ويقال ربط على قلبها بما عرَّفها أنه إذا لم ينطق لسانها بذكر براءة ساحتها يُنْطِقُ اللهُ عيسى عليه السلام بما يكون دلالة على صدقها وجلالتها .

---

(١) وردت (الأغنياء) والمعنى والسياق يرفضانها .
(٢) مشتبهة .

قوله جل ذكره : ﴿ قالت ربِّ أنَّى يكون لى وَلَد
ولم يمسسنى بَشَرٌ ، قال كذلك الله
يخلُقُ ما يشاء ﴾

كما شاهدتِ ظهور أشياء ناقضة للعادة فى رزقنا فكذلك ننقض العادة فى خلق ولدٍ من غير مسيس بشر .

قوله جل ذكره : ﴿ إذا قضى أمراً ﴾

أى أراد إمضاء حُكْمٍ .

﴿ فإنما يقول له كن فيكون ﴾

فلا يتعسر عليه إبداء ولا إنشاء .

ولما بسطوا فيها لسان الملامة أنطق الله عيسى عليه السلام وهو ابن يومٍ حتى قال :

﴿ إنى قد جئتكم بآيةٍ من ربكم ﴾

قوله جل ذكره : ﴿ ويُعلِّمه الكتاب والحكمة والتوراة
والإنجيل * ورسولاً إلى بنى
إسرائيل أنِّى قد جئتكم بآيةٍ من
ربِّكم أنِّى أَخْلُقُ لكم مِنَ الطين
كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون
طيراً بإذن الله وأُبْرِئ الأكمه
والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله
وأُنَبئكم بما تأكلون وما تدخرون
فى بيوتكم إنَّ في ذلك لآيةً لكم
إنْ كنتم مؤمنين ﴾

وتلك آياته الظاهرة ، ودلالاته القاهرة الباهرة من إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، والإخبار عمّا عملوه مُسِرِّين به ، إلى غير ذلك من معجزاته . وأخبر أنه

مصدِّق لما تقدمه من الشرائع ، ومختص بشريعةٍ تنسخ بعض ما تقــدمه ، وأقرهم على البعض — على ما نطق به تفصيل القرآن .

قوله جل ذكره : ﴿ فلمّـا أحَسَّ عيسى منهم الـكفر ...... ﴾ الآية .

حين بَلّغهم الرسالة واختلفوا — فمنهم من صدَّقه ومنهم من كذّبه وهم الأكثرون — عَلِمَ أن النبوة لا تنفك عن البلاء وتسليط الأعــداء ، فقطع عنهم قلبه ، وصدق إلى الله قصده ، وقال لقومه : مَنْ أنصارى إلى الله ليساعدونى على التجرد لحقِّه والخلوص فى قصده ؟ فقال مَنْ انبسطت عليهم آثار العناية ، واستخلصوا بآثار التخصيص : نحن أنصار الله ، آمنا بالله ، واشهد علينا بالصــدق ، وليس يشـكل عليك[1] شيء مما نحن فيه .

﴿ ربَّنا آمنا بما أنزلت واتَّبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين ﴾

وأما الباقون فجدُّوا فى الشقاق ، وبالغوا فى العداوة ، ودسُّوا له المـكائد ، ومكروا ولـكن أذاقهم الله وبال مكرهم ، فتوهموا أنهم صلبوا عيسى عليه السلام وقتلوه ، وذلك جهل منهم ، ولَبْسٌ عليهم . فاللهُ — سبحانه — رفع عيسى عليه السلام نبيَّه ووليَّه ، وحُقَّ الطردُ واللَّعنُ على أعدائه ، وهذا مَـكْرُهُ بهم :

﴿ ومكروا ومكر الله ، والله خير المـاكرين ﴾

قوله جل ذكره : ﴿ إذ قال الله يا عيسى إنِّى متوفيك ﴾

الإشارة[2] فيه إنى متوفيك عنك ، وقابضك منك ، ورافعك من نعوت البشرية ، ومطهرك من إرادتك بالـكلية ، حتى تـكون مُصرَّفاً بنا لنا ، ولا يكون عليك من

---

(١) نرجح أنها فى الأصل : « يشكل (علينا) شيء مما نحن فيه » ، لأن هذا الترجيح يقوى المعنى ، إذ يفصح عن مدى صحة إيمانهم ، أما إذا كانت (عليك) فيـكون المعنى أن أنصاره طمأنوه عن أنفسهم ، وطلبوا إليه ألا يستشـكل (عليه) أمر من أمورهم ، بدليل ما أفصحوا عنه فى الآية التالية .

(٢) تخدم هذه الإشارة فى إبراز وتدعيم واحدة من أخطر قضايا الفـكر الدينى .

اختيارك شيء ، ويكون إسبال التولى عليك قائماً عليك . وبهذا الوصف كان يظهر على يده إحياء الموتى ، وما كانت تلك الأحداث حاصلة إلا بالقدرة — جلّتْ .

ويقال طَهَّرَ قلبه عن مطالعة الأغيار ، ومشاهدة الأمثال والآثار ، فى جميع الأحوال والأطوار .

﴿ وجَاعِلُ الذين اتّبَعُوكَ فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ﴾

بالنصرة والقهر والحجة .

ومتبعوه مَنْ لم يُبَدِّل دينه ومَنْ هو على عقيدته فى التوحيد — وهم المؤمنون ، فَهُمْ على الحقّ ، إلى يوم القيامة لهم النصرة ، ثم إن الله سبحانه يحكم — يوم القيامة — بينه وبين أعدائه . فأمّا الكفار ففى الجحيم وأمّا المؤمنون ففى النعيم .

قوله جل ذكره : ﴿ ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم ﴾

ذلك نتلوه عليك يا محمد ، نعرفك معانيه بما نوحى إليك ، لا بتكلفك ما تصل إلى عِلْمِه ، أو بتَعَلُّمِك من الأمثال ، أو استنباطك ما تنزع من الاستدلال .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ مَثَلَ عيسى عند اللهِ كَمَثَلِ آدم . . . ﴾ الآية

خَصَّهما[1] بتطهير الروح عن التناسخ فى الأصلاب وأفرد آدم بصفة البدء ، وعيسى عليه السلام بتخصيص نفخ الروح فيه على وجه الإعزاز ، وهما وإنْ كانا كبيرىْ الشأن فنَقْصُ الحدثان والمخلوقية لازمٌ لهما :

﴿ ثم قال له كُن فيكون ﴾

قوله جل ذكره : ﴿ الحق مِنْ ربِّك . . . ﴾ الآية

(١) وردت (خصها) والصحيح خصهما لعودة الفعل على آدم وعيسى عليهما السلام .

الحق من ربك يا محمد ، فلا تَشُكَّنَّ فى أنه — سبحانه — لا يماثله فى الإيجاد أحَدٌ ، ولا على إثبات بينه لمخلوق قدرة . والموجودات التى (.......)[1] وجودها عن كتم العَدَم — من الله مبدؤها وإليه عَوْدُها .

قوله جل ذكره : ﴿ فمن حاجَّك فيه .... ﴾ الآية

يعني بعدما ظَهَرْتَ على صدق ما يُقال لك ، وتَحقَّقْتَ بقلبك معرفة ما خاطبناك ، فلا تحتشم من حملهم على المباهلة ، وثِقْ بأن لك القهر والنصرة ، وأنَّا توليناك ، وفى كنف قُرْبنا آو يناك ، ولو أنهم رغبوا فى هذه المباهلة لأحرقت الأودية عليهم نيراناً مؤججة ، ولكن أخَّر الله — سبحانه — ذلك عنهم لعلمه بِمَنْ فى أصلابهم من المؤمنين[2] .

والإشارة فى هذه الآية لِمَنْ نزلت حالته عن أحوال الصديقين ، فإنه إذا ظهرت أنوارهم انخنست آثار هؤلاء فلا إقرار ، ولا عنهم آثار .

قوله جل ذكره : ﴿ إن هذا لهو القصص الحق ﴾

لا يتسلط على شواهد التوحيد غبار شبهة ، ولا يدرك سر حكمه وهم[3] مخلوق ، ولا يدانيه معلوم يحصره الوجود ، أو موهوم يصوره التقدير[4] .

﴿ فإن تولوا فإن الله عليم بالمُفْسِدِين ﴾

فإن تولوا — يا محمد — فإنه لا ثَبَاتَ عند شعاع أنوارك لشبهة مُبْطِل .

« فإن الله عليم بالمفسدين » إمَّا يجتاحهم[5] ، أو يحلم[6] حتى إذا استمكنَتْ ظنونُهم يأخذهم بغتةً وهم لا يُنْصَرون .

---

(١) مشتبهة .

(٢) هذا تعليل ممتع لإمهال المخالفين .

(٣) وردت (وهو) وهى خطأ من الناسخ ، ونظن أن الأصل (وهم) وهى مناسبة للسياق .

(٤) للقشيرى عبارة فى نفس الموضوع وردت فى مستهل رسالته : « وكل ما تصوره الأوهام فالله بخلاف ذلك » .

(٥) وردت (يحتاجهم) وهى خطأ من الناسخ .

(٦) وردت (ويحكم) والملائم للمعنى (أو يحلم) من الحلم ، ويكون المعنى على هذا الأساس أنه إما أن يعجل بانتقامه فيجتاحهم أو يمهلهم بحلمه ثم يبغتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أهل الكتابِ تعالَوْا إلى كلمةٍ سواء بيننا وبينكم .... ﴾ الآية

هى كلمة التوحيدِ وإفرادِ الحق سبحانه فى إنشاء الأشياء بالشهود .

وقوله : « ألا نعبد إلا الله » : لا تطالعْ بِسِرِّك مخلوقاً . وكما لا يكون غيُره معبودَك فينبغى ألا يكون غيرُه مقصودَك ولا مشهودَك ، وهذا هو اتِّقاء الشِرْك ، وأنت أول الأغيار الذين يجب ألا تشهدهم .

« ولا يتخذَ بعضُنَا بعضاً أرباباً » ، ويظهر صدقُ هذا بترك المدح والذم لهم . ونفى الشكوى والشك عنهم ، وتنظيف السر عن حسبان ذرة من المحو والإثبات منهم .

قال صلى الله عليه وسلم « أصدق كلمة قالتها العربُ قولُ لبيد » .

ألا كلُّ شىء ما خلا الله باطل وكلُّ نعيمٍ لا محالة زائل[1]

فإنَّ الذى على قلوبهم من المشاق أشد . وأمَّا أهل البداية فالأمر مُضَيَّقٌ عليهم فى الوظائف والأوراد ، فسبيلهم الأخذ بما هو الأشق والأصعب ، لفراغهم بقلوبهم من المعانى[2] ، فمن ظنَّ بخلاف هذا فقد غلط .

والإشارة من هذه الآية أيضاً فى قوله جل ذكره :

﴿ يا أهلَ الكتابِ لِمَ تُحاجُّون فى إبراهيم ﴾ ... الآية .

ضرب على خليله — صلوات الله — نقاب الضنَّة وحجاب الغيرة ، فقطع سببه عن جميعهم بعد ادِّعاء الكل فيه ، وحَكَمَ بتعارض شُبُهَاتِهم ، وكيف يكون إبراهيم ـ عليه السلام ـ على دين مَنْ أتى بعده ؟! إن هذا تناقضٌ من الظن .

ثم قال :

﴿ ها أنتم هؤلاءِ حاجَجْتُم فيما لكم

---

(١) رواه الشيخان عن أبى هريرة .

(٢) المقصود من (المعانى) هنا كل ما تميل إليه النفس ، والنفس محل المعلولات .

به عِلْم ، فَلِمَ تُحاجون فيما لَيْسَ لـكم به
علم ، وَاللهُ يَعْلَم وأنتم لا تعلمون ﴾

يعنى ما كان فى كتابكم له بيان ، ويصح أن يكون لـكم عليه برهان ، فَخَصَّهُمْ فى ذلك إمَّا بحق وإما بباطل ، فالذى ليس لـكم ألبتة عليه دليل ولا لـكم إلى معرفته سبيل فـكيف تصديتم للحكم فيه ، وادِّعاء الإحاطة به ؟!

قوله جل ذكره : ﴿ ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً
ولـكن كان حنيفاً مسلماً ﴾

الحنيف المستقيم على الحق ، والأحنف هو المستقيم فى حلقة الرِّجْل ، ويسمى مائل القَدَم بذلك على التفاؤل[1] . وإبراهيم عليه السلام كان حنيفاً لا مائلاً عن الحق، ولازائغاً عن الشرع ، ولا مُعَرِّجاً على شيءفيه نصيب للنفس ؛ فقد سَلَّم مَالَه ونَفْسَه ووَلَدَه ، وما كان له به جملةً — إلى حكم الله وانتظار أمره .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ أوْلى الناس بإبراهيم لَلَّذِينَ
اتبعوه ، وهذا النبى ، والذين آمنوا ،
والله ولىُّ المؤمنين ﴾

لما تفرقت الأهواء والبدع وصار كل حزب إلى خطأ آخر ، بقى أهل الحقِّ فى كل عصر وكل حين ووقت على الحجة المثلى ، فـكانوا حزباً واحداً ، فبعضهم أوْلى ببعض . وإبراهيم صاحب الحق ، ومن دان بدينه — كمثل رسولنا صلى الله عليه وسلم وأمته — على الدين الذى كان عليه إبراهيم عليه السلام وهو توحيد الله سبحانه وتعالى .

« والله ولىُّ المؤمنين » لأنهم تولَّوْا دينه ، ووافقوا توحيده ، وولاية الله إنما تـكون بالعَوْن والنصرة والتخصيص والقربة .

قوله جل ذكره : ﴿ وَدَّتْ طائفة مِنْ أهل الـكتابِ
لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم ﴾

من حلَّت به فتنة ، وأصابته محنة ، واستهوته غواية — رَضِى لجميع الناس ما حلَّ به ،

(١) فـكلمة حنيف من الأضداد = مستقيم ومائل .

فأهل الكتاب يريدون بالمؤمنين أن يزيغوا عن الحق ، ولكن أبى الله إلا أن يتم نوره ، وأن يعودَ إليهم وبالُ فعلهم .

قوله جل ذكره : ﴿يا أهل الكتاب لِمَ تكفرون بآياتِ الله وأنتم تَشْهَدُون﴾

قَبْلَ[1] بعثه — صلى الله عليه وسلم — على صحة نبوته[2] ، فما الذى يحملكم على غيكم حتى جحدتم ما علمتم ؟

قوله جل ذكره : ﴿يا أهل الكتاب لِمَ تَلْبِسُون الحقَّ بالباطل وتَكْتُمُون الحقَّ وأنتم تَعلمون﴾

تكتمون الحق فى شأن محمد عليه السلام وأنتم تعلمون أنه النبي الصادق ، وهل هذا إلا حكم الخذلان وقضية الحرمان ، ثم أخبر أنَّ منهم من ينافق فى حالته ، فيريد أن يدفع عنه أذى المسلمين ، ولا يخالف إخوانه من الكافرين ، فتواصوا فيما بينهم بموافقة الرسول عليه السلام والمسلمين جهراً ، والخلوص فى عقائدهم الفاسدة بعضهم مع بعض سِرًّا .

قوله جل ذكره : ﴿وقالت طائفة مِنْ أهل الكتاب آمنوا بالذى أُنْزِلَ على الذين آمنوا وَجْهَ النهار واكفروا آخِرَه لعلهم يرجعون﴾

فبين الله سبحانه أن نفاقهم كُشِف للمسلمين ، وأن ذلك لا ينفعُهم أمَّا فى الدنيا فلإِطْلاع الله نبيَّه عليه السلام والمؤمنين — عليه ، وأمَّا فى الآخرة فَلِفَقْدِ إخلاصهم فيه .

قوله جل ذكره : ﴿ولا تؤمنوا إلا لِمَنْ تبع دينكم﴾ الآية .

---

(١) فى ص (قبل) وهى خطأ فى النسخ ، ويكون المعنى أنتم — يا أهل الكتاب — تشهدون قبل بعثه على صحة نبوته ...

(٢) فى ص (نبوية) وهى خطأ فى النسخ .

يحتمل أن يكون هذا ابتداء أمر من الله سبحانه للمسلمين ، والإشارة فيه ألا تعاشروا الأضداد ، ولا تفشوا أسراركم للأجانب .

﴿ قُلْ إن الفضل بيدِ الله ﴾

فهو الذى يختص من يشاء بأنوار التعريف ، ويختص من يشاء بالخذلان والحرمان .

قوله جل ذكره : ﴿ يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾

يختص من يشاء بفنون إنعامه ، فالرحمة على هذا سبب لتخصيص النعمة لمن أراده . ولابُدَّ من إضمار فيحتمل أن يختص بالرحمة من يشاء فلا تجرى الرحمة مجرى السبب فالرحمة على هذا التأويل تكون بمعنى النبوة وتكون بمعنى الولاية .

وبمعنى العصمة وجميع أقسام الخيرات التى يختصُّ — بشىء منها — عبداً من عباده ، فيدخل تحت قوله : يختص برحمته ، أى بنعمته .

فقومٌ اختصهم بنعمة الأخلاق وقوم اختصهم بنعمة الأرزاق ، وقوم اختصهم بنعمة العبادة وآخرين بنعمة الإرادة ، وآخرين بتوفيق الظواهر وآخرين بعطاء الأبشار ، وآخرين بلقاء الأسرار ، قال تعالى : « وإن تعدوا نعمة الله لاتحصوها » .

ويقال لمَّا سمعوا قوله : « يختص برحمته من يشاء » ، علموا أن الوسائل ليست بهادية[1] ، وإنما الأمر بالابتداء والمشيئة .

ويقال يختص برحمته من يشاء بالفهم عنه فيما يكاشفه به من الأسرار ويلقيه إليه من فنون التعريفات .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمِنْ أهل الكتاب مَنْ إنْ تَأْمَنْهُ بقنطارٍ يُؤَدِّه إليك . ومنهم مَنْ إنْ تأمنه بدينار لا يُؤَدِّهِ إليك ﴾ ..الآية

(١) وصدق الرسول الكريم حين قال : « إنه لن يدخل أحدكم الجنة عمله ، قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟ قال : ولا أنا . إلا أن يتغمدنى الله برحمته » رواه الشيخان عن عائشة .

أخبر أنهم — مع ضلالتهم وكفرهم — متفاوتون فى أخلاقهم ، فكُلُّهم خَوَنَةٌ فى أمانة الدِّين ، ولكنّ منهم من يرجع إلى سداد المعاملة ، ثم وإن كانت معاملتهم بالصدق فلا ينفعهم ذلك فى إيجاب الثواب ولكن ينفعهم من حيث تخفيف العذاب ؛ إذ الكفار مُطَالَبُون بتفصيل الشرائع ، فإذا كانوا فى كفرهم أقلَّ ذنباً كانوا بالإضافة إلى الأخسرين أقلَّ عذاباً ، وإن كانت عقوبتهم أيضاً مؤبَّدة .

ثم بيَّن أنه ليس الحكم إليهم حتى إذا :

﴿قالوا ليس علينا فى الأمِّيين سبيلٌ﴾

فلا تجرى عليهم هذه الحالة ، أو تنفعهم هذه المقالة ، بل الحكم لله تعالى .

قوله جلَّ ذكره :﴿ إنَّ الذين يشترون بعهد الله وأيْمَانِهِم ثَمَنًا قليلا أولئك لا خَلَاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ، ولهم عذابٌ أليمٌ﴾ .

الذين آثروا هواهم على عُقباهم ، وقدَّموا مناهم على موافقة مولاهم أولئك لا نصيب لهم فى الآخرة ؛ فللاستمتاع بما اختاروا من العاجل خسروا فى الدارين .

بقوا عن الحق ، وما استمتعوا بحظٍّ ، جَمَعَ عليهم فنون المِحَن ولكنهم لا يدرون ما أصابهم : لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ، ثم مع هذا يُخَلِّدُهم فى العقوبة الأبدية .

قوله جل ذكره : ﴿وإنَّ منهم لَفَرِيقاً يَلْوُون أَلْسِنَتَهُمْ بالكتابِ لِتَحْسَبُوه مِنَ الكتاب ، وما هو مِنَ الكتاب ، ويقولون هو مِنْ عِنْد الله وما هو مِنْ عند الله ، ويقولون على اللهِ الكذب وهم يعلمون﴾ .

الإشارة من هذه الآية إلى المبطلين فى الدعاوى فى هذه الطريقة .

يزيِّنون العبارات ، ويطلقون ألسنتهم بما لاخَبَرَ فى قلوبهم منه ، ولا لهم بذلك تحقيق ، تلبيساً على الأغبياء والعوام وأهل البداية ؛ يوهمون أن لهم تحقيق ما يقولونه بألسنتهم . قال تعالى فى صفة هؤلاء « لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب » ، كذلك أرباب التلبيس والتدليس ، يُرَوِّجون قالَتهم على المستضعفين ، فأمَّا أهل الحقائق فأسرارهم عندهم مكشوفة .

قال الله تعالى « ويقولون على الله الكذبَ وهم يعلمون » ، أى يعلمون أنهم كاذبون ، كذلك أهل الباطل والتلبيس فى هذه الطريقة يتكلمون عن قلوب خَرِبَة ، وأسرار محجوبة ، نعوذ بالله من استحقاق المقت !

قوله جل ذكره : ﴿ما كان لِبَشَرٍ أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ، ثم يقول للناسِ كونوا عباداً لى مِنْ دون الله ، ولكن كونوا ربَّانيين بما كنتم تُعلِّمون الكتاب وبما كنتم تَدْرُسُون﴾ .

أى ليس من صفة مَنْ اخترناه للنبوة واصطفيناه للولاية أن يدعو الخلْق إلى نفسه ، أو يقول بإثبات نفسه وحظِّه ، لأن اختياره — سبحانه — إياهم للنبوة يتضمن عصمتهم عمَّا لا يجوز ، فتجويز ذلك فى وصفهم مُنَافٍ لحالهم ، وإنما دعاء الرسل والأولياء — للخلْق — إلى الله سبحانه وتعالى ، وهو معنى قوله تعالى : « ولكن كونوا ربانيين » أى إنما أشار بهم على الخلْق بأن يكونوا ربانيين ، والربَّانى منسوبٌ إلى الرب كما يقال فلان دقيانى ولحيانى ... وبابه .

وهم العلماء بالله الحلماء فى الله القائمون بفنائهم عن غير الله ، المستهلكة حظوظهم ، المستغرِقون فى حقائق وجوده عن إحساسهم بأحوال أنفسهم ، ينطقون بالله ويسمعون بالله ، وينظرون بالله ، فهم بالله مَحْوٌ عمَّا سوى الله .

ويقال الربانى من ارتفع عنه ظِلُّ نفسه، وعاش فى كنف ظلّه — سبحانه.

ويقال الربَّانى الذى لايُثْبِتُ غير ربِّه مُوَحِّدًا، ولا يشهد ذرة من المحو والإثبات لغيره أو مِنْ غيره.

ويقال الربَّانى من هو مَحْقٌ فى وجوده — سبحانه — ومحو عن شهوده، فالقائم عنه غَيْرُه، والمُجْرِى لِمَا عليه سواه.

ويقال الربَّانى الذى لاتُؤَثِّرُ فيه تصاريف الأقدار على اختلافها.

ويقال الربّانى الذى لا تُغَيِّره محنة ولا تَضُرُّه نِعْمة — فهو على حالة واحدة فى اختلاف الطوارق.

ويقال الربَّانى الذى لا يتأثر بورود واردٍ عليه، فَمَنْ استنطقته رقة قلبٍ، أو اسْتَمَالَه هجومُ أمر، أو تفاوتت عنده أخطار حادث — فليس بربانى.

ويقال إنَّ الربَّانى هو الذى لا يبالى بشىء من الحوادث بقلبه وسِرِّه، ومن كان لا يقصر فى شىء من الشرع بفعله.

« بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون » مِنْ توالى إحسانى إليكم، وتَضاعف نعمتى لديكم.

قوله جل ذكره: ﴿ولا يأمركم أَنْ تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكُفْرِ بعد إذ أنتم مُسْلِمون﴾.

أى لا تنسبون إليهم ذرة من الإثبات فى الخير والشر.

ويقال يعرفكم حدَّ البشرية وحقَّ الربوبية.

ويقال يأمركم بتوقيرهم من حيث الأمر والشريعة، وتحقير قدر الخلْق — بالإضافة[1] إلى الربوبية. « أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون » أيأمركم بإثبات الخلْق بعد شهود الحق؟

---

(١) وتحقير قدر الخلق (بالإضافه إلى الربوبية) معناها (بالنسبة إلى) جلال الربوبية وعظمتها.

ويقال « أيأمركم بمطالعة الأشكال ،ونسبة الحدثان إلى الأمثال، بعد أن لاحت فى أسراركم أنوار التوحيد ، وطلعت فى قلوبكم شموس التفريد .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذا أخذالله ميثاق النبيين ... ﴾ الآية

أخذ الله ميثاق محمد صلى الله عليه وسلم على جميع الانبياء عليهم السلام ، كما أخذ ميثاقهم فى الإقرار بربوبيته — سبحانه ، وهذا غاية التشريف للرسول عليه السلام ، فقد قَرَنَ اسمه باسم نفسه ، وأثبت قَدْرَه كما أثبت قدر نفسه ، فهو أوحد الكافة فى الرتبة ، ثم سَهَّلَ سبيلَ الكافة فى معرفة جلاله بما أظهر عليه من المعجزات .

﴿ فمن تولَّى بعد ذلك فأولئك
هم الفاسقون ﴾ .

الإشارة فيه : فَمَنْ حاد عن سُنَّتِه ، أو زاغ عن اتباع طريقته بعد ظهور دليله ، ووضوح معجزته فأولئك هم الذين خَبُثَتْ درجتهم ، ووجب المقت عليهم لجحدهم ، وسقوطهم عن تعلُّق العناية بهم .

قوله جل ذكره : ﴿ أفغير دين الله يبغون وله أسلم مَنْ
فى السموات والأرض طَوْعاً
وكَرْهاً ... ﴾

مَنْ لاحظه على غير الحقيقة ، أو طالع سواه فى توهم الأهلية[1] كَرَاءِ السراب ظنَّه ماء فلمَّا أتاه وجده هباء . ومغاليط الحسبانات مُقَطِّعةٌ مُشْكِلَةٌ فَمَنْ حَلَّ بها نَزَلَ بوادٍ قَفْرٍ .

« وله أسلم من فى السموات والأرض طوعاً وكرها » لإجراء حكم الإلهية على وجه القهر عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ آمنا بالله وما أُنْزِل علينا ،

---

(١) الأهلية معناها الاستحقاق ، استحقاق كل تقديس ، ولا نستبعد أنها فى الأصل الألوهية لأن السياق يسير متحدثا عن البشر الذين يقولون للناس كونوا عباداً لنا ، وعن الملائكة والنبيين ووجوب عدم اتخاذهم أربابا .

وما أُنْزِل على إبراهيم وإسماعيل
وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى
موسى وعيسى والنبيون من ربهم
لا نُفَرِّق بين أَحدٍ منهم ونحن
له مُسْلِمون ﴾

آمنا بالله لا بنفوسنا أو حَوْلنا أو قوتنا .

وآمنا بما أنزل علينا بالله ، وأنَّا لا نُفَرِّق بين أحد منهم — بالله سبحانه — لا بحولنا واختيارنا ، وجهدنا[1] واكتسابنا ، ولولا أنه عرَّفنا أنه مَنْ هو ما عرفنا وإلا فمتى عَلِمْنا ذلك ؟![2] .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمنْ يبتغِ غير الإسلام ديناً فَلَنْ يُقْبلَ منـه وهو فى الآخرة من الخاسرين ﴾ .

مَنْ سَلَكَ غير الخمود تحت جريان حكمه سبيلاً زَلَّتَ قَدَمُه فى وهدة[3] من المغاليط لا مدى لقعرها .

ويقال من توسَّل إليه بشيء دون الاعتصام به فخُسْرانه أكثر من رِبْحِه .

ويقال من لم يَفْنَ عن شهود الكل لم يصل إلى مَنْ به الكل .

ويقال مَنْ لم يَمْشِ تحت راية المصطفى صلى الله عليه وسلم المُعظَّم فى قَدْره ، المُعَلَّى فى وصفه، لم يُقْبَلْ منه شيء ولا ذرة .

قوله جل ذكره : ﴿ كيف يهدى الله قوماً كفروا بعد

(١) وردت (وجحدنا) وهى خطأ من الناسخ .
(٢) قارن ذلك بعبارة ذى النون المصرى : عرفت ربى بربى ولولا ربى ماعرفت ربى . (الرسالة ص ١٥٦) .
(٣) أخطأ الناسخ حين كتبها (وحدة) بالحاء .

إيمانهم وشهدوا أن الرسول حقٌ
. . . . ، . . . الآية ﴾

مَنْ أبعده عن استحقاق الوصلة فى سابق حكمه فمتى يقربه من بساط الخدمة بفعله فى وقته ؟
ويقال : الذى أقصاه[1] حكم (الأول)[2] متى أدناه صدق العمل ؟ والله غالبٌ على أمره .

قوله جل ذكره : ﴿ أولئك جزاؤهم أنَّ عليهم لعنة الله
والملائكة والناس أجمعين ﴾

أولئك قصارى حالهم ما سبق لهم من حكمه فى ابتداء أمرهم ، ابتداؤهم ردُّ القسمة ، ووسائطهم الصدُّ عن الخدمة ، ونهايتهم المصير إلى الطرد والمذلة .

﴿ خالدين فيها لا يُخَفَّفُ عنهم العذابُ
ولا هُمْ يُنْظَرُون ﴾

خالدين فى تلك المذلة لا يفتر عنهم العذاب لحظة ، ولا يخفف دونهم الفراق ساعة .

﴿ إلا الذين تابوا مِنْ بعد ذلك
وأصلحوا فإنَّ الله غفور رحيم ﴾

أولئك هم الذين تداركتهم الرحمة ، ولم يكونوا فى شق السبق من تلك الجملة ، وإن كانوا فى توهم الخلق من تلك الزمرة .

قوله جل ذكره : ﴿ إن الذين كفروا بعد إيمانهم
ثم ازدادوا كفراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهم
وأولئك هم الضالون ﴾

الإشارة منه : أن الذين رجعوا إلى أحوال أهل العادة بعد سلوكهم طريق الإرادة ،

---

(١) وردت (أقضاه) ونحن نرجح أن تكون (أقصاه) بالصاد حتى تتلاءم مع (أدناه) التى جاءت بعدها — فذلك أقرب إلى طبيعة أسلوب القشيرى فى هذا السياق .

(٢) هكذا كتبها الناسخ ، ونحن نميل إلى أنها فى الأصل (الأزل) .
فالقشيرى يعتقد أن الأقسام سبقت فى الأزل وأن قيمة الإنسان مرتهنة بذلك .

وآثروا الدنيا ومطاوعة الهوى على طلب الحق سبحانه وتعالى ، ثم أنكروا على أهل الطريقة ، وازدادوا فى وحشة ظلماتهم — لن تُقبلَ توبتهم ، « وأولئك هم الضالون » عن طريق الحق فإنه لا يقبل الأمانة بعد ظهور الخيانة . وعقوبتهم أنهم على مر الأيام لايزدادون إلا نفرة قلب عن الطريقة ، ولا يتحسرون على مافاتهم من صفاء الحالة . ولو أنهم رجعوا عن إصرارهم لها لقُبِلت توبتهم ، ولكن الحق سبحانه أجرى سنته مع أصحاب الفترة فى هذه الطريقة إذا رجعوا إلى أصول العادة ألا يتأسَّفوا على ما مضى من أوقاتهم .

قال تعالى : « ونقلِّب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة » وإن المرتدَّ عن الإسلام لأشدُّ عداوة للمسلمين من الكافر الأصلى، فكذلك الراجع عن هذه الطريقة لأشد إنكاراً لها وأكثر إعراضاً عن أهلها من الأجنبىِّ عنها .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين كفروا وماتوا وهم كُفَّار فلَنْ يُقْبلَ مِنْ أَحدِهم مِلْءُ الأرض ذهباً ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين ﴾ .

الإشارة منه : لَمنْ مات بعد فترته — وإن كانت له بداية حسنة — فلا يحشر فى الآخرة مع أهل هذه القصة ، ولو تشفع له ألف عارف ، بل من كمال المكر به أنه يلقى شبهه فى الآخرة على غيره حتى يتوهم معارفه من أهل المعرفة أنه هو — فلا يخطر ببال أحد أنه ينبغى أن يشفع له .

قوله جل ذكره : ﴿ لن تنالوا البرّ حتى تنفقوا مما تحبون وماتنفقوا من شىء فإن الله به عليم﴾

لمَّا كان وجود البرِّ مطلوبا ذكر فيه « مِنْ » التى للتبعيض فقال : « مما تحبون » ؛ فمَنْ أراد البر فلينفق مما يحبه أى البعض ، وَمَنْ أراد البارَّ فلينفقْ جميع ما يحبه . ومن أنفق محبوبه من الدنيا وَجَدَ مطلوبه من الحق تعالى ، ومن كان مربوطاً بحظوظ نفسه لم يحظ بقرب ربِّه.

ويقال إذا كنت لاتصل إلى البر إلا بإنفاق محبوبك فمتى تصل إلى البارّ وأنت تؤثر عليه حظوظك . « وما تنفقوا من شىء فإن الله به عليم » منهم من ينفق على ملاحظة الجزاء

والعِوض ، ومنهم من ينفق على مراقبة دفع البلاء والحَزَن ، ومنهم من ينفق اكتفاء بعلمه ، قال قائلهم :

ويهتز للمعروف في طلب العلى لتُذكَرَ يوماً — عند سلمى — شمائله

قوله جل ذكره : ﴿ كُلُّ الطعام كان حِلاً لبنى إسرائيل
إلا ماحرَّم إسرائيل على نَفْسِه مِنْ
قبل أنْ تُنَزَّل التوراة ، قُلْ فَأْتوا
بالتوراة فاتلوها إنْ كنتم صادقين *
فَمَنْ افترى على الله الكَذِبَ مِنْ
بعدِ ذلك فأولئك هم الظالمون ﴾

الأصل في الأشياء ألا يشرع فيها بالتحليل والتحريم ، فما لا يوجد فيه حدٌّ فذلك من الحق — سبحانه — توسعة ورفقة إلى أن يحصل فيه أمر وشرع ؛ فإنَّ الله — سبحانه — وسَّعَ أحكام التكليف على أهل النهاية[1] ، فسبيلهم الأخذ بما هو الأسهل لتمام ماهم به من أحكام القلوب ، فإن الذى على قلوبهم من المشاق أشد . وأما أهل البداية فالأمر مضيَّقٌ عليهم في الوظائف والأوراد ؛ فسبيلهم الأخذ بما هو الأشق والأصعب لفراغهم بقلوبهم من المعانى ، فمن ظنَّ بخلاف هذا فقد غلط .

والإشارة من هذه الآية أيضاً في قوله : « فمن افترى على الله الكذب » إلى أحوال أهل الدعاوى والمغاليط ؛ فإنهم يخلون بنفوسهم فينسبون إلى الله — سبحانه — هواجسها ، والله برئٌ عنها . وعزيزٌ عبدٌ يفرِّق بين الخواطر والهواجس .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ صدق الله فاتَّبِعوا مِلَّةَ إبراهيم
حنيفاً وما كان من المشركين ﴾

مِلَّةُ إبراهيم الخروج إلى الله بالكلية ، والتسليم لحكمه من غير أن تبقى بقية ؛ فإثبات ذرة في الحسبان من الحدثان شِرْكٌ — في التحقيق .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ أوَّلَ بيتٍ وُضِعَ للنَّاسِ للذى

(١) أهل النهاية هم العوام ، وأهل البداية هم الخواص .

ببكة مُبارَكاً وهدىً للعالَمينَ * فيه آياتٌ بيِّنات مَقَامُ إبراهيم ومن دخله كان آمِناً ، ولله على الناسِ حِجُّ البيتِ مَنَ استطاع إليه سبيلا ، ومَنْ كفر فإنَّ الله غَنِيٌّ عن العالمين ﴾

البيت حَجَرَةٌ والعبد مَدَرَةٌ ، فرَبَطَ المدرة بالحجرة ، فالمدر مع الحجر . وتعزَّز وتقَدَّس من لم يزل .

ويقال البيت مطاف النفوس ، والحق سبحانه مقصود القلوب !

البيت أطلال وآثار وإنما هى رسوم وأحجار ولكن :

تلك آثارنا تدلُّ علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

ويقال البيت حجر ، ولكن ليس كل حجر كالذى يجانسه من الحجر .

حَجَرٌ ولكن لقلوب الأحباب مزعج بل لأكباد الفقراء منفج[1] ، لا بل لقلوب قوم مُثْلِجٌ مبهج ، ولقلوب الآخرين منفج مزعج .

وهم على أصناف : بيت هو مقصد الأحباب ومزارهم ، وعنده يسمع أخبارهم ويشهد آثارهم .

بيت من طالعه بعين التفرقة عاد بسرٍ خراب ، ومن لاحظه بعين الإضافة حظى بكل تقريب وإيجاب ، كما قيل :

إن الديار — وإن صَمَتَتْ — فإنَّ لها عهداً بأحبابنا إذ عندها نزلوا

بيت من زاره بنفسه وجد ألطافه ، ومن شهده بقلبه نال كشوفاته .

---

(١) نفج الأرنب أثاره والنافجة الريح الشديدة ، فيكون معنى منفج شديد الإثارة .

ويقال قال سبحانه : « وطهِّر بيتى » وأضافه إلى نفسه ، وقال هاهنا : « إن أول بيت وضع للناس » وفى هذا طرف من الإشارة إلى عين الجمع[1] .

وسميت (بكة) لازدحام الناس ، فالكلُّ يتناجزون على البدار إليه ، ويزدحمون فى الطواف حواليْه ، ويبذلون المهج فى الطريق ليصلوا إليه .

والبيت لم يخاطِب أحداً منذ بُنِيَ بِمُنْيَةٍ ، ولم يستقبل أحداً بحظوة ، ولاراسل أحداً بسطر فى رسالة ، فإذا كان البيت الذى خلقه من حجر — هذا وصفه فى التعزز[2] فما ظنُّك بِمَن البيتُ له . قال صلى الله عليه وسلم مخبراً عنه سبحانه : « الكبرياء ردائى والعظمة إزارى » .

ويقال إذا كان البيت المنسوب إليه لا تصل إليه من ناحية من نواحيه إلا بقطع المفاوز والمتاهات فكيف تطمع أن تصل إلى ربِّ البيت بالهوينى دون تحمُّل المشقات ومفارقة الراحات ؟ !

ويقال لا تُعلِّقْ قلبك بأول بيتٍ وضع لكَ ولكن أفرِدْ سِرَّك لأول حبيبٍ آثرك .

ويقال شتّان بين عبدٍ اعتكف عند أول بيتٍ وُضِع له وبين عبدٍ لازم حضرة أول عزيز كان له .

ويقال ازدحام الفقراء بهممهم حول البيت ليس بأقل من ازدحام الطائفين بِقَدَمِهم ، فالأغنياء يزورون البيت ، ويطوفون بِقَدَمِهم ، والفقراء يبقون عنه فيطوفون حوله بهممهم .

ويقال الكعبة بيت الحق سبحانه فى الحجر ، والقلب بيت الحق سبحانه فى السِّر ، قال قائلهم :

لستُ من جملة المحبين إنْ لم أجعل القلبَ بيته والمقاما
وطوافى إجالة السِّر فيه وهو ركنى إذا أردت استلاما

فاللطائف تطوف بقلوب العارفين ، والحقائق تعتكف فى قلوب الموحِّدين ، والكعبة مقصود العبد بالحج ، والقلب مقصود الحق بإفراده إياه بالتوحيد والوجد .

---

(١) ربما كان فى الأصل (... ... الإشارة إلى عين الجمع ، « وأول بيت وضع للناس » إشارة إلى الفرق) فى الأول نسب البيت إلى نفسه ، وفى الثانى أشار إلى وضعه للناس .
وسقطت هذه العبارة الأخيرة من الناسخ .

(٢) وردت (التعذر) والسياق يتطلب (التعزز) .

قوله جل ذكره : ﴿ مباركاً وهدىً للعالمين ﴾

بركاته اتصال الألطاف والكشوفات ، فَمَنْ قصده بهمته ، ونزل عليه بقصده هداه إلى طريق رُشْدِهِ .

قوله جل ذكره : ﴿ فيه آيات بيِّنات ﴾

ولكن لا تُدْرَكُ تلك الآيات بأبصار الرءوس ولكن ببصائر القلوب ، ومقام إبراهيم — فى الظاهر — ما تأثر بقدَمِه ، وفى الإشارة : ما وقف الخليل عليه السلام بهممه .

ويقال إن شرف مقام إبراهيم لأنه أَثَرُ الخليل ، ولأثر الخليل خطر عظيم .

قوله جل ذكره : ﴿ ومَنْ دَخَلَه كان آمِنا ﴾

يقال مَنْ دَخَلَ مقام إبراهيم كان آمناً ، ومقام إبراهيم التسليم ، ومن كان مسلماً أموره إلى الله لم يبق له اختيار ، وكان آمناً ، فالأمن ضده الخوف ، والخوف إنما يكون على ألا يحصل مرادك على ما تريد ، فإذا لم تكن للعبد إرادة واختيار فأىُّ مساغٍ للخوف فى وصفه ؟

ويقال إن الكناية[1] بقوله (دخله) راجعة إلى البيت ، فمن دخل بيته — على الحقيقة — كان آمناً ، وذلك بأن يكون دخوله على وصف الأدب ، ولا محالة أدب دخول البيت تسليم الأمور إلى رب البيت ، فإنَّ من لم يكن صاحب تسليم فهو معارضٌ للتقدير . ودخول البيت إنما الأدب فيه أن يكون دخولاً على التسليم دون المعارضة والنزاع فيؤول إلى المعنى المتقدم .

وإن جعلتَ الإشارة من البيت إلى القلب فمن دخل قلبَه سلطان الحقيقة أَمِنَ مِنْ نوازعِ البشرية وهواجسِ غاغة النفس، فإنَّ من التجأ إلى ظل المَلِكِ لم يمتطِ إليه محذورا .

ويقال لا يكون دخول البيت — على الحقيقة — إلا بخروجك عنك ، فإذا خرجت عنكَ صَحَّ دخولُك فى البيت ، وإذا خرجتَ عنكَ أَمِنْتَ .

ويقال دخول بيته لا يصحُّ مع تعريجك فى أوطانك ومعاهدك ، فإن الشخص الواحد

(١) يقصد بها ضمير الغائب فى (دخله) .

لا يكون فى حالة واحدة فى مكانين ، فمن دخل بيت ربه فبالحرىّ أن يخرج عن معاهد[1] نفسه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ﴾

شرط الغنىّ ألا يَدَّخِر عن البيت شيئاً مِنْ مالِهِ ، وشرط الفقير ألا يدخر عن الوصول إلى بيته نَفَساً من روحه .

ويقال الاستطاعة فنون ؛ فمستطيع بنفسه ومَالِه وهو الصحيح السليم ، ومستطيع بغيره وهو الزَّمِنُ المعصوب ، وثالث غفل الكثيرون عنه وهو مستطيع بربه وهذا نعت كل مخلص مستحق فإن بلاياه لا تحملها إلا مطايانا .

ويقال حج البيتِ فَرْضٌ على أصحاب الأموال ، وربُّ البيتِ فَرْضٌ على الفقراء فرض حتم ؛ فقد يَنْسَدُّ الطريق إلى البيت ولكن لا ينسدُّ الطريق إلى رب البيت ، ولا يُمْنَعُ الفقير عن ربِّ البيت .

ويقال الحج هو القصد إلى مَنْ تُعَظِّمه : فقاصدٌ بنفسه إلى زيارة البيت ، وقاصد بقلبه إلى شهود رب البيت ، فشتان بين حج وحج ، هؤلاء تحللهم عن إحرامهم عند قضاء منسكهم وأداء فرضِهم ، وهؤلاء تحللهم عن إحرامهم عند[2] شهود ربهم ، فأمَّا القاصدون بنفوسهم فأحرموا عن المعهودات من محرمات الإحرام ، وأمَّا القاصدون بقلوبهم فإنهم أحرموا عن المساكنات وشهود الغير وجميع الأنام .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فإنَّ الله غنيٌّ عن العالمين ﴾

ضرب رقم الكفر على من ترك حج البيت ، ووقعت بسبب هذا القول قلوب العلماء فى كدِّ التأويل ، ثم قال : « فإن الله غنى عن العالمين » وهذا زيادة تهديد تدل على زيادة تخصيص .

ويقال إن سبيل من حج البيت أن يقوم بآداب الحج ، فإذا عقد بقلبه الإحرام يجب أن

---

(١) أى مألوفات نفسه .

(٢) وردت (عن) والصحيح (عند) .

يفسخ كلَّ عَقْدٍ يصدُّه عن هذا الطريق ، وينقض كل عزم يرده عن هذا التحقيق ، وإذ اطَّهَّرَ تَطَهَّرَ عن كل دَنَسٍ من آثار الأغيار بماء الخجل ثم بماء الحياء ثم بماء الوفاء ثم بماء الصفاء ، فإذا تجرَّد عن ثيابه تجرد عن كل ملبوسٍ له من الأخلاق الذميمة ، وإذا لبَّي بلسانه وجب ألا تبقى شَعْرَةٌ مِنْ بَدَنهِ إلا وقد استجابت لله . فإذا بلغ الموقف وقف بقلبه وسِرِّه حيث وقفه الحق بلا اختيار مقام ، ولا تعرض لتخصيص ، فإذا وقف بعرفات عرف الحق سبحانه ، وعرف له تعالى حقَّه على نفسه ، ويتعرَّف إلى الله تعالى بِتَبَرِّيه عن مُنَّتِهِ[1] وحَوْلِه ، والحقُّ سبحانه يتعرَّف إليه بِمِنَّته وطَوْله ، فإذا بلغ المشعر الحرام يذكر مولاه بنسيان نفسه ، ولا يصحُّ ذِكْرُه لربِّهِ مع ذكره لنفسه ، فإذا بلغ مِنًى نفى عن قلبه كل طَلَبٍ ومُنًى ، وكلَّ شهوةٍ وهوى .

وإذا رمى الجمار رمى عن قلبه وقذف عن سره كل علاقة فى الدنيا والعقبى .

وإذا ذبح ذبح هواه بالكلية ، وتَقَرَّب به إلى الحق سبحانه ، فإذا دخل الحَرَمَ عَزَمَ على التباعد عن كل مُحَرَّم على لسان الشريعة وإشارة الحقيقة .

وإذا وقع طَرْفُه على البيت شهد بقلبه ربَّ البيت ، فإذا طاف بالبيت أخذ سِرُّه بالجولان فى الملكوت .

فإذا سعى بين الصفا والمروة صفَّى عنه كل كدورة بشرية وكل آفة إنسانية .

فإذا حَلَقَ قطع كلَّ علاقة بقيت له .

وإذا تحلل من إحرام نفسه وقصده إلى بيت ربِّه استأنف إحراماً جديداً بقلبه ، فكما خرج من بيت نفسه إلى بيت ربه يخرج من بيت ربه إلى ربه تعالى .

فمن أكمل نُسُكَه فإنما عمل لنفسه ، ومن تكاسل فإنَّ الله غنى عن العالمين وقال صلى الله عليه وسلم : « الحاج أشعث أغبر » ، فمن لم يتحقق بكمال الخضوع والذوبان عن كليته فليس بأشعث ولا أغبر .

---

(١) ضبطناها هكذا لأن القشيرى يميز بين (المِنَّة) للحق و (المُنَّة) للعبد .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يا أهل الكتاب لِمَ تكفرون بآياتِ اللهِ واللهُ شهيدٌ على ما تعملون ﴾

الخطاب بهذه الآية لتأكيد الحجة عليهم ، ومن حيث الحقيقة والقهر يَسُدُّ الحجة عليهم ، فهم مدعوون — شرعاً وأمراً ، مطرودون — حُكْماً وقهراً .

قوله جل ذكره : ﴿ قُلْ يا أهل الكتاب لِمَ تَصُدُّونَ عن سبيل اللهِ مَنْ آمَنَ تبغونها عِوَجاً وأنتم شهداء ، وما اللهُ بغافلٍ عمّا تعملون ﴾

كيف يصد غيره مَنْ هو مصدودٌ فى نَفْسِه ؟ إنّ فى هذا لَسِرًّا للربوبية .

قوله جل ذكره ﴿ يا أيها الذين آمنوا إنْ تطيعوا فريقاً مِنَ الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ﴾

الوحشة ليست بلازمة لأصحابها ، بل هى متعدية إلى كل من يحوِّم حول أهلها ، فَمَنْ أطاع عدوَّ الله إلى شؤم صحبة (الأعداء)[1] ألقاه فى وهدته .

قوله جل ذكره : ﴿ وكيف تكفرون وأنتم تُتْلَى عليكم آياتُ اللهِ وفيكم رَسُولُه ، ومَنْ يعتصِمْ بالله فقَدْ هُدِى إلى صراط مستقيم ﴾

لا ينبغى لمن أشرقت فى قلبه شموسُ العرفان أن يوقع الكفرُ عليه ظِلَّه ، فإنه إذا أقبل النهارُ من ها هنا أدبر الليلُ من ها هنا .

وقوله : « ومن يعتصم . . . » الآية إنما يعتصم بالله مَنْ وَجَدَ العصمة من الله ، فأمَّا

(١) مكتوبة (إلا) وسقطت بقية الكلمة فأكملناها (الأعداء) وربما (الأجانب) أو ما فى معناها طبقا لما نعرفه عن اتجاه القشيرى فى مواضع مماثلة .

مَنْ لم يَهْدِه الله فمتى يعتصم بالله ؟ فالهدايةُ منه فى البداية توجِبُ اعتصامك فى النهاية ، لا الاعتصام منك يوجب الهداية .

وحقيقةُ الاعتصام صدق اللُّجوءِ إليه ، ودوامُ الفرار إليه ، واستصحاب الاستغاثة إليه . ومَنْ كشف عن سِرِّه غطاء التفرقة تحقق بأنه لا لغير الله ذرة أو منه سينة ، فهذا الإنسان يعتصم به ممن يُعْتَصَمُ به ؛ قال سيد الأولين والآخرين صلوات الله عليه وعلى آله : « أعوذ بك منك » .

ومَنْ اعتصم بنفسه دون أن يكون محواً عن حوله وقوته فى اعتصامه — فالشِرْكُ وطنُه وليس يشعر .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حَقَّ تُقاته ﴾ .

حقُّ التقوى أن يكون على وفق الأمر لا يزيد من قِبَلِ نَفْسِه ولا ينقص .

هذا هو المعتمد من الأقاويل فيه ، وأمره على وجهين : على وجه الحَتْم وعلى وجه النَدْب وكذلك القول فى النهى على قسمين : تحريم وتنزيه ، فيدخل فى جملة هذا أن يكون حق تقاته أولاً اجتناب الزلة ثم اجتناب الغفلة ثم التوقى عن كل خلة ثم التنقى من كل عِلَّة ، فاذا تَقِيتَ عن شهود تقواك بعد اتصافك بتقواك فقد اتَّقَيْتَ حقَّ تقواك .

وحق التقوى رفض العصيان ونفى النسيان ، وصون العهود ، وحفظ الحدود ، وشهود الإلهية ، والانسلاخ عن أحكام البشرية ، والخمود تحت جريان الحكم بعد اجتناب كل جُرْم وظلم ، واستشعار الأنفة عن التوسل إليه بشىء من طاعتك دون صرف كرمه ، والتحقق بأنه لا يَقْبل أحداً بعلَّة ولا يَرُدُّ أحداً بعلة .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تموتُنَّ إلاَّ وأنتم مسلمون ﴾ .

لا تُصَادِفَنَّكم الوفاة إلا وأنتم بشرط الوفاء .

قوله جل ذكره : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرَّقوا

واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم
أعداء فألَّف بين قلوبكم فأصبحتم
بنعمته إخوانا ، وكنتم على شفا
حفرةٍ من النار فأنقذكم منها ،
كذلك يُبَيِّن الله لكم آياته
لعلكم تهتدون ﴾ .

الاعتصامُ بحبله — سبحانه — التمسك بآثار الواسطة — العزيز صلوات الله عليه — وذلك بالتحقق والتعلُّق بالكتاب والسُّنَّة .

ويصح أن يقال : الخواص يُقال لهم « اعتصموا بحبل الله » ، وخاص الخاص قيل لهم « واعتصموا بالله » ، ولِمَنْ رجع عند سوانحه إلى اختياره واحتياله ، أو فكرته واستدلاله ، أو معارفه وأشكاله ، والتجأ إلى ظل تدبيره ، واستضاء بنور عقله وتفكيره[1] - فمرفوع عنه ظل العناية ، وموكول إلى سوء حاله .

وقوله : « ولا تفرقوا » : التفرقة أشد العقوبات وهى قرينة الشِرْك .

وقوله : « واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء » . وكانوا أعداء حين كانوا قائمين بحظوظهم ، مُعَرَّجين على ضيق البشرية ، متزاحمين بمقتضى شُحِّ النفوس .

« فألَّفَ بَيْنَ قلوبكم » : بالخلاص من أَسْرِ المكونات ، ودَفْعَ الأخطار عن أسرارهم ، فصار مقصودُهم جميعاً واحداً ، فلو أَلَّفَ أَلْفَ شخص فى طلبٍ واحدٍ — فهم فى الحقيقة واحد .

« فأصبحتم بنعمته إخوانا » نعمته التى هى عصمته إياكم ، إخواناً مُتَّفِقِى القصدَ والهمة ، متفانين عن حظوظ النَّفْس وخفايا البخل والشحّ .

« وكنتم على شفا حفرة من النار » : بكونكم تحت أَسْرِ مُنَاكم ، ورباط حظوظكم وهواكم .

---

(١) واضح أن القشيرى يرى أن الالتجاء إلى العقل والفكر كوسيلة للوصول يعد قاطعا من القواطع ، لأن للعقل آفات — ذكرها القشيرى فى مواضع مختلفة — تجعله غير جدير بأن يعتمد عليه العبد فى معرفة الحقائق العليا ، إن مهمة العقل عند هذا الباحث لا تتجاوز منطقة البداية — عند تصحيح الإيمان .

« فأنقذكم منها » : بنور الرضاء ، والخمود عند جريان القضاء ، وتلك حقاً هي المكانة العُظمى والدرجة الكبرى ، ويدخل في هذه الجملة تَرْكُ السكون إلى ما منك من المناقب والتُّقى ، والعقل والحجا ، والتحصيل والنُّهى ، والفرار إلى الله — عزَّ وجلَّ — عن كل غَيْرٍ وسوى .

قوله جل ذكره : ﴿ وَلْتَكُنْ منكم أمةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وَيَنْهَوْنَ عن المنكر وأولئك هم المُفلحون ﴾

هذه إشارة إلى أقوامٍ قاموا بالله لله ، لا تأخذهم لومة لائم ، ولا تقطعهم عن الله استنامة إلى علة ، وقفوا جملتهم على دلالات أمره ، وقَصَرُوا أنفاسَهم واستغرقوا أعمارَهم على تحصيل رضاه ، عملوا لله ، ونصحوا الدين لله ، ودَعَوْا خَلْقَ الله إلى الله ، فَرَبِحَتْ تجارتُهم ، وما خَسِرتْ صفقتهم .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تكونوا كالذين تَفَرَّقوا واختلفوا مِنْ بعد ما جاءهُم البيناتُ وأولئك لَهُم عذابٌ عظيم ﴾

هؤلاء أقوام أظهر عليهم في الابتداء رقومَ الطلب ، ثم وسمهم[1] في الانتهاء بِكَيِّ الفُرقة ، فباتوا في شق الأحباب ، وأصبحوا في زمرة الأجانب[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجوهٌ وتَسْوَدُّ وجوهٌ فأمَّا الذين اسودَّتْ وجوهُهُم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون * وأمَّا الذين ابيضَّتْ وجوهُهُم ففي رحمة الله هُمْ فيها خالدون ﴾

(١) الرقم نعت يجرى في الابتداء والوسم نعت يجرى في الأبد بما جرى في الأزل .
(٢) تأمل الدقة في استعمال (باتوا) وكيف تعبر عن البداية ، ثم (أصبحوا) لتعبر عن النهاية .

أرباب الدَّعاوَى تسودُّ وجوههم ، وأصحاب المعـانى تبيض وجوههم ، وأهل الـكشوفات غداً تبيضُ بالإشراق وجوهُهُم ، وأصحاب الحجاب تسودُّ بالحجبة وجوهُهُم ، فتعلوها غَبَرة ، وترهقها قَتَرة .

ويقال مَنْ ابيض — اليومَ — قلبُه ابيضَّ — غداً — وجهُه ، ومَنْ كان بالضد فحاله العـكس .

ويقال مَنْ أعرض عن الخلْق — عند سوانحه — ابيضَّ وجهه بروْح التفويض ، ومَنْ علَّق بالأغيار قلبَه عند الحوائج اسودّ محيَّاه بغبار الطمع ؛ فأمّا الذين ابيضت وجوههم ففى أُنْسٍ وروْح ، وأمّا الذين اسودّت وجوههم ففى محن ونَوْح .

قوله جل ذكره : ﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق
وما اللهُ يريد ظُلماً للعالَـمين *
ولله ما فى السموات وما فى الأرض
وإلى الله تُرجَعُ الأمور ﴾

نُديمُ مخاطبتنا معك على دوام الأوقات فى كل قليل وكثير ، عمارة لسبيل الوداد :
﴿ وما الله يريد ظلماً للعـالمين ﴾ وأنَّى يجوز الظلم فى وصفه تقديراً ووجوداً — والخلْق كلُّهم خَلْقُه — والحـكمُ عليهم حُـكْمُه ؟

ولله ما فى السموات وما فى الأرض مِلْـكاً ، وإلى الله تُرجَعُ الأمور حُـكماً .

قوله جل ذكره : ﴿ كنتم خيرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ للناسِ
تأمرون بالمعروف وتَنْهَوْن عن
المنـكر وتؤمنون بالله ﴾

لمـّا كان المصطفى صلوات الله عليه أشرفَ الأنبياء كانت أُمَّتُه — عليه السلام — خيرَ الأمم . ولمَّـا كانوا خيرَ الأمم كانوا أشرفَ الأمم ، ولمَّـا كانوا أشرف الأمم كانوا أشْوَقَ الأممِ ، فلمَّـا كانوا أشوق الأمم كانت أعمارُهم أقْصَرَ الأعمار ، وخَلَقَهم آخِرَ الخلائق لئلا يطولَ مُـكْثُهم تحت الأرض . وما حصلت خيريَّتهم بكثرة صـلواتهم

وعباداتهم ، ولـكن بزيادة إقبالهم ، وتخصيصه إياهم . ولقد طال وقوف المتقدمين بالباب ولـكن لما خرج الإذنُ بالدخول تقدَّم المتأخرون .

وكم باسـطين إلى وَصْلِنا أكُفَّهم لم ينـالوا نصيباً

قوله جل ذكره : ﴿ تأمرون بالمعروف وتنهـون عن المنـكر ﴾

المعروف خدمه الحق ، والمنـكر صحبة النفس .

المعروف إيثار حقِّ الحق ، والمنـكر اختيار حظ النفس .

المعروف ما يُزْلِفُك إليه ، والمنـكر ما يحجبك عنه .

وشرط الآمر بالمعروف أن يكون متصفاً بالمعروف ، وحقُّ النَّاهى عن المنـكر أن يكون منصرفاً عن المنـكر .

﴿ ولو آمن أهل الـكتاب لـكان خيراً لهم ، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ﴾

لو دَخَلَ الـكافةُ تحت أمرنا لوصلوا إلى حقيقة العزِّ فى الدنيا والعقبى ، ولـكن بَعُدُوا عن القبول فى سابق الاختيار فصار أكثرُهم موسوماً بالشِّرْك .

قوله جل ذكره : ﴿ لَنْ يَضُرُّوكم إلا أذىً * وإنْ يقـاتلوكم يولوكم الأدبار * ثم لا يُنْصَرون ﴾

إن الحق سبحانه وتعالى لا يسلط على أوليائه إلا بمقدار ما يصدق إلى الله فرارهم ، فإذا حق فرارهم أكرم لديه قرارهم ، وإن استطالوا على الأولياء بموجب حسبانهم انعكس الحال عليهم بالصغار والهوان .

قال جل ذكره : ﴿ ضُرِبَتْ عليهم الذِّلةُ أينما ثُقِفُوا

إلا بِحَبْلٍ من الله وَحَبْـلٍ من
الناسِ وباءوا بغضبٍ من اللهِ *
وضُربت عليهم المَسْكنةُ ذلك
بأنَّهم كانوا يكفرون بآيات الله ،
ويقتلون الأنبياء بغير حق ، ذلك
بما عَصَوْا وكانوا يعتدون ﴾

علَمُ الهجران لا ينكتم ، وسِمَةُ البُعْد لا تَخْفَى ، ودليل القطيعة لا يستتر ؛ فهم فى صغار الطرد ، وذُلِّ الرد ، يعتبر بهم أولو الأبصار ، ويغترُّ بهم أضرابُهم من الكفار الفُجَّار .

قوله جل ذكره : ﴿ ليسوا سَوَاءً مِنْ أهل الكتاب
أُمَّةٌ قائمةٌ يتلون آيات الله آناء الليل
وهم يسجدون * يؤْمنون باللهِ واليوم
الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون
عن المنكر ويسارعون فى الخيرات
وأولئك من الصالحين ﴾

كما غايَرَ بين النور والظلام مغايرة تضاد فكذلك أثبت منافاةً بين أحوال الأولياء وأحوال الأعداء ، ومتى يستوى الضياء والظلمة ، واليقين والتُّهمة ، والوصلة والفرقة ، والبعاد والألفة ، والمعتكف على البساط والمنصرف عن الباب ، والمتصف بالولاء والمنحرف عن الوفاء ؟ هيهات يلتقيان ! فكيف يتفقان أو يستويان ؟! .

قوله جل ذكره : ﴿ وما يفعلوا من خيرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوه
والله عليم بالمتقين ﴾

لن يخيبَ عن بابه قاصد ، ولم يخسرْ عليه (تاجر)[1] ، ولم يستوحشْ معه مصاحب ، ولم يَذِلَّ له طالب .

---

(١) هكذا فى ص ، وربما استوحاها القشيرى من الآية (اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم) فيكون المعنى — والله أعلم — من آثر الله على كل شىء فقد ربحت تجارته وما خسر .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين كفروا لَنْ تُغْنِيَ عنهم أموالُهم ولا أولادُهم مِنْ اللهِ شيئاً ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾

لا فى الحال لهم بدل ولا فى المآل عنهم خلف . فى عاجلهم خَسِروا ، وفى آجلهم فى قطعٍ وهجرٍ ، وبلاءٍ وخُسْرٍ ، وعذابٍ ونُكْرٍ :

تَبَدَّلَتْ وتبدلنا واحسرةً لمن ابتغى عِوَضاً لسلمى فلم يَجِدَ

قوله جل ذكره : ﴿ مَثَلُ ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كَمَثَلِ رِيحٍ فيها صِرٌّ أصابَتْ حَرْثَ قومٍ ظلموا أنفسهم فأهْلَكَتْهُ وما ظَلَمَهم اللهُ ولكنْ كانوا أنفسهم يظلمون ﴾

ما وجدوا ميراث ما بذلوا لغير الله إلا حسراتٍ متتابعة ، وماحصلوا من حسباناتهم إلا على محن مترادفة ، وذلك جزاء مَن أعرض وتولّى .

قوله جل ذكره : ﴿ ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ، ودُّوا ما عَنِتُّم ، قد بَدَتِ البغضاء من أفواههم ، وما تُخْفِى صدورُهم أكبر ، قَدْ بيَّنَّا لكم الآياتِ إنْ كنتم تعقلون ﴾

الركون إلى الضد — بعد تبين الشاق — إعانة على الحال بما لا يبلغه كيد العدو ، فأشار الحقُّ — سبحانه — على المسلمين بالتحرز عن الاعتراض ، وإظهار البراءة عن كل غير ، ودوام الخلوص للحق — سبحانه — بالقلب والسر . وأخبر أن مضادات القوم للرسول

صلى الله عليه وسلم أصلية غير طارئة عليهم ، وكيف لا ؟ وهو صلوات الله عليه محلّ الإقبال وهم محل الإعراض . ومتى يجتمع الليلُ والنهار ؟!

قوله جل ذكره : ﴿ هأنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ، وتؤمنون بالكتابِ كلّه ، وإذا لَقُوكُم قالوا : آمنا ، وإذا خَلَوْا عَضُّوا عليكم الأناملَ من الغيظ ﴾

أنتم بقضية كرمكم تصفو — عن الكدورات — قلوبُكم ؛ فتغلبكم الشفقة عليهم ، وهم — لعتوِّهم وخُلْفِهم — يكيدون لكم ما استطاعوا ، ولفرط وحشتهم لا تترشح منهم إلا قطرات غيظهم . ففَرِّغْ — يا محمد — قلبك منهم .

﴿ قل موتوا بغيظكم إنَّ الله عليم بذات الصدور ﴾

دَعْهُمْ يتفردوا بمقاساة ما نداخلهم من الغيظ ، واستريحوا بقلوبكم عمّا يَحِلُّ بهم ، فإنَّ الله أوْلى بعباده ؛ يوصل إلى مَنْ يشاء ما يشاء .

قوله جل ذكره : ﴿ إنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ، وإنْ تُصِبْكُم سيئةٌ يفرحوا بها ، وإنْ تصبروا وتتقوا لا يَضُرُّكم كيدُهم شيئاً ، إن الله بما يعملون محيط ﴾

الإشارة من هذه الآية إلى المنصرفين عن طريق الإرادة ، الراجعين إلى أحوال أهل العاده ؛ لا يعجبهم[1] أن يكون لمريد نفاذ ، وإذا رأوا فترةً لقاصدٍ استراحوا إلى ذلك . وإنَّ الله — بفضله ومِنَّتِه — يُتِمُّ نورَه على أهل عنايته ، ويَذَرُ الظالمين الزائغين[2] عن سبيله في عقوبة بعادهم ، لا يبالي بما يستقبلهم .

---

(١) أخطأ الناسخ إذ كتبها (لا يعجبكم) والسياق والمعنى يرفضانها .
(٢) وردت (الذائقين) بالقاف وهي خطأ من الناسخ .

قوله جل ذكره: ﴿ وإذ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِك تُبَوِّئُ
المؤمنين مقاعِدَ للقتـالِ ، والله
سميعٌ عليم ﴾

أقامَه — صلى الله عليه وسلم — بتبوئه الأماكن للقتال ، فانتُدِب لذلك بأمره ثم أظهر في ذلك الباب مكنونات سِرِّه ، فالمدار على قضائه وقَدَرِه ، والاعتبار بإجرائه واختياره.

قوله جلّت قدرته: ﴿ إذْ هَمَّتْ طائفتان منكم أنْ تَفْشَلا
والله وليُّهما ، وعلى الله فليتوكل
المؤمنون ﴾ .

يُبْرِزُ الجميعَ في صدار الاختيار ، كأنَّ الأمر إليهم في نفيهم وإثباتهم ، وفعلهم وتركهم ، وفي الحقيقة لا يتقلبون إلا بتصريف القبضة ، وتقليب القدرة[1] .

قوله جل ذكره: ﴿ ولقد نَصَرَكُم اللهُ ببَدْرٍ وأنتم أذِلَّةٌ
فاتقوا الله لعلكم تشكرون ﴾ .

تذكير ماسَلَفَ من الإنعام فتحٌ لباب التملق في اقتضاء أمثاله في المُسْتَأْنَف[2] .

قوله جل ذكره: ﴿ إذْ تقولُ للمؤمنين ألَنْ يَكْفِيَكُمْ
أنْ يُمِدَّكُم رَبُّكم بثلاثةِ آلافٍ
من الملائكةِ مُنْزَلين * بَلَى ، إنْ
تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورِهم هذا
يُمْدِدْكم ربُّكم بخمسة آلافٍ مِنَ
الملائكة مُسَوِّمين ﴾ .

كان تسكينُ الحقِّ سبحانه لقلبِ المصطفى — صلى الله عليه وسلم — بلا واسطة من الله

---

(١) خلاصة معنى هذه العبارة التي قدتبدوغامضة ــ أن التعبير القرآني في ظاهره نسبة الأفعال للانسان ــ وهذا من وجهة نظر الصوفي تعبير بالفرق ، والحقيقة أن كل شيء مرجعه إلى الله حيث يكون التعبير عنه بالجمع ، وقد تقدم معنى الجمع والفرق في هامش آخر .

(٢) المستأنف = المستقبل .

— سبحانه ، والربطُ على قلوب المؤمنين بواسطة الرسول صلى الله عليه وسلم — فلولا بقية بقيت عليهم ماردَّهم فى حديث النصرة إلى إنزال المَلَك ، وأنَّى بحديث المَلَك — والأمرُ كلُّه بيَدِ المَلِك ؟! .

قوله جل ذكره : ﴿ وَمَا جعله اللهُ إلا بُشرى لكم ،
ولتطمئنَّ قلوبُكم به ، وما النصرُ إلا
منْ عند الله العزيز الحكيم ﴾ .

أجرى الله — سبحانه — سُنَّتَه مع أوليائه أنه إذا ضعفت نياَّتهم ، أو تناقصت[1] إرادتهم أو أشْرفت[2] قلوبهم على بعض فترة — أراهم من الألطاف ، وفنون الكرامات ما يُقَوِّى به أسبابَ عِرْفانهم ، وتتأكد به حقائق يقينهم .

فعلى هذه السُّنَّة أنزل هذا الخطاب . ثم قطع قلوبهم وأسرارهم عن الأغيار بالكلية فقال: « وما النصر إلا من عند الله » .

قوله جل ذكره : ﴿ ليقْطَع طَرَفاً منَ الذين كفروا
أو يَكْبِتَهُم فينقلبوا خائبينَ ﴾ .

إنَّ اللهَ لا يُشْمِتُ بأوليائه عدواً ؛ فالمؤمن وإن أصابته نكبة ، فعدوُّه لا محالة يَكبُهُ[3] الله فى الفتنة والعقوبة .

قوله جل ذكره :﴿ ليس لكَ منَ الأمرِ شىء ، أو يتوبَ
عليهم ، أو يُعذِّبَهم ، فانهم ظالمون﴾
وَللهِ مافى السموات وما فى الأرض ،
يغفرُ لِمَنْ يشاء ويُعذِّب من يشاء
والله غفور رحيم ﴾ .

---

(١) وردت (تناقضت) ولا يمنع أن تكون بالصاد حتى ينسجم النقص مع الضعف .

(٢) وردت بالقاف وهى خطأ فى النسخ .

(٣) هكذا فى (ص) وهى صحيحة ولكننا لا نستبعد أن تكون فى الأصل (يكبته) حيث جاء هذا الفعل فى الآية الكريمة التى نحن بصددها .

الإله من له الأمر والنهى ، فلمّا لم يكن له فى الإلهية نظير لم يكن له — (صلى الله عليه وسلم)[1] — من الأمر والنهى شىء .

ويقال جرَّده — بما عرَّفه وخاطبه — عن كلٍّ غيرٍ ونصيب ودعوى ، حيث أخبر أنه ليس له من الأمر شىء ، فإذا لم يَجُزْ أن يكون لسيِّد الأولين والآخرين شىء من الأمر فَمَنْ نزلت رتبتُه عن منزلته فمتى يكون له شىء من الأمر ؟

ويقال استأثر (بِسَتْرِ عباده فى حكمه[2]) فقال أنا الذى أتوب على من أشاء من عبادى وأعذِّب من أشاء ، والعواقب عليك مستورة ، وإنك — يا محمد — لا تدرى سرى فيهم .

ويقال أقامه فى وقتٍ مقاماً فقال : « وما رميت إذ رميت ولـكن الله رمى » رمى بقبضة من التراب فأصاب جميع الوجوه ، وقال له فى وقتٍ آخر : « ليس لك من الأمر شىء » ثم زاد فى البيان فقال : « ولله مافى السموات ومافى الأرض » . فإذا كان المُلْك ملكه ، والأمر أمره ، والحـكم حكمه — فَمَنْ شاء عذَّبه ، ومن شاء قرَّبه ، ومن شاء هداه ، ومن شاء أغواه .

قوله جل ذكره : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مُضاعَفَةً واتقوا الله لعلـكم تُفْلِحون * واتقوا النارَ التى أُعِدَّت للـكافرين ﴾ .

حرَّم الربا على العِباد ومنه إقراض الواحد باثنين تستردهما ، وسأل منك القرض الواحد بسبعمائة إلى مالا نهاية له ، والإشارة فيه أن الـكرم لا يليق بالخَلْق وإنما هو صفة الحق سبحانه .

« واتقوا النار التى أُعِدَّتْ للـكافرين » : دليل الخطاب أنَّ المؤمن لا يُعذَّبُ بهـا ، وإنْ عُذِّب بها مُدَّةً فلا يُخَلَّدُ فيها .

قوله جل ذكره : ﴿ وأطيعوا الله والرسول لَعَلَّكم تُرْحَمون ﴾

---

(١) أضفناها لتوضيح المعنى .

(٢) ربما كانت فى الأصل هكذا (بسر حكمه فى عباده) لأنه بعد قليل يقول (لاتدرى سرى فيهم) أى أن المستأثر به هو السر ، وكذلك كلمة (ستر عباده) مرفوضة فالأولى أنه يستر الحـكم ، أو العواقب كما جاء بعد قليل .

قَرَنَ طاعة الرسول صلوات الله عليه بطاعة نفسه تشريفاً لِقَدْرِه ، وتخفيفاً على الأمة حيث ردَّهم إلى صحبة شخص من أنفسهم ، فإنَّ الجنسَ إلى الجنسِ أسكنُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وسارعوا إلى مَغْفِرةٍ مِنْ ربِّكم
وجَنَّةٍ عَرْضُها السموات والأرضُ
أُعِدَّت للمتقين * الذين ينفقون
فى السَّراءِ والضَّراءِ والكاظمين
الغيظ والعافين عن الناسِ والله
يحب المحسنين ﴾

معناه سارعوا إلى عملٍ يوجب لكم المغفرة ، فتقسمت القلوب وتوهمت أن ذلك أمرٌ شديد فقال صلى الله عليه وسلم : « الندم توبة » وإنما توجب المغفرةَ التوبةُ لأن العاصى هو الذى يحتاج إلى الغفران .

والناس فى المسارعة على أقسام : فالعابدون يسارعون بقَدَمِهِم فى الطاعات ، والعارفون يسارعون بهممهم فى القربات ، والعاصون يسارعون بندمهم بتجرُّع الحسرات . فَمَنْ سارع بقَدَمِهِ وجد مثوبته ، ومن سارع بهممه وجد قربته ، ومن سارع بندمه وجد رحمته .

ولمَّا ذكر الجنة وصفها بسعة العرض ، وفيه تنبيه على طولها لأن الطول فى مقابلة العَرْض ، وحين ذكر المغفرة لم يذكر الطول والعرض ، فقومٌ قالوا : المغفرة من صفات الذات وهى بمعنى الرحمة فعلى هذا فمغفرته حُكْمُهُ بالتجاوز عن العبد وهو كلامه ، وصفة الذات تتقدس عن الطول والعرض .

ومن قال : مغفرته من صفات فِعْلِهِ قال لكثرة الذنوب لم يصف الغفران بالنهاية ، إشارةً إلى استغراقه جميع الذنوب .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين ينفقون فى السَّراء والضَّراء ﴾

لا يدَّخِرون عن الله شيئاً ، ويؤثِرونه على جميع الأشياء ، ينفقون أبدانهم على الطاعات وفنون الأوراد والاجتهاد ، وأموالهم فى إفشاء الخيرات وابتغاء القربات بوجوه الصدقات ،

وقلوبهم فى الطلب ثم دوام المراعاة ، وأرواحهم على صفاء المحبَّات والوفاء على عموم الحالات ، وينفقون أسرارهم على المشاهدات فى جميع الأوقات[1] ؛ ينتظرون إشارات المطالبات ، متشمرين للبدار إلى دقيق المطالعات[2] .

قوله : « والكاظمين الغيظ » : يتجاوزون عن الخَلْق لملاحظاتهم إياهم بعين النسبة ، وأقوام يحْلُمون على الخلْق علماً بأن ذلك بسبب جُرْمِهم فيشهدونهم بعين التسلط ، وآخرون يكظمون الغيظ تحققاً بأن الحق سبحانه يعلم ما يقاسون فيهون عليهم التحمل ، وآخرون فنوا عن أحكام البشرية فوجدوا صافِىَ الدرجات فى الذُّلِّ لأن نفوسهم ساقطة فانية ، وآخرون لم يشهدوا ذرة من الأغيار فى الإنشاء والإجراء ؛ فعلموا أنَّ المنشئ الله ؛ فزالت خصوماتهم ومنازعاتهم مع غير الله لأنهم لمَّا أفردوه بالإبداع انقادوا لحكمه ؛ فلم يروا معه وجهاً غير التسليم لحكمه ، فأكرمهم الحق سبحانه بِبَرْدِ الرضاء ، فقاموا له بشرط الموافقة .

قوله « والعافين عن الناس » فرضاً[3] رأوه على أنفسهم لا فضلاً منهم على الناس ، قال قائلهم :

رُبَّ رامٍ لى بأحجار الأذى   لم أجِدْ بُدَّاً من العطف عليه

« والله يحب المحسنين » والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه .. هذا فى معاملة الحق ، وأما فى معاملة الخلْق فالإحسان أن تَدَعَ جميع حقِّك بالكلية كم كان على من كان ، وتقبل (. . . .)[4] منه ولا تقلده فى ذلك مِنّة .

قوله جل ذكره : ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا
أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا
لذنوبهم ، ومَنْ يغفر الذنوب إلا الله ،

---

(١) سقطت الواو فاثبتناها .

(٢) أخطأ الناسخ إذ كتبها (المطالبات) أيضاً ، ونظراً لأن المطالعة مرتبطة بالكشف والكشف مرحلة متأخرة . فقد تركنا الأولى (المطالبات) وصوبنا الثانية (المطالعات) .

(٣) وردت (قرضاً) والصواب بالفاء فهكذا يرشدنا السياق ، والشاهد الشعرى بعده .

(٤) مشتبهة .

وَلَمْ يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ﴾
أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم
وجنات تجرى من تحتها الأنهار
خالدين فيها ونِعْمَ أجر العاملين ﴾

أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام « قُلْ لِلظَّلَمَةِ حتى لا يذكرونى فإنى أوجبتُ أن أَذْكُرَ مَنْ ذكرنى ، وذِكْرِى للظَّلَمَةِ باللعنة » . وقال لظَلَمَةِ هذه الأمة :

« أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله » ثم قال فى آخر الآية : « ومن يغفر الذنوب إلا الله » .

ويقال فاحشةُ كلِّ أحد على حسب حاله ومقامه ، وكذلك ظلمهم . وإن خطور المخالفات ببال الأكابر كفِعْلها من الأغيار ، قال قائلهم :

أنت عينى وليس من حق عينى غضُّ أجفانها على الأقذاء[1]

فليس الجُرْم على البساط كالذَّنب على الباب .

ويقال فعلوا فاحشة بركونهم إلى أفعالهم ، أو ظلموا أنفسهم بملاحظة أحوالهم ، فاستغفروا لذنوبهم بالتبرى عن حركاتهم وسكناتهم علماً منهم بأنه لا وسيلة إليه إلا به ، فخلصهم من ظلمات نفوسهم . وإن رؤيةَ الأحوال والأفعال لَظُلُماتٌ عند ظهور الحقائق ، ومَنْ طَهَّره الله بنور العناية صانه عن التورط فى المغاليط البشرية[2] .

« أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم » بردِّهم إلى شهود الربوبية ، وما سبق لهم من الحسنى فى سابق القسمة .

« وجنات تجرى من تحتها الأنهار » مؤجلاً من الفراديس ، ومُعَجَّلاً فى روْح المباحات وتمام الأُنْس .

قوله جل ذكره : ﴿ قد خَلَتْ مِنْ قبلِكم سُنَنٌ فسيروا

---

(١) البيت لابن الرومى يعاتب صديقه أبا القاسم التوزى الشطرنجى .

(٢) القشيرى فى هذه الفقرة متأثر بتعاليم أهل الملامة النيسابورية الذين يعلنون حرباً لا هوادة فيها على كل دعوى للنفس حتى ليحاولون ستر حياتهم الباطنية بفعل ما يوجب ملامة الناس ، وكل ذلك فى سبيل كسر النفس وعدم استشعار العبد لأى فضل منه :

في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة
المكذبين* هذا بيان للناس وهدىً
وموعظة للمتقين ﴾

يعنى اعتبروا بمن سلف ، وانظروا كيف فعلنا بمن وَالَى وكيف انتقمنا ممن عَادَى ، وقوله تعالى « هذا بيان للناس » : بيان لقوم من حيث أدلة العقول ، ولآخرين من حيث مكاشفات القلوب ، ولآخرين من حيث تجلى الحق فى الأسرار .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تَهِنُوا ولا تحزنوا وأنتم الأَعْلَوْن
إنْ كنتم مؤمنين ﴾

يعنى إذا قلتم بالله (ووصلتم[1]) بالله فلا ينبغى أن تخافوا من غير الله ، ولا تَهِنوا ولا تضعفوا فإن النصرة من عند الله ، والغالب الله ، وما سوى الله فليس منهم ذرة ولا منهم سينة .

قوله : « إن كنتم مؤمنين » أى ينبغى للمؤمن ألا تظله مهابةٌ من غير الله .

قوله جل ذكره : ﴿ إنْ يَمْسَسْكُم قَرْحٌ فَقَد مَسَّ القومَ
قَرْحٌ مِثْلُه ، وتلك الأيام نداولها بين
الناسِ وليعلمَ اللهُ الذين آمنوا
ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب
الظالمين ﴾

إنْ نالكم فينا مشقة فالذين تقدموكم لقوا مثل ما لقيتم ، ومُنوا بمثل ما به مُنيتم ، فمن صبر منهم ظفر ، ومَنْ ضجر مِنْ حَمْلِ ما لقى خَسِر ، والأيام نُوَبٌ والحالات دُوَلٌ ، ولا يخفى على الحق شىء .

قوله جل ذكره : ﴿ وليمحِّصَ الله الذين آمنوا ويمحقَ
الكافرين ﴾ .

(١) لا نستبعد أنها (وَصُلْتُم) من صال يصول ، ويدعم ذلك حرف الجر بعده ، وكذلك السياق .

اختبارات الغيب سبك[1] للعبد فباختلاف الأطوار يخلصه من المشائب فيصير كالذهب الخالص لا خَبَثَ فيه ، كذلك يصفو عن العلل فيتخلص لله .

« ويمحق الـكافرين » فى أودية التفرقة . (وأما الزبد فيذهب جفاء)[2] .

قوله جل ذكره : ﴿ أَمْ حَسِبْتُم أن تدخلوا الجنةَ ولمَّا يعلم الله الذين جاهدوا منـــكم ويعلم الصابرين ﴾

من ظنَّ أنه يصل إلى محل عظيم من دون مقاساة الشدائد ألقته أمانيه فى مهواة الهلاك ، وإنَّ من عرف قَدْر مطلوبه سَهُلَ عليه بَذْلُ مجهوده : (... ...) وهو بلذاته على من يظن يخلع العذار)[3] وقال قائلهم :

إذا شام الفتى برق المعانى فأهونُ فائتٍ طِيبُ الرُّقاد

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد كنتم تمنَّوْنَ الموتَ مِن قبلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فقــد رأيتموه وأنتم تنظرون ﴾

طوارق التمنى بعد الصبر على احتمال المشاق ولـكن :

إذا انسكبت دموعٌ فى خُدُودٍ تبيَّن من بكى[4] ممن تباكى

قوله جل ذكره : ﴿ وما محمدٌ إلا رسولٌ قد خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُسُلُ أفإنْ مات أَوْ قُتِلَ انقلبتم على أعقابكم وَمَنْ ينقلِب

---

(١) وردت (شبك) ونرجح أنها (سبك) فالسياق يدعم ذلك .

(٢) نرجح أن هذه الآية موضوعة هنا خطأ وأن مكانها عقب (لا خبث فيه) ليتماسك المعنى .

(٣) هكذا فى (ص) والصحيح أنه :

وما جاد دهر بلذاته على من يضنُّ بخلع العذار

وهو لأبى نواس فى ملاحاة له مع مسلم بن الوليد .

(٤) جاءت فى الشطر (تبين من بق) وهى خطأ فى النسخ .

على عقبيه فلن يضر الله شيئا
وسيجزى الله الشاكرين ﴾

إن الرسل موقوفون حيثما وُقِفوا ، ومخبرون عمّا عُرِّفوا بمقدار ما عَرَفوا ؛ فإذا أُيِّدُوا بأنوار البصائر اطَّلعوا على مكنونات السرائر بلطائف التلويح بمقدار ما أُعْطُوا من الإشراق بوظائف البلوغ .

« أفإنْ مات أو قُتِلَ انقلبتم على أعقابكم » لما تُوُفِّى المصطفى ـ صلى الله عليه وسلم ـ سقمت البصائر إلا بصيرة الصديق رضى الله عنه فأَمَدَّه اللهُ بقوة السكينة ، وأفرغ عليه قوة التولى فقال . « من كان يعبد محمداً فإنّ محمداً قد مات » فصار الكُلُّ مقهورين تحت سلطان قالته لِمَا انبسط عليهم من نور حالته ، كالشمس بطلوعها تندرج فى شعاعها أنوارُ الكواكب فيستتر فيها مقادير مطارح شعاع كل نجم .

وإنما قال : « أفإن مات أو قتل » لأنه صلى الله عليه وسلم مات . وقيل أيضاً لأنه قال : « ما زالت أُكلة خيبر تعاودنى فهذا أوان قطعت أبهرى »[1] .

قوله جل ذكره : ﴿ وما كان لِنَفْسٍ أَنْ تموتَ
إلا بإذن الله كتاباً مؤَّجلاً وَمَنْ يُرِدْ
ثواب الدنيا نؤتِه منها وَمَنْ يُرِد
ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى[2]
الشاكرين ﴾ .

الأنفاس محصورة ، لازيادة فيها ، ولا نقصان منها .

« ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها » : للصالحين العاقبة وللآخرين الغفلة .

« ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها » : وثواب الآخرة أوله الغفران ثم الجنان ثم الرضوان .

---

(١) وفى البخارى بلفظ « ما أزال أجد ألم الطعام الذى أكلت بخيبر فهذا أوان وجدت انقطاع أبهرى من ذلك السم » قال المقريزى : « وهذا قاله فى مرض موته » .

(٢) أخطأ الناسخ إذ أضاف (وسيجزى الله) وقد التبس عليها ختام الآية السابقة .

« وسيجزى الله الشاكرين » : وجزاء الشكرِ الشكرُ .

قوله جل ذكره : ﴿ وكأين من نبيٍ قَاتَل معه رِبِّيُون كثيرٌ فَمَاَ وَهَنُوا لِمَا أصابهم فى سبيل الله وما ضَعُفوا وما استكانوا واللهُ يحِبُّ الصابرين ﴾ .

إنَّ الذين درجوا على الوفاء ، وقاموا بحق الصفاء ، ولم يرجعوا عن الطريق ، وطالبوا نفوسهم بالتحقيق ، وأخذوا عليها بالتضييق والتدقيق — وجدوا محبةَ الحقِّ سبحانه ميراثَ صبرِهم ، وكان الخَلَفَ عنهم الحقُّ عند نهاية أمرهم ، فما[1] زاغوا عن شرط الجهد ، ولا زاغوا فى حفظ العهد ، وسلَّموا تسليما ، وخرجوا عن الدنيا وكان كلٌّ منهم للعهد مقيماً مستديماً ، وعلى شرط الخدمة والوداد مستقيماً .

قوله جل ذكره : ﴿ وما كان قولَهُم إلاَّ أنْ قالوا ربَّنا اغْفِرْ لنا ذنوبَنا وإسْرَافَنَا فى أمرِنا ، وثَبِّتْ أقدامنا وانصُرْنَا على القومِ الكافرين ﴾ .

تحققوا بحقائق المعنى فَخَرِسُوا[2] عن إظهار الدعوى ، ثم نطقوا بلسان الاستغفار ، ووقفوا فى موقف الاستحياء ، كما قيل :

يتجنَّبُ الآثامَ ثم يخافها فكأنَّما حسناتُه آثامُ

قوله جل ذكره : ﴿ فآتاهم اللهُ ثوابَ الدنيا ﴾

وأقل ذلك القناعة ثم الرضا ثم العيش معه ثم الأُنس فى الجلوس بين يديه ثم كمال الفرح بلقائه ، ثم استقلال السرِّ بوجوده .

---

(١) أخطأ الناسخ إذ نقلها (فلما زاغوا) وهذا يخالف المعنى المراد ، والصحيح (فما) .
(٢) وردت بالحاء والصواب أن تكون بالخاء ، فالمعنى يتطلب ذلك ويقوى به .

﴿ وحُسْنَ ثوابِ الآخرة ، واللهُ يحبُّ المحسنين ﴾ .

يعنى دخولهم الجنة وهم محررون عنها ، غير داخلين فى أَسْرِها .

ويقال ثوابُ الدنيا والآخرة الغيبةُ عن الدارين برؤية خالقهما[1] .

ولمّا قال « ثواب الدنيا » قال فى الآخرة « وحسن ثواب الآخرة » فوجب أن يكون لثواب الآخرة مزية على ثواب الدنيا حيث خصَّه بوصف الحُسْن ، وتلك المزية دوامها وتمامها وثمارها ، وأنها لا يشوبها ما ينافيها ، ويوقع آفةً فيها .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا إنْ تُطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين * بل الله مولاكم وهو خير الناصرين ﴾ .

يعنى إنْ طاوعتم الأضداد جرّوكم إلى أحوالهم[2] ، فألقوكم فى ظلماتهم ، بل الله مولاكم : ناصركم ومعينكم وسيدكم ومصلح أموركم ، « وهو خير الناصرين » : لأنه يعينكم على أنفسكم ليكفيَكم شرَّها ، ومَنْ سواه يزيد فى بلائكم إذا ناصروكم لأنهم يعينون أنفسكم عليكم .

« وهو خير الناصرين » لأن مَنْ سواه يمن عليك بنصرته إياك ، وهو يجازيك على استنصارك به .

ويقال كل من استنصرتَ به احتجتَ إلى أنْ تُعْطِيَه شيئاً من كرائمك ثم قد ينصرك وقد لا ينصرك ، فإذا استنصرتَه — سبحانه — يعطيكَ كلّ لطيفة ، ولا يرضى بألا ينصرك .

قوله جل ذكره : ﴿ سَنُلْقِى فى قلوبِ الذين كفروا

---

(1) الغيبة فى المصطلح الصوفى من مقوماتها ألا يحس العبد بوارد من تذكر ثواب أو تفكر فى عقاب ، وعلى حسب الغيبة عن الخلق يكون (حضور) العبد بالحق .

(2) وردت (أحوالكم)وهذا خطأ فى النسخ .

الرعبَ بما أشركوا بالله ما لم يُنَزِّلْ
به سلطانا ومأواهم النـار وبئس
مثوى الظالمين ﴾

إنّ الله سبحانه خصّ نبيَّنا — صلى الله عليه وسلم — بإلقاءِ الرعب منه فى قلوب أعدائه ، قال عليه السلام : « نُصِرْتُ بالرعب » . فـكذلك أجرى هذه السُّنَّة مع أوليائه ؛ يطرح الهيبة منهم فى القلوب ، فلا يكاد يـكون محق إلا ومنه — على المبطلين وأصحاب الدعوى والتمويه — هيبةٌ فى القلوب وقهرٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ ولقد صَدَقَـكُمُ الله وعْدَهُ إذْ
تَحسُّونَهُم بإذنِهِ حتى إذا فَشِلْتُم
وتنازعتُم فى الأمْرِ وعَصَيْتُم مِنْ بعدِ
ما أرَاكُم ما تُحِبُّون ﴾

(إنه سبحانه يجازيك على استنصارك به ، ويقال كل من استنصرت به احتجت إلى أن تعطيه شيئاً من كرائمك ثم قد ينصرك وقد لاينصرك ، فإذا استنصرته — سبحانه — يعطيك كل لطيفة ، ولا يرضى بألا ينصرك) . (١)

الإشارة من هذه الآية إلى أن الحق سبحانه أقام أولياءه بحق حقه ، وأقعدهم عن تحصيل حظوظهم ، وقام سبحانه بكفايتهم بكل وجه ، فمن لازم طريق الاستقامة ، ولم يزغ عن حدّه ولم يزُغْ فى عهده ، فإنه سبحانه يصدق وعده له بجميل الـكفاية ودوامها ، ومن ضلّ عن الاستقامة — ولو خطوة — عثر فى مشيته ، واضطربت عليه — بمقدار جُرْمه — حاله وكفايته ، فمن زَادَ زِيدَ له ، ومن نَقَصَ نُقِصَ له .

قوله جل ذكره : ﴿ منكم مَنْ يريد الدنيا ومنكم مَنْ

---

(١) ما بين القوسين سبق وروده عند تفسير « وهو خير الناصرين » فى ختام الآية قبل السابقة ؛ ولا ندرى هل أعادها القشيرى هنا لتفسير « ولقد صدقكم الله وعده » أم أن الناسخ قد وقع فى التكرار سهواً أثناء الـكتابة ؟

يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم
ليبتليكم ولقد عفا عنكم ، والله
ذو فضل على المؤمنين ﴾

قيمة كل أحد إرادته ؛ فمن كانت همته الدنيا فقيمته خسيسة حقيرة كالدنيا ، ومن كانت همته الآخرة فشريف خطره ، ومن كانت همته ربانية فهو سيد وقته .

ويقال مَنْ صفا عن إرادته وصل إليه ، ومن وصل إليه أقبل — بلطفه — عليه ، وأزلفه بمحل الخصوصية لديه .

قوله : « ثم صرفكم عنهم » : الإشارة منه أنه صرف قوماً عنه فشغلهم بغيره عنه ، وآخرون صرفهم عن كل غير فأفردهم له ؛ فالزاهدون صرفهم عن الدنيا ، والعابدون صرفهم عن اتباع الهوى ، والمريدون صرفهم عن المنى ، والموحِّدون صرفهم عما هو غير وسوى .

قوله جل ذكره : ﴿ إذ تُصْعِدون ولا تلوُون على أحَدٍ
والرسولُ يدعوكم فى أُخراكم فأثابكم
غمّاً بغَمٍّ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم
ولا ما أصابكم والله خبيرٌ بما تعملون
* ثُمّ أنزل عليكم مِنْ بَعْدِ الغمِّ
أَمنةً نُعاساً يغشى طائفةً منكم ،
وطائفةٌ قد أهمَّتْهُم أنفُسُهم يظنون
بالله غيرَ الحقِّ ظنَّ الجاهلية يقولون
هل لنا مِنَ الأمرِ من شئٍ ، قُلْ إنّ
الأمرَ كلَّه لله ؛ يخفون فى أنفسِهم
مالا يُبْدُون لكَ يقولون لو كان لنا
من الأمرِ شئٌ ما قُتِلنا هاهنا ، قُلْ

لو كنتم فى بيوتكم لبَرَزَ الذين
كُتِبَ عليهم القتلُ إلى مضاجعهم
وليبتلىَ اللهُ ما فى صدوركم ،
وليُمَحِّصَ ما فى قلوبكم ، والله عليم
بذات الصدور ﴾ .

قوله : « إذ تصعدون » الإشارة من هذه الآية لأقوام تقع لهم فترة ، ودواعى الحق سبحانه — من أنفسهم ، ومن جميع الأقطار حتى كأنّ الأحجارَ من الشوارع واللَّبِنَ من الجدران — تناديه : لا تفعلْ يا عبدَ الله ! وهو مُصِرٌّ فى ليِّه ، مقيمٌ على غيِّه ، جاحد لِمَا يعلم أنه هو الأحقُّ والأوْلى من حاله ، فإذا قضى وَطَرَه واستوفى بهمته ، فلا محالة يمسك من إرسال عنانه ، ويقف عن ركضه فى ميدانه ، فلا يحصل إلا على أنفاسٍ متصاعدة ، وحسراتٍ متواترة ، فأورثه الحقُّ —سبحانه— وحشةً على وحشة . حتى إذا طال فى التحسُّر مقامه تداركه الحق — سبحانه — بجميل لطفه ، وأقبل عليه بحسن عطفه ، وأنقذه من ضيق أسره ، ونقله إلى سعة عفوه وفضله ، وكثيرٌ مِنْ هؤلاء يصلون إلى محل الأكابر ثم يقفون بالله لله (. . . . . .)[1] ويقومون بالله لله بلا انتظار تقريب ولا ملاحظة ترحيب .

قال تعالى : « ثم أنزل عليكم من بعد الغمِّ أمنة نعاساً يغشى طائفةً منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم ، يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية » : فأهل التحقيق والتوحيد يصلون بعد فتراتهم[2] إلى القول بتَرْكِ أنفسهم ، وغَسلِ أيديهم منهم ، ورفْع قلوبهم عنهم فيعيشون بالله لله ، بلا ملاحظة طمع وطلبة ، بل على عقيدة اليأس عن كل شىء . عليه أكَّدوا العهد ، وبدَّلُوا اللحظ[3] ، وتركوا كل نصيب وحظ ، وهذه صفة مَنْ أنزل عليه الأَمَنةَ .

فأمَّا الطائفة التى أهمتهم أنفسهم — فبقوا فى وحشة نفوسهم ، ومنْ عاجل عقوبتهم سوء

---

(١) مشتبهة .

(٢) وردت (فطراتهم) بالطاء والأصوب أن تكون بالتاء لأن الفترة وقت مقاساة ومعاناة فهى تتلاءم مع (وتجرع حسراتهم) .

(٣) اللحظ هنا معناها الملاحظة ، ملاحظة النفس أو ملاحظة العوض .

عقيدتهم فى الطريقة بعد إيمانهم بها ؛ قال تعالى : « ونقلّبُ أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة » .

والإشارة فى قوله تعالى : « هل لنا من الأمر من شىء » لهؤلاء أنهم يتحيَّرون فى أمرهم فلا إقبال لهم على الصواب بالحقيقة ، ولا إعراض بالكلية ، يحيلون فترتهم على سوء اختيارهم ، ويضيفون صفوة ـ لو كانت لقلوبهم ـ إلى اجتهادهم ، وينسَوْن ربَّهم فى الحالين ، فلا يبصرون تقدير الحق سبحانه . قال تعالى :

« قُلْ إنَّ الأمر كلَّه لله » : فَمَنْ عرَفَ أن المنشىء الله انسلخ عن اختياره وأحواله كانسلاخ الشَّعْرِ عن العجين ، وسَلَّمَ أموره إلى الله بالكلية . وأمارة مَنْ تحقق بذلك أن يستريح من كدِّ تدبيره ، ويعيش فى سعة شهود تقديره .

وقوله : « يخفون فى أنفسهم مالا يبدون لك » : لم يُخْلِصُوا فى عقائدهم ، وأضمروا خلاف ما أظهروا ، وأعلنوا غير ما ستروا ، وأحالوا الكائنات على أسبابٍ توهموها .

قال تعالى : «قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتال إلى مضاجعهم » :

أخبر أن التقدير لا يُزَاحَم[1] ، والقَدَر لا يُكابَر ، وأن الكائناتِ محتومة ، وأن الله غالب على أمره .

وقوله : « وليبتلى الله ما فى صدوركم » : فأمّا أهل الحقائق فإنه تعالى ينتزع من قلوبهم كل آفةٍ وحجبة ، ويستخلص أسرارهم بالإقبال والزلفة ، فتصبح قلوبهم خالصةً من الشوائب ، صافيةً عن العلائق ، منفردةً للحق ، مجرَّدَةً عن الخلق ، مُحَرَّرة عن الحظِّ والنَّفْس ، ظاهرةً عليها آثارُ الإقبال ، غالباً عليها حُسْنُ التَّوَلِّى ، باديةً فيها أنوارُ التجلى .

قوله جل ذكره : ﴿إنَّ الذين تَوَلَّوْا منكم يوم التقى الجمْعَانِ إنَّما استزلهم الشيطانُ ببعضِ ما كَسَبُوا ولقد عفا الله عنهم إنَّ الله غفور حليم﴾

(1) وردت بالهاء والصواب أن تكون بالحاء .

الإشارة من هذه الآية إلى أحوال من سَقِمَتْ إرادتُهم ، وضَعُفَتْ نياتُهم ، وقادهم الهوى ، وملَكَتهُم الفترة .

فأبلَهم نصحُ الناصحين ، ودعوة المنى ، ووساوس الشياطين فركنوا إلى الغيبة ، وآثروا الهوى على التُّقَى فبقوا عنه ، ولم يتهنَّوا بما آثروه عليه .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرضِ أو كانوا غُزّىً ، لَوْ كانوا عندنا ما ماتوا وما قُتِلوا ليجعلَ الله ذلك حسرة فى قلوبهم والله يُحيي ويُميت ، والله بما تعلمون بصير ﴾

مَنْ تعوَّد أن يتلهف على ماضيه وسالفه ، أو يتدبر فى مستقبله وآنفه ، فأقلُّ عقوبة له ضيق قلبه فى تفرقة الهموم ، وامتحاء نعت الحياة[1] عن قلبه لغفلته وقالته ليت كذا ولعلَّ كذا ، وثمرةُ الفكرة فى ليت ولعلَّ — الوحشةُ والحسرةُ وضيق القلبِ والتفرقة .

قوله جلّ ذكره : ﴿ ولَئِن قُتِلْتُمْ فى سبيل الله أو مُتُّم لَمَغْفِرَةٌ مِنَ الله ورحمةٌ خيرٌ مما يجمعون * ولَئِنْ مُتُّم أو قُتِلْتُم لإلى اللهِ تُحْشَرون ﴾

بذل الروح فى الله خير من الحياة بغير الله ، والرجوع إلى الله خير لمن عرف الله من البقاء مع غير الله ، وما يؤثره العبدُ على الله فغير مبارك ، إنْ شِئْتَ : والدنيا ، وإنْ شِئْتَ : والعقبى .

قوله « ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون » : إذا كان المصير إلى الله طاب المسيرُ

(١) حياة القلب عمارته بالله وقد وردت فى مطاع الإشارة التالية ، ولا يستبعد أنها (الحياء) فهى مقبوله أيضاً .

إلى الله : وإنَّ سفْرةً إليه بعدها نَحُطُّ رِحالَنا لَمُقاساتُها أحلى من العسل !

قوله جل ذكره . ﴿فَبِما رحمةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لهم ولو كنتَ
فَظًّا غليظ القلب لانفضوا من
حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ،
وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت
فتوكل على الله ، إن الله يحب
المتوكلين﴾ .

جرَّده عن أوصاف البشرية ، وأفرده بما ألبسه من نعت الربوبية ، وأخبر أن ما يلوح إليه فمن أنوار التولى ، لا من آثار الوفاق والتبرى ، ولولا أنه استخلصه بما ألبسه وإلا متى كان بتلك الصفة ؟ !

ويقال إن من خصائص رحمته — سبحانه — عليه أنْ قوّاه حتى صَحِبَهُم ، وصبر على تبليغ الرسالة إليهم ، وعلى ما كان يقاسيه من اختلافهم — مع سلطان ما كان مستغرقا له وبجميع أوقاته من استيلاء الحق عليه ، فلولا قوة إلهية استأثره الحق بها وإلا متى أطاق صحبتهم ؟ !

ألا ترى إلى موسى عليه السلام لما كان قريب العهد بسماع كلامه كيف لم يصبر على مخاطبة أخيه فأخذ برأس أخيه يجرُّه إليه ؟

ويقال لولا أنه صلى الله عليه وسلَّم شاهدهم محواً فيما كان يَجْرِى عليهم من أحكام التصريف ، وتحقَّق أن منشئها الله — لما أطاق صحبتهم .

قوله تعالى : « ولو كنت فظًّا غليظ القلب لانفضوا من حولك » : لو سقَيْتَهم صِرْفَ شراب التوحيدِ غيرَ ممزوجٍ بما فيه لهم حظٌّ لتفرقوا عنك ، هائمين على وجوههم ، غير مطيقين للوقوف لحظةً ، « فاعفُ عنهم » فيما يكون تقصيراً منهم فى حقك وتوقيرك ، وما عثرت عليه مِنْ تفريطهم فى خدمتنا وطاعتنا — فانتصِبْ لهم شفيعا إلينا .

ويقال « فاعفُ عنهم » فاعف — أنت — عنهم فإن حكمك حكمُنا ، فأنت لا تعفو إلا وقد عفَوْنا . ثم ردَّه عن هذه الصفة بما أثبته فى مقام العبودية ، ونقله إلى وصف التفرقة

فقال : ثم قِفْ فى محل التذلل مبتهلا إلينا فى استغفارهم . وكذا سُنَّتُهُ — سبحانه — مع أنبيائه عليهم السلام وأوليائه ، يردُّهم مِنْ جمعٍ إلى فرقٍ ومن فَرْقٍ إلى جمع ، فقوله : « فاعف عنهم » جمع ، وقوله : « واستغفر لهم » فرق .

ويقال « فاعف عنهم » وتجاوز عنهم فى حقوقك ، ولا تكتفِ بذلك ما لم تستغفِرْ لهم إكمالا للكرم ؛ ولهذا كان يقول : « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » .

ويقال ما يُقصِّرون فى حقِّك تعلَّق به حقَّان : حقك وحقى ، فإذا عفوتَ أنت فلا يكفى هذا القَدْرُ بل إنْ لَمْ أتجاوز عنهم فى حقى كانوا مستوجبين للعقوبة ؛ فمن أرضى خصمَه لا ينْجَبِر حالُه ما لم يغفر اللهُ له فيما ترك من أمره .

وقوله « واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر » أى أثْبِتْ لهم محلاً ؛ فإنَّ المعفوَّ عنه فى صدار الخجلة لا يرى لنفسه مقام الكرامة ، فإذا شاورتَهم أزَلْت عنهم انكسارهم ، وطيَّبْتَ لهم قلوبهم .

ويقال تجنَّسوا فى أحوالهم : فَمِنْ مُقَصِّرٍ فى حقه أُمِرَ بالعفو عنه ، ومن مرتكب لذنوبه أُمِرَ بالاستغفار له ، ومن مطيعٍ غير مقصرٍ أُمِرَ بمشاورته .

ثم قال : « فإذا عزمت فتوكل على الله » أى لا[1] تتكل على رأى مخلوق وكِلْ الأمور إلىّ ، فإنا لا نخليك عن تصريف القبضة بحالٍ .

وحقيقة التوكل شهود التقدير ، واستراحة القلوب عن كد التدبير .

« إن الله يحب المتوكلين » يذيقهم بَرْدَ الكفاية ليزول عنهم كل لغبٍ[2] وَنَصَبٍ ، وإنه يعامل كلاً بما يستوجبه ؛ فقومٌ يغنيهم — عند توكلهم — بعطائه ، وآخرون يكفيهم — عند توكلهم — بلقائه ، وقوم يرضيهم فى عموم أحوالهم حتى يكتفون ببقائه ، ويقفون معه به له — على تلوينات[3] قَدَرِه وقضائه .

---

(١) سقطت (لا) من الناسخ .

(٢) وردت (لقب) بالقاف والصواب أن تكون (لغب) بالغين ، وربما كانت فى الأصل (تعب)

(٣) اللفظة رديئة الخط ، ويحتمل أنها (تقلبات) ، وتلوين الأحوال مصحوب ـ حسب الاصطلاح الصوفى ـ بتقلب الأحوال ، ولهذا فالمعنى يتقبل كلا اللفظين .

قوله جلَّ ذكره : ﴿ إنْ ينصرْكم اللهُ فلا غالبَ لكم ، وإنْ يخذُلْكم فمن ذا الذى ينصرُكم منْ بَعْدِه وعلى الله فليتوكل المتوكِّلون ﴾ .

المؤمنون نصرته لهم بالتوفيق للأشباح ثم بالتحقيق للأرواح .

ويقال ينصركم الله بتأييد الظواهر وتسديد[1] السرائر .

ويقال للنصرة إنما تكون على العدو ، وأعدى عدوك نَفْسُكَ التى بين جنبيك . والنصرة على النَّفْس بأن تهزم دواعى مُنَّتِها بعواصم رحمته حتى تَنْفَضَّ جنود الشهوات بهجوم وفود المنازلات فتبقى الولاية لله خالصةً من شبهات الدواعى التى هى أوصاف البشرية ، وشهوات النفوس وأمانيها ، التى هى آثار الحجبة وموانع القربة .

« إن يخذلكم » الخذلان التخلية مع المعاصى ، فَمَنْ نَصَرَه قبض على يديه عن تعاطى المكروه ، ومن خَذَلَه ألقى حَبْله على غاربه ، وَوَكَلَه إلى سوء اختياره ، فيفترق عليه الحال فى أودية الشهوات ، فمرة يُشَرِّق غير محتشِم ، وتارة يُغَرِّب غير مُحترِم ، ألا ومن سَيَّبَه الحق فلا آخذ بيده ، ومن أسلمه[2] فلا مجيرَ له .

« وعلى الله فليتوكل المؤمنون » : فى وجدان الأمان عند صدق الابتهال ، وإسبال ثوب[3] العفو على هَناة الجُرْم عند خلوص الالتجاء ، بالتبرى من المِنَّة والحول .

ويقال لما كان حديث النصرة قال : « فلا غالب لكم » ، ولما كان حديث الخذلان لم يقل « فلا ناصر لكم » بل قال بالتلويح والرمز : « فمن ذا الذى ينصركم من بعده » : وفى هذا لطيفةٌ فى مراعاة دقائق أحكام الخطاب .

---

(١) من السداد .
(٢) أى أسلمه إلى نفسه .
(٣) وردت (ثواب) ، والملائم للاسبال : (ثوب) ولذلك آثرناها .

قوله جل ذكره : ﴿وما كانَ لنبيٍ أَنْ يَغُلَّ ومَنْ يَغْلُلْ يأتِ بما غلَّ يوم القيامة ، ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وهم لا يُظْلَمون﴾

نَزَّه[1] أحوال الأنبياء عن الدَّنَس بالخيانات ، فمن حَمَّلْنَاه من الرسالة إلى عبادنا يوصلها إلى مستحقيها واجباً ، ولا يعتنى بشأنِ حميمٍ له مِنْ دون أمرنا ، ولا يمنع نصيب أحدٍ أمرناه بإيصاله إليه ، بحقدٍ ينطوى عليه . ألا ترى كيف قال : « اذهب فواره » لأبى طالب لَمَّا قال له أمير المؤمنين علىٌّ رضى الله عنه : مات عمُّك[2] الضال . وكيف قَبِلَ الوحشيَّ قاتِلَ حمزة لَمَّا أسلم ؟

ويقال ما كان لنبيٍ من الأنبياء صلوات الله عليهم أن يضع أسرارنا فى غير أهلها ، بل يُنْزِلون كل أحدٍ عند ما يستوجبه ، وفى الأثر « أُمِرْنا أن نُنْزِلَ الناسَ منازلَهم »

قوله جل ذكره : ﴿أَفَمَنِ اتَّبعَ رِضوانَ اللهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ ومأواه جَهَنَّمُ وبِئْسَ المصير * هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ ، واللهُ بَصير بما يعملون﴾

لا يستوى مَنْ رضى عنه فى آزاله ومَنْ سخط عليه فخذله فى أحواله ، وجعله متـكلاً على أعماله ، ناسياً لشهود أفضاله ، واتباع الرضوان بمفارقة ما زُجِر عنه ، ومعانقة ما أُمِرَ به ، فَمَنْ تجرَّد عن المزجور ، وتجلَّد فى اعتناق المأمور فقد اتبع الرضوان ، واستوجب الجنان .

---

(١) أخطأ الناسخ فكتبها (نزح) بالحاء :

(٢) « إذهب فغسله وكفنه وواره غفر الله له ورحمه » هكذا اخرجه ابن سعد وابن عساكر عن على رضى الله عنه :

وفى السيرة الحلبية : إن هذا الحديث أخرجه أيضاً أبو داود والنسائى وابن الجارود وابن خزيمة عن على قال : لما مات أبو طالب أخبرت النبى (ص) بموته فبكى وقال :

« اذهب فغسله وكفنه وواره غفر الله له ورحمه » .

وانظر أيضاً « أسنى المطالب فى نجاة أبى طالب » لزينى دحلان ط طهران سنة ١٣٨٢ (ص ٤٤) .

« هم درجات عند الله » : أى هم أصحاب درجات فى حكم الله ، فَمِنْ سعيدٍ مُقَرَّب ، ومِنْ شَقِيٍّ مُبْعَد .

قوله جل ذكره : ﴿ لقد مَنَّ اللهُ على المؤمنين إذ بَعَثَ فيهم رسولاً مِنْ أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلالٍ مبين ﴾

أجزل لديهم العارفة ، وأحسن إليهم النعم حيث أرسل إليهم مثل المصطفى سيد الورى صلوات الله عليه وعلى آله ، وعرّفهم دينهم ، وأوضح لهم براهينهم ، وكان لهم بكل وجه فلا نِعَمَهُ شكروا ، ولا حقّه وَقَّروا ، ولا بما أرشدهم استبصروا ، ولا عن ضلالتهم أقصروا .. هذا وصف أعدائه الذين جحدوا واستكبروا . وأمَّا المؤمنون فتقلدوا المِنَّة فى الاختيار ، وقابلوا الأمر بالسمع والطاعة عن كنه الاقتدار ، فَسَعِدُوا فى الدنيا والعُقْبى ، واستوجبوا من الله الكرامة والزُّلفى .

قوله جل ذكره : ﴿ أَوْ لمَّا أصابتكم مصيبةٌ قد أَصَبْتم مِثْلَيها قُلْتُمْ أنَّى هذا قل هو من عند أنفسكم ، إنَّ الله على كل شئٍ قدير ﴾

عادة الخلْق نسيان ما منهم من الخطأ والعصيان ، والرجوع إلى الله بالتهمة فيما يتصل بهم من المحن والخسران ، وفنون المكاره والافتتان ، وإنَّ مَنْ تعاطى (. . .)[1] الإجرام فحقيق بألا ينسى حلول الانتقام .

قوله جل ذكره : ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن

(١) مشتبهة .

الله وليعلَم المؤمنين * وليعلم الذين
نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا
فى سبيل الله أو ادفعوا قالوا : لو نعلم
قتالاً لاتبعناكم ، هُمْ للكفر
يومئذٍ أقربُ منهم للإيمان ، يقولون
بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ، والله
أعلمُ بما يكتمون ﴾

هوَّن على المؤمنين وأصحاب البصائر ما لقوا من عظيم الفتنة يوم أُحُد ، بأن قال إن ذلك أجمعَ كان بإذن الله ، وإنَّ بلاء يصيب بإذن الله لمِنَ العسلِ أحلى ، ومِنْ كل نعيم أشهى .

ثم أخبر أن الذين لم يكن لهم فى الصحبة خلوص كيف تعللوا وكيف تكاسلوا :

وكذا المَلُولُ إذا أراد قطيعةً ملَّ الوصال وقال كان وكانا

قوله تعالى : « يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم » فلا جَرَم (سَقَوْا العَسَل ودَسُّوا له فيه الحنظل)[1] ، ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين .

قوله جل ذكره : ﴿الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا
لو أطاعونا ما قُتِلوا قُلْ فادرءوا عن
أنفسكم الموت إنْ كنتم صادقين﴾

الذين ركنوا إلى ما سوَّلت لهم نفوسهم من إيثار الهوى ، ثم اعترضوا على من يصرف أحكام القضاء وقالوا لو تَحَرَّزُا عن البروز للقتال لم يسقطوا عن درجة السلامة .. لَمَذْمُومَةٌ تلك الظنون ، وَلَذَاهِبَةٌ عن شهود التحقيق تلك القلوب .

---

(١) هكذا يمكن أن تقرأ هذه العبارة لو بنى الفعلان فيها للمعلوم ، أما لو بنيا للمجهول فإن الجزء الثانى منها يكون (ودس لهم فيه الحنظل) . فالفاعل فى الحالة الأولى يكون ضميرا يعود على المنافقين ، ونائب الفاعل فى الحالة الثانية يكون المولى عز وجل وما جاء فى النسخة (ص) يرجح الثانية ، وإن كنا نميل للأولى .

قُلْ لهم — يا محمد — استديموا لأنفسكم الحياة ، وادفعوا عنها هجوم الوفاة !
ومتى تقدرون على ذلك ؟ ! هيهات هيهات !

قوله جل ذكره : ﴿ ولا تَحْسَبَنَّ الذين قُتِلوا فى سبيل الله
أمواتاً بلْ أحياءٌ عند ربهم يُرْزَقون
فَرِحين بما آتاهم الله من فضلِه
ويستبشرون بالذين لم يَلْحقوا بهم
من خَلْفِهم ألاَّ خوفٌ عليهم
ولاهُمْ يَحزَنون ﴾

الحياة بذكر الحق بعد ما تتلف النفوس فى رضاء الحق أَتَمُّ من البقاء بنعمة الخلْق مع الحجبة عن الحق .

ويقال إن الذى وارثُه الحى الذى لم يزل فليس بميت — وإن قُتِل :

وإن كانت العبدان للموت أُنْشِئَتْ فقتلُ امرىءٍ فى الله — لاشكَّ — أفضلُ

قوله : « ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم » : مَنْ علم أن أحباءه ينتظرونه وهم فى الرَّفَه والنعمة لا يهنأ بعيش دون التأهب والإلمام بهم والنزول عليهم .

قوله جل ذكره : ﴿ يستبشِرون بنعمة من اللهِ وفضل
وأنَّ الله لا يضيعُ أجرَ المؤمنين ﴾

عِلَّةُ استبشارهم وموجبه فضلٌ من الله ونعمة منه ، أى لولا فضله ونعمته بهم وإلا متى استبشروا ؟ فليس استبشارهم بالنعمة إنما استبشارهم بأنهم عبادُه وأنه مولاهم[1] ، ولولا فضله ونعمته عليهم لما كانت لهم هذه الحالة .

---

(١) يقول الدقاق — شيخ القشيرى وصهره — ليس أشرف من العبودية ، ولا اسم أتم للمؤمن من الاسم له بالعبودية ، وقد وصف بها الرسول (ص) فى أشرف أوقاته فى الدنيا ، قال تعالى « فأوحى إلى عبده ما أوحى » .

لا تدعنى إلا بيا عبدها فإنه أشرف أسمائى (الرسالة ص ١٠٠)

قوله جل ذكره : ﴿ الذين استجابوا لله والرسول مِنْ
بعدما أصابَهُم القَرْحُ للذين أحسنوا
منهم واتقوا أجرٌ عظيم ﴾

للاستجابة مزية وفضيلة على الإجابة من حيث الإشارة لا من مقتضى العربية[1]. وهو أنه يستجيب طوعاً لا كرها ، فهم استجابوا لله من غير انطواء على تحمل مشقة بل بإشارة القلب ومحبة الفؤاد واختيار الروح واستحلاء[2] تحمُّل الحُكْم . فالاستجابة للحق بوجوده ، والاستجابة للرسول — عليه السلام — بالتخلُّق بما شرع من حدوده .

استجابة الحق بالتحقق بالصفاء في حق الربوبية ، واستجابة الرسول عليه السلام بالوفاء في إقامة العبودية .

« من بعد ما أصابهم القرح » : في ابتداء معاملاتهم قبل ظهور أنوار التجلي على قلوبهم ، وابتسام الحقائق في أسرارهم .

« للذين أحسنوا منهم » : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه . . . — وهو المشاهدة والتقوى — . . . فإن لم تكن تراه فإنه يراك[3] — وهو المراقبة في حال المجاهدة .

« أجر عظيم » لأهل البداية مؤجَّلاً ، ولأهل النهاية مُعجَّلاً .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين قال لهم الناسُ إنَّ الناس
قد جمعُوا لكُم فاخْشَوْهم فزادهم إيماناً
وقالوا حَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ ﴾

لم يلتَبِسْ على ظواهرهم شيء مِنْ أحوال الدنيا إلا انفتحت لهم — في أسرارهم — طوالع من الكشوفات ، فازدادوا يقيناً على يقين .

---

(١) أي على مقتضى صيغ الاشتقاق في اللغة .

(٢) في ص (استجلاء) والصواب أن تكون بالحاء .

(٣) « أعبد الله كأنك تراه . . . » رواه الطبراني عن أبي الدرداء ، وحسَّن السيوطي سنده ، وضعفه المنذري . قال الحافظ العراقي : رجاله ثقات وفيه انقطاع « أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، واحسب نفسك في الموتى ، واتق دعوة المظلوم » وفي الحلية عن زيد بن أرقم .

ومن أمارات اليقين استقلالُ القلوب بالله عند انقطاع المُنَى مِن الخَلْق فى توهم الإنجاد والإعانة .

قوله جل ذكره : ﴿ فانقلبوا بنعمةٍ مِنَ الله وفضلٍ لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رِضوانَ الله والله ذو فضلٍ عظيم ﴾

كذا سُنَّة الحق — سبحانه — مع مَنْ صَدَق فى التجائه إليه أن يمهد مقيله فى ظل كفايته ؛ فلا البلاء يمسه ، ولا العناء يصيبه ، ولا النَّصَبُ[1] يُظِلُّه .

قوله جل ذكره : ﴿ إنما ذلكم[2] الشيطان يخوِّف أولياءه فلا تخافوهم ، وخافونِ إنْ كنتم مؤمنين ﴾

الإشارة فى تسليط دواعى الشيطان على قلوب الأولياء صدق فرارهم إلى الله ؛ كالصبيِّ الذى يُخَوَّف بشيء يفزع الصبيان ، فإذا خاف لم يهتدِ إلى غير أمه ، فإذا أتى إليها آوَتْه إلى نفسها ، وضمَّتْه إلى نَحْرِها ، وألصقَتْ بِخَدِّه خدَّها .

كذلك العبد إذا صدق فى ابتهاله إلى الله ، ورجوعه إليه عن مخالفته ، آواه إلى كنف قربته ، وتداركه بحسن لطفه .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا يحزُنك الذين يُسارِعون فى الكفرِ إنَّهم لن يضروا الله شيئاً ، يريد الله ألا يجعلَ لهم حظًّا فى الآخرة ، ولهم عذابٌ عظيمٌ ﴾ .

زاد فى قوة قلبه بما جدَّدَ له من تأكيد العهد ، بأنه لا يُشْمِتُ به عدوًّا ، ولا يُوَصِّل إليه من قِبَلِهم سوءاً .

---

(١) فى ص (النصيب) والصواب (النصب) فالمعنى يتطلب ذلك .
(٢) هنا أضاف الناسخ — سهواً — لفظة (الله) فحذفناها .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ الذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضروا الله شيئاً ولهم عذاب أليم ﴾ .

إنْ أضَرُّوا فما أضروا إلا بأنفسهم ، وإنْ أصَرُّوا فما أصَرُّوا إلا على خسرانهم :

فما نحن عذَّبْنَا ببُعْدِ ديارهم ولا نحن ساقتنا إليهم نوازعُ

قوله جل ذكره ﴿ ولا يَحْسَبَنَّ الذين كفروا أنَّ ما نُملى لهم خيرٌ لأنفسهم إنَّما نُملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مُهِين ﴾ .

من تمام المكر بهم ، والمبالغة فى عقوبتهم أنَّا نعذِّبهم وهم لا يشعرون ؛ نستدرجهم من حيث لا يعلمون ؛ نملى لهم فيظنون ذلك إنعاماً ، ولا يحسبونه انتقاماً ، فإذا برزت لهم كوامنُ التقدير عند مغاراتها علموا أنهم لفى خسران ، وقد اتَّضح لكلِّ ذى بصيرة أن ما يكون سببَ العصيان وموجبَ النسيان غيرُ معدودٍ من جملة الإنعام .

قوله جل ذكره : ﴿ ما كان اللهُ ليذَرَ المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يَميزَ الخبيثَ مِنَ الطيِّبِ ، وما كان الله ليُطْلِعَكُم على الغيْبِ ، ولكنَّ الله يجتبي مِنْ رُسُلِه مَنْ يشاء ، فآمِنُوا باللهِ وَرُسُلِه ، وإنْ تؤمنوا وتتقوا فلَكُم أجرٌ عظيم ﴾ .

جمعهم اليومَ من حيث الأشخاص والمبانى ، ولكنه فرَّقهم فى الحقائق والمعانى ؛ فمِنْ طَيِّبةٍ سجيتُه ، ومن خبيثةٍ طِينَتُه . وهم وإن كانوا مشائب[1] ففي بصيرة الخواص هم ممتازون[2] .

---

(١) مشائب = أخلاط .

(٢) ممتازون هنا مرتبطة بالفعل (يميز) الذى فى الآية الكريمة أى إنهم معلومون عندنا ؛ نميز طيبهم مهما كانوا أخلاطاً .

« وما كان الله ليطلعكم على الغيب » : فإنَّ أسرار الغيب لا تظهر للمتلوثين بأدناس البشرية ، وإن الحق سبحانه مستأثر بعلم ما جلَّ وقلَّ ، فيختص من يشاء من أنبيائه بمعرفة بعض أسراره .

قوله جل ذكره : ﴿ ولا يَحْسَبَنَّ الذين يبخلون بما آتاهم
الله من فَضْله هو خيراً لهم بل هو
شرٌّ لهم ، سَيُطَوَّقون ما بَخِلُوا به
يوم القيامة ، ولله ميراث السموات
والأرضِ ، والله بما تعملون خبير ﴾

مَنْ آثر شيئاً على الله لم يبارِك له فيه ؛ فلا يدوم له — فى الدنيا — بذلك استمتاع ، ولا للعقوبة عليه — فى الآخرة — عنه دفاع .

والبخل — على لسان العلماء — منع الواجب ، وعلى مقتضى الإشارة إبقاء شىءٍ ولو ذرةً من المال أو نَفَساً من الأحوال .

قوله جل ذكره : ﴿ لقد سَمِعَ الله قولَ الذين قالوا إنَّ
الله فقير ونحن أغنياء ، سنكتب
ما قالوا وقَتْلَهم الأنبياء بغير حق ،
ونقول ذوقوا عذاب الحريق * ذلك
بما قدَّمت أيديكم وأنَّ الله ليس
بظلَّامٍ للعبيد ﴾

هذا الخطاب لو كان بين المخلوقين لكان شكوى . والشكوى إلى الأولياء من الأعداء سُنَّةُ الأحباب .

ويقال علم أن فى المؤمنين مَنْ يغتاب الناس ، وذلك قبيح من قالتهم ، فأَظْهَرَ قُبْحاً فوق ذلك ليتصاغر قبح قول المؤمنين بالإضافة إلى قبح قول الكفار ، فكأنه قال : لئن قبحت قالتهم فى الاغتياب فأقبحُ من قولهم قولُ الكفار حيث قالوا فى وصفنا ما لا يليق بنعمتنا .

وفيه أيضاً إشارة إلى الدعاء إلى الخَلْق ، والتجاوز عن الخَصْم ، فإن الله — سبحانه — لم يسلبهم ما أولاهم مع قبيح ما ارتكبوه من التقصير فى حقوقه .

قوله : « سنكتب ما قالوا » : هذه الكلمة من موجبات الخجلة لأهل التقصير بأدقّ إشارة ؛ يعنى أنهم وإنْ نَسُوا أحوالهم وأقوالهم فإنا ننشر لهم ما كتبنا عليهم قال قائلهم :

صحائفُ عِندِى للعِتاب طويتها سَتُنْشَرُ يوماً والعتابُ يطولُ
سأصبر حتى يجمع الله بيننا فإنْ نلتقِ يوماً فسوف أقول

قوله : « ذلك بما قَدَّمت أيديكم وأن الله ليس بظَلَّام للعبيد » هذا لو كان من مخلوقٍ مع مخلوق لأشبه العذر مما عمله به ، فكأنه — سبحانه — يقول : « عبدى : هذا الذى تلقاه — اليوم — من العقوبة لأن الذنب لك ، ولولم تفعله لما عذَّبتُك » .

قوله جل ذكره : ﴿ الذين قالوا إنَّ الله عَهِدَ إلينا ألا نؤمِن لرسولٍ حتّى يأتِيَنا بقُرْبانٍ تأكله النارُ قلْ قد جاءكم رُسُلٌ مِنْ قَبلى بالبيِّنات وبالذى قُلْتُمْ ، فَلِمَ قتلتموهم إنْ كنتم صادقين ﴾

تقوَّلوا على الله — سبحانه — فيما تعللوا به من تَرْكِ الإيمان ، فقالوا : لقد أُمِرْنا ألا نصدِّق أحداً إلا لو أتانا بقربان يتقرب به إلى السماء ، وتنزل نار من السماء ، فتأخذ القربان عياناً ببصر ، فقال تعالى : قلْ لهم إن من تقدَّمنى من الأنبياء عليهم السلام أتَوْكم بما اقترحتم علىَّ من القربان ، ثم لم تؤمنوا ، فلو أجبتكم إليه لن تؤمنوا بى أيضاً ؛ فإن مَنْ أقصته السوابق — فلو خاطَبَتْهُ الشمسُ بلسان فصيح ، أو سجدت له الجبالُ فرآها بلحظٍ صحيح — لم يَلِجْ العرفان فى قلبه ، وما ازداد إلا شكاً على شك .

قوله جل ذكره : ﴿ فإن كذَّبوك فقد كُذِّب رُسُلٌ مِنْ قَبلِكَ جاءوا بالبينـاتِ والزُّبُرِ والكتاب المنير ﴾ .

أى عادة الكفار تكذيب الرسل : وعلى هذا النحو درج سَلَفُهم ، وبهديهم اقتدى خَلَفُهم .

قوله جل ذكره : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذائقةُ الموتِ وإنَّما تُوَفَّوْنَ أُجورَكم يومَ القيامة فَمَنْ زُحْزِحَ عن النارِ وأُدْخِلَ الجَنَّةَ فقد فاز ، وما الحياةُ الدنيا إلاَّ متاعُ الغُرور ﴾

أى كأسُ الموت توضع على كفِّ كلِّ حيٍّ فمن تحلَّاها طيِّبَةً نفسُه أوْرَثَتْهُ سُكْرَ الوَجْد ، ومن تجرَّعَها على وجه التعبس ، وقع فى وهْدَةِ الردِّ ، وَوُسِمَ بِكَىِّ الصَّدِّ ، ثم يوم القيامة : فمن أُجير من النار وصل إلى الراحة الكبرى ، ومن صُلِّىَ بالسعير وقع فى المحنة الكبرى .

« وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » : لأن ما هو آتٍ فقريبٌ .

قوله جل ذكره : ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فى أموالِكم وأنفسِكم ولتسمَعُن مِنَ الذين أوتوا الكتاب مِنْ قبلكم ومِنَ الذين أشركوا أذَىً كثيراً وإنْ تَصْبِروا وتتقوا فإنَّ ذلك مِنْ عَزْمِ الأمور ﴾ .

كفاهم أكثر أسباب الضر بما أخبرهم عن حلولها بهم قبل الهجوم ، وعرّفهم أن خير الأمْرَيْن لهم إيثار الصبر واختيار السكون تحت مجارى الأقدار .

قوله جل ذكره : ﴿ وإذْ أخَذَ اللهُ ميثاقَ الذين أوتوا الكتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ للناسِ ولا تَكْتُمُونَهُ فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا بِهِ ثمناً قليلاً فَبِئْسَ ما يَشْتَرُون ﴾

أخبر أنهم أبرموا عهودهم أن لايزولوا[1] عن وفائه ، ولـكنهم نقضوا أسباب الذِّمام بما صاروا إليه من الـكفران ، ثم تبيَّن أنَّ ما اعتاضوا من ذهاب الدين من أعراض يسيرة لم يُبارَكْ لهم فيه .

قوله جل ذكره : ﴿ لا تَحْسَبَنَّ الذين يفرحون بما أتَوا
ويحبون أنْ يُحْمَدُوا بِما لَمْ يفعلوا ،
فلا تَحْسَبَنَّهُمْ بمفازَةٍ مِنَ العذابِ ولهم
عذابٌ أليم ﴾

إن مَنْ باشر رؤيةَ الخلْق قلبُه ، ولاَحَظهم بِسِرِّه فلا تظننَّ أنَّ عقوبتَهم مؤخرةٌ إلى يوم القيامة ، بل ليسوا من العذاب — فى الحال — بمفازة ، وأىُّ عذابٍ أشدُّ من الردِّ إلى الخلْق والحجاب عن الحق ؟

قوله جل ذكره : ﴿ ولله مُلْكُ السمواتِ والأرضِ واللهُ
على كلِّ شيءٍ قدير ﴾

الإشارة من هذه الآية هاهنا إلى غناه — سبحانه — عمَّا فى الـكون ، وكيف يحتاج إليهم ؟ ! ولـكنهم لا يجدون عنه خَلَفاً ، ولا عليه بَدَلاً .

قوله جل ذكره : ﴿ إنَّ فى خلقِ السمواتِ والأرضِ
واختلاف الليلِ والنَّهار لآياتٍ لأولى
الألباب * الذين يذكرون الله قياماً
وقعوداً وعلى جنوبهم ﴾ .

الآيات التى تعرَّف الحق سبحانه وتعالى بهـا إلى العوام هى التى فى الأقطار من العبَرِ والآثار ، والآيات التى تعرَّف بهـا إلى الخواص فالتى فى أنفسهم . قال سبحانه : « سنريهم

---

(١) وردت (ان لا يزالوا) ونرجح انها فى الأصل (ان لا يزولوا) لأن هذه مناسبة للمراد من الآية ، ومن سياق المعنى ، ولو كان حرف الجر (على) بعدها لقبلنا (لا يزالوا) .

آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم » ؛ فالآيات الظاهرة توجب علم اليقين ، والآيات الباطنة توجب عين اليقين .

والإشارة من اختلاف الليل والنهار إلى اختلاف ليالى العباد ؛ فليالى أهل الوصلة قصيرة ، وليالى أهل الفراق طويلة ؛ فهذا يقول :

شهور ينقضين وما شعرنا بأنصافٍ لهن ولا سِرار

ويقول :

صباحك سكر والمساء خمار فنمت وأيام السرور قصار

والثانى يقول :

ليالى اقر الظاعنين (. . . .) شكَوْتَ وليلُ العاشقين طويلُ

وثالث ليس له خبر عن طول الليل ولا عن قِصَرِه فهو لِمَا غَلَبَ عليه يقول :

لستُ أدرى أطال لَيْلِيَ أمْ لا ؟ كيف يدرى بذاك من يَتَقَلَّى ؟ !

لو تَفَرَّغْتُ لاستطالةِ لَيْـلِى ورعَيْتُ النجوم كنتُ مُخِلاًّ

قوله تعالى : « لأولى الألباب » : أولو الألباب هم الذين صَحَتْ عقولُهم عن سُكْرِ الغفلة . وأمارة مَنْ كان كذلك أن يكون نظرُه بالحق ؛ فإذا نظر من الحقِّ إلى الحقِّ استقام نظره ، وإذا نظر من الخَلْق إلى الحق انتكست نعمته ، وانقلبت أفكاره مُوَرِّثَةً للشبهة .

قوله تعالى : « الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً . . . » الآية :

استغرق الذكرُ جميعَ أوقاتهم ؛ فإن قاموا فبذكره ، وإن قعدوا أو ناموا أو سجدوا فجملة أحوالهم مستهلكة فى حقائق الذكر ، فيقومون بحق ذكره ويقعدون عن إخلاف أمره ، ويقومون بصفاء الأحوال ويقعدون عن ملاحظتها والدعوى فيها [1] .

ويذكرون الله قياماً على بساط الخدمة ثم يقعدون على بساط القربة .

ومَنْ لم يَسْلَمْ فى بداية قيامه عن التقصير لم يسلم له قعودٌ فى نهايته بوصف الحضور .

---

(١) القشيرى هنا مستفيد من رأى استاذه الإمام ابن فورك فى « قياماً وقعوداً » فى الآية الكريمة (الرسالة ص ١١١) .

والذكر طريق الحق — سبحانه — فما سلك المريدون طريقاً أصحَّ وأوضح من طريق الذكر ، وإن لم يكن فيه سوى قوله : « أنا جليس من ذكرني » لكان ذلك كافياً .

والذاكرون على أقسام ، وذلك لتباين أحوالهم : فذكر يوجب قبض الذاكر لما يذكره من نَقْصٍ سَلَفَ له ، أو قُبْحٍ حصل منه ، فيمنعه خجله عن ذكره ، فذلك ذكر قبض .

وذكر يوجب بسط الذاكر لما يجد من لذائذ الذكر ثم من تقريب الحقِّ إيّاه بجميل إقباله عليه .

وذاكر هو محو في شهود مذكوره ؛ فالذكر يجرى على لسانه عادةً ، وقلبه مُصْطَلَمٌ فيما بدا له .

وذاكر هو محل الإجلال يأنف من ذكره ويستقذر وصفه[1] ، فكأنه لتصاغره عنه لا يريد أن يكون له في الدنيا والآخرة (ثناء)[2] ولا بقاء ، ولا كون ولا بهاء ، قال قائلهم :

ما إن ذكرتك إلا همّ يلعننى قلبي وروحي وسري عند ذكراكا
حتى كأنَّ رقيباً منك يهتف بي إياك ويحك والتذكار إياكا

والذكر عنوان الولاية ، وبيان الوصلة ، وتحقيق الإرادة ، وعلامة صحة البداية ، ودلالة صفاء النهاية ، فليس وراء الذكر شيء ، وجميع الخصال المحمودة راجعة إلى الذكر ، ومُنْشَأَةٌ عن الذكر .

قوله جل ذكره : ﴿ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً﴾

التفكر نعمة كل طالب ، وثمرته الوصال بشرط العلم ، فإذا سلم الذكر عن الشوائب

---

(١) هذا النوع من الذكر يلتقى بتعاليم أهل الملامة النيسابورية الذين لا ينظرون لأى عمل إلا من حيث رؤية التقصير فيه .

(٢) ربما كانت (فناء) وإن كان المعنى يتقبل كليهما .

ورد صاحبه على مناهل التحقيق ، وإذا حصل الشهود والحضور سما صاحبه عن الفكر إلى حدود الذكر ، فالذكر سرمد[1] .

ثم فكر الزاهدين فى فناء الدنيا وقلة وفائها لطلابها فيزدادون بالفكرة زهداً فيها .

وفكر العابدين فى جميل الثواب فيزدادون نشاطاً عليه ورغبةً فيه .

وفكر العارفين فى الآلاء والنعم فيزدادون محبةً للحق سبحانه .

قوله جل ذكره : ﴿ سبحانك فَقِنا عذابَ النَّار ﴾

التسبيح يشير إلى سبح الأسرار فى بحار التعظيم .

قوله جل ذكره : ﴿ ربنَّا إنَّك مَنْ تُدخِل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار ﴾

مَنْ ابتليتَه فى الآجل بالحرقة فقد أخزيتَه ، ومن ابتليتَه بالفرقة فى العاجل فقد أشقيتَه ، ومن أولَيْتَه بيُمْنِ الوصله فقد آويته وأدنيته .

قوله جل ذكره : ﴿ ربنَّا إنَّنا سمعنا منادياً ينادى للإيمان أنْ آمنوا بربكم فآمَنَّا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وكفِّر عنَّا سيئاتنا وتوفَّنا مع الأبرار ﴾

يعنى أَجبْنا الداعى ولكن أنت الهادى ، فلا تَكِلْنا إلينا ، ولا ترفع ظلَّ عنايتك عنَّا .

والإيمان الدخول فى مُوجِبات الأمَان ، وإنما يؤمن بالحق من أمَّنَه الحق ، فأمَانُ الحق للعبد — الذى هو إجارته — يوجِب إيمانَ العبدِ بالحق الذى هو تصديقه ومعرفته .

---

(١) [سأل أبو عبد الرحمن السلمى الشيخ الدقاق . آلذكر أتم أم الفكر ؟
فقال الدقاق : ما الذى يقع لك منه ؟
فأجاب السلمى : عندى الذكر أتم من الفكر لأن الحق سبحانه يوصف بالذكر ولا يوصف بالفكر وما وصف به الحق سبحانه اتم مما اختص به الخلق فاستحسنه الدقاق] الرسالة ص ١١١ .
وقد ذكرنا هذه الرواية هنا : اولا لنوضح الفرق بين الذكر والفكر وثانياً لنبرر قول القشيرى : (الذكر سرمد) أى مستدام .

« وتوفَّنا مع الأبرار » : وهم المختصون بحقائق التوحيد ، القائمون لله بشرائط التفريد ، الواقفون مع الله بخصائص التجريد .

قوله جل ذكره : ﴿ ربَّنا وآتِنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزِنا يوم القيامة إنَّك لا تخلف الميعاد ﴾

حقِّق لنا ما وعدتنا على ألسنة الوسائط[1] من إكمال النُّعمىٰ (. . . . . .)[2] وغفران كل ماسبق منا من متابعات الهوى .

قوله جل ذكره : ﴿ فاستجاب لهم ربهم أنِّى لا أُضِيعُ عَمَلَ عاملٍ منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعضٍ فالذين هاجروا وأُخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقُتِلوا لأُكفرن عنهم سيئاتهم ولأُدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله والله عنده حسن الثواب ﴾

كيف لا يستجيب لهم وهو الذى لَقَّنَهُم الدعاء ، وهو الذى ضمن لهم الإجابة ، ووَعْدُه جميل الثواب على الدعاء زائدٌ على ما يدعون لِأَجْل الحوائج .

« فالذين هاجروا » : يعنى الديار والمزار ، وجميع المخالفين والموافقين من الأغيار .

« وأُخرجوا من ديارهم » : إلى مفارقة معاهدهم من مألوفاتهم .

« وأوذوا فى سبيلى » : عُيِّروا بالفقر والملام ، وفتنوا بفنون المحن والآلام .

---

(١) يقصد الرسل عليهم السلام .

(٢) مشتبهة .

« وقاتلوا وقُتِلوا » : ذاقوا من اختلاف الأطوار الحلو والمر .

« لأكفِرَنّ عنهم سيئاتهم » : يعنى لنعطينَّهم فوق آمالهم وأكثر ، مما استوجبوه بأعمالهم وأحوالهم .

قوله جل ذكره : ﴿ لا يغرنك تقلب الذين كفروا فى البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنّم وبئس المهاد ﴾

لا تتداخلنك تهمة بأنَّ لهم عندنا قدراً وقيمة إنما هى أيام قلائل وأنفاس معدودة ، ثم بعدها حسرات مترادفة ، وأحزان متضاعفة .

قوله جل ذكره : ﴿ لكن الذين اتقوا ربهّم لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله ، وما عند الله خيرٌ للأبرار ﴾

الذين وسمناهم بذُلِّ الفرقة بئست حالتهم ، والذين رفعوا قَدَماً لأجلنا فنعمت الحالة والزلفة ؛ وصلوا إلى الثواب المقيم ، وبقوا فى الوصلة والنعيم ، وما عند الله مما ادَّخرنا لهم خيرٌ مما أمَّلوه باختيارهم .

قوله جل ذكره : ﴿ وإنَّ من أهل الكتاب لَمَنْ يؤمن بالله وما أُنْزِلَ إليكم وما أُنْزِلَ إليهم خاشعين لله لا يشترون بآياتِ الله ثمناً قليلاً ، أولئك لهم أجرُهم عند ربهم * إنَّ اللهَ سريعُ الحساب ﴾

يريد منْ ساعَدَتْهم القسمةُ بالحسنى فهم مع أولياء الله نعمةً كما كانوا معهم قسمةً .

قوله جل ذكره : ﴿ يأيها الذين آمنوا اصبروا وصَابِروا

وَرَابِطوا ، واتقوا اللهَ لَعَلَّكم تُفْلِحون ﴾

الصبر فيما تفرد به العبد ، والمصابرة مع العدو .

والرباط نوع من الصبر ولكن على وجه مخصوص.

ويقال أول الصبر التصبر ، ثم الصبر ثم المصابرة ثم الاصطبار وهو نهاية[1] .

ويقال اصبروا على الطاعات وعن المخالفات ، وتصابروا فى ترك الهوى والشهوات ، وقطع المنى والعلاقات ، ورابطوا بالاستقامة فى الصحبة فى عموم الأوقات والحالات .

ويقال اصبروا بنفوسكم وصابِروا بقلوبكم ، ورابطوا بأسراركم .

ويقال اصبروا على ملاحظة الثواب ، وصابروا على ابتغاء القربة ، ورابطوا فى محل الدنوّ والزلفة — على شهود الجمال والعِزَّة .

والصبر مُرٌّ مَذاقُه إذا كان العبد يتحسَّاه على الغيبة ، وهو لذيذٌ طعمُه إذا شرب على الشهود والرؤية .

« واتقوا الله لعلكم تفلحون » : الفَلَاحُ الظَّفَرُ بالبُغْية ، وهِمَّتُهم اليوم الظفر بنفوسهم ، فعند ذلك يتم خلاصهم ، وإذا ظفروا بنفوسهم ذبحوها بسيوف المجاهدة ، وصلبوها على عيدان المكابدة ، وبعد فنائهم عنها يحصل بقاؤهم بالله .

تم المجلد الأول

ويليه المجلد الثانى وأوله سورة النساء

---

(١) يمكن أن يجد القارىء فى صنيع القشيرى حول مادة (ص ب ر) انه — وهذا شأنه دائماً — يحاول أن يؤسس المصطلح الصوفى على دعائم لغوية تعتمد على الفروق الدقيقة بين صيغ الاشتقاق المختلفة من المادة الواحدة ؛ فصيغة المفاعلة فيها المشاركة ، وصيغة التفعل فيها تكلف يلائم البداية . . . وهكذا .

فهرس

الصفحة

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقـــاهـــرة
فرع التوفيقية